أحمد صدقي الدجاني

الانتفاضة الفلسطينية وزلزال الخليج

دار المستقبل العربي

الانتفاضة

الفلســــطينية

وزلـــزال

الخليـــج

« الانتفاضة الفلسطينية وزلزال الخليج »

د . أحمد صدقي الدجاني

الغلاف : الفنان حسين أبو زيد

الناشر : دار المستقبل العربي

٤١ شارع بيروت – مصر الجديدة

تليفون : ٢٩٠٤٧٢٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٩٠٨٨ / ١٩٩١

الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧ — ٢٣٩ — ٠٢٣ — X

مقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، مالك يوم الدين ، الذي يهدي الصراط المستقيم ، مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ؛ جعل الدار الآخرة للذين لايريدون علواً في الأرض ولا فساداً ؛ ورفع السماء ووضع الميزان وأمر عباده ألا يطغوا في الميزان وأن يقيموا الوزن بالقسط ولا يخسروا الميزان ؛ أنذر بالويل المطففين الذين هُمْ إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ؛ نبّه الناس الى سنته في الذين خلوا من قبل وهو القائل « ولن تجد لسنة الله تبديلاً » وكان أمر الله قدراً مقدوراً » ، الخالق الذي كرّم بني آدم ، وكتب على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ، وأمر المؤمنين بتقوى الله والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس والصبر والمصابرة والمرابطة وأن يكونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنّهم شنآن قومٍ على ألا يعدلوا ؛ العليم الحكيم الذي ينزِّل السكينة على قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم . والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله وخاتمهم محمد ابن عبد الله الذي أسرى به ربه من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى وأرسله رحمة للعالمين . وأستفتح بالذي هو خير .

أما بعد .. فهذا هو الكتاب الرابع الذي أصدره عن الانتفاضة الفلسطينية متضمناً أحاديثي الأسبوعية وبحوثي التي كتبتها بين صيف عام ١٩٩٠ وصيف عام ١٩٩١ وعالجت فيها الأحداث الجارية وما طرحته من قضايا في وطننا العربي الكبير .

سيذكر التاريخ هذا الحول مقترناً بالأزمة التي نشبت يوم الخميس الثاني من آب / أغسطس من عام ١٩٩٠ وتفاقمت على مدى خمسة شهور ونصف الشهر ، ثم تفجرت حرباً طاحنة يوم الخميس السابع عشر من كانون الثاني / يناير من عام ١٩٩١ استمرت ستة أسابيع حتى يوم الخميس الثامن والعشرين من شهر شباط / فبراير حين توقفت العمليات القتالية ، وأعقبتها تفاعلات حادة لا تزال تفعل فعلها على صُعُدٍ مختلفة . ولقد استمرت الانتفاضة في هذه الفترة وسط ظروف بالغة الصعوبة والتعقيد ، وأكملت يوم التاسع من كانون أول / ديسمبر ١٩٩٠ عامها الثالث .

كان طبيعياً أن أولي الواقعة التي وقعت في الخليج إثر اجتياح الجيش العراقي الكويت عناية كبرى، فقد بدا لي الحدث منذ أن سمعت الخبر حدثاً جللاً له ما بعده من تداعيات ومضاعفات . وهكذا تابعته ونصب عيني في الوقت نفسه الإنتفاضة وروح الإنتفاض في الأمة والتفاعل الحادث بين ما كان يجري في الخليج وما كان يجري في فلسطين المحتلة . فهذا الكتاب إذن يتناول بالمعالجة « الإنتفاضة وزلزال الخليج » .

لقد اتخذت قراري بإصدار هذا الكتاب في هذه الفترة متضمناً أحاديث « الإنتفاضة وزلزال الخليج » بعد أن فكرت ملياً فيه . قلت لنفسي « لقد كتبتَ ما كتبتَ وأنت تعيش الحدث . ونحن الآن في مرحلة ما بعد الحدث ، فالمناخ النفسي تغيّر » . وقلت لنفسي « إن الخلاف الذي نشب في الأمة

بسبب الأزمة والحرب لايزال محتدماً، وهو يوجِد جواً يجعل البعض المستقطب لا يرغب سماع الحديث الذي يتوخى الموضوعية » . وقلت لنفسي « إن كل يوم جديد يمرّ يكشف عن جزء آخر من القسم المغطى بالماء من الجبل الجليدي ، فلماذا الاستعجال في النشر » . وانتهيت من التفكير الى أنني أقصد من نشر هذا الكتاب أن يتضمن شهادة كاتبه عن هذه الفترة من تاريخ أمتنا من خلال تتبعه لها أسبوعياً ، لعل هذه الشهادة تسهم في تجاوز التمزق النفسي الذي عانى منه الكثيرون بسبب الزلزال الى الصفاء والتغلب على التشوش الفكري والوصول الى وضوح الرؤية ، والحث على الخروج من التردد والإحجام الى الفعل ، وتكون في متناول المؤرخ الذي سيؤرخ هذه الفترة ..وتذكرتُ أنني حين بدأت الأزمة ، رفعت شعاراً بشأن الحديث عنها حرصت على الالتزام به ، هو الآية الكريمة « لا خير في كثير من نجواهم ، إلاّ من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » . وقد جعلت نصب عيني وأنا أكتب أحاديثي الدعوة الى احترام حقوق الإنسان ومقاومة انتهاكها ، والدعوة الى تجنب الحرب وإنقاذ العالم من ويلاتها ، والدعوة الى الحفاظ على حدٍّ أدنى من وحدة الأمة واستحضار الانتماء الواحد لها ، والدعوة الى مواجهة الطغيان من أيٍ كان والتحذير من إغواء غطرسة القوة . وحرصت على أن تكون معالجتي لذلك كله منطلقة من النظر الى الأمة بمختلف أطرافها كوحدة واحدة .

أراجع ما كتبت عن « الانتفاضة وزلزال الخليج » ، فأجد أنني اعتمدت منهجاً محدداً حين باشرتُ حديثي الأسبوعي عن الأزمة التي نشبت ، حاولت من خلاله الإجابة عن خمسة أسئلة هي « ماذا حدث ؟ ولماذا حدث ؟ وما هي مضاعفات ماحدث وتداعياته ؟ وما هو الموقف منه ؟ وماذا ينبغي أن نعمل درءاً لمفاسد وجلباً لمنافع ؟ » وأجد إنني أولَيْتُ عناية خاصة للبعد الدولي في الأزمة تقديراً مني لأهميته،دون إغفال البعدين المحلي والاقليمي ، وهذا

ما دعاني الى أن أباشر دراسة « في أزمات عصرنا العالمية » ونصب عيني استذكار دروس هذه الأزمات وعبرها في تعاملنا مع أزمة الخليج . كما أوليت عناية خاصة لتتبع جذور المشكلات التي سلطت الأزمة أضواء كاشفة عليها ولفتت الأنظار الى ملفاتها . وقد عنيت أيضاً بمعالجة مضاعفات الأزمة وتداعياتها على الصُعد المختلفة ، وتوقفت بخاصة أمام ما عانيناه من « دعايات إعلام الأزمة » ومن « الإجراءات » التي اتخذت تحت وطأتها . وأجد أنني حرصت إبان فترة الأزمة التى امتدت خمسة شهور ونصف قبل أن تتفجر حرباً ، على أن اكتب عن « الانتفاضة بمناسبة دخولها العام الرابع » ، وأن اتابع أوضاع لبنان حين وصلت بداية مرحلة جديدة تبشر « بتفتح شقائق النعمان » ، وأن أتناول موضوع « الطفولة بمناسبة انعقاد قمة عالمية » بشأنها . وكنت في ذلك كله حريصاً على اعتماد النظرة الشاملة للأزمة بأبعادها المحلية والاقليمية والدولية .

كان آخر أحاديثي في فترة الأزمة عن « الحرب والسلم » يتضمن صيحة أخيرة لتجنب الحرب وأذكر أنني حين اخترت عنوانه قدمتُ « الحرب على السلم » مضطراً بعد أن أحسست بأن زمام الأمور فلت ، وأن التفجر سيحدث . وقد تابعت في اسبوعيات الحرب الدعوة إلى « العمل لايقاف حرب مدمرة » وبدأت كتابة رؤيتي المستقبلية لما بعد الحرب بشأن قضية فلسطين وتسويات مابعد الحرب ومواجهة غطرسة القوة .

لقد أصبح همي بعد إعلان الولايات المتحدة الأمريكية وقف العمليات القتالية يوم ١٩٩١/٢/٢٨ أن أتحدث عن معالجة أثر الحرب علينا كأمة . واستجبت للمشاركة في عدة ندوات علمية حول هذا الموضوع بكتابة بحوث . وضمّنت حديثي عن « غذاء النفس في أعقاب حرب » تجربتي الذاتية ، وتذكرت كيف أنني لجأت في أعقاب نكسة عام ١٩٦٧ إلى كتابة

مسرحية « هذه الليلة الطويلة » لاتغلب على حالة التمزق النفسي التي سادت بسبب النكبة وأحقق الصفاء . كما كتبت عن نهوض الفكر العربي بمسؤولياته للخروج من حالة التشوش الفكري إلى وضوح الرؤية . وقد صرفت وقتاً طويلاً في دراسة « توجه الكيان الصهيوني بعد الحرب » ودراسة « الأمم المتحدة أمام الإختبار الصعب » . وحرصت على أن أتحدث عن رؤية عربية لحال الأمة تتضمن مراجعة النفس ومحاولة الإجابة عن سؤال ما العمل ، بعد انعقاد المؤتمر العربي الثاني .

رأيت بعد هذه المراجعة أن أرتب أحاديثي وبحوثي وفق تسلسلها التاريخي وفاءً بفكرة الأسبوعيات ، ضمن ثلاثة أقسام هي قسم أسبوعيات أزمة الخليج ، وقسم أسبوعيات حرب الخليج ، وقسم أسبوعيات مابعد حرب الخليج . ووجدت من المفيد أن يتضمن الكتاب مدخلاً يضم أحاديثاً كتبتها قبيل الأزمة ولم أنشرها في كتابي الثالث عن الإنتفاضة ، لأنها وثيقة الصلة بالموضوع . وكنتُ كتبتُ « قراءة نفسية للإنتفاضة » إبان سَنَتِها الثالثة لتعمق فهم « روح الإنتفاض » التي اتحدث عنها في كتاباتي وقد فعلت هذه الروح فعلها إبان الأزمة والحرب . كما كتبت « المجتمعات الصغيرة والعمل الأهلي » ضمن دعوة للعمل الأهلي الطوعي الذي عرفناه في حضارتنا العربية الإسلامية وهو عماد مايسمى اليوم « المجتمع المدني » ، وهذا العمل وثيق الصلة بروح الانتفاض . وكتبت دراستي عن تحولات أوروبا الشرقية لقراءة عنصر حيوي في المتغيرات الدولية التي ظهرت نتائجها بوضوح في زلزال الخليج . وكتبت أحاديثي عن زيارتي للإتحاد السوفييتي ضمن وفد برلماني عربي قبيل نشوب الأزمة مباشرة ، وقد أتاحت لي هذه الزيارة أن أُعمِّق تلك الدراسة . ورأيت أن أختم المدخل بحديثي إلى جريدة الرأي العام الكويتية عن مجمل الأوضاع في المنطقة كما بدت في صيف ١٩٩١ بعد قمة بغداد الاستثنائية لأنه يمهّد تمهيداً

مناسباً لأحاديث الأزمة .

تأملت اثناء مراجعتي ماكتبت في عملية تكوّن أفكاري بشأن « الانتفاضة وزلزال الخليج » فوجدت أنني كنت حريصاً على متابعة مجريات الأحداث يوماً بيوم . كما كنت حريصاً على تحليل الأحداث في مناقشات متعمقة مع زملاء مختصين في عدة مجالات . وقد تنوعت مصادر المعلومات التي وصلتني فكان منها ما تذيعه وكالات الأنباء وماتنشره كبريات الصحف الأمريكية وماتتضمنه تقارير مختصة عالمية وماتتداوله محافل دائرة المعنيين من الخاصة العرب . وكان حرصي شديداً على تمحيص كل معلومة ، وكم أفادتني المناقشات مع الزملاء المختصين التي كنت أشارك فيها يومياً ، كما وسَّع دائرة الرؤية عندي الحوار الذي كان يدور في أعقاب محاضرات ألقيتها وفي أثناء ندوات شاركت فيها .

لقد استقر رأيي أن أسمي هذا الكتاب « الإنتفاضة وزلزال الخليج » . وكنت قد استخدمتُ لفظ « الزلزال » في أعقاب حوار عربي سوفييتي شاركت فيه للدلالة على عظم التحولات التي سمعنا عن نذرها في ذلك الحوار الذي نظمه منتدى الفكر العربي يوم ١٩٨٨/٣/١٦ بعمان . وقد شاع مصطلح « زلزال أوروبا الشرقية » بعد أن إستخدمه كاتب عربي مشهور . وأجدني اليوم أُفضل استخدام مصطلح « الزلزال الخليجي » للدلالة على عظم التحولات التي حدثت بفعل الأزمة والحرب .

بقي أن أشير إلى أن هذه الأحاديث والبحوث نُشرت في عدد من الصحف العربية اليومية والدوريات الشهرية . وأود أن اشكرها جميعاً على كريم تعاونها ، ولكني أخص جريدة الخليج من بينها بالذكر لأنها كانت بموضوعيتها وهويتها ودأبها الدافع الرئيسي على الانتظام في كتابة اسبوعياتي .

وسيلاحظ القارىء الكريم أنني استهللت هذه المقدمة بفاتحة استلهمتها من تراثنا تتضمن « البسملة والحمدلة والصلصلة » من عناصر الخطاب المؤمن ، ومعانٍ تشير إلى مضمون الكتاب . وكنت قد كتبت إبان الأزمة دراسة عن « فواتح الكتب في تراثنا » ترد الإشارة اليها في الأسبوعيات أوصلتني إلى تحبيذ استلهام الفاتحة التراثية ، وسأنشرها بإذن الله في كتابٍ آخر . وأود أخيراً أن اشكر دار المستقبل العربي على عنايتها بنشر الكتاب .
والله ولي التوفيق ،،،

أحمد صدقي الدجاني

مصر الجديدة تموز يوليو ١٩٩١

محرم ١٤١٢

مدخـــل

قراءة نفسية للإنتفاضة

ماهي القراءة النفسية للإنتفاضة ؟

وجدت نفسي مشغولاً بمحاولة الإجابة عن هذا السؤال الذي ألح عليّ هذه الآونة . وبدا لي أن من أسباب إلحاحه استماعي إلى تقارير وافية عما يجري في وطننا المحتل على مدى ساعات كثيرة ، ومشاركتي في مناقشة مُستفيضة حول كيفية مواجهة الخطر المحدق بنا والاستجابة لتحديات التحالف الأمريكي الإستراتيجي المتتالية لنا ، وتأملي بخاصة فيما أقدم عليه الكونجرس الأميركي بمجلسيه باسم شعب الولايات المتحدة من تعد على قدسنا مسّ أعماق وجدان شعوبنا في أعز ماتؤمن به وتقدسه، وجسّد أمامها معاني الظلم والجور والطغيان التي يمارسها هذا التحالف ، وأشعرها بمدى استهتار أعضاء الكونجرس بها وامتهانهم لمشاعرها وإنكارهم لحقوقها وعدائهم لها . الأمر الذي يطرح العامل النفسي في الصراع . كما بدا لي أيضاً أن لبعد الزمان أثره في إلحاح السؤال علي ، فقد دخلت انتفاضة شعبنا العظيمة شهرها التاسع والعشرين ونحن نعيش في رحاب شهر رمضان المبارك الذي توافق هذا العام مع شهر نيسان ابريل ، ونستحضر ذكرى يوم العاشر من رمضان ومعركة القسطل ومذبحة دير ياسين والغارة على بحر البقر واغتيال الشهيد أبي جهاد ، ونحتفل بعيد الفصح المجيد وعيد الفطر المبارك ، ونتذكر زواج بعل بعشتار في أساطير أجدادنا الكنعانيين

الذي أثمر خضرة الربيع وظهور زهرة شقائق النعمان الحمراء التي تعبّر عن دم نعمان (تموز أو ادرنيس) . فنحن أمة ممتدة الجذور في وطنها وهي تدرك في أعماقها أبعاد معنى الفداء ، وتستّمد منه قوة نفسية تمكنها من الصمود أمام العدوان وهزيمته .

★ ★ ★

وجهت السؤال الى صديقي الطبيب النفسي الذي اسعدتني زيارته المفاجئة لي ، قائلاً له « لقد صدرت في أوساطنا العربية قراءة فكرية للإنتفاضة وقراءة سياسية وقراءة اقتصادية اجتماعية ، وأود أن أسمع منك عن القراءة النفسية لها » .

أجاب الصديق « أود أن أتفق معك بداية حول وجود قراءة نفسية للإنتفاضة . وقد حرصت بحكم تخصصي ومن موقعي في عيادتي النفسية أن أقوم بها . وأذكر أنني في مطلع عام ١٩٨٧ وصلت إلى رؤية بأن الانتفاضة واقعة لامحالة ، وطرحت هذه الرؤية على صحفي غربي كان يعد كتاباً عن الضفة والقطاع . وهكذا أوصلتني القراءة النفسية إلى ما أوصلتك إليه القراءة الفكرية السياسية وضمنتها كتابك « مستقبل الصراع » .. ودعني اقص عليك الحادثة التي انضجت رؤيتي هذه فقد دخل عليّ الممرض ليعلمني بأن في العيادة شاب يريد أن يراني ويرفض دفع رسم الاستشارة ، فطلبت من الممرض أن يدخله ، ورأيت أمامي شاباً في العشرين من عمره يتدفق قوة وعيناه تقدحان ويتميز بوسامة ظاهرة فرحبت به وقال لي بعد أن دعوته للجلوس « أنا لست مريضاً ولذلك لم ادفع الرسم . وقد جئتك لأني اثق بك كي اطلب منك مساعدتي في الحصول على سلاح » . عند هذا الحد وجدت من الضروري أن أكوّن حكماً أولياً على الشاب هل هو في كامل قواه العقلية أم أنه يعاني من مرض نفسي أو عقلي . وما أسرع ماتأكد لي بعد أن بدأ يرد على اسئلتي أنه

عاقل يتميز بمنطق متماسك . وكان مجمل ماقاله « الإنفجار هو الحل لكل مشكلاتنا في ظل الإحتلال . وهو أيضاً الرد على إذلال العدو لنا . أنا شاب لامستقبل لي اذا لم أنفجر واصنع مستقبلي ، لااستطيع الدراسة الجامعية مع أني تفوقت في دراستي الثانوية . ولا أجد عملاً . ويتعذر عليّ أن اتزوج ولم أعد اتحمل الإهانات اليومية التي يوجهها لي جنود من عمري . أعلم أني سأموت حين ننتفض ولكنني أموت قرير العين بعد أن أواجههم وارفع سلاحي في وجوههم . وماأروع الإستشهاد » . لقد نبهني حديث الشاب إلى أحاديث سمعتها من شباب آخرين سمعتها على مدى الشهور السابقة ، فتأكد لدي أني أمام ظاهرة نفسية أوجز وصفها بأنها « رفض حاسم للواقع وعزم على عمل شيء لتغييره وتراجع للخوف من العدو مع إقدام حل محله و« إيمان » لا يهتز يتميز به سن الشباب » . وأذكر أني رأيت في تلك الفترة وأنا أسير في الشارع مثالاً على هذه الظاهرة ، حين تحرش مجموعة جنود اسرائيليين بشاب ووجهوا له إهانات وهم يطلبون هويته ، فرد عليهم الصاع صاعين ، وحين رفع آمرهم بندقيته ووجهها إليه ليخيفه اذ بالشاب يفتح قميصه بقوة كاشفاً عن صدره وصارخاً فيه « إطلق النار » وتجمع الناس واضطر الجنود إلى الانسحاب .

قلت لصاحبي « إذن هي ظاهرة فيها سقوط حاجز الخوف من العدو ، وفيها العزم على مواجهته ، وفيها الاعتقاد بأن الحياة الحرة طريقها الموت والشهادة . وهي تتكون بفعل جرائم الإرهاب الصهيوني اليومية التي يقترفها بممارساته » .

قال صاحبي « كان طبيعياً أن تعم هذه الظاهرة كثيرين من شبابنا ، وبخاصة أؤلئك الذين خبروا دخول المعتقلات ومااكثرهم ، فهؤلاء عرفوا أبشع أنواع القمع وصمدوا أمامه فلم يعودوا يخافون سجانيهم » .

تذكرت عند هذا الحد تقريراً نشرته جريدة دافار يوم ١٩٩٠/٢/٢٧ عن الزيارة التي قام بها أعضاء لجنة الداخلية التابعة للكنيست لمعتقل لواء القدس يرافقهم عدد من الإعلاميين لأول مرة ، ويبدأ التقرير بالقول « بدت صورة المعتقل الداخلية صعبة للغاية وشديدة السواد . فالاكتظاظ داخل المعتقل مفزع والشروط الحياتية لاتطاق وأبسط مافيها العتمة المخيمة والرطوبة الشديدة وساعات الزيارة القصيرة وسيادة التوتر » ويختم التقرير بالقول « ان الوضع داخل المعتقل يسير نحو نقطة انفجار سيصل اليها لا محالة في يوم ما » . وقد لفت إنتباهي في هذا التقرير أن شاغل معديه الصهاينة العنصريين كان « نفسيات رجال الشرطة الاسرائيليين » من السجانين الذين كما قال الطبيب فيسمان المشرف على المعتقل « لايستطيعون تحمل الضغط النفسي لأنهم يعملون في مثل هذه الشروط .. وقد نضطر إلى إبعادهم عن المعتقل بعد فترة . وحين يشرع أحد رجال الشرطة في الصراخ على المعتقلين وضربهم بعنف أسارع بإرساله إلى مؤسسات العلاج النفسي ولاأنتظر حتى يصل مرحلة الجنون » . كما لفت إنتباهي قول ذلك الفتى الفلسطيني « القاصر » الذي أمضى أربعة شهور في المعتقل بتهمة رشق الحجارة « نعم أعاني من الزيارة القصيرة ووقت ؟الفسحة والبرد القارس ، ولكنني لست نادماً على رشق الحجارة » .

★ ★ ★

قال صديقي الطبيب النفسي وهو يتابع القراءة النفسية للإنتفاضة « ظاهرة أخرى استوقفتني بعد أن بدأت الانتفاضة . فقد لاحظت أن عيادتي لم يَعد يأتيها شباب مدمن . وكانت ظاهرة الإدمان قد تفاقمت في السنة السابقة بشكل لم نعرفه في مجتمعنا . وقد تأكد لدينا حين درسناها أنها انتقلت الينا من أوساط العدو الذي يعاني من انتشارها عبر « عملاء » يروجون مختلف أنواع

المخدرات . ولاحظنا أنها انتشرت بين الشباب العاطل عن العمل الذي حرم من استكمال دراسته . وما أن بدأت الانتفاضة حتى تحول كل الشباب اليها ، ومنهم هؤلاء الذين كانوا واقعين فريسة الإدمان ، فإذا بهم « يتطهرون » ، واذا بالانتفاضة تلاحق « العملاء » من مروجي المخدرات ، واذا بالمجتمع المنتفض يقضي على ظاهرة الإدمان . ومأروع الشباب حين يوظف طاقاته ، ومأعظم استعداده للطهارة والنقاء والصفاء » .

قلت لصاحبي « هي إذن ظاهرة « التطهر » بالانتفاض . ويلفت النظر في بروزها أنها تظهر بعد أن يعاني المجتمع من خلل في السلوك يتنافى مع قيمه . وقد رأيناها في عدة مواقع من فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ . ومازلت أذكر ذلك التحرك الذي قام به مجموعة من شباب البدو من النقب في بئر السبع وتابعته الصحف الاسرائيلية ، الذي نجح في القضاء على انتشار آفة الخمر في أوساطهم وحوّلهم إلى بناة لمجتمعهم ينطلقون من المسجد للعمران . فهناك أيضاً رأينا التطهر .

قال صاحبي « وهكذا رأينا الظاهرتين في أوساط الشباب . وكأنا بجيل الشباب ومايتصف به من صفات يمثل في المجتمع ولادة جديدة ، ويزوده بطاقة نفسية هائلة . ومأعظم ماتصنعه هذه الطاقة اذا حددت لنفسها تحقيق أهداف أمتها وإذا وجدت القيادة الرشيدة التي تقدم النموذج والقدوة . ولعلك تذكر أن مناخ الانتفاض بلغ درجة النضج بعد عملية الشراع الطائر التي قدَّم فيها شاب مثلاً على مواجهة العدو جسّد فيه أروع صور البطولة .

تذكرت عند هذا الحد متابعتي بالدراسة « جيل الشباب » وما كتبته عنه حين يتلقى « العلم برؤية مؤمنة » ، وإقبالي خلال الشهور الثلاثة الماضية على قراءة عدة أعمال أدبية أبطالها من سن الشباب ، ومنها كتاب « عيد ميلاد

جديد » الرواية الجديدة لاليكس هيلي الأديب الأميركي الأسود صاحب رواية جذور الشهيرة ، وقد أبدع فيها تصوير « تطهر » الشاب من مرض « العنصرية » وإقباله على الجهاد ضدها ومواجهة أقطابها ومنهم والدهُ، ولكن أروع هذه الأعمال هو رواية حنامينه أديبنا العربي « الشمس في يوم غائم » وهي تستحق حديثاً خاصاً ، وماأروع رموزها وبخاصة رمز « رقصة الخنجر » .

* * *

لقد تابعت القراءة النفسية للإنتفاضة مع قيادي ممارس من منطقة نابلس التقيت به مؤخراً أثناء زيارة قصيرة قام بها لعمان . وكان شاغلي أن أعرف الى أي مدى تلاحم المجتمع مع جيل الشباب في انتفاضته ، وإلى أي مدى نجح جيل الشباب في التواصل مع جيل الكهولة . وقد أجابني قائلاً « لقد تبنى المجتمع كله الإنتفاضة ، ورفع لواء قيمها ، وسلّم الشيوخ والكهول للشبيبة أمر مواجهة العدو عن اقتناع معتبرينهم ناطقين بألسنتهم معبرين عما يختزنوه في أنفسهم . ولابد من التنويه هنا بدور المرأة جدّة وأمّاً في التلاحم بفلذات أكبادهم . أما جيل النماء من الأطفال وجيل الحداثة من الفتيان اليافعين فقد تربوا في ظل الانتفاضة على قيمها فسجلوا بطولات الحجارة . ولقد فهمت ماترمي اليه من سؤالك الثاني ، والحق أن نقصاً في التواصل بين جيل الشباب وجيل الكهولة حدث في بعض الأحيان ، ونجم عن ذلك بعض الظواهر السلبية ، ولكن ماأسرع ماحدث تلافي هذا النقص ، ونحن الآن في سبيل إيجاد صيغ مؤسسية له . ولاتنس اننا نعمل جميعاً في ظروف بالغة الصعوبة و« محاولات العدو التخريبية لاتتوقف » .

قلت للقيادي الممارس « لقد أوضحت لنا القراءة النفسية للإنتفاضة بروز ظاهرة سقوط جدار الخوف وظاهرة التطهر بالعمل الصالح، فإلى أي مدى

برزت ظاهرة التنظيم المؤسسي ؟ » وقد أجابني قائلا « هي في طريق النضج على الرغم من الظروف بالغة الصعوبة . وقد حدث مؤخراً بعد أن بذل جهد خاص لاستكمال صيغة مؤسسية أن قام العدو باعتقال العشرات من القياديين . ومع ذلك فالإنتفاضة مصممة على إبداع مؤسساتها وقد نجحت في بناء عددٍ منها . وهي تقرن جهدها في هذا المجال بجهدها في مجال الانتاج . ألا ترى كيف تقدمنا خطوة كبيرة في طريق تنظيم الاضراب بحيث لايخل بالانتاج ؟ ، وكيف عاد أهلنا في القرى والنجوع إلى قيم الإنتاج ونبذوا القيم الاستهلاكية ؟

عند هذا الحد تذكرت دراستي لما يمكن للمجتمعات الصغيرة أن تقوم به لحل مشكلاتها ، وماتتميز به من قدرة على تنظيم نفسها « والناس أعلم بشؤون دنياهم » ، والإنجاز العظيم الذي يتحقق حين يتكامل دور المجتمعات الصغيرة مع دور الدولة .

★ ★ ★

ثلاث ظواهر نخرج بها من القراءة النفسية للإنتفاضة ، وهي تكشف لنا عن روح الإنتفاض ، وتبين لنا أن للعامل النفسي في الصراع أثره الفعال ، وأن ماتختزنه أمتنا في أعماقها وما تمتلكه من طاقة شبابية فيها ونصفها من جيل الشباب كفيل بأن يعمم هذه الظواهر الثلاثة في الأمة استلهاماً لروح الانتفاض ، لتتابع مواجهة العدو حتى يسلّم بحقوقنا . ولقد تجسد لي هذا العامل النفسي وأنا اقرأ مانشرته جريدة حداشوت يوم ١٩٩٠/٢/٢٨ بقلم ميخال كيدم عن الزوجين الفلسطينيين الذين رزقا بطفلة يوم ٩٠/٢/١٩ « جميلة سوداء الشعر والعينين كثيرة الصياح » سمّياها « إنتفاضة » وأصرا على هذا الاسم حين رفضت الادارة المدنية الاسرائيلية تسجيل المولودة ، وقال والدها « سأكون أول أب لطفلة تدعى « انتفاضة » . وكان بعض الأهل قد سموا في الأعوام الماضية بناتهم باسماء « فلسطين » و« تحرير » و« ثورة »

فضلاً عن جهاد ونضال وكفاح . وقد ختم كيدم مقاله « إن الجدل حول الأسماء لم ينته بعد وهناك في الحي نفسه أربعُ نسوة حاملات تعهدن اذا رزقهن بإناث أن يسميهن انتفاضة ، والإدارة المدنية تقول في معرض تبريرها لرفض التسجيل ماذا سنقول اذا قرر أحد السكان تسمية ابنه « الموت للجنود » .

هناك دلائل كثيرة تدل على أن هذا العامل النفسي بظواهره الثلاثة سيفعل فعله في صياغة الرد العربي الإسلامي على ما أقدم عليه الكونجرس الأميركي . وهو رد مطلوب أن يكون شعبياً بدعم رسمي ليكون من نوع الفعل وما أعظم مانستلهمه من الانتفاضة وسط الذكريات التي يوحي بها بُعد الزمان في شهر رمضان الموافق لشهر نيسان ، وما نستمده من قوة نفسية تحثنا على التصدي للعدوان .

المجتمعات الصغيرة والعمل الأهلي الطوعي

يلح عليَّ التفكير ــ مرةً أخرى هذه الأيام ــ في أمر المجتمعات الصغيرة في رقاعها الصغيرة من حارة أو محلة أو قرية أو نجع ، ودورها من خلال العمل التطوعي الأهلي في المشاركة إلى جانب الدولة في معالجة مشكلات الحياة المعاصرة ليس على الصعيد المحلي فحسب بل على الصعيد العالمي أيضاً . وقد وجدت نفسي وأنا أقضي سهرة رمضانية في معرض الكتب قرب الأزهر مقبلاً على شراء ما تقع عليه عيناي من كتب في هذا الموضوع ، ثم لا ألبث في اليوم التالي أن أقبل على قراءتها بفهم وشغف. وكنتُ قد شغلت بالتفكير في أمر التجمعات الشعبية مرات خلال عقد الثمانينيات وكتبت عن العلاقة بين الشعب والحكومة على صعيد المسؤولية في كتابي فكر وفعل ، كما كتبت عن ظاهرة العمل العربي الأهلي الطوعي في كتابي « وحدة التنوع » .

وجدت وأنا انظر في أسباب بروز هذا الموضوع أمامي ، أن تركيز الحديث عن الدولة في محافلنا العلمية ونحن نناقش مشكلاتنا ونتلمس إيجاد حلول لها ، هو السبب الرئيسي . وقد لفت نظري أن هذا الحديث تدرج خلال عدة ندوات حضرتها من النظام الدولي العالمي الى النظام الإقليمي الذي يجمع عدة دول إلى التنمية الحكومية في الدولة القطرية ، وهو مشدود في كل الأحوال إلى « الدولة » وكأنها الأصل وهي التي تملك مفاتيح الحلول لكل

المشكلات . وبدا لي أن مفهوم الحكم والسلطة في هذا الحديث مقترن بالحكومة والدولة ، وكأن « الاجتماع الإنساني » الذي هو الأصل لا حول له ولا طول .

إن تركيز الحديث عن الدولة من خلال النظر المشدود إليها أصبح ظاهرة في بعض أوساط علماء السياسة وعلماء الاجتماع ماأسرع أن عمت أوساطاً واسعة من المثقفين . وقد لاحظ العلماء الذين درسوا هذه الظاهرة أن المشدودين لنموذج الدولة غير قادرين على تتبع الأنشطة في تجمعات بشرية بعينها الى جذورها . وحذّر هؤلاء مما وصفوه بطغيان « عقيدة نظام الدولة » التي تتحكم في تلك الأوساط ، ونبهوا إلى أن الاتجاه السائد في علم السياسة في مجال العلاقات الدولية كثيراً ماتجاهل « الوحدات السياسية شبه القومية » ، ولاحظوا أن هذا الطغيان لعقيدة نظام الدولة يجعل الرؤية لما يجري على صعيد الاجتماع الإنساني في المجتمعات الصغيرة غير واضحة .

لقد استوقفتني هذه الظاهرة مؤخراً وأنا اشارك في ندوة عن آفاق التنمية واستمع إلى بحوث قيّمة حافلة بالبيانات والى المناقشات حول هذه البحوث ، فتداعى إلى خاطري النداء القوي الذي وجهته المجلة الدولية للعلوم الإجتماعية في عددها الخاص « الصلة بين المحلية والعالمية » من خلال مانشرته من بحوث للإلتفات إلى « المجتمعات الصغيرة في رقاعها الصغيرة » ، وإلى « إمكانات قيام مشاركة أكثر فاعلية وأكثر وعياً في شؤون العالم من جانب الشعوب في المجتمعات المحلية » . وكان من حسن حظي أن عثرت على هذا العدد بين مئات الكتب في جزء من مكتبتي لم أستكمل بعد تصنيفه ، لأراجع بحوثه ولأنقل في اليوم التالي لزملائي قول ماجد رحماني في بحثه « السلطة وعمليات بث الروح في الرقاع الصغيرة» «إن الرؤية من علٍ تحدث تعتيماً في إدراك الواقع وتشويهاً لأجل مجموعتين من الأسباب أولاهما أن الواقع الذي تتوجه إليه يختصر إلى

صورة فوتوغرافية معتمدة على قاعدة بيانات تكون شبكة التحليلات المستخدمة لتفسيرها غير وثيقة الصلة بفهم الواقع . وثانيهما أن رؤية هذا الواقع تتأثر حتماً بموقع المشاهد وبنسق السلطة التي يكون جزءاً منها . وهكذا تعتبر هذه الرؤية المجتمعات الصغيرة وأفرادها شيئاً مادياً ، تتحول إلى أرقام مجردة أو مجموعات من المواطنين قادرين على إمداد الأمة بموارد بشرية ، ولاتراهم كحقائق تشكلت تاريخياً وحضارياً لهم خصوصيتهم التي يتميزون بها » . وقد نبه زحماني إلى حقيقة أن هذه الرؤية من علٍ تسود بين كثير من « التنمويين الفنيين » ، الأمر الذي يجعل نظرتهم لوقائع المجتمع المحلي « تعوقهم بنائياً عن فهم عملياته الحقيقية ومناقشتها » . فهم في الغالب يتخيلون مستقبلاً مجرداً اصطنعوه من مخطط مصمم مهنياً ويحددون أهدافاً علاقتها ضئيلة بالمستقبل الحقيقي الذي هو في طور الحدوث . وهم يعتملون تصميماً تنموياً لم يأخذ في الاعتبار كيف يدرك الناس مشاكلهم وكيف يتصورون حلها . وهم يتطلعون الى تحقيق نتائج سريعة مثيرة كي يضفون على عملهم الشرعية . وهم أخيراً لايدركون في الغالب أن التغييرات الحقيقية التي تبقى على مستوى الرقعة الكبيرة لابد أن تنبع من تغييرات تحدث في الرقاع الصغيرة التي تؤلف الرقعة الكبيرة . وهكذا فإن الانجاز يتحقق فقط حين يحاول البسطاء من الناس الذين هم مِلح الأرض تحسين حظهم في الحياة على مستوى المجتمعات المحلية .

إن المجتمعات الصغيرة في الحارة والحي والمحلة والشارع والقرية والنجع تتعرض في عالمنا المعاصر إلى تدخلات تحكمها الرؤية من علٍ ، فتسبب لها مشكلات حقيقية . ويتحدث علماء الاجتماع عن هذه المشكلات الناجمة عن « التدخلات الهادفة إلى تحديث حياة الناس ، مثل مشروعات التنمية التي تحطم إقتصاديات العيش !! وغرس أنظمة مدرسية باعثة على الأنقسام والخلاف !! وانتزاع الشباب من جذوره الثقافية وحثه على الرحيل من المناطق الريفية !!

وإدخال الخدمات التي تخلق التبعية والإعالة !! ونشر البضائع الاستهلاكية التي تؤدي الى التآكل التدريجي لأنظمة الحماية المنيعة !! » وقد أشار بعض هؤلاء العلماء في العالم الثالث إلى ما أسموه « استعمار العقول » باعتباره أخطر أنواع هذه التدخلات في المدى الطويل الذي « تتعهده مؤسسات احترافية منظمة تستخدم اسلحة ناضجة وخفية من نوع جديد تشمل العقائد والتعليم وسبل الخلاص التقني والاقتصادي وتعالج العقول بمهارة بغية منع الناس من التفكير والتصرف كأفراد أذكياء مستقلين » كما يقول اشيس ناندي الهندي في كتابه « العدو الحميم » . ونبّه هؤلاء العلماء بخاصة إلى مايُسببه مايسمى « بالمعونات » من نقص في مناعة المجتمعات ، وتحدث أحدهم عن الصلة القائمة بين « الايلز والايدز » والأولى تعني بالانجليزية معونات والأخرى هي الحروف الأولى من اسم مرض المناعة التي جمعت لتكون اسماً اصطلاحياً له . ونقول مايسمى بالمعونات كي ندعو إلى النظر في حقيقتها ونبحث لها عن تسمية أخرى . وتؤدي هذه التدخلات إلى « تجريد الناس في مجتمعاتهم من الثقة في قدراتهم الذاتية على التجديد ، ومن ثم إلى «اخضاع عقولهم» لتقبل قيم صفوة مستبدة والى نوع من « الرق الاختياري » والى « خوف من الحرية » والى معاجلة ضيقة للتقاليد تؤدي إلى العنف والى عجز عن تمييز العدو الحقيقي وجوانب قوته وضعفه » كما يقول ماجد رحماني .

النظرة الصحيحة لهذه المجتمعات الصغيرة في رقاعها الصغيرة تراها على حقيقتها « اجتماعاً انسانياً » له تشكيله الإنساني الحضاري الحافل النابض بالحياة الذي تكون من عوامل الأرض والتاريخ واللغة والعقيدة وأصبحت له أعرافه وتقاليده . وقد وجدت نفسي في ندوة آفاق التنمية أتحدث مرة أخرى عن الحاجة إلى اعتماد « اطلس المجتمعات » الذي يضم خرائط أنماط الحياة والأقوام والمِلل والشرائح الاجتماعية فضلاً عن الحدود السياسية اذا أردنا أن

نوفر لأنفسنا الرؤية الحقيقية لواقع المجتمع ، وكنت قد تحدثت عن هذا الأطلس في كتابي « وحدة التنوع » ، وبدا لي من الحوار الذي دار حول هذه الفكرة أن مقاربة موضوع التنمية سيختلف جذرياً عن مقاربة الرؤية من علٍ لأنها ستتعامل مع الإنسان كإنسان في مجتمعه ورقعته ، وليس كرقم مجرد ، وما أروع التعامل مع الإنسان كإنسان .

ما أعظم مايمكن أن تحققه المجتمعات الصغيرة في رقاعها الصغيرة حين تنطلق من الذات لتعتمد على الذات وتتحرر من التدخلات الخارجية « المخربة » . وقد وقفت أمام أمثلة يسوقها روي برايسفيرك عالم الاجتماع الذي درس منجزات الإعتماد المحلي على الذات ، ومنها أن آلاف القرى في الكاميرون حيث تقتصر الحكومة في مجال توفير مياه الشرب على المدن التي يتجاوز عدد سكانها عشرة آلاف نسمة ، قامت ببناء منشآتها الخاصة بمياه الشرب وتولت مجالس مياه الشرب في القرى جمع النقود وتنظيم العمل الجماعي. ومنها أن مزارعاً في السنغال قام بتنظيم حركة ضخمة تضم ألفي قروي انشأوا تعاونيات خاصة بهم تولت شراء احتياجاتهم وتسويق منتجاتهم . ومنها أن فنزويلا شهدت ظهور منظمات المساعدة الذاتية التي تنهض بكثير من أعباء الحكومة حين تتزايد البطالة أو تتدنى الخدمات العامة . وتداعي الى خاطري عشرات الأمثلة في مجتمعنا العربي ، ومنها مارأيته بنفسي حين عملت مدرساً في بلدة أريحا السورية قرب حلب أوائل الخمسينيات من قيام أهل البلدة بإنارة بلدتهم من خلال اشتراكهم في تأسيس شركة للكهرباء. ووقفت بخاصة أمام مثل « الجمعيات » الشائع في احياء القاهرة الشعبية الذي يجسد صورة التعاون من أجل الادخار وفك الضائقة ، وأدرت حواراً حوله مع أحد العاملين ممن يشاركون في هذه الجمعيات ، فتأكد لدي أن الناس قادرون على حل مشكلاتهم حين ينطلقون من الذات معتمدين على الذات .

كثيرة هي الأمثلة التي نراها اليوم في مجتمعاتنا الصغيرة في وطننا العربي الكبير مصدقة لسلامة القول « بإمكانات قيام مشاركة اكثر فاعلية وأكثر وعياً في شؤون العالم من جانب الشعوب في المجتمعات المحلية » ولما يمكن أن يحققه العمل الطوعي الأهلي . ولكن أروع هذه الأمثلة هي تلك التي قدمتها انتفاضة شعب فلسطين العربي العظيمة فأدخلتنا زمن الانتفاض . والحق أن استحضار هذه الأمثلة يبين كيف أن الناس حين يصحون ويعون أنفسهم ويعرفون عدوهم بجوانب قوته وضعفه ويثقون بقدرتهم على مواجهته ويوطنون أنفسهم على صراع النفس الطويل يحققون ولادة جديدة ويصمدون في وجه أعتى القوى الغاشمة ـــ وإن لنا ان نستلهم الانتفاضة في زمن الانتفاض كي تعم هذه الصحوة جميع جوانب حياتنا .

إن حيوية الدور الذي يمكن للعمل الطوعي الأهلي الذي تقوم به المجتمعات الصغيرة في رقاعها الصغيرة ، دعا مارك نيرفين أحد علماء الاجتماع الى دراسة ماأسماه بالنظام الثالث للسلطة . وهو « نظام يمثله أشخاص يعملون بصورة فردية أو جماعية من خلال مؤسسات وروابط طوعية تحكمهم قيم علا ورؤى جديدة » . وهذا النظام الثالث يتكامل مع « النظام الأول » الذي « هو نظام الدولة والهياكل الحاكمة فيها » ، ومع « النظام الثاني » الذي هو « السلطة الاقتصادية والسوق وقوى السوق مثل الشركات والمصارف » . ويمكننا أن نرمز لهذه الأنظمة الثلاثة بحسب ترتيبها بغية التبسيط « بالأمير » للنظام الأول و« التاجر » للنظام الثاني « والمواطن » للنظام الثالث . والأمير والتاجر مواطنان في الأصل .

لقد آن الأوان أن ننطلق من المواطن في مقارباتنا لحل مشكلاتنا باعتباره إنساناً يعيش ضمن مجتمع صغير في رقعة صغيرة تنتمي إلى مجتمع كبير ووطن كبير ، وأن نركز النظر على هذا المواطن فنكون دوماً مشدودين اليه ، وأن نثق

بقدرة المجتمعات الصغيرة على حل مشكلاتها فهي أعلم بشؤون دنياها ، وما اكثر مايتداعى الى خاطري حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنتم أعلم بأمور دنياكم » . كما يتداعى الى خاطري مرة أخرى قول رفاعة الطهطاوي وهو يرشد البنين والبنات « فصفة الوطنية لاتستدعي فقط ان يطلب الانسان بحقوقه الواجبة له على الوطن ، بل يجب عليه أن يؤدي الحقوق التي للوطن عليه ، فإذا لم يوفِ أحد من أبناء الوطن بحقوق وطنه ضاعت حقوقه المدنية التي يستحقها على وطنه » .

إن لنا ان نكثف الدعوة لحماية المجتمعات الصغيرة من التدخلات الضارة بها ، وأن نعمل ضمن هذه المجتمعات الصغيرة في عمل طوعي أهلي لحل مشكلاتنا المحلية والاسهام في حل المشكلات العالمية . وهذا يقتضي أن ندرك العلاقة القائمة بين المواطن والتاجر والأمير ، وأن نتعمق فهم السلطة وآليتها وهو موضوع يستحق حديثاً خاصاً وثيق الصلة بحديث الإنتفاضة في زمن الإنتفاض .

مستقبل أوروبا الشرقية

هذا التغيير الجاري !؟

لاتزال الأحداث في أوروبا الشرقية تتتالى منذ خريف عام ١٩٨٩ الذي سيذكر في تاريخ العالم مقترناً بها . وقد دخلنا ربيع عام ١٩٩٠ والحديث يتردد في أوساط المعنين عن رباع (جمع ربيع) مرّت ومهدت لهذه الأحداث ، من أشهرها ربيع براغ عام ١٩٦٨ الذي شهد انتفاضتها الشعبية والتدخل العسكري السوفييتي وربيع موسكو في عهد جورباتشيف الذي يرمز به لإعادة البناء . كما يتردد الحديث عن أربعة (بكسر الباء جمع ربيع أيضاً) ستأتي ، إشارة إلى أن التحولات الجارية هناك ستستمر محدثة تغييرات عميقة .

واضح أن هذه التغييرات العميقة تفعل فعلها في مختلف جوانب حياة الأوروبيين الشرقيين . وواضح في الوقت نفسه أن لها آثارها على الصعيد العالمي . وقد صدق توقع جورجي آرياتوف مستشار جورباتشيف وهو يتحدث للتلفزة الأميركية يوم ٨٩/١١/١٤ « بأن هذه التغييرات ستخلق مشكلاتٍ في بلدان كثيرة » . وكنا نحن العرب من أوائل من واجه واحدة من أكبر هذه المشكلات ، وهي مشكلة التهجير الصهيوني لليهود من أوطانهم في أوروبا الشرقية إلى قلب وطننا العربي في فلسطين .

لقد أدخلت هذه الموجة من التهجير الصهيوني الغزوة الصهيونية

الاستعمارية مرحلة جديدة بالغة الخطورة ــ كما شرحنا في مقالات سابقة ــ واستدعت الى ذاكرتنا موجة التهجير الصهيوني الأولى التي جاءتنا من أوروبا الشرقية وتاريخ نشوء الصهيونية اليهودية هناك ، الأمر الذي يدعونا أن نتعمق فهم مايجري اليوم هناك من خلال المتابعة الدقيقة له ، ونستشرف آفاقه كي نحسن مواجهة مشكلة ــ التهجير التي تواجهنا .

ساعات كثيرة أمضيتها على مدى أربعة أسابيع وأنا عاكف على هذا الموضوع لاكتب دراستي عن مستقبل أوروبا الشرقية التي سأقدمها في ندوة اكاديمية المملكة المغربية حول « الإقلاع الإقتصادي في أوروبا الشرقية » بين يومي ٧ و١٩٩٠/٥/٩ في مدينة فاس العريقة . وقد عشت طوال هذه الساعات مع قراءات في عشرات الكتب والتقارير ، وتأملات في الزمان والمكان والحال . .وألحت عليّ أفكار رأيت أن اضمنها هذا الحديث . ولعلي أعود إلى الموضوع بعد أن اكون قد اغتنيت بالمشاركة في الندوة وسماع الأعلام الذين سيشاركون فيها من مختلف أرجاء المعمورة .

★ ★ ★

الأسئلة الأولى التي ألحت عليّ كانت حول طبيعة التغيير الحادث وحدوده ، ومنهَجنا في قراءته . وقد استشعرت الحاجة للتأمل في ذلك كله وسط جو محيط بالدراسة تسيطر عليه بفعل « إعلام الأزمات » الذي يسود في عصر ثورة الاتصال « حالة من الإثارة والتوتر وحبس الانفاس » ، ويتردد الحديث فيه عن « تصاعد التاريخ بسرعة البرق » و « التحولات السريعة في البيئة الاستراتيجية العالمية » و« العالم الذي يتغير بسرعة » ، الأمر الذي أوصل البعض إلى أن يقع في أسر المبالغة فيتحدث عن « نهاية التاريخ » . وانتهيت من تأملاتي إلى مجموعة أفكار ..

● لاشك في أن التغيير الحادث في أوروبا الشرقية عميق ومتسارع بمعدل فاق كل تصور ، ولكنه في الوقت نفسه ليس فريداً في تاريخ المنطقة . فقد تعرضت أوروبا الشرقية للتغيير مرات من قبل ، ولم تكن المرة السابقة لهذه المرة في أعقاب الحرب العالمية الثانية بأقل عمقاً وشدة حين الحقت المنطقة كلها بالاتحاد السوفييتي . وتكرار ظاهرة التغيير هذه في تاريخ أوروبا الشرقية يعود إلى عدة عوامل أولها عامل المكان والجغرافيا السياسية ، وله حديثه الخاص .

● حقّ أنّ تسارع الأحداث بمعدل فاق كل تصور فاجأ العالم ، ولكن حدوث التغيير لم يكن مفاجأة لعدد من المفكرين الاستراتيجيين ، ولم يكن أيضاً بدون إرهاصات سبقته شهدتها المجر عام ١٩٥٦ وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ وبولندا في الثمانينيات . وقد عدت الى ماكتبه بعض الاستراتيجيين فوجدت إجماعاً على أن التغيير متوقع ، وعرضاً لعدد من أشرطة المشاهد للكيفية التي سيحدث عليها . واستوقفني بخاصة ماكتبه عالم الجغرافية السياسية العربي جمال حمدان في الطبعة الثانية من كتابه « استراتيجية الاستعمار والتحرر » التي صدرت عام ١٩٨٣ حين عرض مختلف الآراء بشأن الآفاق المستقبلية « مابعد الوفاق وعدم الانحياز » ومنها رأي يقول بإمكانية أن يتحلل الاتحاد السوفييتي أو يتآكل وينهار من الداخل ، وقرأت عن هذا الرأي قوله « تصور آخر وأخير ، إن استبعده الكثيرون في الغرب فإنه مع ذلك يخامر عقول البعض في الأعماق أو في الوعي الباطن أو على الأقل من قبيل أحلام التمني . فالكتلة الشرقية ــ يشير أصحاب هذا الرأي ــ موحدة فقط بالقوة والقهر وحدهما . وهي تطفح بالتذمر والغليان والرفض المكبوت ، والانتفاضات أو الانتقاضات على « أخوة » المعسكر تنقط مسيرته منذ بدايته ، بل وتكاد ترسم سلسلة من الحلقات تقريباً على أقصى تخومه الغربية بالذات ، أي في أبعد مدى عن قبضة الاتحاد السوفيتي ، ابتداء من يوغوسلافيا

الأربعينيات والبانيا في الظل خلفها الى مجر الستينيات وتشكيوسلوفاكيا السبعينيات ثم أخيراً بولندا الثمانينيات، دون أن نذكر نزعة رومانيا الاستقلالية الرافضة على اجناب الاتحاد السوفييتي نفسه مباشرة .. ووصلت في قراءتي إلى قوله « على أن الاتحاد نفسه ــ بلسان أصحاب الدعوة ــ ليس أكثر من شرق أوروبا تجانساً أو تماسكاً أو تمسكاً بنظامه القهري المفروض ، فحتى بغض النظر عن الجدل الايدلوجي ومبدأ الشيوعية والطبقة البروليتارية.. الخ ، فإن الاتحاد في رأيهم ليس إلا عصبة أمم متنافرة لارابط بينها من جنس أو قومية أو لغة أو دين أو تاريخ مشترك ، إنه متحف سياسي هائل ، مجمع موحد وقائم فقط بالضم والغزو وبقوة القهر والجيش الأحمر .. وأيا كان الأمر والرأي ، فالذي لاشك فيه موضوعياً أن كثيراً من اقليات الاتحاد السوفييتي وأقاليمه على استعداد تام ، إن لم نقل تواقة ، لأن تغادره فوراً وتخرج من الاتحاد اذا ماسُمِح لها بذلك ، كما ينص دَستوره على هذا الحق نظرياً وان جبَّه تماماً من الناحية العملية . يصدق هذا يقيناً على دويلات البلطيق السابقة في الغرب ، ولكن اكثر منها على الدويلات والخانات الاسلامية القديمة في آسيا الوسطى .. »
وبدا لي كم كانت بصيرة أصحاب هذا الرأي ثاقبة ، وتذكرت كم فرحت حين اكتشفت في الستينيات كتابات جمال حمدان وقرأت الطبعة الأولى من كتابه هذا الذي أصدره كتاب الهلال عام ١٩٦٩ وجعلت كتبه مراجع لايستغنى عنها لطلابي في الدراسات التاريخية والمستقبلية . وهاهي ليتوانيا من دويلات البلطيق تحركت ومثلها أذربيجان الإسلامية ، فضلاً عن دول أوروبا الشرقية . وقد كتب الرئيس الأميركي السابق نيكسون عام ١٩٨٧ في كتابه « ١٩٩٩ نصر بلا حرب » « ان أوروبا الشرقية ناضجة اليوم لتغيير ايجابي سلمي » .

● واضح أن أهم مايُميّز التغيير الحادث اليوم أنه يتم سلمياً في الغالب ، وبدون عمليات جراحية ماأمكن ، إلا اذا استوجب الأمر غير ذلك كما حدث

في رومانيا حين حاول شاوشيسكو الوقوف في وجه تياره المتدفق فكانت العملية الجراحية التي استأصلته . والتغيير السلمي يتطلب توافر عامل داخلي وآخر خارجي . فلابد له من إرادة سياسية في الداخل تعطي الضوء الأخضر لإحداثه ، وقد وفرها جورباتشيف حين قرر « اعادة البناء » . ولابد له من توافق دولي في الخارج حول خطوطه الحمر التي لا يتجاوزها ، وقد وفرته الاتصالات الدولية الغربية واعتمدته قمة مالطا بين بوش وجورباتشيف في كانون أول ١٩٨٩ . وواضح أن العامل الداخلي المتمثل في الإرادة السياسية هو نتاج عدة عوامل ، فعملية التغيير كما استخلص أنور عبد الملك من دراسات المشروع الذي نسّقه في اطار جامعة الأمم المتحدة حول « تغيير العالم » « لاتحدث بشكل موضوعي آلي بحت من جراء تطور قوى الإنتاج أو مقتضيات المرحلة الثانية للثورة الصناعية ، وغير ذلك من الأسباب التي يسهل وصفها كمياً . وإنما هي عملية تقوم فيها الارادة السياسية بدور رئيسي ، يمتد مجاله من الجغرافيا السياسية العالمية والاقليمية الى الدين وصراع الحضارات » .

● إن التغيير الذي يتم سلمياً بعد أن يتوافر له العاملان الداخلي والخارجي ، لابد أن يكون محكوماً بدرجة معينة ، وأن يستند على قاعدة تتحرك فوقها الارادة السياسية ، وأن ترسم له خطوط حُمر يبقى في دائرتها . وهو يختلف عن التغيير الذي يتم بالقوة ويفجر القاعدة فلا يكون محكوماً ولايعرف خطوطاً حُمراً . وقد وضح الآن بعد مضي شهور على أحداث أوروبا الشرقية أن التغيير لم يمس قاعدة النظام وهو الجيش والمخابرات والشرطة ، وأن تفاهماً تم مع الدول الغربية على حدوده وعلى عدم التشجيع على تجاوزها . واذا كان تسارع الأحداث قد جاء اكثر من المتوقع وسبب من ثم بعض الارتباك احياناً كما حدث مع سور برلين والألمانيتين ، فإن هذا التسارع لم يؤدِ إلى الانهيار الكامل ولا إلى المساس بأجهزة الجيش والمخابرات والشرطة .

★ ★ ★

كانت الفكرة الأخيرة التي ألحت عليّ تتعلق بالموقف العقيدي أو الفلسفي تجاه التغيير . فهذا الموقف ينطلق من حقيقة أن التغيير سُنة مَن سنن الحياة ، وهناك عوامل تقف وراء هذه السُنة . وتداعى الى خاطري كيف حرص أجدادنا المؤرخون الذين ظهروا في دائرة الحضارة العربية الاسلامية على إبراز هذه الحقيقة في خطب كتبهم ، فعُدتُ إلى بعض هذه الكتب . فهذا ابن الاثير صاحب « الكامل في التاريخ » يقول « الحمد لله القديم ، فلا أول لوجوده ، الدائم الكريم فلا آخر لبقائه ولانهاية لجوده .. المقدس فلا تقرب الحوادث حماه ، المنزه عن التغيير فلا ينجو منه سواه . مُصرِّف الخلائق بين رفع وخفض وبسط وقبض وإبرامٍ ونقضٍ وإماتةٍ وإحياء وإيجاد وإفناء وإسعاد وإضلال وإعزاز واذلال ، يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ، ويُعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير » . وهذا ابن خلدون صاحب العبر يقول « .. وتبلينا الأيام والوقوت ، وتعتورنا الآجال التي خُطّ علينا كتابها الموقوت ، وله البقاء والثبوت ، وهو الحي الذي لايموت » . وهاهو الجبرتي صاحب « عجائب الآثار » يقول « الحمد لله القديم الأول ، الذي لايزول ملكه ولايتحول خالق الخلائق وعالم الذرات بالحقائق ، مفني الأمم ومحيي الرمم ومعيد النعم ومبيد النقم وكاشف الغمم وصاحب الجود والكرم ، لا الله الا هو كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم واليه تُرجَعون » . ووقفت أمام حرص أجدادنا على معالجة التاريخ من منطلق الايمان واستخلاص أهم عبر التغيير وتوظيفها لتحكم الأخلاق الممارسات ويكون الورع . فما أجدر الإنسان المعرض للتغيير أن يضع نصب عينه رضا خالقه وأن يعمل الصالحات .

إن لنا أن ننطلق من هذا الموقف تجاه التغيير لنتابع استشراف مستقبل أوروبا الشرقية في حديث آخر تالٍ .

الآسيوى محكومة بهذه العلاقة الخاصة . ومن المتوقع أن تقيم هذه الدول علاقة أوثق بأقطار أوروبا الغربية ، وأن تتحسن علاقاتها بالولايات المتحدة الاميركية ضمن هامش التوافق الدولي . ولنا أن نتوقع تزايد اهتمام هذه الدول بسياستها المتوسطية — نسبة إلى دول البحر المتوسط — وتحسن علاقاتها بدول الجنوب .

★ ★ ★

يدعونا التمعن في بُعْد الزمان إلى الوقوف أمام عِبَر مَرحلتين من مراحل تاريخ أوروبا الشرقية . والأولى منهما هي في عصر النهضة الأوروبية شهدت انشاء الاقتصاد الأوروبي الغربي في مناطق مختلفة من العالم نوعاً جديداً من التجارة هو التجارة بالضروريات على نطاق شعبي اكثر من التجارة بالكماليات . فكان أن أصبحت أوروبا الشرقية لاتعتمد على الاقتصاد الغربي الأوروبي فحسب بل أصبحت خاضعة له حين صدَّرت المواد الغذائية والمعدات البحرية. وقد شرح ستافريانوس في «التصدع العالمي ، العالم الثالث يشب عن الطوق » ماحدث في هذه المرحلة لأوروبا الشرقية وترتب عليه « تقسيم القارة الأوروبية الى شمال غربي ديناميكي مُصنِّع والى شرق زراعي تابع حافظ على وجوده حتى منتصف القرن العشرين » . وهو يعتمد تعريفاً للعالم الثالث هو « البلدان والمناطق التي شاركت بشروط غير متكافئة فيما يدعى اقتصاد السوق العالمي » ، ويرى أن تخلف العالم الثالث وتطور العالم الأول لايمثلان ظاهرتين منفصلتين ، وانما هما ظاهرتان متصلتان عضوياً ووظيفياً وأن ولادة هذا العالم الثالث تمت في شرق أوروبا بتلك الطريقة في القرن الخامس عشر . وهو يقول « لو أن اصفة الاستعماري أدنى صلة بالظروف الأوروبية لكان تصدير الحبوب من أوروبا الشرقية هو ذلك الفرع من التجارة الذي يستحق تصور صفته النوعية ، ليس لأنه الانتاج الزراعي الخام الوحيد بل لأن دفع ثمنه

قديماً ومن أوروبا الى آسيا حديثاً . ونصح ماكيندر بإيجاد نطاق من الدول الصغيرة المتماسكة في الصف الأوسط من شرق أوروبا كي يفصل بين قلب الأرض والقوى الساحلية ويعزله عنها . ويلاحظ حمدان أن هذا الأمر تحقق في فرساي واستمر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ثم أصبح هذا الصف الأوسط جزءاً من الكتلة الشرقية . وهذا ماأدى الى ربط الهلال الداخلي بقلب الأرض . ومستقبل العالم يتوقف وفق منطق نظرية ماكيندر على حفظ التوازن في القوى بين الاقاليم الساحلية والقوى الداخلية . وهذا مادعا الولايات المتحدة اكبر معاقل القوة البحرية الى انتهاج سياسة توصل الى هذا التوازن . ويؤكد علماء الجغرافية السياسية على الترابط الذي يفرضه بُعد المكان بين أقطار أوروبا الشرقية ، وقد توقعوا وهم يتابعون ماحدث من انتفاضات في هذه الدول أن يؤدي سقوط حجر واحد منها إلى تفكك الجدار كله وانفراط العقد جميعه وفق نظرية الدومينو .

ماهي في ضوء التمعن في « المكان » الخطوط الرئيسية التي توجه بها الجغرافية السياسية علاقات أوروبا الشرقية المستقبلية ؟ والتوجيه هنا كما عرفه جيمس فيرجريف في كتابه « الجغرافيا والسيادة العالمية » لايعني صنع الأشياء ولا خلق أسباب وجودها وإنما رسم خطوط الطريق الذي ستجري فيه الأحداث وتحديد اتجاهها .

إن لنا أن نتوقع توجه دول شرق أوروبا إلى توثيق العلاقات فيما بينها ، بما في ذلك بقية دول البلقان . وسيكون المجال مفتوحاً أمام هذه الدول اذا قرّبها التغيير من النموذج اليوناني ، كي تقيم رابطة فيما بينها تضم يوغوسلافيا والبانيا واليونان . وإن لنا أن نتوقع أيضاً بقاء دول أوروبا الشرقية على علاقة خاصة بروسيا كبرى جمهوريات الاتحاد السوفيتي وأن تكون علاقاتها بالشرق

الآسيوى محكومة بهذه العلاقة الخاصة . ومن المتوقع أن تقيم هذه الدول علاقة أوثق بأقطار أوروبا الغربية ، وأن تتحسن علاقاتها بالولايات المتحدة الاميركية ضمن هامش التوافق الدولي . ولنا أن نتوقع تزايد اهتمام هذه الدول بسياستها المتوسطية ــ نسبة إلى دول البحر المتوسط ــ وتحسن علاقاتها بدول الجنوب .

* * *

يدعونا التمعن في بُعْد الزمان إلى الوقوف أمام عِبَر مَرحلتين من مراحل تاريخ أوروبا الشرقية . والأولى منهما هي في عصر النهضة الأوروبية شهدت انشاء الاقتصاد الأوروبي الغربي في مناطق مختلفة من العالم نوعاً جديداً من التجارة هو التجارة بالضروريات على نطاق شعبي اكثر من التجارة بالكماليات . فكان أن أصبحت أوروبا الشرقية لاتعتمد على الاقتصاد الغربي الأوروبي فحسب بل أصبحت خاضعة له حين صدَّرت المواد الغذائية والمعدات البحرية. وقد شرح ستافريانوس في «التصدع العالمي ، العالم الثالث يشب عن الطوق » ماحدث في هذه المرحلة لأوروبا الشرقية وترتب عليه « تقسيم القارة الأوروبية الى شمال غربي ديناميكي مُصنِّع والى شرق زراعي تابع حافظ على وجوده حتى منتصف القرن العشرين » . وهو يعتمد تعريفاً للعالم الثالث هو « البلدان والمناطق التي شاركت بشروط غير متكافئة فيما يدعى اقتصاد السوق العالمي » ، ويرى أن تخلف العالم الثالث وتطور العالم الأول لايمثلان ظاهرتين منفصلتين ، وانما هما ظاهرتان متصلتان عضوياً ووظيفياً وأن ولادة هذا العالم الثالث تمت في شرق أوروبا بتلك الطريقة في القرن الخامس عشر . وهو يقول « لو أن اصفة الاستعماري أدنى صلة بالظروف الأوروبية لكان تصدير الحبوب من أوروبا الشرقية هو ذلك الفرع من التجارة الذي يستحق تصور صفته النوعية ، ليس لأنه الانتاج الزراعي الخام الوحيد بل لأن دفع ثمنه

كان يتم بواسطة الواردات المصنعة ويشرف على تجارته وسطاء من التجار والشاحنين الأوروبيين الغربيين ، كما أنه أخضع ثروات الاقتصاديات الشرقية ومنظماتها الاقتصادية وبنيتها الإجتماعية لمستلزمات الأسواق الغربية فكان لتجارة الحبوب آنذاك تأثيرٌ يماثل تأثير التجارة العالمية المتخلفة التي تصدر المنتوجات الأولية .. والبلدان الأوروبية الشرقية هي أولى المناطق التي دخلت نظام تجارة الجملة كمناطق تخوم تابعة ، وليست البلدان الواقعة ماوراء البحار . وان انحدار أوروبا الشرقية يجب تفسيره في ضوء انخراطها في الأحداث وليس في ضوء انطوائها على نفسها . وهنا تبدو العلاقة السببية بين الظاهرتين » .

المرحلة الأخرى هي في عصرنا وقد رسمت خطها العريض تسويات مابعد الحرب العالمية الثانية ، ومؤتمر يالطا رمز لها . ويمكننا أن نستخلص من ملف جريدة التايمز اللندنية بمناسبة أربعين سنة مضت على ابرام هذه التسويات النظرة السائدة حول هذه المرحلة . فضمن هذه النظرة هناك من قبل تقسيم أوروبا الى قسمين كأمر واقع بغية تجنب حرب عالمية ثالثة ، وهناك من يرفضه ويسعى الى تغييره . ويقول الرافضون إن عشرات الملايين من الناس في وسط أوروبا وشرقها ينظرون الى يالطا كرمز « لخيانة » الغرب لهم ، وكجذر لجميع شرور حاضرهم السياسي . فهي عندهم تعني السقوط » وإن هناك أناساً كثيرين في غرب أوروبا من موقع سياسي مختلف أصبحوا يشاطرون وجهة النظر هذه في يالطا قائلين إنها جذر جميع المشكلات التي يعاني منها الواقع الأوروبي اليوم . ويستشهد هؤلاء بما كتبهُ تشرشل بعد شهر واحد من انتهاء مؤتمر يالطا في رسالة إلى اروزفلت « لقد قمنا أنا وأنت حين وافقنا على التسوية الخاصة بشبه جزيرة القرم بنشر « نشرة مخادعة احتيالية » ، ويقولون في المحصلة «'ان سياسة القوى الغربية تجاه أوروبا الشرقية عام ١٩٤٥ كانت خاطئة من وجهة نظر خلقية ووجهة نظر سياسية » .

إن من أهم عبر هاتين المرحلتين أن ينظر الشمال بشرقه وغربه إلى دول أوروبا الشرقية باعتبارها منتمية الى دائرته الحضارية ، مدركاً أن مايصيبها من عنت سيؤدي إن عاجلاً أو آجلاً إلى إصابته بعنت . وأن يأخذ الغرب من ثم في اعتباره عند التعامل مع الدول الأوروبية الشرقية في هذه المرحلة وجهة النظر الأخلاقية ويقرنها بوجهة النظر السياسية ، وأن تقوم سياسته في عونها على تمكينها من النهوض من عثرتها الاقتصادية باجراء « تبديلات بنيوية » وليس بمنحها « امتيازات ذات أجل قصير » لن تكون في نهاية الأمر إلا مُسكنات ، فما هو مطلوب اليوم لها هو « التجارة الحرة وليس المعونة » «Free Trade not Aid» على حد قول فيل جرام في نيويورك تايمز يوم ١٩٩٠/٣/٣٠ .

* * *

نتمعن أخيراً في « حال » أمم أوروبا الشرقية . والحال هو مجمل ماهي عليه أوضاع الأمة . وهو يتضمن « فضلاً عن الحقيقة المادية لهذه الأوضاع ، الروح المعنوية ، والنفسية السائدة وبنص الحيوية » . وتشخيصه يكون بالنظر الى « المناخ السائد » فيها أهو مفعم بالتفاؤل أو يسوده التشاؤم ؟ أيغلب عليه العزم أم الاسترخاء ؟ وهذا المناخ السائد تصنعه التفاعلات الجارية في المرحلة التاريخية على مختلف المستويات ولروح الأمة وروح العصر تأثير واضح عليه .

واضح أن أوروبا الشرقية تدخل المرحلة الجديدة من تاريخها وروح أممها مفعمة بالأمل والعزم ، وهي تستلهم تاريخها بعَامِة ومقاومتهاالفرض السيطرة عليها إثر يالطا بخاصة . وقد استحضر الرئيس السابق نيكسون صور هذه المقاومة في كتابه «١٩٩٩» لأننا اذا كنا نرغب في فهم أوروبا الشرقية اليوم فيجب أن نستحضر تلك الصور على حد قوله ، و« لأن هذه الانتفاضات الشعبية ، وليست أنخاب الشمبانيا في مؤتمرات حلف وارسو هي التي تمثل

الواقع السياسي لأوروبا الشرقية . فالمجريون والتشيك وأسلاف والبولنديون والألمان الشرقيون والبلغار شعوب قوية ..» ويلاحظ الذين درسوا « الحال » في أوروبا الشرقية الارتباط الوثيق بين الدين والقومية والثقافة ، وأن الكاثوليكية كانت في بولندا من مقومات الحركة الوطنية شأن الأرثوذكسية في روسيا مثلاً . وهناك من يرى مع جيوفري هوسكنز في كتابه « يقظة الإتحاد السوفييتي » الذي صدر عام ١٩٨٨ عن هارفارد « أن جذور إعادة البناء موجودة في النمو البطيء الذي حققه المجتمع المدني السوفييتي قبل عصر جورباتشيف بزمن ، وأن هناك احتياطات فكرية وروحية في الثقافة الروسية قادرة على تخطي الأزمة الراهنة التي يمر بها الإتحاد السوفييتي بل وقادرة على بناء معجزة ديموقراطية واقتصادية هناك مع قدوم القرن الحادي والعشرين ، وأن جيل اعادة البناء هو نتاج الثورة الاجتماعية منذ عام ١٩٤٥ وأطول سلام داخلي وخارجي خلال قرن وأن المجال مفتوح امام تقوية « التضامن الإجتماعي والتعامل مع مشكلة القوميات إذا تم تحقيق تحالف بين القوى السياسية والدين المنظم » . وهذا الرأي يصدق في خطوطه العريضة على دول أوروبا الشرقية الأخرى . ولقد تحدث شارلز جاتي في دراسته « جورباتشيف وأوروبا الشرقية » التي نشرتها فورين افيرز في صيف ١٩٨٧ عن تشيكوسلوفاكيا وكيف كانت كعبة ثقافية في قلب أوروبا قبيل الحرب العالمية الثانية وبين البلاد السبعة الأولى المتقدمة صناعياً . وأشار الى ربيعها عام ١٩٦٨ الذي جاء في أعقاب إصلاحات اقتصادية شهدها الإتحاد السوفييتي في منتصف الستينيات ليبرز العلاقة الوثيقة التي تربط بين براغ وموسكو بحيث أنه « متى تعطس موسكو فإن أوروبا الشرقية تصاب بالإلتهاب الرئوي » ، ليختتم دراسته بالقول أننا لانستطيع أن نعزل ربيع موسكو « أي روح ميخائيل جورباتشيف » عن رِباع أو أربعة (جمع ربيع) براغ التي يحبل بها المستقبل .

ستتفاعل روح أوروبا الشرقية هذه مع « روح عصرنا » التي هي جماع تبادل تأثير الأمم والجماعات بعضها ببعض في عصر ثورة الاتصال . وقد اعتبر ياسر هيرو ناكاسوني رئيس وزراء اليابان الأسبق في دراسته « نحو مجتمع دولي جديد » التي نشرتها سيرفايفال في خريف ١٩٨٨ » أن « الثورة العلمية التكنولوجية هي روح عصرنا » ، « فالعلم والتكنولوجيا اللذان نشأ أساساً في الغرب وتطورا لم يقدما منافع مادية فقط للبشرية بل أصبحا أيضا لغة عالمية ، وقد وضعا أسس معايير موضوعية ومناهج للإدراك ترتكز على قاعدة عالمية شاملة » . ورأي ناكاسوني أنه حان الوقت كي ندعم روح العصر هذه بعد أن بدا واضحاً أن العلم والتكنولوجيا لايكفلان وحدهما سعادة الإنسان ، وأن إساءة استخدامهما تهدد كرامة الانسان ، وذلك بأن نرتفع بها الى مستوى أعلى ونرسي دعائم مبادىء روحية جديدة تهيء البشرية لدخول حقبة جديدة . وأشار ناكاسونى الى أمرين مطلوبين أولهما وضع العلم والتكنولوجيا في مكانهما اللائق كجزء من الحضارة الإنسانية بحيث لاتكون لهما الغلبة والسيادة المطلقة على البشرية والآخر دعم وتطور التفاهم بين الثقافات المختلفة وصولاً إلى أساس مشترك لتقدير وتوفير القيم المختلفة . وقال « إننا مقبلون على عصر سيكون فيه التجانس والتضامن » المتحدان من اسمى تطلعات الروح البشرية ، هما المطلب العاجل والملح للبشرية » . وأوضح أن التجانس والتضامن هما جوهر الفكر الشرقي الذي ترتكز عليه الثقافة اليابانية . وطبيعي أن تتطلع أوروبا الشرقية الى أن تسهم بجوهر فكرها في حضارتها الغربية وفي روح العصر الآتي . فالحال فيها اليوم ينبض حيوية ويحفل بالأمل وبثقة الجماهير بإمكانية تغيير حياتها نحو الأفضل ، وهذا مايعتبره توينبي الحدث الأهم والأكثر بروزاً في عصرنا ، بحيث يبدو تحرير الطاقة الذرية وتطبيقاتها في صناعة السلاح واكتشاف الفضاء الخارجي أموراً لا أهمية لها قياساً بإحياء الأمل والهدف في نفوس الجماهير ، كما جاء في كتابه اميركا والثورة العالمية .

يوصلنا تمعننا في « الحال » الى أن نتوقع استمرار التفاعلات في أوروبا الشرقية ، ومشاركة قطاعات واسعة من الناس في الأحداث ، وبروز الذاتية والخصوصية القومية ، وتنامي حركة الإحياء الروحي ، وتعاظم التوق للديموقراطية . وقد لاحظ بريجنسكي في مقابلة له مع نيوزويك ١٩٨٩/١٢/١٨ أن امبراطورية القياصرة التي ورثها الاتحاد السوفييتي تتحول الآن بسرعة إلى « بركان للأمم » تحت حكم جورباتشيف ، وهي التي وصفها ماركس بأنها « سجن الأمم » ثم أصبحت تحت حكم ستالين « مقبرة الأمم » . وحذّر من أن الاتحاد السوفييتي إذا هو لم يحولها إلى اتحادية فإن عليه أن يتعامل مع انفجار . ويتابع المراقبون اليوم تنامي المشاعر القومية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي بخاصة ، ويلاحظون تزايد النوع القومي الروسي . ويبدو أن من أسباب ذلك الإحساس بقرب تباعد أحجار الكتلة الكبيرة والتحول من المركزية إلى اللامركزية . وقد سبق أن رأينا اشتداد النزعة التركية الطورانية حين تعرضت « الدولة العلية العثمانية » لمثل ذلك قبل قرن من الزمان .

سياسات الأطراف الدولية

مازالت الأنظار متجهة إلى أوروبا الشرقية تتابع التغييرات الجارية فيها بُغية التعرف على آثارها ومعالجة ماينجم عنها من مشكلات . وإذا كانت حقائق الزمان والمكان والحال تفعل فعلها في التحول الذي نراه ، فإن سياسات الأطراف الدولية تفعل هي الأخرى فعلها فيه . ومن هنا تلح الحاجة بعد أن تعرفنا على تلك الحقائق أن نتعرف على هذه السياسات .

لقد أدت التحولات الجارية في أوروبا الشرقية إلى سقوط « سور برلين » . ويرمز هذا الحدث الى سقوط الخط الذي قسم القارة الأوربية إلى قسمين شرقي وغربي في تسويات يالطة . وإن لنا أن ننظر من ثم اليه ليس باعتباره حدثاً قائماً بذاته بل على أنه جزء من إعادة التنظيم الجارية في أوروبا والعالم . والحق أن التوجه الرئيسي لمجرى الأحداث فى المرحلة الجديدة التي شهدت قمة مالطه هو للتقارب بين جُزئَى أوروبا وصولاً إلى « بيت أوروبي واحد » ، على حد تعبير جورباتشيف . وهذا يعني أن أوروبا الشرقية بما فيها روسيا تتطلع الى أن تكون ضمن « الشمال » بمدلوله الإقتصادي الذي يتكون من أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأميركية ، وضمن « دائرة الحضارة الغربية » التي تنتمي إليها أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأميركية . وواضح أن تحقيق هذا التطلع مرهون بما ستؤدي إليه تفاعلات السياسات السوفيتية

والأمريكية والأوروبية الغربية .

★ ★ ★

ان السياسات السوفيتية تجاه أوروبا الشرقية محكومة اليوم « بإعادة البناء » ورؤية جورباتشيف « لأوروبا اليوم والغد » . وقد حسمت هذه الرؤية في أمر انتماء أوروبا الشرقية بعامة ومنها روسيا لأوروبا ، وأعلنت في مواجهة « البعض في الغرب الذين يحاولون استبعاد الاتحاد السوفييتي من أوروبا ، ويتحدثون عن أوروبا على أنها أوروبا الغربية فقط » أن « حيلة كهذه لايمكن أن تغير الحقائق الجغرافية والتاريخية » ، على حد قول جورباتشيف الذي يتحدث عن الاتحاد السوفييتي الأوروبي طارحاً حججه « فتجارة روسيا وروابطها الثقافية والسياسية مع الأمم الأوروبية تضرب بجذور عميقة في التاريخ .. وقد وحدت المسيحية روسيا القديمة مع اوروبا .. وتاريخ روسيا جزء لا يتجزأ من التاريخ الأوروبي العظيم ، كما أن الروس والأوكرانيين وشعب روسيا البيضاء والمولدافيين والليتوانيين واللاتينيين والاستونيين والكاريل وغيرهم من شعوب بلادنا كانت لهم جميعهم مساهمتهم الملموسة في تطور الحضارة الأوروبية ، ومن ثم فإنهم يعتبرون أنفسهم عن حق ورثتها الشرعيين » . وهكذا تحدد هذه الرؤية توجه الاتحاد السوفييتي اليوم وتطلعه إلى « تجاوز الخارطة المتعددة الألوان لأوروبا السياسية » و« الستار الحديدي » وصولاً الى ماأسماه جورباتشيف « البيت الأوروبي المشترك » يمتد من « الأطلسي حتى الأورال » ويمثل « كياناً ثقافياً وتاريخياً لوحدة الميراث المشترك للنهضة والتنوير » .

تحرص هذه السياسات السوفيتية على علاقات الاتحاد السوفييتي بدول أوروبا الشرقية ، وتعمل من ثم على تجديدها . وقد خصص جورباتشيف فصلاً في كتابه لها بعنوان « نحو علاقات جديدة » ، وأوضح أن « إطار العلاقات

السياسية يجب أن يقوم بشكل صارم على الاستقلال المطلق » ، وأن إطار العلاقات الإقتصادية هو « المنفعة المتبادلة والمساعدة المتبادلة والتكامل » ، وليس التطابق لأن « لكل أمة تقاليدها ومأثوراتها الخاصة وخصائصها » . وتولي هذه السياسات السوفيتية عناية خاصة بأمر المانيا . وقد حرصت في بداية مرحلة « إعادة البناء » على عدم الترحيب بتغيير الحدود السياسية القائمة « وبخاصة تلك التي قسمت المانيا الى دولتين شرقية وغربية » ، في الوقت الراهن . ولكن بدا واضحاً أن توحيد المانيا أمر قابل للبحث ، في نطاق أوروبا الواحدة .

* * *

لقد اعتمدت الولايات المتحدة الاميركية تجاه أوروبا الشرقية « استراتيجية التغيير السلمي » التي شرحها ريتشارد نيكسون في كتابه (١٩٩٩ نصر بلا حرب). وتقوم هذه السياسة في رأيه على الردع أساسا ، وتشمل أربعة عناصر أولها السعي الى استرخاء التوتر الاميركي السوفييتي ، « لأن التوتر الدولي يقوي الديكتاتورية في حين أن تخفيفه يضعفها .. وقد ساهمت سياسة الانفراج في السبعينيات في ظهور التضامن في بولندا، ولأن أثر الإنفراج على أوروبا الشرقية عشرة أمثال أثره على الاتحاد السوفييتي ». وثانيها تحقيق أقصى قدر ممكن من الإتصال الغربي مع شعوب أوروبا الشرقية وتقديم المساعدة لها . وثالثها السعي الى تخفيض القوات التقليدية الاميركية والسوفيتية في أوروبا ، « لأنه كلما قلّت القوة العسكرية للاتحاد السوفييتي في أوروبا الشرقية قلّت سيطرته عليها » . ورابعها معاونة الزعامات في أوروبا الشرقية التي تريد تطبيق إصلاحات حقيقية حتى لو أنها شيوعية . فهذه السياسة إذن ترتكز على المنافسة السلمية في أوروبا الشرقية وتعتمد « البراجماتية — العملية » .

نستطيع أن نفهم هذه السياسة بشكل أفضل وأعمق حين نتعرف على السياسة الأميركية تجاه أوروبا الغربية ، ورؤيتها لسياسة الاتحاد السوفييتي الأوروبية . وقد أوضح نيكسون « ان أوروبا الغربية مازالت بالنسبة للولايات المتحدة تمثل أهم رقعة استراتيجية واحدة من الأرض في العالم . فهي تضم مايزيد عن رُبع القوة الإقتصادية للعالم ، وتمثل الخطر الأمامي للدفاع ضد الاتحاد السوفييتي ». تماماً كما أوضح « أن أوروبا الغربية مازالت هدفاً جيوبولتيكيا رئيسياً للكرملين ، وأن من شأن إسباغ الطابع الفنلندي على أوروبا أن يعزز القوة الاقتصادية للاتحاد السوفييتي تعزيزاً هائلاً وأن يؤدي إلى كارثة اقتصادية للولايات المتحدة . وليس في وسع الولايات المتحدة أن تغوص في عزلة جديدة تكتفي فيها بنفسها فهي بحاجة إلى مساعدة حلفائها للدفاع عن مصالحها والمصالح الغربية حول العالم » .

★ ★ ★

واضح إذن أن أوروبا الغربية تجد نفسها اليوم في مرحلة مابعد قمة يالطة أمام استراتيجيتين ـــ سوفيتية واميركية ـــ تجاهها مختلفتين ، ولكنهما تعتمدان المنافسة السلمية . ولكل منهما رؤيتها للقارة الأوروبية وموقفها من توحيدها ، وسياستها من ثم تجاه أوروبا الشرقية . وليس من المتوقع أن يحدث تغيير جذري على المدى القريب في أي منهما ، لأن الشكوك في الدوافع لاتزال موجودة عند كل منهما فيما يخص الآخر . وهذا ما سيجعل القارة الأوروبية موضع تنافس قوي بينهما فكيف ترى أوروبا الغربية هذه الأمور ، وماهي سياستها تجاه أوروبا الشرقية ؟

لقد حدثت التحولات في أوروبا الشرقية بينما « الجماعة الأوروبية » على وشك الإقلاع لايجاد السوق الأوروبية الغربية الواحدة في مطلع عام ١٩٩٣ ، في محاولة تاريخية لتحقيق رؤية آبائها المؤسسين . وستضم هذه

السوق ٣٢٤ مليون مستهلكاً أي مايعادل سوق الولايات المتحدة ومرة ونصف من سوق اليابان . وستمثل هذه الخطوة تقدماً نحو بلوغ الوحدة الأوروبية . وجاءت هذه التحولات لتطرح موضوع المانيا الموحدة بعد انهيار جدار برلين في نوفمبر ١٩٨٩ ضمن أوروبا الواحدة ، ولتفسح المجال أمام توسع أوروبا الغربّية شرقاً .

إن الموقف الأوروبي الغربي من هذه التحولات في محصلته شديد التأييد لها ، ويرحب بقوة بسياسة إعادة البناء التي كانت وراءها . ويدخل في صنع هذا الموقف ما خلّفه تقسيم أوروبا في يالطا من مرارة في نفوس الأوروبيين الغربيين ومن شعور بالإثم إزاء ماعتبره البعض «خيانة» الأوروبيين الشرقيين. كما يدخل في صنعه تحسباً أوروبياً من أخطار المواجهة الاميركية السوفيتية التي ستكون أوروبا الغربية ساحة رئيسية لها ، وكذلك تحسباً أوروبياً من احتمال سيطرة ما يسمونه الحضارة الاميركية .

واضح أن اتجاه مسار الأحداث في أوروبا هو الى توحيد ألمانيا الذي ستوافق عليه الدولتان الكبيرتان مع شروط معينة . وواضح أيضاً أن هذا الاتجاه هو مع الوصول الى هوية ثقافية أوروبية واحدة مهيأة لتكون أوروبية عامة مستقبلاً . وقد أكد جاك دي لور رئيس « الهيئة الأوروبية » أن المانيا موحدة وكبيرة تتطلب أوروبا أقوى وأكثر ترابطاً . وأوضح أنه يعمل حالياً على تطوير تصور لأوروبا المستقبل يستند على عدة دوائر متداخلة ، « تكون دائرتها المركزية السوق المشتركة باعضائها الاثني عشر يتم توثيق عُرى الترابط بينها عن طريق الوحدة النقدية والسياسية والاقتصادية ، تليها دائرة أوسع تضم الدول المحايدة الأعضاء في الاتحاد الأوروبي للتبادل الحر الذي يضم الدول الاسكندنافية وسويسرا والنمسا ، ويمكن أن تضم اليها مستقبلاً دولاً مثل المجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ، أما الدائرة الثالثة الأوسع فتضم دولاً كالمغرب

وتركيا تتمتع بعلاقات مميزة مع السوق المشتركة ولكنها لاتملك شروط الدخول في الدائرة المركزية » . فدول أوروبا الشرقية واردة في مخططات الجماعة الأوروبية الوحدوية على المدى المتوسط . ويرى بريجنسكي « أن أوروبا الغربية في أحسن الأحوال ستكون قوة اقتصادية ، وأن توسعها شرقاً سيؤخر التكامل الأوروبي فترة » .

★ ★ ★

لايكتمل حديث أوروبا الشرقية و« الشمال » بمدلوله الاقتصادي دون الاشارة إلى اليابان التي تدخل فيه وواضح أن اليابان تتابع تحولات أوروبا الشرقية باهتمام شديد تماماً كما تابعت توجه الجماعة الأوروبية نحو إقامة السوق الواحدة ويرى ميكيهينو كوينهرو « أن اهتمام اليابان اليوم بما يجري مختلف عن اهتمامها بالأمس ، فهي تتمتع اليوم برؤية أوسع ، وتتطلع إلى إيجاد طريق في معالجة الاقتصاد العالمي تُجنِب العالم نشوب نزاع بين المقاربة الإقليمية والنظام الإقتصادي العامل الذي تحاول حفظه » . وقد طرح ناكوسوني في مقالة « نحو مجتمع دولي جديد » اهتمامات آسيا الاستراتيجية ، ورحب بإعادة البناء والمصارحة لأن لهما في رأيه « شَأن كبير للغاية » ، ودعا الى اختيار بديل تحسين العلاقات وصولاً الى بديل « الإقلاع عن النزعة الستالينية وسياسة الإحتواء وإرساء دعائم مصالحة عالمية شاملة وتطبيع حقيقي للعلاقات بين الشرق والغرب على أساس مبادىء وقيم جديدة » ، واعتبر أن الكرة في ملعب الاتحاد السوفييتي ليبادر ويتخذ خطوة لتوقيع معاهدة سلام بينه وبين اليابان « تشكل الأرضية للثقة المتبادلة » . وهكذا نتوقع أن يكون تعامل اليابان مع دول أوروبا الشرقية معنياً بالأمور الاقتصادية ، وأن يحكم علاقاته بها العلاقات اليابانية السوفيتية وذلك شأن الصين .

★ ★ ★

يمكننا أخيراً وفي ضوء ماسبق أن نقول أن علاقات أوروبا الشرقية بالجنوب بمدلوله الاقتصادي ستقع أساساً ضمن إطار علاقات الشمال الذي تتطلع الدول الأوربية الشرقية أن تكون منه بالجنوب . وواضح أن التحولات التي جرت في أوروبا الشرقية حفزت أطراف الجنوب على إجراء مراجعة شاملة لسياساتها تجاه « دول المنظومة الاشتراكية » ويقدم لنا التقرير الختامي لورشة العمل التي دعاها منتدى الفكر العربي لاقتراح سياسات عربية جديدة تجاه الإتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية في آذار / مارس ١٩٩٠ نموذجاً لافكار طرف « جنوبي » يحتل مكاناً خاصاً في دائرة الحضارة العربية الإسلامية . وقد تضمن هذا التقرير نظرة عامة على المتغيرات الدولية ، وعلى تطور الأوضاع في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية ، ومقترحات للعمل تتضمن خطوات عاجلة تواجه التهجير الصهيوني لليهود في المقام الأول وإطاراً أشمل يحتوي سياسات اقتصادية ، وآليات للتنفيذ . والإنطباع الذي يخرج به قارىء التقرير هو استشعار واضعيه لأهمية التحولات الجارية في أوروبا الشرقية ، وعزمهم على التعامل معها بموضوعية وبلغة المصالح المتبادلة وتصميمهم على مواجهة خطر التهجير .

★ ★ ★

وبعد ..

.. فإن التحولات والتغييرات في أوروبا الشرقية شأنها في أجزاء أخرى من كوكبنا ، تشي بوجود ظاهرتين تبرزان في عالمنا المعاصر هما « تخلخل الكتل » و« تلطف الايدلوجية » . وقد تفاعل في تكوينهما الرعب النووي وعنصر الدولة والنزوع القومي والقيم العملية البراجماتية والضرورات الواقعية. وطبيعي أن تحدث في إطارهما « تغيرات هيكلية » ، ويجري التطلع في نطاق بحث احتمالات المستقبل إلى ما يسميه جمال حمدان « الحل الوسط التاريخي »

« فلما كان الشرق والاتحاد هو قطب الايدلوجيا وقمتها ، وكان الغرب واميركا قطب التكنولوجيا ، وكانت أوروبا الغربية هي الوسط . فقد ينتهي الأمر إذن إلى أرض مشتركة يندغم فيها الجميع في نظام ايدلوجي واحد هو وسط بين الشيوعية الفاقعة والرأسمالية الكالحة ، لعله يكون الاشتراكية المعتدلة أو المعدلة أو العادلة أو العادية » . وقد اختتم جمال حمدان حديثه هذا الذي يدور حول الدائرة الغربية بشرقها وغربها بقوله « ان الدرس الأكبر الذي يعلمه لنا تاريخ الصراعات البشرية والسياسية أنه ليس هناك مايمنع في نهاية المطاف من أن يكون كل أعداء الأمس أصدقاء الغد . وان يصبح التشكيل السياسي الوحيد في العالم هو استراتيجية السلاح لا الصراع وحلف البشرية » .

واضح أن هذه التحولات والتغييرات الجارية في عالمنا تحثنا على بلورة رؤية مستقبلية تتضمن حلاً للمشكلات العالمية . وكتب الرؤى كما أوضح الأب اسطفان شرنبيته في دليله الى قراءة الكتاب المقدس « تنشأ عادة في زمن الأزمة » حين يتفق أن يبدو الشر مستعصٍ والطريق مسدود فلا مخرج ، فيجري التطلع الى أيام أفضل تأتي من خلال تغيير الأنفس . وهناك كثيرون اليوم يرون مع ناكاسوني « ان الوقت قد حان لكي تعمل جميع بلدان العالم ، كل في إقليمه ، وان تبذل جهدها فِعلاً لا قولاً من أجل الوصول الى حلول معقولة وبناءة للمشكلات الأساسية ، ومن أجل إقامة علاقات أفضل وأكثر دواماً تلائم القرن القادم » . كما يرى هؤلاء أن مثل هذه العلاقات لابد أن تأخذ بعين الإعتبار تطلعات الروح البشرية وتستلهم القيم الروحية . وهذا يقتضي حواراً بين المؤمنين ، تطلّع الى حدوثه فيمن تطلع المؤرخ ارنولد توينبي في قمة نضج أفكاره ورأى أن مستقبل الانسانية ومصيرها يتوقف عليه « وحدة » وبقاءً وازدهاراً ، أو انقساماً وزوالاً وتبدّداً » . وسنبقى نتطلع إلى أن يثمر الحوار تعاوناً على البر والتقوى واستقامة على الطريق « وألّو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماءً غدقاً » .

من وحي زيارة وفد برلماني عربي إلى الإتحاد السوفييتي

هذا الحديث عن العلاقات العربية السوفيتية والتفاعلات الجارية في الإتحاد السوفييتي هو من وحي زيارة قام بها وفد الإتحاد البرلماني العربي الى موسكو وألما أتا عاصمة جمهورية كازاخستان السوفيتية بين يومي ١١ و١٥/٧/١٩٩٠ ، تلبية لدعوة رئيس مجلس القوميات لمجس السوفييت الأعلى . وأنا أباشر كتابته في فجر يوم « موسكوي » صيفي غائم ممطر إثر انتهاء الزيارة الرسمية بعد أن أخذت حظي كاملاً من النوم لأول مرة منذ أسبوع ومشيت مشوار الصباح مسبحاً لله « فسبحان الله حين تُمسون وحين تُصبحون » وقد لفني الهدوء المخيم على « تلال لينين » حيث استضفنا في موسكو .

★ ★ ★

أتأمل في حصيلة هذه الزيارة التي شاركت فيها ضمن الوفد كعضو يمثل المجلس المركزي الفلسطيني ، فأجد أنها حصيلةُ مباركة ، وأرى في ذلك خير تعويض لي عما يتجشمه المرء من عناءٍ أحياناً بسبب متطلبات العمل العام . والحق انني كنت تواقاً لاعتكاف اسبوعين في أعقاب الفراغ من برنامج حافل حين رغب اليّ سماحة الشيخ عبد الحميد السائح رئيس المجلس الوطني الفلسطيني أن أشارك في هذا الوفد . وقد وجدت بعد أن فكرّت مرتين أن هناك ثلاثة أسباب تجعلني استجيب بحماس ، أولها أهمية الموضوعات التي

سيجري بحثها في الزيارة ومن بينها موضوع التهجير الصهيوني لليهود السوفييت ، وثانيها كون الوفد عربياً يتحدث باسم الدائرة العربية الأمر الذي أرتاح له بعامة وحين يكون التحرك على الصعيد الدولي بخاصة وكون الوفد برلمانيا يعبر عن تطلعات الشعوب بحرية لا تحد منها الإعتبارات الرسمية للوفد الحكومي ، وثالثها الرغبة في رؤية الأمور على أرض الواقع في الميدان بعد رؤيتها على صعيد الفكر . وقد دار في خلدي وأنا أوافق على المشاركة في الوفد انني شغلت خلال السنوات الثلاثة الماضية بمتابعة مرحلة « إعادة البناء » في الاتحاد السوفييتي فقرأت عشرات التقارير وشاركت في عدد من الندوات وكتبت عدة بحوث ومقالات ، وسيكون مفيداً أن أرى الأمور التي تابعتها على أرض الواقع وأقف على التطورات التي جرت على صعيد الحياة اليومية منذ زيارتي الماضية لموسكو قبل أربع سنوات . ودار في خلدي أيضاً أن أقرب المهام السياسية الى نفسي تلك التي قمت بها ضمن وفد عربي يمثل أُمتنا العربية ودولها ، ومَثّل عليها الحوار العربي الأوروبي الذي مثّل الجانب العربي فيه وفد واحد مقابل وفد أوروبي واحد ، واستحضرت كيف كان الوفد العربي في كل هذه المهام حريصاً على إبراز ممثل فلسطين فيه إبرازاً لقضية فلسطين التي هي قضية الأمة جمعاء وكيف كان الطرف الآخر يستشعر قوة هذه الأمة حين تتكاتف دولها وتعمل معاً . ودار في خلدي أخيراً أن موضوع العلاقات العربية السوفيتية بعامة وموضوع التهجير بخاصة يستحق منا أن نبذل جهداً لنصل فيه الى أفكار ونتائج محددة نسهم من خلال طرحها على أمتنا في تلمس طريق العمل من أجل مواجهة الخطر والإلتحام بالإنتفاضة في زمن الانتفاض .

اسعدني أن ألمس قبيل بدء الزيارة إهتمام الاتحاد البرلماني العربي بالدعوة التي وجهها اليه رئيس مجلس القوميات واستشعاره لأهميتها . وقد استجاب لها بتشكيل وفد على مستوى عالٍ ترأسه لأول مرة في وفود الاتحاد رئيس الاتحاد

السيد هلال لوتاه رئيس المجلس الوطني لدولة الإمارات العربية ، وشارك فيه رئيس مجلس الشورى لدول المغرب السيد عمر بيجاوي نائب رئيس البرلمان التونسي ، والدكتور جمال صرايره النائب الأول لمجلس النواب الأردني، والسيد شاكر اسعيد رئيس لجنة العلاقات العربية والدولية في مجلس الشعب السوري ، والسيد عادل عبد الله عبد الكريم رئيس لجنة العلاقات العربية والدولية في المجلس الوطني العراقي ، والدكتور محمد عبد اللاه رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشعب المصري ، والسيد حسين الشريف أمين المؤتمر الشعبي في منطقة مرزق بليبيا ، والسيد عبد الرحمن بوراوى أمين عام الإتحاد وهو من الجزائر . وكم انتشيتُ وأنا أرى التئام شمل الوفد في القاهرة قبيل يوم من مغادرته . وقد كان عشاء العمل الذي دعا اليه الأخ الدكتور رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب المصري مناسبة طيبة للحديث عن أهداف الزيارة وتبادل خبرات أعضاء الوفد ومنهم من زار موسكو مؤخراً أكثر من مرة . تماماً كما لقاء الوفد بالسفراء العرب في موسكو عقب وصوله مباشرة مناسبة طيبة للتزود بحصيلة مالديهم .

كان واضحاً من برنامج المحادثات الذي تسلمه الوفد حال وصوله مطار موسكو أنه برنامج مكثف حافل . وقد باشره الوفد صباح يوم الخميس ٧/١٢ مبتدئاً بمحادثة في لجنة الشؤون الخارجية مع مجموعة بارزة من أعضائها برئاسة الكسندر زاسوخوف جرت في إحدى قاعات الكرملين وامتدت لأكثر من ساعتين ، تلاها غداء عمل في فندق اكتابرسكايا شارك فيه عدد من المعنيين البارزين بالسياسة الخارجية ، ثم جاءت المحادثة مع السيد رفيق ينشانوف رئيس مجلس القوميات في قاعة أخرى من قاعات الكرملين ، وتلتها المحادثة في وزارة الخارجية مع نائب الوزير الكسندر سلو نوفوف . وختم الوفد محادثاته في موسكو بلقاء مع السيد زاسوخوف/رئيس لجنة العلاقات الخارجية صباح يوم

الجمعة جرى فيه بلورة حصيلة ماتم طرحه من الجانبين ، وغادره السيد زاسوخوف الى اجتماع المؤتمر الثامن والعشرين للحزب الذي كان منعقداً ليتم انتخابه في اليوم التالي عضواً في المكتب السياسي .

★ ★ ★

ماذا استهدف السوفييت من دعوتهم الوفد البرلماني العربي ؟ وماذا استهدف الوفد البرلماني العربي من تلبيته لها ؟ ماذا كان الطرح العربي ؟ وماذا كان الطرح السوفييتي ؟ وماهي النتائج التي نستخلصها من مجموع ما تم طرحه ؟

أوضح السوفييت في بداية المحادثات أنهم توصلوا إلى استنتاج بأن دور البرلمانيين يتعاظم في العلاقات السياسية بين الدول وداخل دولهم . وقد بدا للوفد العربي البرلماني أن مجلس السوفييت الأعلى شرع في القيام بدور نشط بعد أن أسندت اليه صلاحيات في عهد إعادة البناء ، وأن القيادة السوفيتية حريصة على إبراز هذا الدور أمام العالم تأكيداً على حدوث تحول يتحقق فيه قدر أكبر من المشاركة السياسية . وأوضح السوفييت أيضاً أنهم مهتمون بمعرفة آخر تطورات الموقف في المنطقة العربية ، تأكيداً على « أن الاتحاد السوفييتي لايقف بعيداً عن الصراع العربي الاسرائيلي » . وقد بدا للوفد البرلماني العربي أن القيادة السوفيتية مدركة ما أصاب صورة الاتحاد السوفييتي في الوطن العربي من اهتزاز بسبب تهجير اليهود السوفييت إلى فلسطين وماطرأ على العلاقات العربية السوفيتية من تطور في ظل المتغيرات الدولية ، وهي من ثم حريصة على أن تولي العلاقات العربية السوفيتية بعض إهتمامها بعد أن أعطت اهتماماً لعلاقاتها مع الغرب ، وأن تحاول فهم وجهة النظر العربية وتشرح بدورها وجهة نظرها .

كان موضوع تهجير اليهود السوفييت الى فلسطين هو الشاغل الأول

للوفد البرلماني العربي . وقد وضع الوفد نصب عينه أن يصارح مضيفيه برؤيته لهذا الموضوع ، وأن يطرح أفكاراً حول ماينبغي عمله ، وأن يصل من خلال الحوار إلى إستنتاج بشأن ماسيحدث في الأيام القادمة كي ينقله لقومه ليأخذوه في الاعتبار وهم يخططون لمواجهة الحملة الصهيونية الاستعمارية الجديدة و« إن الرائد لايكذب أهله » . وكان للوفد البرلماني العربي شاغل آخر هو التعرف على التطورات الأخيرة في الاتحاد السوفييتي والبحث في مستقبل العلاقات العربية السوفيتية في ضوء المتغيرات الجارية في الاتحاد السوفيتي وبروز النزعات القومية والتوجه نحو اللامركزية . وهذا ماحدا بالوفد أن يعرب عن رغبته في زيارة جمهورية اسلامية آسيوية بعد الفراغ من مباحثاته في موسكو ، فكان أن جرت تلبية هذه الرغبة .

إنطلق الوفد البرلماني العربي في طرحه من استذكار « العلاقة التاريخية » بين المنطقتين العربية والسوفيتية وكان حديثه مستهدفاً تسليط الضوء على الثوابت في هذه العلاقة في مراحلها المتتالية . وقد رحبّ بالتغيرات الايجابية التي شهدتها العلاقات الدولية ، وبإعادة البناء ، ولكنه سجّل بقلق شديد تدهور الأوضاع في منطقة الوطن العربي بفعل السياسة العدوانية الاسرائيلية . وطرح محاور تدور حولها المحادثات هي تصاعد القوة العسكرية الاسرائيلية والتهجير الصهيوني لليهود السوفييت والصراع العربي الصهيوني(وآفاق التعاون العربي السوفييتي . وقد تتابع عدة متحدثين من الوفد البرلماني العربي في طرح الرؤية العربية لموضوع التهجير ، فميزوا بين الهجرة والتهجير ، وفندوا مزاعم إعتبار مايجري ضمن حقوق الإنسان ، وشرحوا مايحدث على الأرض اليوم في الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة ، وتساءلوا عن أهداف السياسة الاميركية من دعم هذا التهجير كما تساءلوا عن أسباب بروز ظاهرة مايسمى في الغرب « العداء للسامية » في عدد من الدول الأوروبية ومنها الاتحاد السوفييتي وفي

الولايات المتحدة الاميركية ، وأثاروا مع السيد نائب وزير الخارجية عدوانية قرار الكونجرس الأميركي بشأن القدس على القانون الدولي ، والتحرك الاميركي لإلغاء القرار الأممي رقم ٣٣٧٩ لعام ١٩٧٥ الذي يعتبر بحق ان الصهيونية شكل من أشكال العنصرية ، ووقفوا طويلاً أمام دور الحركة الصهيونية في تهجير اليهود من أوطانهم وأمام الخطر الذي يُسببه تحويل الكيان الصهيوني الى مستودع لأسلحة الدمار ليس على أمن المنطقة العربية بل وعلى أمن الاتحاد السوفييتي والأمن العالمي . وأولى الطرح العربي عناية خاصة لآفاق التعاون الاقتصادي الذي يمكن أن يقوم بين الدول العربية والاتحاد السوفييتي، ولشرح الانتهاكات الاسرائيلية في الوطن المحتل وللسياسة الاسرائيلية التوسعية ولما تقوم به الانتفاضة الفلسطينية من أعمال بطولية ، وللحديث عن هدف التحرير وممارسة حق المقاومة الذي كفلته المواثيق الدولية وقرارات الأمم المتحدة .

إنطلق الطرح السوفييتي من التعبير عن الحرص على العلاقات السوفيتية العربية « التي تقوم على قاعدة وطيدة من الصداقة » . وقد أوضح هذا الطرح أن الاتحاد السوفييتي يستشعر خطورة أزمة الشرق الأوسط ، وأن السياسة الاسرائيلية تجاه الدول العربية والشعب الفلسطيني هي المسؤولة عن تفاقم الأزمة ، وأن الاتحاد السوفييتي حريص على المشاركة في إيجاد حل للصراع العربي الصهيوني ، ولايمكن له أن يقف بعيداً ، وقد وقف ولايزال الى جانب الحق العربي ، وأنه يسعى الى تطوير علاقاته الثنائية مع جميع الدول العربية وقد تبادل مؤخراً التمثيل الدبلوماسي مع سلطنة عمان .

شرح الجانب السوفييتي للوفد العربي البرلماني كيف حرص الإتحاد السوفييتي على أن تكون أزمة الشرق الأوسط بداية مناقشة الأزمات الاقليمية في لقاء واشنطن بين جورباتشيف وبوش ، وكيف طالب باستمرار الحوار

الفلسطيني الاميركي ، وكيف حاول جورباتشيف اقناع الولايات المتحدة بالتأثير على الجانب الإسرائيلي . وقد جاء الرد السوفييتي على سؤال عربي « ان الحوار بيننا وبين واشنطن حول الشرق الأوسط مستمر ، ولكن الموقف الاميركي فيه يتحول نحو الأسوأ لأننا نتعامل مع إدارة أميركية تدعم إسرائيل . والاتحاد السوفييتي لايريد أن يواجه الولايات المتحدة وانما يريد التعامل معها وعليها أن تدرك بأنها لن تكون خليفة للإتحاد السوفييتي في البلاد التي تربطه علاقة بها وإنما يمكن لها أن تكون شريكاً » . واذكر انني مِلت اثناء غداء العمل لأسأل السيد بولياكوف الجالس الى جواري عن انطباعه حول الموقف الاميركي اليوم بعد أن خاض غمار المباحثات مع « مورفي » ثم مع « روس » على مدى خمسة أعوام ونصف ، ففهمت من إجابته بأن هذا الموقف يتحول إلى الأسوأ . وردِ السوفيت على سؤال عربي آخر حول كيفية الوصول بالولايات المتحدة الى تغيير سياستها « نحن نعلم أن هناك رؤية عالمية بأن موقف الاتحاد السوفييتي على الصعيد الدولي قد ضعف . ولكننا نستطيع أن نقوم بدورنا ، ونحن نمارس إنتقاد سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط ، وسنكون أقدر على القيام بدورنا اذا وثق العرب بموقف الاتحاد السوفييتي تجاههم » . واعتبر السوفييت أن الانتفاضة الفلسطينية عامل إيجابي في دعم الجهود الرامية الى بلوغ سلام عادل . كما اعتبروا أن الحكومة الاسرائيلية الجديدة هي عامل سلبي .

حاول الجانب السوفييتي أن يرد باستفاضة على جميع ماطرحه الوفد البرلماني العربي بشأن التهجير وبصراحة أيضاً ، ولكن الرد لم يكن شافياً ولا وافياً . فالهجرة كما يقول السوفييت « مسألة معقدة جداً . وقد استمعتم الى تصريح الرئيس جورباتشيف حولها أثناء وجوده في واشنطن . ونحن نعلم أن العرب يتساءلون متى يتم تنفيذ ماوعد به التصريح ؟ والتفاعل قوي عندنا حول

الموضوع . ونحن لانحب أن نرى المواطنين السوفييت اليهود مجبرين على الذهاب لأراضي الغير المحتلة لأن في ذلك خرق لحق المواطن الفلسطيني وخرق أيضاً لحق المواطن السوفييتي . وأنتم تسألوننا عن بواعث الهجرة وعن « العداء للسامية » ، ونحن نعتقد أن الباعث الديني عند كبار السن موجود لأنهم يعتقدون بثواب الموت هناك ، وواضح أن بعض اليهود السوفييت واقع تحت تأثير الدعاية الصهيونية وهؤلاء يحلمون بالحصول على المال الوفير ونحن نعلم أن بلادنا تمر بصعوبات اقتصادية وبعض اليهود السوفييت خائف من تفاقم الأزمة الإقتصادية والدعاية تصور لهم أنهم سيهاجرون الى الجنة » .

ماذا سيعمل الاتحاد السوفييتي لوقف هذا التهجير الذي يزود الحملة الصهيونية الجديدة بالجنود ؟

لقد صارح أحد اعضاء اللجنة بأن مضاعفات السماح بالهجرة فاجأتهم ، وهم لهذا يقدمون في اجوبتهم صورة فوتوغرافية ولكنهم لم يستكملوا بعد دراسة الموضوع . وقال آخر « لقد بدأنا محاولة عرقلة التهجير الى الأراضي العربية المحتلة فاتصلنا بالبرلمان الأوروبي وتم تجميد بعض الاتفاقيات الأوروبية الاسرائيلية . ونحن نحاول التأثير على فرنسا وبريطانيا ليقوموا بعمل شيء ضد التهجير كما أن هناك ضغطاً على الولايات المتحدة لتزيد عدد من تقبلهم من المهاجرين وقد رفضنا فتح خط مباشر بين موسكو وتل أبيب واظهرنا لإسرائيل بوضوح أننا سنجمد تطبيع العلاقات وسنحاول إيجاد طرق جديدة للتأثير على اسرائيل ، كما سنسعى لتوعية المهاجرين اليهود السوفييت بأخطار الهجرة الى الأراضي العربية المحتلة ونحن عاكفون على تشريع قانون الهجرة الذي يمكن المهاجر من العودة » . ولقد وافق الجانب السوفييتي على أن يتضمن البيان الصحفي الصادر عن المحادثات القول « ناقش البرلمانيون العرب والسوفييت

الأعمال المنافية للقانون التي ترتكبها السلطات الاسرائيلية لتوطين اليهود المهاجرين بمن فيهم اليهود القادمون من الاتحاد السوفييتي في الأراضي العربية ، واعتبرا تلك الاعمال خرقاً صارخاً لمعاهدة جنيف الرابعة .. واشار الجانبان الى ضرورة اتخاذ التدابير الفعالة من أجل عدم السماح بتغيير التركيب السكاني .. » ولكن هل ستوقف هذه الاجراءات التهجير ؟!

إن من اهم النتائج التي توصل اليها الوفد ضرورة متابعة الجهد مع الاتحاد السوفييتي للوصول الى سبل فعالة في مواجهة الحملة الجديدة الصهيونية ، والتصدي في الوقت نفسه لهذه الحملة في مصبها على أرض فلسطين . ومازال حديث الزيارة متصلا .

برلمانيون عرب وسوفييت وموضوع التعاون العربي السوفييتي

كان « البحث في آفاق التعاون العربي السوفييتي » هو الموضوع الآخر المقترن بموضوع التهجير الصهيوني لليهود السوفييت في محادثات وفد الإتحاد البرلماني العربي مع مضيفه مجلس السوفييت الأعلى التي جرت في موسكو يومي ١٢ و١٣/٧/١٩٩٠ .

ثلاثة أمور كان الإنطلاق منها في مقاربة البرلمانيين العرب والسوفييت لهذا الموضوع ، مثّلت في مجموعها أرضية صلبة يقفون عليها .

الأمر الأول الإقتناع بدور متعاظم للبرلمانيين في معالجة قضايا المنطقتين العربية والسوفيتية . وقد تكرر الإعراب عن هذا الإقتناع من الجانب السوفييتي في جميع اللقاءات . وأذكر أن السيد الكسندر زاسوخوف رئيس لجنة الشؤون الخارجية لمجلس السوفييت الأعلى الذي جرى انتخابه في المكتب السياسي للحزب استهل المحادثات بالحديث عن استنتاج تم التوصل اليه في موسكو بأن دور البرلمانيين يتعاظم في عالمنا في هذه الفترة ، وأن للبرلمانيين في المنطقتين من ثم دوراً خاصاً يقومون به في تحقيق السلام العادل واستشراف آفاق التعاون ، وتحدث عن إرسال وفدين برلمانيين سوفييت إلى عدد من الدول العربية للإطلاع على خبرة البرلمانيين العرب وجهة أولهما دمشق وعمان وتونس

ووجهة الآخر بغداد والكويت ، وهناك وفد ثالث متجه إلى القاهرة قريباً . كذلك أعرب الجانب العربي عن هذا الاقتناع عملياً بتشكيل وفده الذي ضم رئيس برلمان ونائبي رئيسي برلمانيين آخرين وثلاثة رؤساء لجان وعضواً بارزاً له موقعه القيادي . وقد تحدث الوفد العربي عن انتعاش الحركة البرلمانية في المنطقة العربية ورحب بانتعاشها في الاتحاد السوفييتي . والحق أنني لاحظت هذا الانتعاش باهتمام وتأملت فيه ، فهذا الزميل السوفييتي الذي يجلس أمامي كرئيس لجنة شؤون خارجية برلمانية اليوم عرفته سفيراً يمثل حكومته في عاصمة عربية ، وهذا الزميل الآخر المنتخب عن إحدى دوائر موسكو عرفته أكاديمياً لايزال يتولى رئاسة أحد المراكز العلمية . وقد استوقفني في صحيفة أنباء موسكو التي تصدر بالعربية وصف لانتعاش الحياة البرلمانية من خلال الحديث عن حياة إحدى السيدات الاعضاء في مجلس السوفييت الأعلى . ويتضمن الوصف القول « يغير ظهورها في الشارع اتساقه بحدة ، فقد قابلت عشرة اشخاص بعد خروجها من فندق « موسكو » ، قبل أن تصل إلى أقرب زاوية حيث انتظرتها السيارة ، واقترب هؤلاء منها لإلقاء التحية أو لطرح سؤال ، وطالبتها عجوز جريئة بإعادة كولونات الأطفال فوراً الى السوق .. ترتب عليها في ذلك اليوم القاء خطبة في ملعب « ايزمايلوف » أمام أربعة آلاف شخص « انها تحتفظ بالقصاصات التي كتبت عليها اسئلة الجمهور ، ويبدو أنها توضح تغير الوضع السياسي في البلد » .

الأمر الثاني إدراك خبرة تاريخ العلاقات العربية السوفيتية . وقد بدا واضحاً هذا الإدراك عند الجانب السوفييتي الذي كان حريصاً على أن يستحضر تاريخ هذه العلاقات ليؤكد عزمه على توثيقها . فهذا رئيس مجلس القوميات رفيق ينشانوف يحكي وهو يعبر عن سروره العظيم بلقاء الوفد عن سبع سنوات حافلة قضاها في البلاد العربية كسفير ، وعن زيارته لعدة دول عربية كرئيس

للبرلمان السوفييتي ، وهو ينقل تحيات جورباتشيف الذي كان معنياً وسط انغماسه في مؤتمر الحزب بأن يتابع محادثات الوفد وتحيات لوكيانوف رئيس مجلس السوفييت الأعلى ، ثم يتحدث عن أوضاع الاتحاد السوفييتي وثقته بتعاون أصدقائه العرب معه . وهذا الكسندر سازخوف يقول ان سنة ١٩٩٠ كانت غنية بزيارتي الرئيسين السوري والمصري للاتحاد السوفييتي . وهذا الكسندر سلونوفوف نائب وزير الخارجية يقول منذ عشرات السنين والاتحاد السوفييتي على تعاون مع العرب . وقد عبّر عن صداقته في مواقفه من القضايا العربية مثل أزمة لبنان وحرب العراق وايران ، وكذلك في علاقاته الثنائية . وتحسن هذه العلاقات الثنائية مقياس آخر للسياسة السوفيتية وقد شهد هذا العام إرسال أول سفير سوفييتي إلى سلطنة عمان .

بدا واضحاً أيضاً إدراك خبرة تاريخ العلاقات العربية السوفيتية عند الجانب العربي . وقد استهل رئيس الوفد حديثه بالإشارة إلى ماحققه التعاون العربي السوفييتي من نتائج ايجابية في مجالات عدة . وتحدث الأخ الدكتور محمد عبد اللاه رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشعب المصري عن الاعتزاز بمواقف مبدئية وقفها الاتحاد السوفيتي وطرح آفاق التعاون العربي السوفييتي كأحد محاور المحادثات في مختلف المجالات . وجاء حديث كاتب هذه السطور مستعرضاً تاريخ العلاقات منذ رحلة ابن فضلان إبان العصر العباسي ليستخلص حقائق المكان والزمان التي تحكمها. ولم يكن الجانبان غافلين عن الأزمات التي حدثت في هذه العلاقات ولا عن الإختلاف القائم حول بعض الأمور الفكرية والسياسية ، ولكنهما كانا مقتنعين بأن المحصلة كانت ايجابية وأن تمتين علاقاتهما ضرورة مستقبلية لهما تستلزم إرساءها على قاعدة من النِدية والمصالح المشتركة، وأن عليهما إيجاد صيغ تعاون مناسبة .

الأمر الثالث إحاطة بالأوضاع الدولية بعامة وبأوضاع المنطقتين العربية والسوفيتية بخاصة وبالظروف المحيطة بكل منهما والمناخ السائد فيهما .- فالجانبان يتابع كل منهما من موقعه الظواهر الجديدة في العلاقات الدولية ويشارك فيها . وهما معنيان بكبح سباق التسلح . والجانب العربي يتابع باهتمام عملية إعادة البناء الجارية في الاتحاد السوفييتي في أبعادها الإجتماعية والإقتصادية والسياسية والروحية . والجانب السوفييتي مُتابع باهتمام تطورات أوضاع النظام العربي ومشغول بقضية فلسطين والصراع العربي الصهيوني .

★ ★ ★

عنيت محادثات البرلمانيين العرب والسوفييت باستكشاف آفاق التعاون بين المنطقتين في مختلف المجالات ، وبلورة أفكار محددة حول كيفية العمل . وكان طبيعياً أن تأخذ تطورات الموقف في قضية فلسطين اهتماماً خاصاً . وقد أوضح السوفييت أنهم مهتمون بمعرفة هذه التطورات مؤكدين على أن الإتحاد السوفييتي لايقف بعيداً عن الصراع العربي الصهيوني ، ولايقبل بالمحاولات الاميركية لإبعاده . وتناولت المحادثات في معرض متابعتها تطورات الموقف فضلاً عن موضوع التهجير تصاعد القوة العسكرية الاسرائيلية والسياسة الاميركية تجاه المنطقة ضمن التحالف الاستراتيجي الاميركي الاسرائيلي والخطر الذي يمثله تحويل الكيان الصهيوني الى مستودع لأسلحة الدمار الشامل ليس على أمن المنطقة العربية فحسب بل وعلى أمن الاتحاد السوفييتي والأمن العالمي بعامة .

لقد تضمن البيان الصحفي الصادر عن المحادثات إلماحات عن حصيلة البحث في هذا الموضوع . فالبرلمانيون العرب قدّروا كما جاء في البيان « الجهود السوفيتية الموجهة نحو كبح سباق التسلح » . وأعرب الجانبان « عن قلقهما بخصوص سباق التسلح في الشرق الأوسط وأشارا إلى ضرورة العمل على تجريد

هذه المنطقة من جميع أسلحة الدمار الشامل». والحق أن الجانب السوفييتي أبدى تفهماً لقلق الجانب العربي من مستودع السلاح الاسرائيلي ، وأوضح أنه يفهم جيداً موقف الدول العربية ورغبتها في أن يكون لديها مايردع السياسة الإسرائيلية العدوانية . ولكن الجهد يجب أن يتركز دولياً على كبح سباق التسلح وقد أوشكت أوروبا أن تنجح في ذلك ، ولابد من توجيه ضغط قوي على اسرائيل ومن داخلها ايضاً لتتجه إلى نزع أسلحة الدمار الشامل . وقد بدا واضحاً أن المنطق الذي يحكم السوفييت اليوم بشأن هذا الموضوع هو أن تحقيق الأمن لايأتي من خلال سباق التسلح ولايتوقف على كمية السلاح الموجود وانما يأتي من خلال إزالة أسباب التوتر . وبدا واضحاً في الوقت نفسه أن السوفييت ينحون باللائمة على اسرائيل في سباق التسلح ، وهم يتطلعون إلى ان تقوم دولة غربية بتبصيرها بأخطار سياستها هذه .

تناولت المحادثات مايعرف « بأزمة الشرق الأوسط » ، وتحدث البيان الصحفي عن إعراب الجانبين « عن قلقهما بخصوص الوضع المتفجر في منطقة الشرق الأوسط وعدم إيجاد تسوية عادلة وشاملة للصراع العربي الإسرائيلي » . والحق أن الجانب السوفييتي بعد أن أكد مرات أنه لايقبل أن يقف بعيداً عن « الصراع والمنطقة » أعلم الجانب العربي كيف حرص الاتحاد السوفييتي على أن تكون أزمة الشرق الأوسط هي الأولى في موضوع مناقشة الأزمات الإقليمية في لقاء جورباتشيف بوش الأخير بواشنطن ، وكيف حاول جورباتشيف إقناع الولايات المتحدة بالتأثير على الاسرائيليين . وقد سمع الجانب العربي التأكيد بأن تحسين العلاقات السوفيتية بواشنطن ليس على حساب علاقاته العربية . والقول اننا نعلم أن هناك رؤية عالمية بأن موقف الاتحاد السوفييتي على الصعيد الدولي قد ضعف ولكننا سنقوم بدورنا . وقد تتالت أسئلة الجانب العربي حول عددٍ من المسائل في هذا الموضوع ، وبدا الحديث

العربي ذا شجون ، فما هي حصيلة اكثر من خمس سنوات في المحادثات الأميركية السوفيتية حول أزمة الشرق الأوسط ؟ وماهو التصور السوفييتي لعملية التسوية لبلوغ سلام عادل ؟ وكيف يمكن التعاون للوصول بالولايات المتحدة الى تغيير سياستها المنحازة لاسرائيل ؟ وتضمن الرد السوفييتي القول « حوارنا مع واشنطن مستمر حول الشرق الأوسط ، ولكن الموقف الأميركي فيه لم يتحسن » والقول « ان الاتحاد السوفييتي لايريد مواجهة الولايات المتحدة وانما يريد التعامل معها ، وعليها ان تدرك بأنها لن تكون خليفته في المناطق التي تربطه علاقة بها وإنما يمكن أن تكون شريكاً » والقول « نحن نمارس انتقاد سياسة الولايات المتحدة تجاه الصراع العربي الإسرائيلي وسنكون أقدر على القيام بدورنا اذا وثق العرب بموقف الاتحاد السوفييتي تجاههم » . وقد تحدث البيان الصحفي عن حصيلة المحادثات في هذا الموضوع فقال إن الجانبين « اشارا الى ضرورة المباشرة بعملية السلام في المنطقة من خلال المؤتمر الدولي للسلام بمشاركة الأطراف المعنية كافة بما في ذلك منظمة التحرير الفلسطينية والأعضاء الخمس الدائمين في مجلس الأمن . وعبر الجانبان عن ضرورة الانتقال في مسألة التسوية العادلة الى الواقع العملي ، والبحث عن مختلف السبل لعقد المؤتمرالدولي للسلام بالإستخدام الفعال لأجهزة الأمم المتحدة من أجل تنفيذ جميع القرارات الأممية المتعلقة بالقضية الفلسطينية وضمان الحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني بما فيها حقه في العودة وتقرير المصير وإقامة دولته المستقلة على ترابه الوطني » .

لعل أكثر ما ميزّ محادثات البرلمانيين العرب والسوفييت حول « ازمة الشرق الأوسط » مبادرة الجانب العربي إلى طرح ما بلوره الفكر السياسي العربي حول مجموعة نقاط تتعلق بهذا الموضوع ، ومن هذه النقاط التعاون العربي السوفييتي لمواجهة التحرك الأميركي لإلغاء القرار الأممي رقم ٣٣٧٩

لعام ١٩٧٥ حول الصهيونية كشكل من أشكال العنصرية والقدس والعدوان الذي مثله قرار الكونجرس الأميركي بشأنها على القانون الدولي والحق العربي وحقوق المؤمنين من النصارى والمسلمين ، وبحث ظاهرة « العداء للسامية في دائرة الحضارة الغربية » . ولقد تأملت في حصيلة ماتوصلت اليه المحادثات بشأن امكانيات التعاون وآفاقه فوجدت أن الامكانيات ليست قليلة بل هي كثيرة، وأننا بحاجة إلى التعامل معها في ضوء فهمنا لطبيعة فترة الانتقال التي يمر بها الاتحاد السوفييتي ، وأن هذا التعامل يجب أن يعتمد منهج الربط بين المصالح . وهذا يوصلنا إلى الإشارة لتناول المحادثات التعاون في المجال الاقتصادي .

لقد دار الحديث عن التعاون في المجال الاقتصادي في كل جلسة من جلسات المحادثات . وكان الاخوة السفراء العرب قد وضعوا الوفد في صورة الأهمية التي يحتلها هذا الموضوع عند المسؤولين السوفييت . بل ان دبلوماسياً عربياً في موسكو أراد أن يصور لي مدى سيطرة موضوع الإقتصاد على الأذهان في مختلف القطاعات فحدثني كيف نظم له بعض الطلاب العرب زيارة لأحد أساتذتهم الكبار بالجامعة هناك ، فرتب أمره على البحث في الأمور العلمية واذا بالاستاذ يبدأ الحديث بموضوع التعاون الاقتصادي .. وكانت جميع التقارير التي حملناها معنا الى موسكو عن زيارات الوفود السابقة وماتوصلت اليه ورشات العمل العربية تبرز أهمية هذا الموضوع . وقد تناولت المحادثات البحث في كيفية بناء التعاون الاقتصادي وتطرق هذا البحث الى الخطوات الجارية في الاتحاد السوفييتي للانتقال الى «اقتصاد السوق المنظم» كما جاء في البيان الصحفي ، والى مايرافق هذا الانتقال من صعوبات تبرز ، والى كيفية معالجة تعقيدات المكتبيين البيروقراطيين. وأبرز البيان الصحفي عزم الجانبين على العمل لتطوير علاقات الصداقة والتعاون القائمة بين الاتحاد السوفييتي والبلاد العربية في مختلف الميادين « لاسيما في الميدان الاقتصادي ، ودراسة

امكانية استثمار الأموال العربية في الاقتصاد السوفييتي » . وتردد في المحادثات الحديث عن إقامة (بنك) مصرف عربي سوفييتي .

كان واضحاً للبرلمانيين العرب أن التعاون في المجال الاقتصادي يوجد حقائق تجسد الربط بين المصالح ، وتفعل فعلها في زيادة إمكانيات التعاون التي إذا كانت تبدو اليوم غير قادرة على الصعيد السياسي لمعالجة « أزمة الشرق الأوسط » محدودة التأثير ، فإن تأثيرها يمكن أن يتعاظم مستقبلاً . كما كان واضحاً للبرلمانيين العرب أن حديث بعض الأصدقاء السوفييت عن حاجة الاتحاد السوفييتي الى دعم أصدقائه العرب وعونهم ومساندتهم هو من قبيل « الأدب الجم » لأن الاتحاد السوفييتي كان ولايزال قادراً على دعم أصدقائه ، ومن هنا فالحديث هو عن تعاون الأنداد ويجب أن ينأى حين يتناول الاقتصاد عن وضع الشروط كما تردد في قمة « هيوستن تكساس » للدول الصناعية السبع ، وصيغة « تفاعل » تبرز في لغتنا عملية جارية بين طرفين كل منهما يفعل .

إن آفاق التعاون العربي السوفييتي رحبة ، وإن إحسان بناء علاقات هذا التعاون يقتضي منا جهداً مكثفاً نبذله ومتابعة يقظة نقوم بها وحصراً لكل الامكانيات ، بما في ذلك التعرف على أوضاع الجمهوريات السوفيتية واحدة واحدة ، ومنها جمهورية كازاخستان التي زارها الوفدُ وتستحق حديثاً خاصاً .

خواطر حول التفاعلات الجارية في الاتحاد السوفييتي

كثيرة هي الخواطر التي خطرت لي من وحي زيارتي للإتحاد السوفييتي ضمن وفد الاتحاد البرلماني العربي في الأسبوع الثاني من شهر تموز ــ يوليو ١٩٩٠ . وقد اتصل بعضها بالتفاعلات الجارية هناك هذه الأيام . وكانت تتداعى إلى خاطري فجر كل يوم بعد أن آخذ حظي من النوم وأصلي لله خالق الكون وأمشي مشوار الصباح مسبحاً « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » وقد لفني الهدوء في حديقة بيت الضيافة على « تلال لينين » في موسكو وحديقة بيت الضيافة المزروعة بالتفاح في آلما‌أتا عاصمة جمهورية كازاخستان التي يعني أسمها باللغة الككلازاخية « أبو التفاح » . وقد باشرت كتابة ملاحظات تتعلق بهذه الخواطر هناك والطقس في موسكو غائم ممطر وفي آلما‌أتا غائم نادر المطر ، وتذكرت زيارات ثلاث سابقة قمت بها الى الاتحاد السوفييت في أصياف أعوام ١٩٧٤ و١٩٧٩ و١٩٨٦ والخواطر التي سجلتها عنها وضمنتها بعض كتبي .

أتأمل بين يدي تسجيل بعض هذه الخواطر في كيفية تكوّن الخاطرة عند الانسان ، فأجد أن مايراه ومايسمعه يوّلد إنطباعات لديه تتفاعل مع مالديه في ذهنه من صور وأفكار فتتكون الخاطرة . ولقد رأيت خلال الزيارة وسمعتُ وأنا أحاور ممن حاورت ، وكان لدي الكثير من الصور والأفكار التي تكونت

عبر قراءات وأحاديث تناولت عهد إعادة البناء والمصارحة في الاتحاد السوفييتي . وكنتُ قبيل النوم أقرأ في أحد أعداد صحيفة « أنباء موسكو » صدر أثناء الزيارة ويُصدرها اتحاد الجمعيات السوفيتية للصداقة والعلاقات الثقافية ووكالة أنباء « نوفوستي » ، بعدة لغات منها العربية . وقد شدتني هذه الصحيفة اليها بغنى مادتها وتنوعها وصراحتها .

تبدو موسكو مدينة هادئة إذا ماقورنت بالعواصم الأخرى الكبيرة في عالمنا ومنها القاهرة التي بلوت ضجيجها من خلال إقامتي فيها . وقد عزز الطقس الممطر الغائم شعوري بالهدوء فقلت للشاب الصحفي الروسي الذي تخرج حديثاً من الجامعة « في كل مرة زرت فيها موسكو أعطتني انطباعاً بالهدوء . هدوء يذكرني بهدوء البحر في يوم نسيمه هادىء » فماذا ترى تحت سطح هذا البحر ! وفهم الشاب قصدي فأجاب « البحر يجيش جيشاناً في أعماقه ، والتفاعلات على أشدها جارية فيه ، ولايغرّنك سطحه الساكن » . والحق أنني بدأت أتعرف على هذه التفاعلات ، وأنا أتابع الحوارات وأغوص من السطح الى الأعماق . وقد قال لي شيخ روسي مجرب وأنا أشير إلى التفاعلات « نحن الآن في فترة انتقال ، وفترات الانتقال تحفل بالتفاعلات » . وقال لي دبلوماسي شاب في لحظة قرب بعيدة عن الجو الرسمي « وما أشد المعاناة في فترات الإنتقال ، وماأكثر الأسئلة التي تبرز ، وما أعظم الحيرة التي تتملك » . وقدّرت ماسمعتُ وأنا اتابع ماتقوم به « المصارحة » من كشف لما حدث في حقبة امتدت سبعين عاماً ، وأتصور مايقترن بذلك من معاناة . وزاد فهمي لصعوبة الإنتقال حين دارت الحوارات حول الوضع الاقتصادي والصعوبات التي تمر بها البلاد وهي تنتقل الى اقتصاد السوق . فقيمة الروبل تتضاءل أمام قيمة الدولار في السوق « السوداء » أو « الحرة » ، والأجور لاتزال على ماهي عليه ، والسلع تختفي أحياناً و .. و .. ولا ألبث أن أغوص

أكثر حين تنتقل الحوارات إلى الوضع الاجتماعي الذي ينجم عن هذا الوضع الاقتصادي. فأسمع عن ظواهر اجتماعية جديدة بدأت تظهر مع ازدياد السياحة الأجنبية الى الاتحاد السوفييتي ، ومع هذا التغير الاقتصادي بعامة . وأصل والحوارات متصلة الى الوضع السياسي فأجد التفاعلات وقد تجسدت في اتجاهات ، وأسمع الحديث عن يسار ويمين وتقدمية ورجعية وتعددية وانشقاقات ، وألاحظ أن أفكاراً تتبلور من خلال ذلك كله ، وأن هناك حيوية ونبضاً ، وأن للبعد الروحي دوره . وأنتقل من الشارع الرئيسي لأسير في شارع أرباط الذي لاتمر فيه السيارات فأزداد فهماً ، وأنا أرى المشاة والفنانين ولوحاتهم والبائعين ، لمعنى فترة الانتقال وتفاعلاتها .

خطرت لي وأنا أتأمل في فترة الإنتقال التي يمر بها الاتحاد السوفييتي وتفاعلاتها خواطر كثيرة حول فترات الإنتقال في تاريخ الشعوب . فالحديث في هذه الفترات يتردد بكثرة عن « العهد السابق » وهو في غالبيته فاضح لمساوئه . والحق أن حديث مساوىء « النظام الشمولي » على صعيد المساس بكرامة الإنسان من خلال انتهاك حقوقه هو حديث ذو شجون . وقد وقفت في صحيفة أنباء موسكو أمام ماكتبه الكاتب ليونيد ليخودييف في زاوية المواطن عن كتاب الكاتب كميل اكراموف الذي مات منذ سنة مضت بعد أن سُجِن فترة في المعتقلات كابن عدو للشعب ، عن حياة أبيه الذي كان سكرتير اللجنة المركزية للحزب في أوزبكتسان ، ورأى قبل موته رد الإعتبار لأبيه ، « وقد ألف كتاباً مدهشاً بصدقه. وهذه الكتب تبقى مع الأحياء محاولة تبيين ماحصل » . واستوقفتني فيما قرأت فكرة طالما تبلورت أمامي وأنا أتأمل تاريخ الثورات وهي « أن خطأ الثوار القاتل هو في اعتقادهم أن التاريخ الحقيقي يبدأ بمجيئهم ، وإيمانهم الأعمى بضرورة البدء من جديد لأن كل شيء قبلهم كان ينتمي الى ماقبل تاريخ البشرية ولذلك يجب تحطيمه » . وفكرة أخرى

استوقفتني وهي أن الملكية الخاصة عدو للحكم المطلق لأنها توجد امكانية ولو كانت ضعيفة للحياة المتحررة من سيطرته ، وهذا مايدعوه الى إعلانها عدواً أولاً . وقد كتب كميل اكراموف كيف جاءت صديقة خائفة إلى أمه الطيبة الحنونة العادلة وهمست لها أن أفضل صديق مشترك لهما قد اعتقل ، فقالت الأم الطيبة اللطيفة العادلة «اذا كان قد اعتقل فهو وغد». قالت هذا قبل ان تعتقل هي نفسها بعدة أشهر . ووجدت نفسي اتذكر ماكتبه أدباؤنا في تصوير مساوىء النظام الشمولي على صعيد المساس بكرامة الإنسان . وسارعت حين عدت الى مكتبتي لأعيد قراءة « شرقي المتوسط » لعبد الرحمن منيف و« الكرنك » لنجيب محفوظ . وتأملتُ في قصة الإنحراف الذي يحدث في « النظام الشمولي » كما أوجزها بكلمات نجيب محفوظ على لسان « خالد صفوان » الذي تولى كبر قمع المواطنين وقد قالها بعد أن دارت عليه الأيام « براءة في القرية . وطنية في المدينة . ثورة في الظلام . كرسي يشع قوة غير محدودة . عين سحرية تعري الحقائق . عضو حي يموت . جرثومة كامنة تدب فيها الحياة » . وتأملت أيضاً في خلاصة تجربته بعد النكسة « الكفر بالاستبداد والديكتاتورية . الكفر بالعنف الدموي . إطراد التقدم بالاعتماد على قيم حرية الرأى وإحترام الانسان. تقبل العلم والمنهج العلمي دون مناقشة وماعدا ذلك فلا نسلم بتقبل شيء من الحضارة الغربية إلا من خلال مناقشة الواقع بحرية » .

★ ★ ★

كان الحوار يدور على مائدة الغداء آخر أيام الزيارة بين أعضاء الوفد العربي وبعض العرب المقيمين في موسكو وبعض المرافقين السوفييت ، فترددت فيه مصطلحات الرجعية والتقدمية واليمين اليسار في معرض ذكر ماجرى في المؤتمر الثامن والعشرين للحزب . وإذا بأحد الأخوة العرب يسأل وقد تملكه الاستغراب « هل أصبح الشيوعي حقاً رجعياً !؟ ويمينياً !؟ وكيف ذلك وهو

في قطرنا يعتبر يسارياً تقدمياً ؟ » . والحق أن الحوار محتدم حول التفاعلات السياسية الجارية والتيارات التي بدأت تظهر في المجتمع. وقد استوقفني ما كتبه أستاذ في التاريخ هو فيكتور كوفالدين عن هذه التفاعلات فهو يقول « سيدخل صيف ١٩٩٠ تاريخ بلادنا السياسي كزمن أصبح فيه الكثير من الأشياء الخفية ظاهراً .. » ويلفت نظره أن التطور الحادث مشوش جداً « فجمهوريات البلطيق تتطلع الى أوروبا بينما الجمهوريات الآسيوية تتطلع الى العودة لتقاليدها الأصيلة والعواصم التي انعطفت بحدة نحو اليسار تقابلها أطراف محافظة .. » وقد طرح سؤالاً يبرز أمامه حول ما يحمله الغد وهل يبدأ فيه صراع سافر بالقوة بين اليمين واليسار . وجاء جوابه مستبعداً حدوث الحرب الأهلية المسلحة ومتوقعاً حدوث الحرب الأهلية الباردة . وكان أكثر ما استوقفني في المقال أنه حدد مسألتين اساسيتين يدور حولهما الصراع هما « فصل الدولة عن الحياة الإجتماعية » ، لأن نظام الدولة المتستر بشعار العدالة الاجتماعية كان يغرس في كل مكان سيكولوجية تقتل إحساس الفرد بمسؤوليته الشخصية عن مصيره، و«تحرير الفرد من خناق الجماعة المزيفة» حتى يصبح قادراً على الحياة الحرة . وواضح أن فترة الإنتقال تشهد إحساس من كانوا متحكمين بالخطر وهم يبرزون اليوم كمحافظين في نظر من يريدون التغيير . وهكذا أصبح الحديث يتردد عن وجود شيوعيين يمينيين محافظين في الحزب يصفهم الآخرون بأنهم رجعيون ، ووجود محافظين معتدلين يعترفون بضرورة إعادة البناء الموضوعية ، ووجود شيوعيين ديموقراطيين يبذلون جهدهم « من أجل وضع حد لتطور الحزب باتجاه اليمين . وانطلق شعار برنامج حد أدنى يمكن الالتقاء عليه يقوم على « الديموقراطية السياسية واقتصاد السوق والتعددية الفكرية والسياسية الخارجية المتكاملة » .

خطر لي وأنا أتأمل في هذه التفاعلات كيف تتحول الأمور وتتغير

الأحوال ، وكيف أن الأيام دول ، يداولها الله بين الناس . وتذكرت كم ترددت هذه المصطلحات في حياتنا السياسية وكيف عاش البعض على وهم أنه تقدمي يساري مجدد في وقت كان جهده فيه موظفا لعمل غير صالح . وتأكدت من ضرورة أن نتحرر من إلصاق النعوت والصفات والتزام النظر في مضمون العمل الذي يكون صالحاً إذا خدم كرامة الإنسان وكرامة المجتمع ، وضرورة أن نحد من طغيان نظام الدولة .

★ ★ ★

تتعاظم التحديات في فترات الإنتقال مع ازدياد حدة المشاكل التي يواجهها المجتمع . وواضح أن هناك مشكلات كثيرة يواجهها الإتحاد السوفييتي يجري الحديث عنها اليوم بصراحة الى حدٍ ليس بالقليل . فكيف ستكون الإستجابة لهذه التحديات ؟ هذا هو السؤال الذي انثبق أمامي .

الأمثلة على هذه المشكلات . فعلى صعيد الإسكان مثلاً يتردد الحديث عن وجوب اسكان حوالي مليون إنسان من الذين تعرضوا لكارثة المفاعل النووي تشيرنوبل ليعيشوا في منطقة أخرى لا إشعاع فيها . وهذا العدد سيتضاعف مرات في السنوات القادمة . ويبلغ عدد اللاجئين المهجرين بسبب النزاعات القومية من وراء القفقاس وآسيا الوسطى وجمهوريات البلطيق حوالي مليون شخص ، وقد يصل عددهم مستقبلاً إلى ثلاثة ملايين ، وهم بحاجة إلى إسكان . ويقدر عدد المسرحين من الجيش والذين يخدمون خارج الاتحاد السوفييتي وليس لهم سكن مع أسرتهم فيه بحوالي نصف مليون وقد يصل الى مليونين . وهناك عاطلون عن العمل نظراً لضرورة الإنتقال إلى علاقات السوق وإغلاق المؤسسات الخاسرة والأبنية الفائضة يُقدَّرون بحوالي مليون إنسان ، وقد يصل العدد مستقبلاً إلى عشرة أضعاف ، كما يقول أحد أعضاء لجنة دراسة القوة المنتجة والموارد في اكاديمية العلوم السوفيتية فياتشسلاف ستوروجينكو .

لقد أردت أثناء زيارتي أن أتأكد مما كتبته عن « الحال » في الاتحاد السوفييتي في دراستي عن مستقبل أوروبا الشرقية وقلت فيه « إن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الدين والقومية والثقافة . وهناك من يرى مع هوسكنز في كتابه يقظة الإتحاد السوفييتي ان الثقافة الروسية لديها احتياطات فكرية وروحية قادرة على تخطي الأزمة الراهنة ووضع الاستجابة الصحيحة للتحديات » . وقد عرفت أن الروسيين يعيشون فترة يعبرون فيها عن نزوعهم القومي وشوقهم الروحي . ولفت نظري في شارع ارباط ماهو معروض من الايقونات الدينية التي تعود إلى تراث الكنيسة الأرثوذكسية ، وماهو معروض من لوحات فنية تعبر عن القومية الروسية . وقد سمعت صحفيين يسألون سيدة روسية أعلنت أنها ستحج ماشية إلى بيت المقدس إحياءً لعادة روسية قديمة ، وكنا في بيت فلسطين بموسكو ، « هل تفعلين ذلك وأنتِ امؤمنة ؛ وكيف وأنتِ عضو في الحزب الشيوعي الذي يقوم على الإلحاد » فكان جوابها « لم يعد هناك تناقض بعد أن جرى تعديل الموقف من الدين وأعطيتَ لنا حرية التدين ، وأنا مؤمنة » .

لاحظ أخ عربي مقيم في موسكو اهتمامي بدراسة الحالة فدعاني الى زيارة معرض واحد من أكبر فناني الاتحاد السوفييتي التشكيليين « ايليا جلازونوف » وقال إنه زار المعرض عدة مرات . وأمضيت هناك ساعة أتأمل اللوحات والناس وهم يشاهدونها ، وحرصت على أن احصل على نسخة من الكتاب المصور عنها وقد استوقفني في عدد من اللوحات الكبيرة بروز الشوق الروحي معبراً عنه برموز دينية مباشرة مثل القيامة والصلب وهالات القديسيين ، وبروز النزوع القومي معبراً عنه بصور قياصرة روسيا ورجالاتها . كما استوقفني تأثر المشاهدين بما يرونه من روعة فنية ، وإقبالهم على مشاهدة لوحة القرن العشرين التي ضمنها الفنان رؤيته لأحداث القرن ورجالاته وبدا في

أعلاها رائد فضاء على يسارها وجنين في الرحم على اليمين وعيسى عليه السلام في الوسط .

خطر على بالي أن روح الحضارة تبقى حية في الشعوب والمجتمعات ، ولاتستطيع جهود التغيير المساس بجوهرها وإن استطاعت التأثير على السطح ، ولابد لفترات الانتقال أن تنتهي بالعودة إلى تمثل هذه الروح .

برلمانيون عرب في الاتحاد السوفييتي

حديث عن كازاخستان بلاد ماوراء النهر

قام الوفد البرلماني العربي أثناء زيارته الرسمية للاتحاد السوفييتي بين ١١ و١٦/٧/٩٠ بزيارة رسمية لمدينة آلمـآتا عاصمة جمهورية كازاخستان في اقصى الشرق على مقربة من حدود الصين ، وأمضى هناك يومين حافلين ، وكان الوفد متحمساً للقيام بهده الزيارة التي جرى وضعها في البرنامج تلبية لرغبته التي عبرّ عنها لمضيفيه في أن تتاح له فرصة زيارة جمهورية آسيوية . وأذكر أن هذه الرغبة وُلِدت في مكتب سماحة الشيخ رئيس المجلس الوطني الفلسطيني عبد الحميد السائح بعمان حين كُنا نبحث أمر زيارة الوفد الى موسكو . وقد نبعت من استشعار الحاجة الى التعرف على جزءٍ اخر من الاتحاد السوفييتي في فترة عهد البناء ، ورؤيته على الطبيعة ، وتقوية الأواصر مع الشعوب التي تدين بالإسلام وتجمعها بالعرب دائرة الحضارة العربية الإسلامية .

أسعدني أن يقع اختيار مضيفنا في موسكو على جمهورية كازاخستان من بين عدة جمهوريات آسيوية شعوبها إسلامية . اذ لم يسبق لي أن زرتها ، وكنت قد زرت سمرقند عام ١٩٧٤ ، للمشاركة في ندوة عن الأمن والسلام في آسيا كممثل للمجلس الوطني الفلسطيني ، وقد تمنيت أكثر من مرة وأنا أطالع تاريخنا أن أزور بلاد ماوراء النهر .

ما أسرع ماعرفت المعلومات الأساسية عن المكان الذي نقصده من خلال كتيب التعريف به . فكازاخستان هي إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي الخمسة عشر . وهي إقليم واسع تبلغ مساحتها مليونين وسبعمائة ألف كيلومتراً مربعاً . ويسكنها ستة عشر مليون نسمة . وتستغرق رحلة الطيران بين موسكو وعاصمتها ألما ـــ آتا أربع ساعات ونصف .

استحضرت من ذاكرتي ما حفظته من قراءاتي عن هذه المنطقة التي عرفها أجدادنا باسم « ماوراء النهر » الذي هو نهر جيحون ، وتصورت خريطة « بحيرة آرال » شرقي « بحر الخزر قزوين » التي يصُب فيها نهرا جيحون وسيحون وقد عرفها أجدادنا باسم «بحيرة خوارزم». وحرصت حين عدت من رحلتي على أن أعاود قراءة ماكتبه عنها محمد بن أحمد المقدسي (٣٣٥ ـــ ٣٩٠هـ) في كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ، وأراجع خرائطها في « اطلس تاريخ الاسلام » .

لم استغرب بعد أن رأيت روعة الطبيعة في آلما ـــ أتا حماس المقدسي في وصف جمال الاقليم . ولم أعجب بعد أن عرفت عدداً من قيادة الجمهورية على رأسهم نائب رئيس مجلسها السيد سيريك عبد الدين ووزيرة خارجيتها ونائب رئيس مجلس وزرائها وآخرين من مجلسها ، لحماس المقدسي في وصف شيم أهل الاقليم . وقد تحدث المقدسي في كتابه عن « أقاليم الاعاجم » الثمانية أولاً ثم عن « أقليم المشرق » . فأقاليم الاعاجم هذه « انزه بقاع الأرض » على حد وصف قتيبة بن مسلم الباهلي لها نقلاً عن فيروز بن كسرى ملكها . وإقليم المشرق « هو أجّل الاقاليم ، وأكثرها أجّلة وعلماء ، ومعدن الخير ، ومستقر العلم ، وركن الإسلام المحكم وحصنه الأعظم . ملكه أجّلُ الملوك ، وجنده خير الجنود . قومٌ أولو بأسٍ شديدٍ ورأي سديد وإسم كبير ومال وخيل ورَجْل وفتح ونصر . وقوم كما كتب الى عمر لباسهم الحديد وأكلهم القديد وشربهم

الجليد. ترى به رساتيق جليلة وقرى نفيسة وأشجاراً ملتفة وأنهاراً جارية ونعماً ظاهرة ونواحي واسعة وديناً مستقيماً وعدلاً مقيماً .. فيه يبلغ الفقهاء درجات الملوك ، ويملك في غيره من كان مملوك . هو سدّ الترك وترس الغُز وهول الروم ومفخر المسلمين ومعدن الراسخين ومنعش الحرمين وصاحب الجانبين .. » .

كان أول مالفت انتباهنا حين وصلنا آلما ــ آتا روعة الطبيعة الخلابة ، في سهل أخضر ممتد تحتضنه جبال تتدرج في ارتفاعها من سبعمائة متراً لتصل في أعلى قمة فيها مكسوة بالعمامة الثلجية البيضاء الى خمسة آلاف متراً هي قمة تالجار ، وقد تبين لنا أن الأشجار الممتدة في المدينة وحواليها هي أشجار تفاح ولهذا سميت المدينة أم التفاح . وعرفنا أن مساحتها الخضراء أكثر من ٧٧٣٠ هكتاراً ، وأن نصيب الفرد الواحد من السكان حوالي ٧١ .متراً مربعاً من الخضرة ، وأنه يسكنها مليون ومائة ألف نسمة . وكان الطقس عند وصولنا معتدلاً منعشاً . كما عرفنا أن الجمهورية ذات المساحة الواسعة تضم مناطق طبيعية مختلفة من صحراء الى جبال الى سهول ، وأن مناخها متنوع ، وشتاؤها شديد البرودة تنخفض فيه درجة الحرارة إلى ثماني عشرة درجة تحت الصفر ، وأن فيها نحو أحد عشر الف نهير وبحيرة . وقد دار الحوار حول مائدة الطعام مع مضيفينا حول حماية البيئة ، فعرفنا أن الموضوع مطروح بقوة في الجمهورية التي تفخر بأن فيها ألف صنف من الحيوانات والطيور ، لا لحماية الطبيعة فحسب بل لمواجهة أخطار نجمت عن استخدام بعض الأراضي الصحراوية كمكان للتجارب النووية . فكازاخستان في الاتحاد السوفييتي كنيفادا في الولايات المتحدة على صعيد ابتلائهما بالإشعاع النووي . وقد رأينا في زيارتنا للمتحف المركزي معرضاً لصور بعض ضحايا هذا الإشعاع من بني الإنسان ، ولوحة تشير الى تضامن كازاخستان ونيفادا في الدعوة لإبعاد مخاطر الاشعاع

النووي عن الإنسان وأمِه الأرض .

تشوقت بعد التعرف على بعد المكان للتعرف على بُعد الزمان لهذا المكان . والإنسان مخلوق ذو حسٍ تاريخي . وقد زودتنا زيارتنا للمتحف المركزي بالكثير من المعلومات التي لبّت تشوقي . فهناك آثار لعمرانٍ تعود الى القرن الخامس قبل الميلاد جرى اكتشافها في مقبرة قرب العاصمة ، من بينها رفات مقاتل في ملابس من الذهب جرت تسميته « الإنسان الذهبي » . وتدل الآثار التاريخية على أن الشعب الكازاخي كان متفاعلاً مع جيرانه بحكم مرور طريق الحرير العظيم في أراضيه الذي كان تسلكه القوافل بين الهند والصين وبلاد العرب وأوروبا . والحق أنني وقفت طويلاً في المتحف أمام البيت الكازاخي الذي هو خيمة ذكرتني بالخيمة العربية في البادية مع اختلافها بكونها تناسب الطقس القاري البارد في تلك البلاد بينما تناسب خيمتنا هجير الصحراء ، وتأملت فيما يحتويه من أثاث ومايعبر عنه من فن فتداعى الى خاطري ماكتبه ابن خلدون عن العمران البدوي . إذ ليس العمران مقصوراً على الحضارة والحَضَر ، ولا يقل العمران البدوي أهمية في التراث الانساني عن العمران الحضري ، وهذا مايجعلني أُوثر استخدام مصطلح العمران إذا أردنا الحديث عن حياة تضم نمط الحضر ونمط البادية . إذ لا يستقيم أن نقول حضارة البادية من حيث دلالة اللفظ وإن جاز استخدامها كمصطلح لأنه « لامشاحة في الاصطلاح » كما قال علماؤنا . وقد ألحت عليَّ خاطرة تعاودني كلما رأيت عمراناً بدوياً وهي أن الانسان نزاع الى العمران بنوعيه وليس الى الحضاري منه فحسب . وهذا مايفسر إقبال السائحين على زيارة العمران البدوي حين يكونون من المدن الحضرية ، ويفسر إقبال السائحين من البادية على زيادة العمران الحضري . وكم يحن قاطن المدينة إذا كان قادماً من البادية إلى « بيت تخفق الأرواح فيه » لأنه أحب اليه من قصر منيف ، والى عباءة تقر عينه بها

لأنها أحب اليه من لبس الشفوف ، كما حدث مع زوجة معاويه التي صاغت مشاعرها شعراً خالداً . وقد لفت أنظارنا حرص مضيفينا على تعريفنا بتقاليدهم القديمة ، وأسعدنا أن يستقبلونا بتقديم لبن الخيل الذي يقدم مع كل طعام وعند الترحيب بالضيف . ومن تقاليدهم أن يحمل رأس الخروف المشوي إلى الضيف ليقوم بتفتيت لحمه ويصيب قطعة ثم يجري تقديم الصحن للحاضرين كي يأخذ كل واحد قطعة .

الفترة التي تفخر بها كازاخستان بصورة خاصة هي تلك التي شهدت ازدهار العمران فيها بعد أن أصبحت جزءاً من الدولة العربية الإسلامية ، فأسهمت بنصيب وافر في تشييد صرح الحضارة العربية الإسلامية . ومعلوم أن الفتح الاسلامي لما وراء النهر بدأ أواخر القرن الأول الهجري أوائل القرن الثامن الثامن الميلادي بعد انتصار المسلمين في موقعة نهاوند وانتهاء الدولة الساسانية . وكان بطلِ هذا الفتح قتيبة بن مسلم الباهلي الذي أتّمه على أربع مراحل وعبر نهري جيحون وسيحون وضم خوارزم وسجستان وفرعانه حتى وصل أرض الصين . وأول مايتداعي الى الخاطر عند ذكر هذه الفترة اسم أبي نصر الفارابي من بلدة فاراب على نهر سيحون قرب بلدة اطرار الذي كان في بلاط سيف الدولة الحمداني ، واشتهر بأنه المعلم الثاني بعد ارسطو وكتب « المدينة الفاضلة » وضبط آلة القانون .. ويصفه كتاب الجمهورية الاعلامي بالفيلسوف والمفكر العظيم والعالم الموسوعي ، وهناك ركن بالمتحف لبعض آثاره . وقد رأينا في المتحف أيضاً نموذجاً لأهم بناءٍ معماري جرى تشييده في تلك الفترة وهو مسجد الخوجة أحمد يسري الذي شيدّه الخان تيمور في القرن الرابع عشر ليدفن الى جواره هذا الشيخ الذي كان من أنشط دعاة الإسلام بين شعوب البدو الرحل . وذكرني مارأيته من نموذج وصور وماسمعته من مضيفينا عن هذا المسجد الواقع في مدينة تركستان بالآثار الإسلامية التي تعود الى تلك

الفترة في مدينة سمرقند وأهمها المدرسة ، ثم بمدرسة السلطان حسن في القاهرة التي أحرص على زيارتها وتأمل روعة بنائها بين الفترة والأخرى ـــ وتداعى الى خاطري وأنا أتأمل لوحة تصور سقوط فاراب بأيدي المغول قصة هذا الزحف المغولي الذي قاده جنكيز خان ووصل الى عاصمة الدولة العربية الإسلامية وتوقف بعد موقعة عين جالوت الفاصلة ، وكيف تحول هؤلاء المغول في غالبيتهم بعد ذلك إلى الإسلام وأقاموا دولة في الهند خلفت آثاراً اسلامية غنية . والحق أن تاريخ هذه الفترة في بلاد آسيا لايعطى حقه في برامجنا التعليمية مع أنه حافل يستحق العناية به . ولقد بقيت كازاخستان جزءاً من الدولة الاسلامية القائمة في أواسط آسيا الى أن احتلتها روسيا عام ١٧٣١ . كما بقيت كتابتها بالحروف العربية حتى أوائل هذا القرن حيث استخدمت الحروف الروسية في أعقاب ثورة ١٩١٧ .

حرصنا كوفد برلماني عربي على أن نتعرف على واقع الأحوال في جمهورية كازاخستان اليوم . وقد قدّرنا لمضيفينا انهم هيأوا لنا برنامجاً حافلاً لنطل من خلاله على هذا الواقع ، ووضعوا في أولى خطواتنا بعد زيارة المتحف المركزي زيارة المسجد ، وأجابوا عن كل اسئلتنا ، وما كان أكثرها . وأول ماجدٌّ في هذا الواقع هو عدم منع التدين في عهد إعادة البناء .. وكم أسعدنا أن نلتقي بنخبة من المسلمين في المسجد استقبلونا بحرارة ، وكان أحدهم عائداً من الحج بعد أن حظي مع قافلة من الحجاج السوفييت تجاوز عددها الألف بالسفر إلى بيت الله الحرام لأول مرة منذ سنين طويلة بمبادرة من الدبلوماسية التي تحاول فتح الطريق أمام هؤلاء المسلمين لأداء مناسكهم . وقد كان احتفال إخوتنا بنا حاراً ، بعد أن صلينا تحية المسجد ، فتبادلنا الكلمات الرسمية ثم طاب الحديث وعرفنا أن هناك مساجد جديدة يجري إعادة فتحها أو تأسيسها ، وأن المفتي يقوم بدوره ، وأن مدرسة دينية للشباب تأسست .

وتفاءلت بذلك كله خيراً وتذكرت وصف المقدسي لأهل خوارزم بأنهم « أهل فهم وفقه وقرائح وأدب » .

دار الحديث عن الحاضر الكازاخستاني أثناء محادثاتنا الرسمية في مجلس السوفييت الأعلى بحضور نخبة من أعضائه. وقد شرح لنا نائب الرئيس أوضاع الجمهورية الزراعية والصناعية والثقافية والصحية باستفاضة من موقع العلم والممارسة فالصديق سيريك عبد الدين دكتور في الاقتصاد الزراعي وممارس في العمل العام تنقل بين بلاده وموسكو . وتعمقت معرفتنا بما سمعناه منه ونحن نكمل برنامج الزيارة فنزور قصر الطلائع وبيت الضيافة ونستمع الى الصديقة وزيرة الخارجية التي تعتز بالدور الذي قامت به مع زملائها ليتم إنشاء هذا القصر ويصبح من معالم آلما ــ آتا ويستقبل الأطفال المبدعين. وقد سرّنا أن نسمع إن أخوتنا الكازاخستيين أسهموا في إنشاء صناعة عصرية، فبلادهم ثالث قاعدة للفحم في الاتحاد السوفييتي ، وصناعة النفط فيها مزدهرة ، وكذلك صناعة الآلات والكيمياويات والمعادن . وبلادهم هي إحدى المناطق الاساسية من حيث انتاج الغلال واللحوم. ودخلهم القومي مرتفع. وكم تألقنا ونحن نمضي ساعة مع الموسيقى الكازاخية . وقد ثارت شجوننا فهذه الموسيقى من موسيقى حضارتنا العربية الاسلامية تشع من أنغامها روحها .

كان همنا في هذه الزيارة أن نستكشف آفاق التعاون . وقد عاد كل واحد من اعضاء الوفد بصورة واضحة عن هذه البلاد . وبدا لي أننا مازلنا في الخطوات الأولى من الاستكشاف . كما بدا لي أن التفاعلات الجارية في الاتحاد السوفييتي مستمرة في فترة الانتقال . وستتوافر القدرة على تحديد ماهو ممكن من إقامة الصلات مع مضينا في الخطوات ونضج التفاعلات .

سؤالان استوقفاني في المؤتمر الصحفي الذي عهد الوفد العربي فيه الى

كاتب هذه السطور بالرد على الأسئلة في ختام الزيارة الرسمية ، من بين عدد من الأسئلة على مدى ساعتين . الأول طرحه صحفي عربي ومهدّ له بأن اتجاه الأحداث في الاتحاد السوفييتي هي الى استقلال جمهورياته وبروز الجمهورية الروسية فماذا خططنا كعرب للتعامل مع مستقبل قريب . والسؤال الآخر طرحه صحفي روسي ولم يطرح غيره عما اذا كانت التوجهات العربية لحصر التعاون مع الجمهوريات التي تسكنها شعوب اسلامية . وقد قدمت الاجابة عن السؤالين بشكل واف فعرف الروسي الصحفي أن التوجه العربي هو لإقامة تعاون بين الدول العربية والاتحاد السوفييتي بجمهورياته كلها ، وأن هذا التعاون يقوم على قاعدة صلبة من علاقات حضارية تجمع وطننا بجمهوريات آسيوية تنتسب إلى حضارتنا العربية الاسلامية ، تماماً كما تجمع امتنا بشعوب الجمهوريات الأخرى من خلال روابط حضارية قامت الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية بدور بارز فيها . وعرف الأخ الصحفي العربي أن زيارة الوفد استهدفت تشوف مستقبل التعاون .

ودعتُ آلما ــ آتا وأنا اتساءل هل سنشهد في أيام قريبة عودة الطرق التي عرفها تاريخنا الطويل الى سابق عهدها سالكة مليئة بالمتنقلين بين أرجاء دائرتنا الحضارية فيخرج الواحد منا من بلدة ليسلكها قاصداً مرو والري وفاراب وطشقند وسمرقند واقليم فرغانة ويتعرف على بحيرة آرال ــ خوارزم ، لتزدهر حضارتنا العربية الاسلامية وتسهم بدورها في عالمنا .

الواقع العربي بعد قمة بغداد الاستثنائية*

عملية التفكر جارية في أوساط أمتنا

● في لقاء سابق طالبتم القادة العرب بوقفة تفكر (أي تأمل) هل تعتقدون أن قمة بغداد كنت تلك الوقفة ؟

ـــ قمة بغداد كانت جزءاً من هذه الوقفة ولابد لهذه الوقفة أن تستمر حتى تصل بأمتها على مختلف مستوياتها الى بلورة استجابتها للتحديات التي تواجهها اليوم ، والحق ان عملية التفكر جارية في أوساط أمتنا ويمكن لمؤرخ الأفكار وهو يتأمل في هذه التفاعلات أن يرى اتجاها غالبا في هذه الأمة يوشك أن يتبلور . ومعلوم أن تاريخ الأفكار فرع من فروع التاريخ وأنه يهتم بالأفكار التي تحظى بانتشار واسع على صعيد حياة الناس وترتفع عندهم الى درجة الايمان والمعتقد فتدفعهم باتجاه معين ، وهذا التعريف أورده « فرانكلين باومر » في كتابه عن الفكر الأوروبي الحديث ، ومعلوم أن اجدادنا اهتموا بهذا الفرع من التاريخ حين كتبوا عن الأوائل والمجددين على رأس القرون المتتالية مستلهمين القصص القرآني الذي تضمن تاريخا للأفكار .. هذا الاتجاه الغالب الذي يوشك أن يتبلور يركز على ضرورة الاستجابة للتحديات بالعودة الى اصل القضية والانصراف عن المسكنات والتوقف عن السير وراء السراب الذي

(*) حوار أجراه ابراهيم الداية لصحيفة الرأي العام الكويتية نشرته في عددها ٩٩٥٠ يوم ١٩٩٠/٧/١٢ .

بحسبه العطشان ماء ، ويدعو الى توطين النفس على صراع النفس الطويل الذي يكون التحرير فيه هو الممكن الوحيد .

مسيرة فلسطين يوم ١٥ آيار جسدت وقفة التفكر

هذا الاتجاه الغالب نراه واضحا على مستوى القاعدة ونراه واضحا على المستوى الأعلى ويلفت النظر أن قمة بغداد أخذته باعتبارها حين صاغت بيانها فجاء في أجزاء مختلفة منه آخذا بعين الاعتبار مشاعر هذا الاتجاه الغالب وتوجهاته .

هذا الاتجاه غالب اليوم بفعل وقفة التفكر التي بدأت تظهر في عدة مناسبات مؤخرا على صعيد الوطن ككل وفي الساحة الفلسطينية خاصة .. لقد رأينا مسيرة فلسطين يوم ١٥ آيار بين عمان والجسر وتأملنا كيف جسدت هذا الاتجاه السائد ، وقرأنا في الصحف الصادرة في الكويت عن وثيقة عهد وقعها العديد من الرجالات العربية والفلسطينية عبرت عن أفكار ضمن هذا الاتجاه الغالب ، وقرأنا فتوى للعلماء العرب المسلمين والمسلمين عامة عبرت هي الأخرى عن أفكار هذا الاتجاه الغالب ، وتابعنا باهتمام ماصدر عن الكنيسة في وطننا المحتل وفي بقية وطننا العربي بشجب الاعتداء على المقدسات المسيحية والاسلامية وموجة التهجير ومعالجة الموضوع على صعيد لاهوتي اكدت هذا الاتجاه الغالب .

خمسة أسباب كانت وراء ظهور هذا الاتجاه السائد الآن

وفي وقفة التفكر نحن مدعوون كي نعطيها حقها بأن نتعرف على الأسباب التي أدت إلى ظهور هذا الاتجاه السائد الداعي الى العودة إلى أصل القضية ؟ والحق أنه علينا أن نشير الى الأسباب التالية باهتمام وهي :

السبب الأول : ان الثانية عشر شهرا الماضية التي شهدت تحركا سياسياً عبر عن اجتهاد موجود وصلت اليوم الى ابراز أن ماحققه هذا التحرك السياسي كان ضئيلا بالنسبة لما وعد القائلون بتحقيقه ؟ بل ان الذين قاموا به أصبحوا يعلنون بوضوح أن مايمكن أن يعد به هو ضئيل للغاية .

ويجمع هؤلاء وأولئك على أن مارافقه مما يمكن تسميته انتصارات اعلامية كان موقوتا لأن العبرة في النهاية هي بالحقائق التي توجد على الأرض ، كما يتفق هؤلاء وأولئك على أن التأثير الذي تحقق على صعيد بعض أوساط الرأي العام الغربي قد تحقق ..

السبب الثاني : هو مابرز في أوساط العدو من تمسك بأهدافه التوسعية ، ومن ممارسات تجسد ذلك يوميا وقد قرأنا الفتوى الحاخامية الصادرة عن مجلس الحاخامات ، ونتابع كل يوم جرائم الارهاب الصهيوني ضد أطفالنا ونسائنا وشبابنا وشيوخنا في وطننا المحتل .

السبب الثالث : هو ما اتضح من سياسة الولايات المتحدة الاميركية التي تقف اليوم وراء التهجير الصهيوني لليهود من أوطانهم وتمول هذا التهجير محولة مبلغ ٤٠٠ مليون دولار كدفعة أولى ، ومقتصرة في تعاملها مع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية على حد أدنى من الحوار تهدد بين الحين والآخر بقطعه ومصدرة قرار الكونجرس الاثيم حول القدس والحبل على الجرار .

السبب الرابع : هو ما نجم من تغيرات في أوروبا الشرقية أدت إلى حدوث موجة جديدة من الغزوة الصهيونية الاستعمارية الاستيطانية هي الخامسة في موجات هذا الغزو وهي كما نرى تهدد وجودنا العربي .

السبب الخامس : وهو الأخير هذا المثل الرائع الذي قدمه نضال أخوتنا السود في جنوب افريقيا وعبر عنه نلسون مانديلا تعبيراً أصيلا بعد خروجه من

السجن حين حرص على التفاوض من موقع القوة مع اختيار الوقت المناسب لذلك .

هذه الأسباب جميعها تفاعلت لتبلور هذا الاتجاه الغالب في وقفة التفكر ، والحق أن القمة العربية في بعض القرارات التي اتخذتها والتي تناولت جوانب اجرائية تتيح لوقفة التفكر هذه أن تأخذ حقها ... ومن هذه القرارات اجتماع وزراء الخارجية والاقتصاد خلال هذا الصيف للبحث عن أساليب عملية لمواجهة الأخطار ... ومن بين هذه القرارات أيضاً الاتفاق على الانعقاد الدوري للقمة مرة كل عام وتحديد الخريف المقبل موعداً لانعقاد عادي يتم بالقاهرة .

نواجه موجة تعلن بوضوح عن نياتها التوسعية

واختتم اجابته بالقول اننا مازلنا ندعو لمتابعة وقفة التفكر حتى نصل منها إلى بناء موقف عربي واحد يقدم الاستجابة الصحيحة للتحدي الكبير الذي يمثله هذا الغزو المدعوم من قبل الولايات المتحدة الاميركية في ظل وضع دولي تتواطأ فيه عدة أطراف لتمكينه بأن يهجر مليون من اليهود لقلب وطننا العربي .

لابد لوقفة التفكر أيضاً أن تنجح فضلا عن تحقيق التضامن بين الدول العربية في تعزيز الوحدة الوطنية داخل كل قطر وتمتين الصف الداخلي وهذا لايتأتى الا من خلال احترام حقوق الانسان ويصبح المواطن فيها خفيراً ويتحول المجتمع بأكمله يزود عن حياض الوطن لأن هذه الموجة تعلن بوضوح عن نياتها التوسعية ... واننا نتطلع منذ الآن الى أن تعطى القمة العربية المقبلة حقها من التحضير فاذا كانت ظروف انعقاد القمة الاستثنائية لم تمكن من ذلك فاننا نريد وأمامنا فسحة من الوقت أن نحقق ذلك في القمة العادية واذا كان لسان حالنا ونحن نتابع القمة الاستثنائية بأن مالايدرك كله لايترك جله فاننا نتطلع لأن ندرك الكل في القمة العادية .

هذا التجمع استعماري استيطاني قائم على التهجير والتوسع

● كيف ترى التفاعلات داخل التجمع الاسرائيلي اليوم وهل تؤدي الى افشال التوجهات الفلسطينية نحو السلام ؟

ــ لاشك أن من أول واجباتنا في وقفة التفكر أن نحرص على متابعة مايجري داخل التجمع الاسرائيلي والحق أن هذه التفاعلات قوية للغاية وهي تتم أيضاً على عدة مستويات ...

فهناك أولا مستوى السياسة الاسرائيلية الرسمية التي وضعت عملية التهجير واستيعاب المهاجرين على رأس قائمة أولوياتها ، ويمكن أن نوجز شرح هذه السياسة بتصريح اسحق شامير وهو يهلل بوصول أوائل المهاجرين قائلاً: ان هجرة كبيرة كهذه تتطلب أرض اسرائيل الكبرى ، ومعلوم ان هذا الكيان الصهيوني قام على ركنين ، أولهما : التهجير ، والثاني : اغتصاب الأراضي واستيطانها .

ويلفت النظر ان ديفيد ليفي وزير الاسكان السابق وهو حالياً وزيراً للخارجية شرح عملية التنفيذ الجارية لهذه السياسة قائلا : سيسكنون إينما يشاءون في أرض اسرائيل مشيراً إلى المهاجرين وهو يقصد أن يقول اننا سنسكنهم نحن اينما شاءوا ، ولم يخفي هو ولا وزارته أنه قدم ١,٧ مليون دولار من أموال الوزارة التي تأتي كمعونة اميركية ليقوم المستوطنون باغتصاب فندق الكنيسة الأرثوذكسية بالقدس العتيقة ، ونلاحظ أيضاً أن حزب التجمع « العمل » يتبنى هذه السياسة أيضاً وأعلن مشاركته في تنفيذها وان كان ميَّز نفسه بالتركيز على الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ ، ولم يتردد شمعون بيريز ان يجاهر في ختام الاشتراكية الدولية أنه حريص على هدف التهجير الصهيوني وتحدث عن المساحات الواسعة في صحراء النقب التي تتسع لاعداد غفيرة من

هؤلاء المهاجرين وكأنه يؤكد الخطر الذي يتهدد سيناء كما يبرز حديثه المفارقة التي تتمثل في اسكان هؤلاء القادمين من الأصقاع الباردة في صحراء لاهبة .

الواقع اننا حين نتابع هذه التفاعلات على مستويات العامة نجد أن التوافق على هذه السياسة قائم بين أطراف التجمع الاسرائيلي الى المدى البعيد ، وهذا ليس بمستغرب بداية لأن هذا التجمع هو تجمع استعماري استيطاني قائم على التهجير والتوسع ... ولكن يلفت النظر أن هذا التوافق يشمل من يسمونهم معسكر السلام ، وقد صرَّح أحدهم مفسراً تأييده للتهجير بالحجة اياها قائلا : بأن التهجير الجماعي يزيد من ثقة اسرائيل الذاتية وحين تكون اسرائيل واثقة من نفسها فانها توافق على الانسحاب ، وهذه هي الحجة نفسها التي تطرحها الولايات المتحدة في تفسير دعمها غير المحدود للكيان الصهيوني من امتلاك أسلحة الدمار الشامل ولم تثمر هذه السياسة إلا تمكيناً لاسرائيل من متابعة الاحتلال وليس الموافقة على الانسحاب . ويلفت النظر أن « ميردن بينفنستي » كشف هذا التناقض الصارخ حين تساءل بسخرية قائلا : ألا يعرض المهاجرون الذين يقيمون في تل أبيب ويلبسون الملابس العسكرية صباح كل يوم ويقومون بأعمال الدورية في شوارع نابلس وينتخبون الليكود واليمين ، ألا يُعرِّض هؤلاء احتمالات التفاوض إلى الخطر ؟ والحقيقة أن كلام بيفستي يستحق ان يكون أمام بعض منا من الذين يفرقون بين التهجير الى ١٩٦٧ و١٩٤٨ بينما الواقع كله تهجير ولا يجوز بحال ان نسمح به لا الى هذا الجزء ولا الى ذاك .

التجمع الاسرائيلي يعيش فكرة التوسع بالقوة

لابد أن نلتفت ونحن نتابع هذه التفاعلات الى ما يمكن أن يسميه مؤرخ الأفكار الحمى التي يعيشها التجمع الاسرائيلي بفعل موجة التهجير الجديدة

والمناخ الذي يسيطر عليه فأبرز ما في هذا المناخ هي « فكرة التوسع بالقوة » وقد جاءت مذبحة العشرين من مايو الذي نفذها جندي اسرائيلي لتشير الى هذا الجو المحموم ، ولقد وقفت أمام وصف جاء في جريدة دافار الاسرائيلية يوم ٤/٢٧ لهذا الجو حين تحدثت عن طلبة المدارس الدينية اليهودية وحاخاماتها الذين يتوقون حقاً ، وأنا استخدم النص الذي ورد بالجريدة : « إلى تطهير المدينة المقدسة من جميع الأماكن التي تحمل الصليب ، تماماً كما تاق من قبل زملاء لهم لتدمير قبة الصخرة فخطط لذلك ، ويلفت نظرنا تردد أسماء تنظيمات جديدة تبرز في هذا الجو مثل « جبهة أرض اسرائيل » ، و« أمناء أرض اسرائيل » ، وقيام النشطين في هذه الجبهات ببناء مستوطنات في الضفة والقطاع لأن هذا النهج على حد قولهم يمكن من السيطرة على أرض اسرائيل الى الأبد .

نحن اذاً أمام تفاعلات حادة سيكون لها تأثيرها على مسار الأحداث في المنطقة وهي تدعونا الى ان ندرس تحديداً المتحارجات التي سيجد التجمع الاسرائيلي نفسه أمامها والتناقضات التي يمكن أن تتفجر فيه بفعل ذلك كله ... فمثلا من ناحية تنفيذ سياسة التهجير يستلزم هدوءاً مستتباً في المنطقة ، بينما سياسة التهجير نفسها تصعد التوتر في المنطقة الأمر الذي يؤدي إلى تنبه المهاجرين لما ينتظرهم وقد يصل بهم للخروج من الشبكة الصهيونية التي يجدون أنفسهم أسرى لها ...

مطلوب صياغة رد عربي قادر

والواقع اننا رأينا مثل هذا في الثلاثينيات حين حدثت موجة التهجير الثالثة بعد وصول هتلر والنازيين الى السلطة في المانيا ويومها كانت هذه الموجة من أسباب قيام ثورة فلسطين العربية الكبرى بين عامي ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ .

اننا أمام وضع يمكن أن يصاغ فيه رد عربي قادر ونستطيع القول إن بعض تباشير هذا الرد جاءت في بيان القمة العربية لتكمل ما حققته وتحققه الانتفاضة التي هي خط الدفاع العربي الأول .

الولايات المتحدة تتحمل المسؤولية كاملة

● بعد قمة بوش وجورباتشوف أكدت الولايات المتحدة أنها قررت اعتبار الاتحاد السوفياتي الدولة الأولى بالرعاية الاقتصادية وربطت ذلك باستمرار الهجرة اليهودية من روسيا لاسرائيل ... في حين أعلن الزعيم السوفياتي انه أكد للقادة العرب عزمه وقف الهجرة ان استوطن المهاجرون الأرض العربية المحتلة ، كيف نفسر هذه المعادلة أو المغالطة ؟

ـــ الواقع اننا سنسمع تصريحات كثيرة تتوالى كل يوم يستهلكها اعلام الأزمات الذي يأكل الأخضر واليابس ... فهذا تصريح للرئيس بوش في أعقاب قمته مع جورباتشوف ... يتلوه تصريح لجورباتشوف ومن ثم يتلوه تصريح لشيفردنادزة يؤكد فيه لبيكر أن جورباتشوف لم يقصد تصريحه وانما أراد أن يشير الى الضغوط التي يتعرض اليها ، ثم يأتي تصريح لسلوين لويد في حلف الأطلسي يشير الى الضغوط التي تتعرض إليها الولايات المتحدة من أجل التهجير وفي مجاله . وما أريد أن أنتهي اليه من ذلك كله الى أن علينا ان نتابع الخيوط الأساسية للسياسة ونضع بعد ذلك بالاعتبار التصريحات دون الغفلة عن هذه الخطوط الرئيسية ... والخطوط الرئيسية اليوم واضحة لنا نحن العرب ولعل أهم ما حدث في وقفة التفكر التي بدأت هو بداية تبلور قناعة عربية بشأن السياسة الأميركية وبشأن السياسة السوفياتية اليوم ، ولعل ما يلفت النظر هو أن هذه القناعة تنبهت الى أن الولايات المتحدة تتحمل المسؤولية الأكبر في ما يجري دون أن نخلي الاتحاد السوفياتي من مسؤوليته التي يتحملها هو الآخر ... من هنا فقد

أصبح بالامكان التعامل بشكل أفضل مع السياسة الأميركية حيث نجد أن المذكرة التي قدمتها الخارجية الأميركية للأمانة العامة بجامعة الدول العربية قبيل انعقاد القمة ببغداد تكشف بوضوح عن جوهرها ، وهذه المذكرة وثيقة بالغة الخطورة فجوهر هذه السياسة هو تمكين اسرائيل من تهجير من سيكونون جنوداً غزاة عنصريين وتزويدها بآخر الأسلحة المتطورة في الوقت نفسه منع السلاح المتطور عن العرب حتى ولو كان للدفاع عن النفس من خطر ماحق ، ومنعهم من مجرد الاعتراض على غزوة تستهدفهم في قلب وطنهم والضغط عليهم لحرمانهم من أسلحة الردع الكيماوية .

الولايات المتحدة تريد أن تفرض على العرب الاستسلام ...

ويستطرد قائلا : في الوقت الذي تعمل فيه على عدم الاقتراب من سلاح اسرائيل النووي العدواني وهكذا تجاهر الولايات المتحدة أنها تريد أن تفرض على العرب الاستسلام ، والحق أن هذا المنطق أصبح مرفوضا على مختلف المستويات في وطننا ، واذا كان البعض لايستطيع أن يعبِّر عن هذا الرفض عمليا فإن التفاعلات الجارية في المنطقة سوف تؤدي إلى ذلك . ويلفت النظر في وقفة التفكر أيضاً أن البحث جار في دائرتنا العربية في كيفية حصر أوراقنا للتعامل مع كل هذه الأطراف التي تواطأت من أجل تمكين موجة التهجير الصهيونية الجديدة ولقد لاحظنا صدور عدد من الدراسات والوثائق التي تقترح أفكاراً عملية يمكن تنفيذها ، وأن لنا أن نتطلع أن يستفيد اجتماع وزراء الخارجية والاقتصاد العرب من هذه الأفكار ويضعها موضع التنفيذ .

اننا مدعوون الى أن نجعل اعمالنا هي التي تقول وهي تخاطب الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ولابديل عن الوصول بالولايات المتحدة الى تغيير استراتيجيتها في المنطقة ، أيضا لابديل عن الوصول بالاتحاد السوفياتي أن يراجع

موقفه من تهجير مواطنيه اليهود الى قلب وطننا العربي .

هذا القرار يوفر المناخ جزئيا اذا تم تنفيذه بدقة

● قررت قمة بغداد دعم الانتفاضة بمبلغ ٤٣ مليون دولار شهريا هل هذا كاف لاعلان العصيان المدني العام في الأراضي المحتلة ؟

ان الانتفاضة وسنبقى نكرر انها خط الدفاع العربي الأول ، والانتفاضة تعطي بسخاء لا حدّ له .. والانتفاضة أثبتت في ممارساتها العملية على مدى أكثر من ثلاثين شهرا انها تحدد أهدافا تكون قادرة على تحقيقها وهي يقينا واضعة نصب عينيها هدف مايصطلح على تسميته العصيان المدني لأنني أتوقف متأملا في هذه التعبيرات التي تتالت في الآونة الأخيرة لتأتي ضمن اطار هدف التحرير وأنا من الذين ينادون بضرورة الحديث دوما عن التحرير فلا معنى للاستقلال بدون التحرير ، والتحرير هو روح العصر منذ أن تدفقت موجته في نهاية الحرب العالمية الثانية ..

أعود لأقول إن الانتفاضة وضعت نصب عينيها هذا الهدف ويقينا أن تحقيق التلاحم بها سيمكنها من بلوغه والتلاحم بالانتفاضة يتطلب أمرين :

أولهما : مادي يوفره هذا القرار جزئيا اذا تم تنفيذه بدقة .

والآخر : يتعلق بالقوة العربية الذاتية وتحركها وبخاصة بالدول العربية المجاورة لتستخدم أوراقا موجودة بأيديها لارهاق هذا العدو وقد خصصت صفحات كثيرة في كتابي عن الانتفاضة . وأيضاً في كتابي الثالث الذي هو تحت الطبع ـــ في شرح هذه الأوراق وضربت مثلا كيف أن مناورة في بلد عربي مجاور تمكن من الكثير وتساعد الانتفاضة اذا أحسن توقيتها وأن عمليات المقاومة في جنوب لبنان تتكامل مع الانتفاضة ، وأن بناء مجتمع حر في التعبير

عن نفسه مستنفر للدفاع والذود عن حياضه كل ذلك يحقق التلاحم ويمكن الانتفاضة من أن تبلغ هذا الهدف .

التفاعلات داخل الكيان الصهيوني ستفرض أشكالا جديدة

● إلى متى يبقى الحجر هو الوسيلة الوحيدة لأبناء الانتفاضة ؟

ـــ قال : اتخذت المقاومة الحجر رمزا لها تعبيرا عن ادراكها للظروف المحيطة ، وواضح أن التفاعلات الجارية داخل العدو والكيان الصهيوني سوف توجد ظروفا جديده .. الأمر الذي سيفرض ايجاد أشكال جديدة للتعبير عن المقاومة ويقينا فإن حدوث التلاحم العربي مع الانتفاضة يمكن من ايجاد هذه الأشكال الجديدة .

اسبوعيات أزمة الخليج

أزمة خطيرة .. وخواطر وأفكار

استشعرت الحاجة مرة أخرى خلال الأسبوعين الأولين من شهر آب ـــ أغسطس ١٩٩٠ ، للتنسيق بين « دور الرجل العام الذي يقوم به في المُلِمات » ، و« دور الكاتب الذي عليه أن يعمم الفكرة والرأي ». واستوجب ذلك مني أن أتريث في الكتابة مركزاً جهدي على القيام مع عدد من العاملين في الحقل العام الذين ينتمون لوطنهم الكبير وأمتهم وعقيدتهم وحضارتهم العربية الإسلامية بتحرك لمواجهة مضاعفات بركان انفجر في منطقتنا حين أقدم الرئيس العراقي على اجتياح الكويت يوم الثاني من هذا الشهر . وأجد نفسي اليوم ونحن في خضم هذا التحرك راغباً في تسجيل بعض الخواطر التي خطرت لي خلال هذه الفترة وبعض الأفكار التي تبلورت لدّي ، وفي اعتباري حديث شريف ألَح عليّ مرات يهيب بمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول خيراً أو ليصمت ، سائلاً الله أن يوفقنا الى قول الخير في هذا الظرف العصيب .

* * *

كنتُ على وشك أن أنهي زيارتي لعاصمة أوروبية غربية حين سمعت النبأ من الإذاعة المرئية . وكان أول ماخطر على بالي ، وأنا دارس تاريخ ، أن هذا الاجتياح ستكون له تداعيات كثيرة ومضاعفات ، تتفاقم معها أزمة بدأت به

الى حد يصعب الآن تحديده . وماأسرع ماتداعت إلى خاطري أزمات من هذا النوع حدثت خلال هذا القرن العشرين . وتذكرت بخاصة أزمة عام ١٩١٤ وأزمة عام ١٩٣٩ وماكتبه بيير رونوفن عنهما في كتابه تاريخ القرن العشرين الذي كنا ندرسه في الجامعة ، وقراءاتي حول الموضوع في عدة كتب أخرى . وقد بدأت هاتان الأزمتان في مواقع أوروبية وما أسرع ماتفاقمتا فشملتا القارة بكاملها ولم يلبث أن انتشر الحريق فعَمَّ جلّ الكوكب . ثم تذكرت أزمات نشبت في النصف الثاني من هذا القرن كانت غالبيتها خارج أوروبا ، وأشهرها أزمة السويس عام ١٩٥٦ التي حدثت في منطقتنا . وبدا لي وأنا استحضر عِبَرَ تلك الأزمات أنَ من فجرها لم يكن يتصور حدود تفاقمها ، وإلا لكانوا أعادوا النظر في قرارتهم ، وأن هؤلاء جميعاً كانوا عند تفجيرها منعطفين الى المغامرة ، وأن سرعة انتشار نار الأزمة والمفاجآت التي تتضمنها تداعياتها ومضاعفاتها فاقت كل التصورات ، وأن النظرة إلى الأمر كله في أعقاب حصاد الأزمة تختلف اختلافاً بيناً عن النظرة إليه إثر نشوبها وهذا مايجعل كتب التاريخ حافلة بالتساؤلات والأحكام حول ما جرى وعليه . وبدا لي أيضاً أن هناك مشابهات كثيرة بين هذه الأزمة الناشبة اليوم وسابقاتها ، ولكن هناك أيضاً اختلافات بينة ، والأمر يقتضي أن نُعمل الفكر فيما نواجهه في ضوء إدراكنا للصورة الدولية اليوم .

* * *

ما أقسى وطأة الأزمة على نفوسنا ، وما أشد ماتسببه من حيرة وتمزق ومعاناة ، سواء عند التفكير في الحدث الجلل وماسببّه أو عند تصور تداعياته ومضاعفاته . ويضاعف من ذلك ويؤججه إعلام الازمات في عالمنا بأساليبه ووسائله . وقد رأيتُ في كل من قابلتهم إثر عودتي وطأة الأزمة ظاهرة عليهم . وأذكر أن أحدهم وهو شاب يفيض حيوية وذكاء ألحَّ على اللقاء السريع ليفرغ

ما في جعبته ، وطفق يُعلّق على ماحدث ويتساءل عما سيحدث ويردد ماسمع من آراء مخالفة لآرائه وموافقة لينتهي من ذلك كله الى التعبير عن شدة معاناته والسؤال عن الرأي . وقد آثرت أن أركز حديثي وأنا آخذ دوري في الكلام على منهج تناول الموضوع متسائلاً بداية عن هدف الحديث ومؤكداً على أن الهدف يجب أن يكون ايجابياً يحثنا على عمل نافع يدفع ضرراً ويجلبنفعاً ، ولاخير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو احسان بين الناس . وأوضحت أن مما يخفف من قسوة الأزمة وشدة المعاناة وقد يخرج من الحيرة والتمزق ، أن نبلور آراء فيما ينبغي عمله نصل إليها من خلال تحليل مايجري . وهكذا يفكر المرء لنفسه ومع الآخرين بادئاً في محاولة فهم ماجرى وتحديد أسبابه ، ثم منتقلاً الى توقع ما ماسيجري من تداعيات ومضاعفات للأزمة وهي تتفاقم والإحاطة بالأخطار المحدِقة ، ليصل الى اتخاذ مواقفه مما يجري ويبلور أفكاراًهحول ماينبغي عمله لدفع هذه الأخطار . ولابد له في ذلك كله من أن يحرص على الرؤية الشاملة وعلى متابعة حركيَّتها . فالأزمة التي بدأت بالاجتياح العراقي للكويت لم تلبث أن امتدت الى الصعيد العربي كله وأثارت ما أثارت فيه ، ثم ما أسرع أن امتدت إلى الصعيد الدولي فإذا نحن أمام حشد غربي لم يحدث له مثيل منذ عقود من السنين ، بينما نحن في الوقت نفسه نواجه أيضاً التربص الإسرائيلي الصهيوني بنا وعلى كل من هذه الصُعُد تجري تفاعلات حادة تجعل رمال اليابسة متحركة ومياه البحر في دوامة .

* * *

تأملت في إبننا الشاب وهو يعتمد هذا المنهج في تناول الأزمة ، فوجدته بعد أن أحسن تحديد أسبابها قد تقدم في فهم ماجرى ، وساعده على ذلك أنه من المتابعين المعنيين . ورأيته يذكر أسباباً بعيدة ويقف متأنياً أمام الأسباب المباشرة التي أوصلت الى تفجر الأزمة ، ويعطي السلوك الإنساني حقه من

التأمل لأنه رآه عاملاً مفجراً حين يفتقد صاحبه الحكمة ، واستخلص من ذلك عبرة وهي أن الانسياق وراء التشدد والتصلب والبعد عن الوسطية في المواقف قد يؤدي إلى كوارث ويقطع حبل الحوار مفسحاً المجال لاشتعال النار . وألفيته ينتهي من ذلك إلى تحديد موقف تطمئن اليه نفسه مما جرى . وهذا ماحدث مع آخرين تابعتهم وهم يبحثون إعلان مواقفهم في بيانات . وقد تضمن موقف الشاب بعد إدانة الاجتياح والتصرفات غير المسؤولة التي أوصلت اليه والسياسات الخاطئة التي هيأت المناخ لحدوث التفجر ، التعبير عن القلق البالغ لما يمثله الاجتياح من انتهاك وما يقترن به من دوس العديد من الحقوق الفردية والجماعية ، والتعبير عن القلق البالغ لتداعياته ومضاعفاته على مختلف الصُعُد . ورأيت الشاب عند هذا الحد ينتقل الى البحث في التداعيات والمضاعفات بكليته ليحدد موقفه مما يجري الآن ويبلور أفكاره حول ماينبغي عمله .

كثيرة هي النقاط التي تبرز عند البحث في تداعيات الأزمة ومضاعفاتها . ومنها أن الرد على الخطأ قد يوقع في خطأ أفدح . وهذا ماينبغي تجنبه . ولايجوز بحال أن يكون العقاب على جريرة متضمناً جريرة أكبر . ومنها أن الفترة التي تلي تفجر الأزمة تحمل في طياتها خطر امتداد اشتعال الفتيل ، وأن حشد البارود يجعل من الصعب تجنب وصول شرارة اليه تؤدي إلى تفجيره ، الأمر الذي يدعو بإلحاح إلى العمل لنزع الفتيل والسعي لإيقاف الحشد والتقاط الأنفاس . ومنها إن إعلام الازمات يقوم بدور تخريبي على صعيد وحدة الأمة وتفجير تناقضات فيها يسعى العدو لتفجيرها ، وبخاصة في تأليب الناس على بعضهم بعضاً وإثارة مشاعرهم الاقليمية وتعصبهم ، الأمر الذي يقتضي تعميم الوعي بخطورة هذا الدور التخريبي وكشف مايقوم به العدو الصهيوني بخاصة في نطاقه . وقد لفت النظر كيف عمدت إذاعة العدو إلى إذاعة أقوالٍ نسبتها لابناءٍ من أمتنا تمس أخواناً لهم وتثير هذه المشاعر ، ومأأسهل أن يكشف المرء

زيفها إذا أعمل فكره .

★ ★ ★

إن من أهم النقاط التي كشفتها تداعيات الأزمة ومضاعفاتها هي تلك المتصلة بأصول القضايا التي تعيشها أمتنا في تاريخها الحديث والمعاصر . فالتحرك الغربي الذي بدأ ، يطرح لا محالة قضية « الغرب والعالم » بعامة و « الغرب والدائرة العربية الإسلامية » بخاصة . والتربص الاسرائيلي الصهيوني في قاعدة الكيان الصهيوني يطرح قضية الصراع العربي الصهيوني ودور الغرب في إيجاد هذه القاعدة واستخدامها وأسباب الأزمة التي يجري الحديث عنها تطرح قضية توزيع الثروة في عالمنا بعامة وفي وطننا الكبير بخاصة . وأخيراً القرارات التي تتخذ فردياً فتأتي بالكوارث على المجموع تطرح قضية الشورى . وقد تنبه الشاب وهو يطرح هذه النقاط الى تصريح وزير الخارجية الفرنسي الذي ذكر الثلاثة الأولى وحذّر منها قبل أيام ، فكشف عن خشية لها مبرراتها من طريقة إدارة الغرب للأزمة . والحق أن دراسة الأزمات تبين لنا أن الإدارة الخاطئة تأتي بنتائج وخيمة . كما أن هذه الدراسة توضح كيف تتتالى المستجدات بسرعة هائلة حاملة معها تغييرات جذرية أحياناً على صعيد التحالفات أو الصراعات على السواء . وهذا مايدعو إلى التركيز الآن على نزع الفتيل وإعطاء فرصة لالتقاط الأنفاس وإيقاف ما اسماه « بيرونوفن » السبب الميكانيكي المتمثل في حشد آلات التدمير ، لأن هذا الحشد الذي يبدأ كوسيلة يصبح سبباً في نشوب الحروب .

ولعل من أهم النقاط التي يوصل اليها النظر في كيفية إدارة الأزمة إدارة صحيحة هي تلك التي تتعلق بفهم الأخر وقراءة مايقوله قراءة صحيحة ، واغتنام أي شق في الباب المغلق للعمل على توسيع الفتحة ، وإتاحة الفرصة له كي يراجع مواقفه ولو أدى ذلك الى التساهل معه للحفاظ على بعض من ماء

وجهه . ومعلوم أن اللجوء الى حصره في زاوية لا مخرج له منها يدفعه حتماً إلى استخدام كل أوراقه بغض النظر عن النتائج . وهنا تتوالى الكوارث لاسمح الله ، التي ينبغي أن نعمل لمنع وقوعها .

* * *

السؤال الذي يُلح وسط ما سببته الأزمة من مضاعفات على الصعيد العربي الإسلامي هو هل يمكن لنا أن نتخلى عَن منظور وحدتنا ونحن نقارب كل هذه النقاط ؟ ويأتي الجواب بأن ذلك غير ممكن ، لأن التخلي عن هذا المنظور يجعلنا أشلاءً ويفرقنا ايدى سبأ . فلا بديل إذاً عن التمسك بمنظور وحدة الأمة على الرغم من الصدع الذي سببه الإجتياح وسببته الأزمة فيها . ولابد أن تبقى فكرة الوحدة وحقيقتها في خلفية عقولنا حتى حين يبغي أحدُنا على الآخر لأن ذلك يساعدنا على الوصول به كي يفيء إلى أمر الله . وإن ثمار التمسك بهذا المنظور طيبة على صعيدنا فهي ستمكنَّا من رصد العدو الإسرائيلي الصهيوني في تربصه كي لايفاجئنا بضربة ، ومن الحفاظ على أهلنا وتحكيم قيمنا وشيمنا في التعامل بين بعضنا البعض ، ومن توظيف الأزمة لصالح بعض قضايانا وبخاصة قضية العدالة الاقتصادية في عالمنا وقضية تحرير أراضينا المحتلة ، ومن الحد من نتائج الاستبداد في الرأي . ومن ...

المهم الآن هو أن نجعل الأولوية لنزع الفتيل وهذا يعني ويتطلب إعمال مبدأ الرجوع عن الخطأ ومعالجة أمورنا في إطارنا العربي الإسلامي .

دراسة في أزمات عالمية

البحث عن الأسباب الكامنة

دائرتنا الحضارية العربية الإسلامية تشهد نشوب أزمة حادة في عُقر دارها . وطبيعي أن نعيش بعقولنا وقلوبنا هذه الأزمة ، ويعمل كل منّا ما يستطيعه لدفع الضرر وجلب النفع . وطبيعي أيضاً أن يركن الواحد منّا بعد أن يعمل بدأب إلى واحة يستريح فيها ويتأمل لنفسه ليجدد نشاطه ويوجهه الوجهة التي يطمئن اليها . وواحتي في الأزمات هي المكتبة وقراءة كتب بعينها ، والتأمل فيما يجري ، وصولاً إلى فهم كنهه وأسبابه ، والتعرف على السنن الحاكمة ، وتصور تداعياته ومضاعفاته ، وتحديد ماينبغي عمله .

الموضوع الذي شدني للقراءة فيه هو « أزمات القرن العالمية » . وقد صادف وأنا متجه الى واحة المكتبة أن سمعت من إذاعة القرآن الكريم تلاوة من سورة الأنفال دعتني إلى مراجعة السورة التي كثيراً ما أردد منها قول الله تعالى « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » . ووجدت نفسي بعد المراجعة على يقين من المنهج الذي ينطلق في النظر للأمور ومعالجتها من الإيمان بالله سبحانه خالق الكون والإنسان .

* * *

كان واضحاً لي وأنا مشدود للقراءة في موضوع « أزمات القرن

العالمية » أنني أضع الأزمة الحادة التي نشبت في عُقر دارنا بعد الاجتياح العراقي للكويت يوم الثاني من آب / أغسطس ١٩٩٠ الثالث عشر من محرم ١٤١١ بين هذه الأزمات . وقد دعاني ذلك الى أن اختار قراءاتي لتساعدني على تحديد الموضوع بداية . وهكذا وقفت أولاً عند كلمة « أزمة » فوجدتها تعني في لساننا العربي « الشدة والضيق والقحط » ، ومنها المأزم وهو المضيق وموضع الحرب ، وقد قال العرب أزم الحبل أي أحكم فتله وأزم الدهر عليه أي اشتد . والأزمة إصطلاحاً هي اشتداد الأمر إلى درجة تنذر بنشوب الحرب .

اتجهت في المكتبة الى ركن الدراسات التاريخية الذي يضم فضلاً عن كتب التاريخ وفلسفته كتب الفكر السياسي ، ذلك أن موضوع أزمات القرن العالمية يقع ضمن « التاريخ الحديث والمعاصر » . وأقبلت بداية على القراءة في كتاب « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » للحافظ المؤرخ السخاوي من علماء القرن التاسع الهجري . وقد وجدته يتحدث عن تعريف التاريخ وموضوعه وفوائده وغايته وحكمه وصولاً إلى من صنف فيه ، ووقفت عند قوله في فاتحة الكتاب بعد أن ذكر الاسم الذي اختاره له «والله اسأل أن يحمينا جهل الجهال ، ويكفينا سائر المهمات بالمغفرة في الماضي والحال والاستقبال ، بمنّه وكرمه » . كما وقفت عند قوله في تحديد موضوع التاريخ « وأما موضوعه فالإنسان والزمان ، ومسائله أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان » ، وعند قوله في غاية علم التاريخ « وأما غايته فالترجي لرضا الله ، فإنه لايضيع أجر من أحسن عملاً ، والأعمال بالنيات»، وعند ما نقله عن المقريزي في خطبة كتابه « العقود الفريدة » « إن الله أقام الخلائق جيلاً بعد جيل ، واستعمرهم قبيلاً في اثر قبيل ، ليبقي الأول للثاني قصصه مواعظ وعبراً ، ويحيي الآخر للتقدم ذكراً وينثر خبراً ، كي يرعوي الفطن عن فعل مايذم ويستقبح ، ويقتدي الأديب بما

هو الأحسن من الأخلاق والأصلح » . وأسعدني وأنا انتقل إلى تصفح مجلة تُعرِّف بعالم الكتاب أن أجد عرضاً لكتاب « مختصر سياسة الحروب » لأبي سعيد الشعراني الهرثمي صاحب الخليفة العباسي المأمون ، وأن أقرأ في باب « في ذكر الأناة والرفق » أحد أبواب الكتاب الأربعين « أطلبْ الأناة ما استقامت لك ، واقبل العافية ماوهبت لك ، ولاتعجل الى اللقاء ماوجدتَ لك الى الحيلة سبيلاً ، لاتأمن مطاولة عدوك فإن في الاناة انتظار إمكان فرصة وظفراً من عدو بعورة » . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول « ان الحرب لايصلحها الا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكفء » . وقد قرأت في باب « في ذكر الحذر » ، وفي باب « في الاستشارة وترك الاستبداد بالرأي » وفي باب « حسن سياسة الرئيس أصحابه » . ولفت نظري أن أول الأبواب هو « نظام الأمر بتقوى الله والعمل بطاعته » الذي يؤكد الهرثمي فيه على أن لصاحب الحرب أن يجعل رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده وكثرة ذكره والاستعانة به والتوكل عليه والفزع اليه ومسألته التأييد والنصر والسلامة والظفر . وأن الجند يكتب لهم النصر في الميادين ماداموا يعتقدون أنهم جند الله يحاربون لنصرة الحق على الباطل .

* * *

لقد تجاوزت الأزمة التي بدأت في عُقر دارنا دائرتنا الحضارية الى الدائرة الدولية فأضحت أزمة عالمية ، وباتت دراستها تقع ضمن مايعرف اليوم بالتاريخ العالمي . وقد بحثت في مكتبتي عن كتاب دافيد تومسن « تاريخ العالم من ١٩١٤ الى ١٩٥٠ » لأني اذكر أنه خصص مقدمته للإجابة عن سؤال ماهو تاريخ العالم ؟

إن التاريخ العالمي هو الذي يحيط بنظرته العالم كله بقاراته جميعها . تماماً كما أن الأزمة تكون عالمية اذا امتدت آثارها لتشمل أجزاء العالم المختلفة ، وإن

كانت بدرجات متفاوتة ، وفكرة التاريخ العالمي في الغرب حديثة لم يكتمل نضجها إلا في هذا القرن العشرين . وهي وثيقة الصلة بانتشار التسلط الأوروبي على قارات العالم الأخرى في القرنين الأخيرين بخاصة ، وبثورة الإتصال في عالمنا التي دخلت مرحلة حاسمة في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبقيام المؤسسات الدولية من عصبة الأمم في أعقاب الحرب العالمية الأولى ثم الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ . فتاريخ العالم قبل ذلك « كان مؤلفاً من سير منفصلة لكل قارة .-وإذا استثنينا غارات محدودة كانت تقوم بها عناصر من هذه القارة على قارة أخرى ، فإن تطور كل قارة كان قصة مستقلة عن غيرها » . كما يقول تومسن . والجديد هنا في التاريخ العالمي جوهره أن القارات الست في الدنيا تهم إحداها الأخرى وتتبادل التأثير . وقد رأى تومسن أن كتابة التاريخ العالمي ينبغي أن تكون أشبه بخرائط تيارات المحيط التي تبين تدفق الحركة بين القارات منه بالخرائط التي تكتفي ببيان المعالم الطبيعية لقارات منفصلة . واقترح أن يكون التركيز في هذه الكتابة على مسائل أربعة عظمى هي الأحوال المادية ، والأفكار والانفعالات ، والشخصيات ذوات النفوذ ، والأحداث الهامة ، لأن هذه المسائل هي المجاميع الرئيسية لكل تحليل تاريخي وفي تفاعلها يكمن سر التغير التاريخي . والحق أن هذه المسائل الأربعة تبرز في كل أزمة عالمية ، الأمر الذي يقتضي أن نركز أنظارنا عليها ونحن نحلل الأزمة ونحاول فهم مايجري . ويبقى أن نلاحظ أننا حين نحلل أزمة نعيشها فإن مشاعرنا تفعل فعلها في تحليلنا ، الأمر الذي قد يؤدي بالبعض الى « الذاتية » والبعد عن « الموضوعية » ، وهذا مايدعونا الى الحرص على الموازنة بين الذاتية والموضوعية في تفسير الموضوع .

* * *

تبدأ الأزمة العالمية محلية إو إقليمية ، ثم تغدو عالمية . وهناك دوماً أسباب

مباشرة لها يجري الحديث عنها عند نشوبها ، كما أن هناك أسباباً أخرى يسميها بعض المؤرخين الأسباب غير المباشرة أو الأسباب الكامنة كما فعل تومسن في دراسته لأزمة ١٩١٤ أو الأسباب البعيدة . وتبدو الأسباب المباشرة من « خلال التأمل التاريخي في الأمور بعد وقوعها » مثل «(القشة التي قصمت ظهر البعير » في مثلنا العربي ، حيث كان البعير قد أوشك أن ينوء بما يحمله فوق ظهره حين أضيفت القشة فقصمت الظهر . كما تبدو هذه الأسباب المباشرة « كحبة الرمانة » في المثل الشعبي الذي يشير إلى صراع نشب بسبب حبة رمانة فيقول « إنها ليست حبة الرمانة ولكنها القلوب الملآنة » . ولقد رأي تومسن أن يمهد لدراسته الأسباب الكامنة لأزمة ١٩١٤ العالمية التي أدت إلى نشوب حرب أصبحت عالمية ، بفصل عرض فيه أولاً التنظيم السياسي للعالم وخريطته السياسية ، وعرض ثانياً المجال الاقتصادي فيه والأحوال المادية ، وعرض ثالثاً ما أسماه « الركاز الثقافي » ليعرف بالأفكار والانفعالات السائدة . ووقف حين بدأ الحديث عن « المشاكل الكامنة » أمام الفارق الكبير بين نوايا وأغراض من بدأوا إشعال الأزمة وبين نتائج الأزمة وعواقبها ، ورأى ضرورياً لهذا السبب أن يخصص المسائل التي « كانت صراحة موضوع النزاع حين بدأت الحرب » ثم يبين المشاكل التي أصبحت موضوع النزاع قبل أن تنتهي ، ثم يوضح النتائج الأخرى التي لن نعرف إلا بعد انتهاء الأزمة والحرب أنها انبثقت منها ، وتميزت بدرجة متكافئة عن النوعين السابقين كليهما .

كان السبب المباشر في نشوب أزمة ١٩١٤ العالمية هو مصرع الأرشيدون النمساوى الوارث للعرش على يد فتى صربي متحمس في مدينة سيراجيفو البلقانية الصغيرة في شهر تموز / يوليو ، رأى فيه عدواً لشعبه الذي يريد أن يستقل عن النمسا . ولم تلبث الحرب أن اشتعلت بين النمسا والمجر والمانيا من جهة وروسيا وفرنسا من جهة أخرى . ثم جرّ غزو المانيا لبلجيكا بريطانيا

وممتلكاتها الى حلبة الوغَى . ولم تنتهِ الحرب إلا وقد دخلتها الولايات المتحدة في ربيع ١٩١٧ . ويشرح المؤرخون الغربيون الأسباب الكامنة وراء هذه التداعيات والمضاعفات للسبب المباشر فيقولون إنه لم يكن بوسع إمبراطورية النمسا والمجر الوراثية المتعددة والمجر الوراثية المتعددة القوميات أن تتسامح في غزو دولة الصرب دون المجازفة بزيادة تفككها هي الى أقسامها القومية . ولم يكن بوسع امبراطورية روسيا القيصرية الوراثية أن تتسامح في التوسع النمسوي في البلقان دون أن تضيع دعوتها لشعوب شرق أوروبا الصقلية . وحين غزت المانيا بلجيكا على الرغم من تعهدها ودول غربية أخرى باحترام حياد بلجيكا ، فلأن خطة شيلفين التي وضعت قبل ذلك بعدة سنين لمواجهة مثل هذا الاحتمال حتمت على الجيوش الألمانية الإجتهاد في توجيه ضربة قاضية الى شمال فرنسا والى باريس قبل أن تستطيع روسيا أن تضرب ضربتها ، وقبل أن تصبح المعونة البريطانية الممكنة فعالة . وحين أعلنت بريطانيا الحرب على المانيا كان السبب هو أن المانيا انتهكت تعهداً مشتركاً باحترام الحياد البلجيكي من جهة ، ولأن الاتفاقات البحرية المعقودة مع فرنسا والخوف من القوة البحرية الألمانية أوجبا على بريطانيا أن تقف بجانب فرنسا في وجه هذا الهجوم . وحين أعلنت اليابان الحرب على المانيا كانت تقصد الاستيلاء على ما للأخيرة من امتيازات في الصين ومن جزر في المحيط الهادي . وحين انضمت الدولة العثمانية وبلغاريا الى المانيا بعد تمهل قليل كان ذلك لأن احداهما كانت خصماً لروسيا والأخرى كانت ضد العرب . وحين انضمت ايطاليا عام ١٩١٥ الى بريطانيا وفرنسا وروسيا ، كان ذلك لأنها حصلت على وعد بمغانم إقليمية على حساب الدولة العثمانية والنمسا بموجب معاهدة لندن السرية التي أبرمتها ذلك العام ومنيّت بمغانم استعمارية أخرى . وقد انتهى تومسون من إيجازه للأسباب الكامنة الى القول « وهكذا كان دخول كل من الدول المتحاربة إلى الحرب مقرراً باعتبارات

الأمن والقوة القومية » .

* * *

واضح إذاً أن الأسباب الكامنة وراء نشوب الأزمات بداية تؤثر تأثيراً فعالاً على تطور هذه الأزمات ، وهي متعلقة دوماً باعتبارات الأمن والقوة القومية أي بالمصالح . وقد استهل بيير رونوفين كتابه عند حديثه عن أزمة ١٩١٤ بفصل أول عن « المصالح الأساسية للدول الأوروبية العظمى في فاتحة القرن العشرين » قائلاً « للدول العظمى مصالح مستديمة تسير وتوجه سياستها الخارجية مهما كانت الحكومة التي تقبض على زمام السلطة ومهما كان نوع النظام السياسي السائد فيها . وهذه المصالح المستديمة مرتبطة بشروط جغرافية وشروط سكانية وشروط نفسية ، كما أنها مرتبطة أيضاً بحاجات النظام الاقتصادي السائد وضروراته » . ولكي نفهم كيف تتصرف الدول في الأزمات حماية لمصالحها لابد لنا من معرفة أوضاعها ، والوقوف أمام شواغل سياساتها الخارجية ، والنظر في وسائل العمل المتاحة لها لتحقيق هذه السياسات .

* * *

أقف عند هذا الحد من قراءاتي في واحتي وأسجل زبدة تأملي فيما يجري بأننا أمام أزمة حادة نشبت في عُقر دارنا ، ولم تلبث أن أصبحت عالمية ، وإن لنا أن نتعمق فهمها لنستطيع معالجتها ، ولكن الأمر الأكثر إلحاحاً الآن هو أن ننزع الفتيل منها كي لا تتفاقم ، لأن عبرة الأزمات العالمية السابقة هي وجود فارق كبير بين نوايا وأغراض من بدأ وإشعال الأزمة ، وبين تداعيات الأزمة ومضاعفاتها ونتائجها وعواقبها ، فليكُفّ الذين يُصعّدون الأزمة عن تصعيدهم وليلتقطوا الأنفاس قبل أن تشتعل النار في الهشيم. وصدق الله العظيم « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرِين » .

دراسة في أزمات عالمية

العلاقة بين الأزمة العالمية وتغيير النظام الدولي

أكتب هذا الحديث وقد دخلت أزمة الاجتياح العراقي للكويت أسبوعها الثالث . وهذا يعني أنها تمر بفترة بالغة الدقة لأن خطر بدء المواجهة المسلحة يزداد خلال الشهر الذي يلي الأسبوعين الأولين ، حيث تكون الأطراف الدولية التي أصبحت مشاركة في الأزمة قد أكملت حشد قواتها .

★ ★ ★

أعود إلى خلوتي في واحة المكتبة بعد عمل دائب يهدف الى التخفيف من معاناة الناس الذين تطحنهم الأزمة ، ويسعى الى نزع الفتيل المشتعل ويحرص على وحدة الأمة . وأجد أني مهتم بالبحث في العلاقة بين نشوب الأزمة العالمية وتغيير النظام الدولي السائد . وذلك بعد أن انتقلت من التأمل في طبيعة الأزمات العالمية إلى النظر في أسبابها المباشرة ، ومن ثم إلى النظر في أسبابها الكامنة .

إن حدوث أزمة عالمية يعني في حد ذاته أمرين :

الأول : أن النظام الدولي السائد يعاني من خلل أصيل فيه يهدده بالانهيار .

الآخر : أن هناك محاولة لتغيير هذا النظام الدولي السائد قام بها أحد أطرافه تقاومها أطراف أخرى فيه لأنها تريد الحفاظ عليه كما هو .

دعتني هذه النتيجة التي توصلت إليها من تأملي في الأسباب الكامنة للأزمات العالمية الى أن أراجع وضع النظام الدولي السائد في أزمة ١٩١٤ وأزمة ١٩٣٩ . وكان هذا النظام في واقع الحال أوروبياً يفرض نفسه على بقية القارات من خلال التسلط الأوروبي عليها . كما كان يقوم على توازن المصالح بين الدول الاوروبية الاستعمارية النهمة وفق الخطوط التي رسمها مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ إثر هزيمة بونابرت . وقد راجعت ماقاله رونوفن عن أسباب تفاقم أزمة ١٩١٤ وتحولها إلى أزمة عالمية فوجدته يقول « بعد فترة شهدت فيها العلاقات الدولية هدوءاً نسبياً إنفجرت بين عامي ١٩٠٤ و١٩١١ تباعاً أزمتان خطيرتان أدتا إلى التهديد بالحرب ، بتشبث من دولتي الوسط المانيا والنمسا — هنغاريا اللتين أرادتا أن تفيدا من ضعف روسيا بسبب الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ — ١٩٠٥) واخفاق منشورياً . وكانت أولى هاتين الأزمتين الأزمة المراكشية (١٩٠٤ — ١٩٠٥) وبها أرادت المانيا أن تحول دون عزم فرنسا على توطيد نفوذها في مراكش ، والأخرى هى الأزمة البلقانية (١٩٠٨ — ١٩٠٩) التي اثارتها النمسا — هنغاريا وضمت بها أراضي البوسنة والهرسك حيث أيقظ هذا الضم التنافس القديم النمساوي الروسي في البلقان .-ولم تلبث أن انفجرت أزمتان جديدتان بين ١٩١١ و١٩١٤ أدتا في هذه المرة أيضاً الى التهديد بالحرب ، كانت أولاهما أزمة أغادير ١٩١١ التي أثارتها المانيا لتحصل على تعويضات من فرنسا مقابل سكوتها عنها هناك ، وكانت الأخرى في البلقان ١٩١٢ — ١٩١٣ حيث كانت روسيا تشجع دول البلقان على الدولة العثمانية .

كان واضحاً في أزمة ١٩١٤ أن المرحلة التي بلغتها أوروبا الاستعمارية « قسمت دولها الى كتلتين لايقوم بينهما جسر ، وكان التوازن بينهما واهياً لدرجة أن نفثة ريح قد تودي به » على حد تلخيص سبندر لواقع النظام الدولي

السائد آنذاك في كتابه « خمسين سنة من تاريخ أوروبا » . وهناك من عبرّ عن هذا الواقع بلغة الاقتصاد فقال « إن الدول الأوروبية الرأسمالية قسمت العالم فيما بينها وركزت ثرواته في أيدي بعضها ، فكانت قسمة ضيزى ، ولم يكن ممكناً لأي تقسيم جديد أن يحدث إلا على حساب دول أخرى ، فما ستكسبه دولة ستخسره أخرى ، والقوة وحدها التي تحسم الأمر . ومن هنا أصبحت الحرب بين نسور العالم المفترسة حتمية » . والحق أنني مامن مرة قرأت فيها الحديث الأوروبي عن تنافس المصالح إلا واعتراني عجب « واستغراب من طريقة العرض التي تجعل مصائر شعوب وأمم ألعوبة بأيدي المستعمرين النهمين ، ويتداعى الى خاطري كيف حدث ذلك معي لأول مرة وأنا فتى في الرابعة عشرة حين استمعت إلى هذا الحديث من أستاذ التاريخ في ثانوية اللاذقية وهو يشرح مقدمات الحرب العالمية الأولى .

وقفت وأنا اقلب صفحات تاريخ أزمة ١٩١٤ أمام محاولة المانيا تغيير النظام الدولي السائد الذي رسمت خطوطه الاساسية بريطانيا إبان سطوتها . وقد أعلن الامبراطور غليوم الأول منذ عام ١٨٩٥ أنه يريد أن يسلك سلوكاً دولياً وينتهج « سياسة عالمية » تطالب بمقتضاها « بمكان تحت الشمس » « لأن لها الحق عند تقسيم الأراضي ومناطق النفوذ في حصة تتناسب مع أهميتها المتزايدة » . ولاحظت أن الصراع الناشب في النظام الدولي السائد آنذاك كان بين كتلتين أوروبيتين ، واستمر كذلك على هذا النحو في أزمة ١٩٣٩ ضمن دائرة الغرب حين أصبحت الولايات المتحدة في إحدى الكتلتين المتصارعتين وخرجت من عزلتها الاميركية لترعى مصالحها في استثمار الثروة النفطية في مناطق أخرى من العالم .

السؤال الذي برز أمامي عند هذا الحد من تأملي هو

هل هناك علامات تدلنا على حال النظام الدولي السائد وتنبّهنا الى وجود خلل فيه قبل أن يتفجر ؟

تلمست الجواب في مراجعة أزمة عام ١٩٣٩ العالمية ، **فوجدت أن هناك علامتين . الأولى هي إخفاق الأمن الجماعي لأطراف النظام ، والأخرى تفاقم التنافس بين هذه الأطراف** . وقد تجسد اخفاق الأمن الجماعي يومئذٍ في إخفاق عصبة الأمم التي لم تكن قادرة على معارضة عدوان اليابان على الصين عام ١٩٣٢ . وكان من أسباب هذا الاخفاق ضعف ميثاقها وتوظيفها لصالح دول بعينها للحفاظ على « الحالة الراهنة » « والأمر الواقع » ، وتحديداً لصالح دولتين هما بريطانيا وفرنسا . كما تجسد التنافس بين الدول الكبرى في النظام الدولي السائد آنذاك في ميل هذه الدول الى تشكيل « كتل » يعارض بعضها بعضاً تُجرّ اليها الدول الصغيرة جرّاً . وهكذا شهد عام ١٩٣٦ تشكل « الكتلة اليابانية الايطالية الألمانية » في مواجهة فرنسا وبريطانيا . وتتالت منذ ذلك العام الأمثلة على قصور عصبة الأمم التي فشلت أيضاً في أمر هجوم ايطاليا على الحبشة عام ١٩٣٥ ، ثم في ابتلاع المانيا للنمسا عام ١٩٣٨ وسيطرتها على تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٩ واحتلال ايطاليا لألبانيا عام ١٩٣٩ .

خطر على بالي وأنا أتابع ضرب الأمثلة على إخفاق عصبة الأمم مايمكن أن يكتبه المؤرخ مستقبلاً عن إخفاق الأمم المتحدة ، والأمثلة التي يسوقها من خلال تتبع استخدام الولايات المتحدة حق النقض لتعطيل أي قرار يخالف وجهة نظرها . ووعدت نفسي أن أرجع إلى هذا الحديث فيما بعد لأرى إلى أي مدى كانت الإدارة الأميركية مدركة أن كل تعطيل لدور الأمم المتحدة قامت به أسهم في صنع أزمة عالمية . وانتقلت في تأملي إلى النظر في النظام الدولي بعد الحرب العالمية الثانية لأرى ماطرأ عليه من تطور وماتعرض له من

أزمات عالمية ، وماهو حاله اليوم .

لقد طرأ تطور واضح على النظام الدولي منذ عام ١٩٤٥ بفعل تدفق موجات التحرير في آسيا وافريقيا إثر تفجر ثورة التحرير . وتركز الصراع الدولي بداية في دائرة الغرب الحضارية بين المعسكر الرأسمالي فيها والمعسكر الاشتراكي . ثم لم يلبث أن شمل هذا الصراع الدول المستقلة حديثاً في آسيا وافريقيا التي أصبحت أعضاء في الأمم المتحدة وأرادت أن تحتل مكاناً في النظام الدولي . وهكذا صار المفكرون السياسيون الغربيون يتحدثون عن عالم أول غربي وعالم ثانٍ اشتراكي وعالم ثالث توجه إلى عدم الانحياز لأي من العالمين الأولين وممارسة الحياد الإيجابي .

حدثت عدة أزمات عالمية في عالمنا المعاصر ، نشب بعضها بين ماأسموه العالم الأول والعالم الثاني في دائرة الحضارة الغربية مثل أزمة برلين ١٩٤٨ وأزمة المجر ١٩٥٦ وأزمة تشيكوسلوفاكيا ١٩٦٨ . وكان الصراع في هذه الأزمات بين المعسكرين والدولتين الكبريين اللتين تقودانهما . كما حدثت أزمات عالمية أخرى حين حاولت أطراف من « العالم الثالث » أن تحسّن من أوضاعها في النظام الدولي فاصطدمت « بالعالم الأول » ، وكانت أزمة السويس أشهرها عام ١٩٥٦ . وقد استفادت هذه الأطراف من الطور الذي كان يمر به التوازن بين العالمين الأول والثاني في الحد من قدرة العالم الأول على الانفراد بها ، ووظفت روحها المعنوية العالية في صراعها . وأمكن في ظل الخوف من نشوب حرب عالمية ثالثةحصر هذه الأزمات خوفاً من الفناء بأسلحة التدمير الشامل . وهكذا تم علاج أزمة السويس ثم أزمة كوبا ١٩٦٢ . ولم يلبث « العالم الأول » أن استخدم قاعدته الصهيونية للقيام بتوجيه ضربة ١٩٦٧ للدول العربية المجاورة لفلسطين واستعادة ماحقق العالم الثالث من نصر بالنقاط وفرض الأمر الواقع والحالة الراهنة . ثم لم يلبث « العالم الأول » أن نجح في التضييق

على « العالم الثاني » الذي بدأ يشهد منذ عام ١٩٨٥ أحداثاً جذرية في داخله تحت اسم « اعادة البناء » أوصلته الى التواؤم مع النظام الدولي القائم . وهكذا حدث تحول مشهود تحقق بفعله تفاهم بين العالمين الأول والثاني على الأوضاع الدولية في ظل هيمنة العالم الأول عليها ، وبدأ ينعكس ذلك على معالجة بؤر التوتر الاقليمية في عالمنا .

سؤال آخر يبرز أمامي عند هذا الحد من تأملي هو

هل أوصل هذا التفاهم الذي حدث بين العالمين الأول والثاني الى أن يصبح حال النظام الدولي اليوم مستقراً ؟

نظرت في مكتبتي إلى رفّ ملىء بالكتب التي تتحدث عن أزمة النظام الدولي وتدعو الى تغييره ، وتشرح أحوال الشمال والجنوب واقفة أمام الفجوة الكبيرة القائمة بينهما ، فتأكد لي أن الجواب على هذا السؤال هو بالنفي لأن تناقضاً رئيسياً لايزال قائماً في عالمنا بين الشمال بعالميه الأول والثاني من جهة والجنوب حيث العالم الثالث . واستحضرت حقيقة أن العالم الثاني كان مشاركاً في وضع أسس النظام الدولي بعد الحرب العالمية الثانية ، فتمم رسم خريطة العالم في مؤتمر يالطة بين أقطاب العالمين ، وكان العالم الثالث غائباً .

إن أخطر مايبرز في حال النظام الدولي اليوم هو ماسجله « ستافريانوس في كتابه « الصدع العالمي » من « أن إختلال التوازن بين البلدان المتطورة والبلدان المتخلفة قد زاد تفاقماً منذ الحرب العالمية الثانية ، بسبب الثورة الصناعية الثالثة ودور الشركات عابرة القارات والجنسيات التي نقلت التقنية الرفيعة الجديدة في الزراعة والصناعة من العالم الأول الى العالم الثالث » . وقد حدد ستافريانوس تعريفه لمصطلح « العالم الثالث » بأنه بات اليوم ذا مضمون اقتصادي بعد أن خفت حِدّة توتر الحرب الباردة بين العالمين الأول والثاني ،

وكان حين ظهر في أعقاب الحرب العالمية الثانية ذا مضمون سياسي ، وينضوي اليوم تحته أكثر من مائة دولة يقطنها ثلاثة أرباع العالم .

واضح أن اختلال التوازن هذا بلغ اليوم في عالمنا درجة تنذر بالإنفجار اذا نشبت أزمة عالمية . « فالهوة الآخذة في الإتساع بين العالم الأول والعالم الثالث أوجدت لأول مرة كُمون الثورة على نطاق عالمي » . وقد أصبح من المسلم به أن تخلف العالم الثالث ــ كما يقول ستافريانوس ــ وتطور العالم الأول لايمثلان ظاهرتين منفصلتين ، وإنما هما ظاهرتان متصلتان عضوياً ووظيفياً ، لأن أولاهما نتجت بسبب الأخرى ، وأخراهما جاءت على حساب الأولى . وهذا ماأوصل الشعوب الى أن تعقد عزمها على شق طريقها الخاص بها ، و« الا تقبل ببساطة مقولة أن للتقدم طريقين محتومين لا ثالث لهما طريق الرأسمالية الغربية أو طريق الإشتراكية السوفيتية ــ على حد قول كارولس فينوتس من أميركا اللاتينية ــ فما يجري اليوم في أرجاء الدنيا يدلل على عزم هذه الشعوب أيضاً على أن تبحث عن السبل الكفيلة بقرن قوة التقنية بطاقة موروثاتها الشعبية » .

لقد ارتفعت أصوات كثيرة في الغرب بعامة وعالمه الأول بخاصة تنبه الى الخلل الذي يعاني منه النظام الدولي السائد وتدعو الى إصلاحه قبل أن يؤدي هذا الخلل إلى الانفجار . وكان من بين هذه الأصوات من أكد على الخير الأخلاقي مثل رالف بارتن بيري في كتابه آفاق القيمة الذي دعا الى أن يتغلغل المقياس الأخلاقي في التفكير الاقتصادي كله ، وأكد على وجود هدف أخلاقي نهائي للاقتصاد . ولكن هذه الأصوات كانت صيحات في وادٍ وغطت عليها أصوات المتخمين النهمين الذين يريدون إستمرار استئثارهم بالنصيب الأوفى ضمن أمر واقع فرضوه وقننوه .

أقف عند هذا الحد في تأملي في العلاقة القائمة بين نشوب أزمة عالمية ومحاولة تغيير النظام الدولي السائد . وأعود الى الإنغماس في الأمور الجارية وأنا أكثر اقتناعاً بضرورة السعي الى نزع الفتيل المشتعل في الأزمة الراهنة ، وأكثر عزماً على التخفيف من معاناة الناس الذين يطحنون بسببها وعلى الحفاظ على وحدة الامة . ولعل العالم إن نجح في احتواء هذه الأزمة يصبح أكثر تهيؤاً لمعالجة الخلل الذي يعاني منه النظام الدولي السائد اليوم ويقنع العالم الأول بضرورة توطين نفسه على ذلك بدلاً من أن يؤدي تشبثه ببقاء الحال على ماهو عليه الى انفجار يغيّر الكثير ولايمكن ضبطه . ويخطر على بالي أن مما يقنع أطراف الازمة بضرورة احتوائها استشراف ماسينجم عن انفجارها والنظر في توازن القوى القائم اليوم . وهذا ما سأبحث فيه حين أعود الى خلوتي .

الأزمة الراهنة .. وأسئلة وأجوبة

الأزمة الراهنة تدخل أسبوعها الرابع .. وهناك مجموعة اسئلة تلح ..

● أين نحن الآن في هذه الأزمة التي نشبت بفعل الاجتياح العراقي للكويت ؟

ـــ نحن في دائرة الحضارة العربية الاسلامية والعالم من حولنا في دوائره الحضارية الأخرى ، نعيش الآن أخطر فترات هذه الأزمة التي بدأت محلية إقليمية وأصبحت عالمية . وهي الفترة التي(يتزايد)فيها خطر اشتعال الحرب وبدء المواجهة المسلحة . وقد بدأت هذه الفترة بعد أن استكملت الأطراف الدولية المشاركة الحدالأدنى اللازم من حشد قواتها خلال الأسبوعين الأولين . وأمامنا شهر أو شهران نحبس فيها أنفاسنا تحسبا لحدوث الإنفجار . ونحن مدعوون لمتابعة جهودنا كي ننزع الفتيل المشتعل ونحاصر الأزمة ونلتقط الأنفاس ونتابع البحث عن حل سياسي لها ونعالج مشكلات آنية نجمت عنها مثل تأمين سلامة المدنيين وتخفيف معاناة الملايين الذين أضيروا بسببها .

● هل هناك أي أمل في إمكانية الوصول إلى حل سياسي للأزمة والعراق يفرض أمراً واقعاً ؟ وألاّ ينبغي معاقبة المعتدي كي يكون عبرة ؟ وكيف نعمل الآن للحيلولة دون حدوث الإنفجار ؟

ـــ الأمل موجود مادام الإنفجار لم يحدث . ولو حدث لاسمح الله ولاقدّر فعلينا أن نأمل أيضاً بمحاصرته قبل أن يتفاقم ونستمد من الأمل قوة للعمل على ذلك والنجاح في المحاصرة . وإن حدث الفشل لاسمح الله ولا قدّر فلابديل عن أن نأمل بايقاف الحرب ونحلم ببناء عالم يسوده السلام القائم على العدل . فالأمل إذن باقٍ مابقي الإنسان ، وما أصدق قول الطغرائي في لاميّته « ما اضيق العيش لولا فسحة الأمل » . ولابد أن ننطلق من الأمل إلى العمل . وفي الحديث الصحيح « لايزال قلب الكبير شابا في اثنتين حب الدنيا وطول الأمل » .

حين تنشب الأزمة يكون طبيعياً وضرورياً تحديد المعتدي ومحاولة رد العدوان . وحين تتفاقم الازمة وتهدد باشتعال حرب كبيرة تصبح الأولوية لنزع الفتيل المشتعل ومحاصرة الخطر والتقاط الأنفاس ، لأن التفجر سيكوي بناره الجميع وستنجم عن تداعيات ومضاعفات لايحيط بعلمها الا الله سبحانه وسيسفر عن نتائج مختلفة تماماً عن تلك سعت اليها الأطراف المشاركة .

إن عملنا الآن للحيلولة دون حدوث الإنفجار يجب أن يشمل بداية تبصير جميع الأطراف المشاركة بأهوال الانجرار الى المواجهة المسلحة . ثم لابد بعد ذلك من إعادة قراءة الأسباب المباشرة لنشوب الأزمة والنظر المتمعن من ثم في الأسباب الكامنة التي تختفي وراء الأسباب المباشرة وتمثل الجزء المغمور من الجبل الجليدي . وسنصل حينئذٍ بإذن الله الى وضع أيدينا على مفتاح الحل ، والى أن نكون متهيئين لمعالجة الخلل القائم الذي يؤدي كل حين وآخر الى نشوب أزمات تهدد عالمنا باشتعال حرب عالمية لاتُبقي ولاتذر تستخدم فيها أسلحة الدمار الشامل . والخطوة الأولى الخاصة « بالتبصير » تقع ضمن « المعالجة الاستشرافية التشوفية المستقبلية » للأزمات .

● هل الأزمة الراهنة من النوع الذي يهدد باشتعال حرب عالمية ؟ أم أن من يقولون ذلك يعمدون الى المبالغة والمغالاة كي تُسمَع تحذيراتهم ؟ ماذا تقول المعالجة الاستشرافية في ذلك ؟

ـــ ليس من قبيل المبالغة ولا المغالاة التحسب من أن تؤدي الأزمة الراهنة الى اشتعال حرب يمكن أن توصف بأنها عالمية . فالأزمة اليوم بعد وصول القوات الاميركية الى الجزيرة العربية وحشد الأساطيل الغربية في الخليج وبحر العرب والبحر الأحمر والبحر المتوسط لم تعد إقليمية بل أصبحت عالمية . وهي في واقع الأمر من أخطر أزمات القرن العشرين العالمية . ومعلوم أن كوكبنا الأرضي لم يعرف « الأزمات العالمية » الا في هذا القرن العشرين بفعل التسلط الأوروبي على قارات العالم الأخرى وثورة الاتصال وقيام نظام عالمي تجسد في عصبة الأمم التي قامت أعقاب الحرب العالمية الأولى ثم في « الأمم المتحدة » التي قامت في أعقاب الحرب العالمية الثانية . وهكذا عرفنا مايصطلح على تسميته بالتاريخ العالمي الذي يحيط بنظرته العالم كله بقاراته جميعها . أما قبل ذلك فكان تاريخ العالم مؤلفاً من سير منفصلة لكل قارة . وأشهر أزمات القرن العشرين العالمية في نصفه الأول أزمة عام ١٩١٤ عام ١٩٣٩ وقد أدتا الى حربين عالميتين ، أما في النصف الثاني فقد نشبت عدة أزمات يمكن أن توصف بأنها عالمية وأمكن حصر الحروب التي أشتعلت بفعلها فبقيت حروباً إقليدية مثل أزمة السويس عام ١٩٥٦ وأزمة الكونغو وأزمة كوبا في الستينيات . وكان مماساعد على حصرها الخوف من حصاد حرب عالمية تستخدم فيها اسلحة الدمار الشامل ، والمعالجة الاستشرافية لها .

إن المعالجة التشوفية الاستشرافية المستقبلية تنطلق من القول إن من يتشوف ماستؤول اليه الأمور مستقبلاً يكون أقدر على التعامل مع الواقع القائم في

الحاضر ، تماماً كما أن الذي يعرف من أين في الماضي يعرف الى أين في الحاضر . ومنهج هذه المعالجة يقوم من ثم على تحليل الواقع القائم ، واستحضار حركة التاريخ في مجراه والوقوف أمام السنن الحاكمة لها ، ومن ثم استشراف المستقبل وتشوفه . فالجزء التاريخي في هذه المعالجة أساسي وبالغ الأهمية . وهذا مايدعونا اليوم الى التعمق في دراسة أزمات القرن العشرين العالمية .

● كيف نَرى الواقع القائم في عالمنا اليوم في ضوء هذه الدراسة ؟ ماحال النظام العالمي فيه ؟

نشوب الأزمة الراهنة دليل جديد على أن النظام العالمي يعاني من خلل كبير فيه ، وعلى أن هناك صراعاً محتدماً بين من يريدون الحفاظ عليه كما هو لأنه يلبي مصالحهم ومن يريدون تغييره لأنه لايعترف بمصالحهم . والحق أنه في كل مرة نشبت فيها أزمة عالمية كان النظام الدولي السائد يعاني من خلل كبير فيه . ففي أزمة ١٩١٤ رأينا دولاً أوروبية انقسمت كتلتين لايقوم بينهما جسر ، وإحداهما مركزة الثروات في يدها والأخرى تريد نصيبها من الغنائم الاستعمارية والتوازن بينهما واهٍ بحيث أن لفحة ريح قد تودي به . وكل منهما متمسكة بمواقفها، فلم يبق مجال الا للقوة وحدها كي تحسم الأمر . وهنا أصبحت الحرب بين تلك « النسور المفترسة » حتمية . وفي أزمة ١٩٣٩ رأينا الكتلة الأوروبية التي خسرت في الحرب العالمية الأولى تلجأ الى القوة لتغيير النظام الدولي الذي أقامت أسسه معاهدات الصلح في فِرساي عام ١٩١٩ ، الأمر الذي أدى الى اشتعال الحرب العالمية الثانية . وقد تأسس في أعقاب تلك الحرب النظام الدولي السائد اليوم الذي رسمت خطوطه في مؤتمر يالطة عام ١٩٤٥ وقامت الأمم المتحدة على أساسه .

نحن الآن في عام ١٩٩٠ . أي أن خمسة وأربعين عاماً مضت على قيام

الأمم المتحدة . وقد حدثت خلال هذه الفترة تطورات في البنية العالمية . وشهدنا نشوب أزمات عبرّت عنها . وأول هذه التطورات وأهمها تفجر ثورة التحرير وتتابع موجاتها في أعقاب الحرب واستقلال دول كثيرة في آسيا وإفريقيا سرعان ماأصبحت أعضاءً في النظام الدولي السائد الذي لم تشارك هي في رسم خطوطه . وقد أدى هذا التطور الى ظهور ماأسماه الغرب العالم الثالث وزامنه تطور آخر ظهر في أعقاب الحرب أيضاً حين انقسمت دائرة الحضارة الغربية الى معسكرين غربي رأسمالي وشرقي اشتراكي وقام بينهما ستار حديدي وحملا إسمي العالم الأول والعالم الثاني . ونذكر أن أول أزمة نشبت في عالمنا المعاصر كانت بينهما وهي أزمة برلين عام ١٩٤٨ . ثم نشبت أزمة كوريا أوائل الخمسينيات بينهما ايضاً . ولكن لم تلبث أن نشبت أزمات أخرى منذ الخمسينيات بسبب سعي العالم الثالث للحصول على حدٍ أدنى من الحقوق في النظام الدولي السائد . وأولى هذه الأزمات هي أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦ في قلب وطننا العربي . وفي كل هذه الأزمات نجد « الثروة النفطية » سبباً كامناً والفارق بين أسعار المواد الخام والمواد المصنعة سبباً آخر وبقايا القواعد الإستعمارية والإستعمارية الإستيطانية بخاصة سبباً كامناً ثالثاً .

لقد أمكن حصر الأزمات التي نشبت في عالمنا المعاصر ضمن الدوائر الإقليمية فلم تنشب الحرب العالمية الثالثة . وكان الخوف من خطر فناء الكوكب بأسلحة التدمير الشامل عنصراً أساسياً في عملية الحصر هذه . ولكن الخلل في النظام الدولي السائد بقي موجوداً وحمل عنواناً كبيراً جديداً هو « الفجوة الكبيرة بين الشمال والجنوب » . وظهرت علامات هذا الخلل بوضوح ، فكثر الحديث في العالم كله عن ضرورة « تغيير العالم » وتغيير النظام الدولي السائد . وارتفعت شعارات نظام إقتصادي جديد ونظام إعلامي جديد ونظام دولي جديد والوقوف أمام علامات الخلل يساعدنا على معالجته ونزع

الفتيل المشتعل الذي ينذر بحرب لاتُبقي ولاتذر .

● ماهي علامات الخلل هذه التي تدل على وجوده ؟ وكيف نوظف الخوف من خطر الفناء لاحتواء الأزمة الراهنة ؟ ولمن نتوجه من الأطراف كي ننجح في نزع الفتيل المشتعل ؟

هناك علامات تدل على الخلل في النظام الدولي ، وأخرى تدل على إمكانية حدوث تفجرات . وقد أجمع دارسو الحرب العالمية الثانية على ذكر علامتين كانتا واضحتين في عقد الثلاثينيات تتعلقان بالنظام الدولي السائد آنذاك . الأولى إخفاق عصبة الأمم في حماية الضعفاء وتوظيفها للحفاظ على مصالح الأقوياء ، الأمر الذي أدى إلى إخفاق الأمن الجماعي . والعلامة الأخرى إشتداد التنافس بين الدول الكبرى وتجاهلها معاناة الدول الصغرى . ويمكننا فيما يخص العلامة الأولى أن نستذكر اليوم عدد المرات التي تم فيها استخدام « حق النقض » في مجلس الأمن من أعضائه الخمس الدائمين لنقدر مدى الخلل القائم في النظام الدولي السائد . وسنجد أن دولة كبرى بعينها استخدمت هذا « الحق » !! مرات كثيرة لأمور جرت في منطقتنا العربية .

أهم العلامات التي تدل على إمكانية حدوث تفجرات هي ظهور حكم الفرد وغياب الشورى والديموقراطية . وواضح كم تبدو هذه العلامة صارخة في أنحاء كثيرة من عالمنا ووطننا العربي .

يجب أن نوظف الخوف من خطر الفناء لاحتواء الأزمة الراهنة قبل أن يُحدِث الفتيل المشتعل الانفجار لاسمح الله ولا قدر . وهو انفجار يجزم الاستراتيجيون بأن البشرية لم تعرف له مثيلاً من قبل .

إن لنا أن نكثر من الحديث عن خسائر الإنسانية في الحروب التي

شهدها القرن العشرون العالمية والإقليمية ، وهي خسائر مادية وأخرى معنوية . وعلينا ألا نملّ التذكير بالعبر التي استخلصناها من الكوارث بعد وقوعها . وقد أوجز المؤرخ دافيد تومسن عبرة أزمة ١٩٣٩ بقوله « لقد كانت الحرب العالمية الثانية أكبر خيبة أصابت فطنة البشرية وتدبيرها في تاريخ العالم » . وذلك بعد أن أثبتت نتائج الحرب أن أحداً ممن شارك فيها لم يفد منها ، وإنما اكتوى الجميع بنارها . ولابد أن نُذكِّر أيضاً بأنّ الانفجار إن حدث فإنه له تداعياته ومضاعفاته التي لايمكن التحكم فيها . وكم يبدو الفارق كبيراً بين أسباب الحروب ومايجري أثناءها وماينتج عنها .

علينا أن نتوجه لجميع الأطراف المشاركة في الأزمة الراهنة كي ننجح في نزع الفتيل المشتعل وأولهم العراق ، مركزين على أمر واحد هو محاصرة الأزمة وتجنب المواجهة المسلحة والتقاط الأنفاس والاتفاق على الحوار . وعلينا أن ندرك ونحن نتوجه إلى العراق أولاً أن الأطراف الأخرى أقدر منهُ على ضبط النفس في هذه المرحلة من الأزمة ، وينبغي لها أن تحذر من ثم إغراء استخدام القوة المسلحة والإجهاز على الطرف الآخر وإحكام حصاره بحيث لايجد مفراً من الرد . فلنتجه الى هذه الأطراف بقوة لندعوها الى ضبط النفس ، والى إفساح المجال للأخذ والرد ، والى فهم لغة الآخر وتمكينه من تطوير مواقفه ، والى ملاحظة أية فتحة يفتحها في الباب المغلق للعمل على توسيعها كي يحدث الإنفراج باذن الله وتنكشف هذه الغمة ونتجنب الكارثة . وعلينا أن ندعو الى ان تركز جميع الأطراف جهودها على معالجة المشكلات الآنية التي نجمت عن الأزمة وتسبب المعاناة للملايين من الناس .

تأملات بمناسبة القمة العالمية للطفولة

تشتد معاناة الناس البسطاء، وهم مِلح الأرض، أثناء الأزمات العالمية وفي أعقابها. وذلك لما يقترن بهذه الأزمات من انتهاكات لحقوق الإنسان تمتهن كرامته الإنسانية. وهذا مايجعل موضوع العمل من أجل تخفيف هذه المعاناة من أهم الموضوعات التي تستحق أن نعنى بها.

لقد دخلت أزمة الخليج وأنا اكتب هذا الحديث أسبوعها الثامن. وهاهي دورة جديدة من دورات الجمعية العمومية للأمم المتحدة تبدأ. وستتجه اليها الأنظار لترى مايطرح فيها بشأن العمل لاحترام كرامة الإنسان وحمايته من انتهاكات حقوقه. والإنسان في حياته الدنيا يجمع بين أجيال أربعة هي الطفولة وجيل النماء والشباب جيل الحداثة والنضج جيل الكهولة والحكمة جيل الشيخوخة. وحقوق الإنسان تنصرف لهذه الأجيال جميعها. ومايعانيه الناس في الأزمات يؤكد أنّ انتهاكات حقوق الإنسان تمس الأجيال كلها لما بينها من روابط. وقد خصصت الأمم المتحدة هذا العام لتسليط الأضواء على حقوق الطفل، وتوافقت الدول الأعضاء على عقد قمة عالمية من أجل الطفولة في نيويورك يومي ٢٨ و١٩٩٠/٩/٢٩. وأذكر أن المجلس العربي للطفولة والتنمية عُني بالتحضير لهذه المناسبة فتعاون مع جامعة الدول العربية ومنظمة

اليونيسيف المعنية بالطفولة على الصعيد الدولي لإعداد وثيقة عربية من أجل الطفولة ، وتم بالفعل إعداد هذه الوثيقة قبل أن تحدث أزمة الخليج . كما أذكر انني حيّن شاركت في اجتماع الخبراء والمفكرين العرب لبحث هذا الموضوع قبل أربعة شهور سجلت تأملاتي ، ووعدت نفسي أن اتناوله بالحديث طارحاً هذه التأملات حين يأزف موعد انعقاد هذه القمة . وهاهو الموعد يأزف بينما منطقتنا تكتوي بنار الأزمة ، واطفال العالم والعرب بخاصة يعانون مع ذويهم أشد المعاناة بفعلها في الكويت بسبب الاجتياح وفي العراق بسبب العقوبات وفي مختلف أنحاء الوطن العربي بسبب تداعيات الأزمة ومضاعفاتها ونتائجها . وقد لاحظت أن ماكتبته في تأملاتي كان معبراً عن « الأمل » الذي يحفز على « العمل » . وكم تبدو الفجوة اليوم كبيرة بين الواقع والأمل . ومع ذلك فلا بديل عن العمل لتحقيق الأمل .

★ ★ ★

إن انعقاد هذه القمة للأطفال في رحاب منظمة الأمم المتحدة حادث عظيم يحق للأسرة الدولية ، وهي تفكر فيما ينبغي أن تكون عليه الأمور في عقد التسعينيات ، أن تحتفي به وتستبشر خيراً . فالطفولة هي « سن النمو » و« على طبيعة الربيع » كما وصفها الامام فخر الدين الرازي من علماء القرن السادس الهجري ، وجيلها هو رصيد المستقبل . وهذا الانعقاد تأكيد على أن التنمية البشرية هي نقطة الإنطلاق لإستراتيجية إنمائية دولية ، لأن الأطفال هم الذين يشكلون مستقبل العالم .

يأتي هذا الانعقاد بمبادرة من منظمة الأمم المتحدة للطفولة تستحق الشكر والتقدير ، في وقت لايزال عالمنا فيه يواجه تحديات صعبة تتمثل في مشكلات حماية البيئة وأخطار تتهدد أمّنا الأرض التي منها خلقنا الله وفيها يعيدنا ومنها

يخرجنا تارة أخرى ، وفي الاستخدام غير الرشيد للموارد الطبيعية ، وفي أزمات الطاقة والعمالة والتضخم ، وفي الآفات الاجتماعية التي تنتشر داخل الدول وفيما بينها ، وفي انتهاك حقوق الإنسان ، والاستعمار ، والعنصرية . وهي تحديات تحمل في طياتها أخطاراً على الطفولة ، ويرتبط بعضها ببعض ولايمكن مواجهتها إلا بالارادة المشتركة للأسرة الدولية وتضافر قواها وصولاً إلى إقامة نظام دولي جديد .

إن الاستجابة الدولية لهذه التحديات بوضع استراتيجية إنمائية دولية تنطلق من العناية بالطفولة هو تعزيز للمبدأ الأخلاقي الذي يُمجِّد نعمة الحياة ويدعو الى حمايتها ويهيب بالإنسان ألا يودي بنفسه الى التهلكة ، « فالموت قبل الأوان بفعل الإهمال والإعاقة وانعدام فرص التنمية في وقت تتوافر فيه امكانيات إجراءات وقائية هي أمور لايقبلها الضمير شأنها في ذلك شأن الرق والاستعمار والعنصرية » . ولم يعد مقبولاً أن يموت ملايين الأطفال من جراء الجفاف أو المجاعة أو الزلازل أو الحروب أو احتلال أراضي الغير بالقوة لأن ذلك كله يؤرق الضمير الإنساني فضلاً عن أنه يحول دون النمو ويحرم الحياة من الربيع.

لقد مَثَّل صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الخاص باتفاقية حقوق الطفل في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٩ خطوة مباركة في هذه الاستجابة الدولية لوضع استراتيجية إنمائية . وجاء تخليداً ملائماً للذكرى الثلاثين لإعلان حقوق الطفل ، والذكرى العاشرة للسنة الدولية للطفل . وعبّر مضمونه عما ينبغي أن تكون عليه « روح عصرنا » بعد مضي أربعة عقود ونصف على إبرام ميثاق الأمم المتحدة الذي رفع رايه الحرية والعدالة والسلام في عالمنا واعتبرت مبادئُه المعلنة الاعتراف بالكرامة المتأصلة لجميع أعضاء الأسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية وغير القابلة للتصرف أساس الحرية والعدالة والسلام في

عالمنا . وإذا كانت الثورة العلمية التقنية في هذا العصر بمَا اعتمدته من معايير موضوعية ومناهج للإدراك ترتكز على قاعدة عالمية شاملة ، قد مثّلت روح العصر منذ قيام الأمم المتحدة ، فإن ما تأكد للإنسانية من أن العلم والتقنية وحدهما لايكفلان سعادة الإنسان وان اساءة استخدامها تهدد كرامة الإنسان وأمه الأرض بخطر الفناء ، يدعونا الى أن نرسي دعائم المبادىء الروحية لترتفع الى مستوى أعلى بها ، ولنحكم توظيفها فيما ينفع الناس ، فتعلو راية الأخلاق ، ويعم الخير الأخلاقي ، ويتحقق التفاهم بين الثقافات المختلفة ويتجه العالم الى مزيد من التفاهم والتضامن من خلال تعزيز التعارف بين الشعوب وصولاً الى التعاون على البر والتقوى كتعبير عن أسمى تطلعات الروح البشرية .

إن هذا اللقاء على موضوع الطفولة بهذا المستوى في هذا المحفل الدولي يمكن أن يكوّن قاعدة صلبة للتفاهم والتضامن ، اذا نحن وفيّناه حقه . وهو يتيح لنا جميعاً فرصة ثمينة ذهبية لنبلور أفكارنا ولتطرح حضارات كوكبنا رؤاها وعصارة تعاملها مع هذا الموضوع الحيوي ، فيتحقق التفاعل بين ثقافاتنا وتتلاقح أفكارُنا بشأنه لتثمر خيراً عميماً بإذن الله . ولقد حرص ميثاق حقوق الطفل العربي الذي صدر عام ١٩٧٥ أن يبرز في ديباجته الأساس الحضاري الذي ارتكز عليه فأوضح أن دولنا العربية انطلقت في وضع هذا الميثاق « من عقيدتها ، ومن حقيقة أن وطنها هو مهد الديانات ووطن الحضارات والثقافات ذات القيم الإنسانية السامية التي كرمت الإنسان ، وأكدت وأصرت على حقه في الوجود الإنساني المتقدم والحياة العزيزة العامرة بالحرية والعدل والمساواة ، المؤكدة لمكانة الإنسان ودورهِ في المجتمع وفي الوجود عامة مستخلفاً في الأرض » . والحق أن قصة الخلق الإنساني التي اخبرنا بها الوحي الالهي في الكتب السماوية تحدد مكان الطفولة في الحياة الانسانية فالله جل وعلا الذي خلق الانسان وعلّمه البيان جعل الزوجية سنة الوجود ليثمر التزاوج بين آدم

وحواء وأولادهما من بعدهما بنين وحفدة ويبدأ الإجتماع الإنساني وتتواصل الحياة .

الطفل إذاً في تراثنا الحضاري هو رمز الحياة المتجددة والولادة الجديدة . وقد حفظت لنا متون الأهرام قصة الزوجين أوزيريس وايزيس وابنهما حورس وتغلبهم على « ست » رمز الشر . وكان خيال الناس في مصر القديمة مغرماً بتأمل صورة الزوجة المخلصة والأم الرؤوم والزوج المبدع والأب الحنون وبينهما الابن البار . وما أكثر القصص التي حفظتها لنا الألواح السورية والبابلية والكلدانية والكنعانية واليمنّية عن الإنجاب وحماية الطفولة ورعايتها في إطار الأسرة . وقد أكدت التعاليم الدينية على حق الطفل في الحياة وفي الرعاية وتوعدت من يخالفها بالعقاب في الدارين .

إن أهم ما نستخلصه من تراثنا الحضاري بعامة وحضارتنا العربية الاسلامية بخاصة التي شارك في تشييد صرحها مؤمنون من أديان عدة هو حق الطفل أن ينشأ في أسرة . والأسرة في لساننا العربي تعنى « الإرتباط والتقوّي والتحصن والاكتمال » والتكافل بصورة عامة . كما نستخلص أيضاً حق الطفل في أن يُنْسَب إلى أبويه اللذين ارتبطا بالزواج ، ويعيش معهما في جوٍ من السكَنى والمودة والألفة والرحمة ، وسط مجتمع يعترف بشرعيته ويفرح به . فالسَفاح الذي لا تتوافر فيه السكنى ولاترعى فيه حرمة النسب لايثمر أسرة ، ويهدد الطفل بأخطار كثيرة ، وقد آن الأوان أن يواجه العالم هذه الحقيقة . وقد رأينا أمثلة كثيرة على هذه الأخطار في أنحاء عالمنا عند انتهاك هذا الحق أو التساهل في احترامه .. والانتساب للأبوين هو أول دوائر الانتماء التي تحدد هوية « الإنسان الطفل » الذي من حقه أن ينتمي أيضا إلى وطنه وأن يعيش فيه ويعود إليه .

ينبهنا تراثنا الحضاري ونحن نفكر في أساليب رعاية الطفولة وتنميتها الى حكمة الحرص على التفاعل بين الإنسان وبعد المكان . فللجغرافيا تأثيرها في تحديد أنماط الحياة البدوية والريفية والحضرية . ولكل نمط من هذه الأنماط خصوصيته التي يجب أن تأخذها استراتيجياتنا وسياساتنا وخططنا في الاعتبار . وان لنا أن ننطلق من القول المأثور « الناس أعلم بشؤون دنياهم » ، ونثق بقدرة المجتمعات على أن تجد حلولاً لمشكلات الطفولة فيها ، ونتكافل معا مترابطين متعاونين متآزرين .

لقد أكد تراثنا الحضاري على ضرورة حماية الطفل من ويلات الحروب ، وردد أجدادنا جيلاً بعد جيل القول كلما نشبت حرب « لاتقتلوا طفلاً » الذي قاله أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو يوصي جنوده ، وتطلعوا دوماً الى السلام القائم على العدل ليأمن الانسان في ظله من خوف .

كان آخر هذه التأملات مركزاً على الطفل العربي الذي يعاني من الاحتلال الاسرائيلي الصهيوني في فلسطين والجولان وجنوب لبنان ، ويشارك قومه في انتفاضة عظيمة تعبر عن أشرف ما في الإنسان من معانٍ تؤكد على كرامة الإنسان . وقد أكملت هذه الانتفاضة ألف يوم من النضال وبدأت مسيرة الألف الثاني حتى تصل بإذن الله الى التحرير . وأذكر كم عني إجتماع الخبراء والمفكرين بالوقوف أمام هذا الجانب في واقع الطفل العربي ، فجاء الحديث عنه في الوثيقة العربية من أجل الطفولة وافياً . وتستحق هذه الوثيقة وقفة ، كما يستحق « الطفل المقاوم » حديثاً خاصاً .

عام دراسي آخر والتعليم في الوطن المحتل

بداية العام الدراسي في أقطار العالم المختلفة مناسبة سعيدة ، تركز المجتمعات فيها إهتمامها على أبنائها من جيلي النماء والحداثة الذين يتلقون العلم ، وتنتشي بالفرحة وهي تراهم مقبلين على الحياة والنهل من معين المعرفة . وليس الأمر كذلك عند آلاف من أبناء أمتنا الذين أضيروا بأزمة الخليج ، ولا هو عند أهلنا في الوطن المحتل حيث لاتزال جلّ المؤسسات التعليمية مغلقةً منذ حوالي ثلاث سنوات . وقد نقلت وكالات الأنباء في الأسبوع الأول من الشهر العاشر خبر استئناف الدراسة في جامعة بيت لحم ، بينما الجامعات الفلسطينية الأخرى لا تفتح أبوابها ، والاحتلال العسكري الإسرائيلي الصهيوني مستمر في سياسته الرامية إلى إغلاق المدارس والجامعات في الضفة والقطاع .

إن من حق أهلنا علينا ونحن مشغولون بأزمة الخليج وبما سببته من معاناة للكثيرين ، أن نلتفت أيضاً إلى معاناتهم ، ونولي موضوع « التعليم في الوطن المحتل » حقه من الاهتمام . وعلينا ألا نملّ من تذكير المجتمعات في مختلف الأقطار بما يفعله الإرهاب الصهيوني على هذا الصعيد . ويلفت النظر أن بعض الأصوات الاكاديمية الغربية انطلقت تندد بالسياسة الاسرائيلية في إغلاق المدارس والجامعات الفلسطينية . وقد تضمن تصريح دوجلاس هيرد وزير خارجية بريطانيا ، الدولة التي تتحمل مسؤولية خاصة في نكبة شعب

فلسطين ، يوم ١٩٩٠/١٠/٤ إشارة الى هذه السياسة ووصفها بأنها ليست رشيدة . ومعلوم أن الالتزامات البريطانية تجاه العرب بعامة وشعب فلسطين بخاصة تتضمنُ حق شعب فلسطين في أن تكون له حياته الثقافية والتربوية وألا يسمح للصهيونية بحرمانه منها . ومعلوم أيضاً أن بريطانيا أخلّت بهذا الإلتزام وبقية الإلتزامات .

يدعونا هذا الإهتمام بموضوع « التعليم في الوطن المحتل » في بداية العام الدراسي إلى أن نخصص هذا الحديث للندوة التي تناولت هذا الموضوع وانعقدت في عمان بين يومي ٨ و١٩٩٠/٨/١١ . وقد جاء انعقادها بينما تتابع الانتفاضة عطاءها منذ اثنين وثلاثين شهراً ، بدعوة من دائرة التربية والتعليم العالي بمنظمة التحرير الفلسطينية والمجلس الأعلى للتربية والثقافة والعلوم فيها ، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . وقد جسّد التعاون القائم بين المنظمة العربية والدائرة الفلسطينية معناً كبيراً هو الإلتحام القائم بين شعب فلسطين العربي وأمته العربية .

تناولت هذه الندوة واقع التعليم في الوطن المحتل وتطويره ومستقبله . وركزت وهي تدرس الواقع على سبر أغوار السياسة الإسرائيلية التي تستهدف «التخريب المبرمج»، والتعرف على الإستجابة الشعبية لهذا التحدي الصهيوني وصورها . وعُنيت بتشوف المستقبل واضعة نصب عينها تطوير التعليم .

تميزت أبحاث هذه الندوة بالعمق وبأنها ثمرة دراسة على الطبيعة ، وجاءت التعقيبات لتغنيها . وكانت كلمات الإفتتاح قد أحاطت بالموضوع في خطوطه الأساسية ، ولم تلبث أن تتالت المناقشات متناولة الواقع بجميع أبعاده ، ومحللة العملية التعليمية ، ورابطة بينها وبين المجتمع ، ثم بين المجتمع والأمة . وقد انتهت الندوة الى توصيات عامة تضمنّها التقرير الختامي.الذي صدر عنها .

ومن بين هذه التوصيات توفير الميزانية اللازمة لمجلس التعليم العالي الذي يشرف على أمور التعليم في الوطن المحتل . ومعلوم أن أزمة الخليج أدت الى نتائج سلبية على مصادر تمويل هذه الميزانية . كما أن من بين هذه التوصيات العناية ببلورة الفلسفة التربوية وافتتاح مزيد من رياض الأطفال في التجمعات الفلسطينية وايجاد الوسائل والآليات المناسبة لمواجهة الممارسات الاسرائيلية وإفشال السياسة الرامية لتجهيل شعب فلسطين وتشريده .

* * *

أتاحت لي هذه الندوة أن أتأمل في موضوعها ، فتبلورت لدّى ثلاثة أفكار تتعلق بالوضع الخاص الذي يحيط بالتعليم لشعب يعيش تحت وطأة الاحتلال ، فرأيت أن أسجلها ، لتكون محل إمعان النظر .

● إن حيوية موضوع ندوتنا نابعة من الصلة الوثيقة القائمة بين التعليم والتحرير في تاريخ الشعوب ، وكذلك بين التعليم والنهوض . والحق أننا حين نتصور حال المؤرخ الذي سيؤرخ لهذه المرحلة من تاريخنا العربي ، فإننا نراه واجداً نفسه أمام أحداثٍ كثيرة وأعمال عديدة ما أسرع مايمر مروراً عابراً بأكثرها ولكنه يقيناً سيطيل وقفته أمام أحداث الإنتفاضة وأعمالها . كما نراه حين يكتب عن هذه الإنتفاضة مُطيلاً وقفته أمام دور التعليم ومؤسساته في حدوثها واستمرارها وانتصارها بإذن الله . شأنه في ذلك شأن سابقه الذي أرّخ لانتفاضة أمتنا إبان حروب الفرنجة التي استهدفت وطننا الكبير بالغزو الفرنجي قبل تسعة قرون ، حيث وقف طويلاً أمام ازدهار التعليم في اطار الاستجابة لتحدي النكبة التي حلت بنا حين احتل الغزاة القدس ، ودور العلماء والمربين في تعبئة طاقات الأمة وحشدها ، وحركة إنشاء المدارس التي حملت رسالة المقاومة والجهاد والتحرير . ولقد وقف المؤرخون أيضاً وهم

يؤرخون لأمتنا عبر مراحل متتالية أمام دور التعليم في النهوض بمتطلبات المجتمع في الفترات العصيبة التي مرت بنا فوجدوه حاسماً . ومثل على ذلك ماحدث في وطننا فلسطين قبل قرنين في فترة شهدت ضعف الحكم في الدولة العثمانية وغزوة الفرنسيس بقيادة بونابرت لمصر ثم لفلسطين وحروب محمد علي وابراهيم ، حيث قام العلماء والمربون بدورهم كاملاً في الحفاظ على تماسك مجتمعهم وأبدعوا الأساليب المناسبة لاستمرار التعليم . وهذه صفحة من تاريخنا تستحق أن نسلط عليها مزيداً من الأضواء .

● واضح أن البحث في واقع التعليم وتطويره ومستقبله في وطننا المحتل فلسطين لابد وأن يأخذ في الاعتبار السياسة الصهيونية العنصرية تجاه شعبنا ومؤسساته التعليمية هناك . وتتجسد هذه السياسة في ممارسات عنصرية إرهابية تؤرق ضمير العالم ، وتبلغ ذروتها في إغلاق المدارس والجامعات . وقد عني المجلس الأعلى للتربية والثقافة والعلوم مع دائرة التربية والتعليم بسبر أغوار هذه السياسة كي ندرك أهدافها ونحسن مواجهتها ، فجرى بحثها مع قياداتنا الاكاديمية في الداخل . وتوصل هذا البحث الى أن إغلاق عدونا لمدارسنا وجامعاتنا لايقع في دائرة رد الفعل ، وإنما يجري تنفيذه عن « سابق إصرار وترصد » ضمن سياسة اسرائيلية تعمل على حرمان الشعب العربي الفلسطيني من التعليم ، وتأتي تنفيذاً لرأي صهيوني غالب اليوم في أوساط التجمع الاسرائيلي يرى ضرورة الإجهاز على المؤسسات التعليمية بعامة والجامعات بخاصة في المجتمع المدني الفلسطيني بهدف تفكيكه وإخضاعه وتهجيره من وطنه تدريجياً . وقد تبلور هذا الرأي بعد أن تأكد لسلطات الإحتلال أن سماحها بانشاء الجامعات الفلسطينية لابعاد الشباب الفلسطيني في الداخل عن التجمعات الفلسطينية في الخارج والحيلولة دون التحامه بمنظمة التحرير الفلسطينية لم يُحقق هدفها . وأصبحت هذه الجامعات حصون مقاومة وقواعد

راسخة من قواعد المنظمة .

● اذا كانت السياسة الإسرائيلية الصهيونية العنصرية التي تواجه شعبنا ومؤسساته التعليمية تمثل تحدياً لم يسبق لشعبنا أن واجه مثيلاً له في حِدته وشِدته اثناء مقاومته للغزوات التي استهدفت وطننا ، وذلك لما يوفره التحالف الإستراتيجي الأمريكي الإسرائيلي من وسائل لمنفذي هذه السياسة فضلاً عن الحركة الصهيونية العالمية ، فإن شعبنا دلل عملياً بانتفاضته التي هي حلقة متوهجة من سلسلة حلقات نضاله المتصل ، وبما حفلت به هذه الإنتفاضة من صور النهوض بمسؤولية التعليم على أنه يستجيب لهذا التحدي كما ينبغي أن تكون عليه الاستجابة الصحيحة . وهذا مايعطي ندوتنا أهميتها الكبيرة لأنها تقع ضمن هذه الإستجابة . ونحن مدعوون أن نستحضر بين يدي عملنا العوامل التي تتفاعل في صنع الصحوة والنهوض اللذين جسدا الاستجابة .

إن من أهم ما أبرزه نضال شعبنا في زمن الإنتفاض هو إدراك القائمين على التعليم وأهل الرأي بعامة لحقيقة أن التمسك بالهوية بأركانها الثلاثة هو العامل الحاسم في الانتصار على الاستعمار الاستيطاني الصهيوني . وهذه الأركان هي لسان الأمة وعقيدتها وتراثها الحضاري . وقد اعتبر الإمام ابن حزم في رسالته مراتب العلوم أن العلوم التي تختص بهذه الأركان هي التي تميز الأمم عن بعضها ، ثم تحدث عن العلوم الأربعة الأخرى التي هي للأمم جميعاً . والحق هو أن الوفاء بحق لساننا العربي وعقيدتنا القائمة على الايمان بالله سبحانه وتراث حضارتنا العربية الاسلامية التي شارك في بنائها أبناء قومنا مسلمين ونصارى كان دوماً السبيل الى وعي الذات وصنع الصحوة التي هي حالة تجد الأمة نفسها فيها وقد وعت ذاتها وعرفت عدوها بجوانب قوته وضعفه ووطنت نفسها على منازلته ووثقت بقدرتها من خلال صراع النفس الطويل على إلحاق

الهزيمة به وتطهير أرضها من دنس احتلاله . كما أن التمسك بالهوية بأركانها الثلاثة هو الذي يُمكن شعبنا بعد تحرير وطنه من متابعة إبلاغ الرسالة الأخلاقية التي نزل بها وحي السماء وخدمة المؤمنين الذين يتخذون من بيت المقدس قِبلة يحجون اليها . وهذا التمسك بالهوية الواحدة مقترن بوعي جميع دوائر الانتماء التي تتضمنها هذه الهوية وبتكامل هذه الدوائر الوطنية والقومية والعقيدية والحضارية فيها وبانفتاحها على الهويات الأخرى من العالمين .

عامل آخر نحرص على توافره في عملنا وقد أبرزه نضال شعبنا ، وهو مايجعلنا نثق بأن عملنا سيبلغ أهدافه . وهذا العامل هو الحرص على العقلية العلمية التي تتصف بالريادة والإستطلاع ، فتحسن التصور ، وتدرك الكُنه ، وتمتد عبر الزمان إلى أمام ماوسعها الإمتداد استشرافاً وتشوفاً ورؤية لصنع المستقبل الزاهر بإذن الله ، وتتصف بالعالمية فتتسع في نظرتها وهي تركز البحث في أوضاع شعبنا لتحيط هذه النظرة بواقع وطننا الكبير والعالم من حولنا ، وتتميز بالمرونة التي تتمسك بالعلم وتنشد الحق وبالقدرة على الحلم ـ القدرة على الفعل .

وبعد ..

فإننا نتطلع الى الثمار الطيبة لهذه الندوة التي هي حلقة في سلسلة . ومن هذه الثمار توافر المعرفة التي تحيط بالتحدي وتسبر أغواره وتحيط بالاستجابة وتسبر أغوارها ، والوقوف من خلال التحليل على الوسائل والأساليب التي تصل بنا الى بلوغ هدف التحرير بإذن الله فتقوم فلسطين المحررة الحرة لتلتحم بشقيقاتها العربيات ، وتزدان القدس بأعلام النصر وتكون مؤسساتنا التعليمية منائر مشعة متابعة دورها الكبير الذي تقوم به في زمن الانتفاض . وتحية من القلب مفعمة بالتقدير لكل المساهمين في هذه الندوة .

دراسة في أزمات عالمية

عبء القاعدة الإستعمارية الإستيطانية وفرصة لمراجعة أميركية استراتيجية

يستحوذ على اهتمامي منذ نشوب أزمة الاجتياح العراقي للكويت موضوع دور القاعدة الإستعمارية الإستيطانية في حدوث الأزمات العالمية وأثناءها وحين تندلع الحروب بفعل هذه الأزمات . وهذا مادعاني إلى مراجعة تاريخية من جهة ، وإلى متابعة لما يجري في أوساط التجمع الإسرائيلي أكبر قاعدة استعمارية استيطانية في عالمنا المعاصر من جهة أخرى . وقد برزت أمامي أثناء ذلك مجموعة اسئلة وتبلورت عدة أفكار .

إتجهت في المراجعة التاريخية الى استذكار دور القاعدتين الاستعماريتين الاستيطانيتين الفرنسية والإيطالية في الجزائر وليبيا إبان أزمة عام ١٩٣٩ العالمية والحرب العالمية الثانية التي اندلعت بسببها . وقد بدا لي أن وجود هذه القواعد بعامة كان دوماً سبباً رئيسياً في احتدام التنافس الإستعماري الذي يؤدي إلى حدوث أزمات عالمية . كما بدا واضحاً أن المستعمرين المستوطنين كانوا دائماً عاملاً قوياً في غلبة الإتجاهات الفاشية العنصرية في أوطانهم ، وأنهم مثلّوا باعتبارهم من غلاة الفاشية العنصرية قوة داعمة لتلك الإتجاهات . ومما يذكر أن المستعمرين المستوطنين الفرنسيين في الجزائر أيدوا الماريشال بيتان وعارضوا الجنرال ديغول أثناء الحرب ، تماماً كما أيد المستعمرون المستوطنون الايطاليون في ليبيا موسوليني حتى آخر لحظة .

في متابعتنا لما يجري في أوساط المستعمرين المستوطنين الإسرائيليين يلفت نظرنا بداية ونحن في الأسبوع السادس من الأزمة أن ذلك الصوت الاسرائيلي الزاعق الذي كان يملأ الإعلام الغربي قد خفت الى أدنى مستوى ، وأن العالم لم يعد يسمع « الجعجعة » الإسرائيلية حين تصدى أطراف الأزمة الأصليون للإمساك بزمامها . وهكذا يتأكد لنا أن الدور الذي تقوم به القاعدة الإستعمارية الإستيطانية يقع ضمن استراتيجية شاملة للمستعمر الذي أقامها ووفر لها مقومات الإستمرار ، كما أن هذا الدور يتحدد طبقاً لمتطلبات هذه الاستراتيجية .

يلفت النظر أيضاً أن أول ما شغل الإستراتيجيين الإسرائيليين في دراستهم الحديث عن الدور الذي ينبغي عليهم أن يحددوه « لإسرائيل » اثناء الأزمة . ومثل على ذلك مانشرته البوست يوم ٩٠/٨/٨ عن مقدرة اسرائيل على الردع في الظروف الجديدة وأهمية تحالفها الإستراتيجي مع الولايات المتحدة . ولكن هؤلاء لم يلبثوا أن فوجئوا بإرجاء واشنطن زيارة وزير الخارجية الاسرائيلي اليها التي كان موعدها مقرراً من قبل ، كما فوجئوا بأن الأزمة بحدوثها تسلط الأضواء على الصراع العربي الصهيوني من زاوية جديدة . وعبثاً حاول اسحق شامير في تصريحة يوم ٩٠/٨/٨ التغطية على ذلك حين قال « ان مشكلة الخليج تضع جانباً جميع مشاكل المنطقة بما فيها نزاعنا مع الفلسطينيين » . وقد هالهم أن تأتي تصريحات مسؤولين غربيين وسوفييت لتؤكد عكس ماصرح به شامير مثل تصريح وزير الخارجية الفرنسي الذي تحدث بوضوح أن الصراع العربي الصهيوني والموقف الغربي منه هو أحد أسباب ثلاثة تجعل الأزمة الراهنة مؤهلة لتفجر كبير ، ومثل الموقف السوفييتي الذي نبّه الى ضرورة معالجة قضية فلسطين وأزمة لبنان إذا أريد استئصال أزمة الخليج من جذورها و« كانت الخارجية الاسرائيلية تتبنى منذ نشوب الأزمة

سياسة دعائية نصح بها الغرب تحرص خلالها على عدم الظهور بمظهر المستفيد من الأزمة أو الإعلان عن أن القضية الفلسطينية أصبحت في الآونة الحالية قضية « فرعية » كما لاحظت صحيفة دافار يوم ٩٠/٨/٩ . وهال هؤلاء الاستراتيجيين الاسرائيليين مارأوه من حساسية لدى واشنطن بالغة تجاه أي دور اسرائيلي يمكن الحديث عنه أثناء إدارة الأزمة . وقد نقل جيمس دورسي في واشنطن تايمز يوم ٨/٧ عن مسؤول في الإدارة الاميركية قوله في الرد على سؤال عن الجانب العسكري في هذا الدور « ليس لدى واشنطن رغبة أن تعمل مع اسرائيل على هذا الصعيد الآن ، والأرجح هو العكس » . وجعل عنوان مقاله « اسرائيل جاهزة لتحارب والولايات المتحدة تحذرها من الإنتهازية » .

أحدثت تداعيات الأزمة من جهة أخرى عند الاسرائيليين استراتيجيين وعاديين هلعاً من احتمال اندلاع حرب لايكونون بمنجاة منها . « وقد أخذوا مأخذ الجد ماتردد عن إمكانية استخدام الأسلحة الكيمياوية فيها » ، وإنزال التدمير بنصف القاعدة . ولم تطل فرحة بعضهم من الذين اعتقدوا أن الأزمة تبعد الإنتفاضة عن بؤرة الإهتمام على الصعيد الدولي ، وجاء تصعيد الإنتفاضة ليزيد في إحباطهم . وعبرّ عن ذلك يوال ماركوس في هاآرتس يوم ٩٠/٨/٩ قائلاً « جاءت حادثة مقتل الشابين الاسرائيليين كي تذكرنا بأن القضية قضيتنا وحدنا ، وليست قضية أميركا ، وأنها تحرق أقدامنا نحن ، فالانتفاضة لازالت مستمرة كما كان عليه الوضع دائماً ،....، وجنوننا وفقدان أعصابنا ، واندفاعنا كالعاصفة الجامحة المدمرة يجعل الفلسطينيين يميلون إلى الرد على العنف بالعنف . اننا نواجه مشكلة شديدة التعقيد ، وهي تتطلب اتزاناً وهدوءاً ورويةً وأعصاباً ثابتة وطول نفس . أما إذا ركلنا كل ذلك بأقدامنا فسوف يكون الانهيار نهايتنا » .

لقد استقبلت واشنطن دافيد ليفي وزير الخارجية الاسرائيلي يوم ٩٠/٩/٥ ، وتردد الحديث بعد لقائه بجيمس بيكر عن وعد اميركي بتزويد اسرائيل بصواريخ ضمانة لأمنها وعن تقديم مساعدات مالية لها وعن طلب اسرائيلي ليشطب الديون المستحقة للولايات المتحدة عليها . وبدا واضحاً أن القاعدة الإستعمارية الإستيطانية ترمي بثقلها على أكتاف أصحابها الذين أوجدوها وكفلوا استمرارها . وهنا تبرز مجموعة اسئلة .

هل ستدعو الأزمة الراهنة الناجمة عن الاجتياح العراقي للكويت الولايات المتحدة الأميركية إلى إعادة النظر في استراتيجيتها تجاه الصراع العربي الصهيوني في ضوء ماكشفت عنه هذه الأزمة من حقائق ؟ وما هو الاتجاه الذي ستتخذه هذه الإستراتيجية اذا حدثت إعادة النظر هذه ؟ وكيف نعمل نحن العرب لحث الولايات المتحدة على اتخاذ الاتجاه الموصل لتطبيق الشرعية الدولية وإنهاء الاحتلال الصهيوني لجميع الأراضي العربية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ وفي مقدمتها القدس ؟

برزت هذه الأسئلة بينما تدخل الأزمة أسبوعها السادس ، وفي الوقت الذي يزور فيه جيمس بيكر وزير الخارجية الأميركي المنطقة العربية بعد أن التقى في واشنطن بدافيد ليفي وزير الخارجية الاسرائيلي يوم ٩٠/٩/٥ وقد احتفلت الإنتفاضة الفلسطينية بمضي ألف يوم على بدايتها في ٩٠/٩/٣ .

ماهي أهم الحقائق التي كشفت عنها الأزمة الراهنة ؟

الحقيقة الأولى هي أن « القيمة الاستراتيجية لإسرائيل » في تأمين المصالح الغربية النفطية لم تكن إلا وهماً أوحت به دراسات صهيونية اميركية . بل أن الأزمة كشفت كيف بدت « اسرائيل » عبئاً استراتيجياً على الولايات المتحدة تعمل واشنطن على « ضبطه » كي لايخل بإدارتها للأزمة وسط

مشاغل اميركية كثيرة وشواغل ، وقد حرصت الإدارة الاميركية على إرجاء زيارة ليفي التي كانت مقررة في الأسبوع الأول للأزمة ، « كي لايبدو لأحدٍ أن ماتعتزم القيام به في الخليج هو نتاج مؤامرة تمت حياكة خيوطها مع الاسرائيليين » كما ذكرت معاريف يوم ١٠/٨/٩٠ عن زعيم يهودي اميركي في حديث له مع ابا ايبان . ولاحظ الاسرائيليون بأسى حساسية واشنطن البالغة من التعامل معهم وتجنب الرئيس بوش التشاور مع شامير حول الأزمة في الوقت الذي كان يتشاور فيه مع قيادات دول كثيرة .

الحقيقة الثانية هي أن السياسة الاميركية في تعطيل تطبيق الشرعية الدولية بشأن إنهاء الإحتلال الإسرائيلي للقدس والأراضي العربية والفلسطينية على مدى ثلاثة وعشرين عاماً منذ يونيو ١٩٦٧ أصابت النظام الدولي بخلل ، وأظهرت أنه يعتمد مقياسين ، ومن ثم زعزعت الثقة في قدرته على تحقيق الأمن الجماعي لأطرافه . ولابد أن الإدارة الاميركية وهي منهمكة في إدارة الأزمة الراهنة على أساس اعتماد الشرعية الدولية ، تراجع مواقفها التي دأبت على تعطيل تطبيق القرارات الدولية الخاصة بالقدس والأراضي العربية والفلسطينية المحتلة .

الحقيقة الثالثة هي أن وجود نظام عربي قوي في المنطقة العربية لمصر فيه دور خاص بحكم عوامل كثيرة هو في صالح استقرار النظام الدولي ، وأن هذا هو النظام العربي القوي هو وحده القادر على تأمين المصالح المشتركة العربية مع كل الأطراف الدولية وهو الكفيل بحماية أمن المنطقة وضمان تدفق النفط منها باعتباره سلعة استراتيجية . الأمر الذي يؤكد الخطأ الفادح الذي وقعت فيه السياسة الاميركية حين استهدفت انهاء النظام العربي واستبداله بنظام إقليمي يكون لإسرائيل فيه اليد العليا ، وعملت على عزل مصر .

الحقيقة الرابعة هي أن الجذوة التي أشعلت نور الإنتفاضة الفلسطينية منذ ألف يوم كامنة في الأمة العربية ، وقدرتها على الإنارة في تزايد حتى تحقق تحرير القدس والأراضي العربية والفلسطينية المحتلة . فعلى الرغم من كل المعاناة التي تسببت فيها الأزمة الراهنة للأمة وللانتفاضة ، فإن الانتفاضة مستمرة وفي تصاعد . الأمر الذي فرض على الولايات المتحدة أن تراجع نفسها بشأن موقفها من الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني ومن المقدسات الإسلامية والمسيحية في القدس وفلسطين .

إن هذه الحقائق الأربع التي كشفت عنها الأزمة الراهنة تؤكد أنّ على الولايات المتحدة إعادة النظر في استراتيجية اعتماد قاعدة استعمار استيطاني للحفاظ على مصالحها في المنطقة ، وتدعو جميع الدول العربية أياً كانت مواقفها في الأزمة الراهنة الى أن تحث الإدارة الأميركية على انتهاج استراتيجية جديدة في المنطقة تعتمد تطبيق الشرعية الدولية في الصراع العربي الصهيوني وإحقاق الحقوق العربية .

إن هناك فرصة سانحة اليوم أمام الولايات المتحدة لمراجعة استراتيجية لسياستها تجاه منطقة الوطن العربي والصراع العربي الصهيوني ، في إطار العمل لإصلاح الخلل القائم في النظام الدولي . وعليها أن تبادر لاقتناص هذه الفرصة باصدار تصريحين .

الأول هو بشأن القدس ومضمونه إلتزامها باحترام الشرعية الدولية وفقاً لقرار مجلس الأمن ٢٥٢ الخاص بالقدس ، والعمل لإنهاء الإحتلال الإسرائيلي للقدس الشرقية ، ودعوة الكونجرس الأميركي لالغاء قراره العدواني الخاص بالقدس الذي بلغ من سفهه أنه تحدث عنها كعاصمة أبدية لاسرائيل . وتوجيه هذا التصريح لمنظمة المؤتمر الإسلامي التي تشمل في عضويتها الدول العربية

والإسلامية تعبيراً عن التوجه العملي لإزالة ما أصاب العرب مسلمين ونصارى والمسلمين بعامة من أضرارٍ مادية ومعنوية بسبب السياسة الاميركية تجاه القدس .

الآخر هو بشأن الأراضي الفلسطينية والعربية ومضمونه إلتزام الولايات المتحدة باحترام الشرعية الدولية بشأنها وفقاً لجميع القرارت الأممية ، والعمل لإنهاء الإحتلال الإسرائيلي لهذه الأراضي ضمن مدى زمني محدد قصير ، والإعتراف لشعب فلسطين العربي بحق تقرير المصير وحق العودة . وتوجيه هذا التصريح لجامعة الدول العربية تعبيراً عن التوجه العملي لإزالة ما أصاب العرب من أضرارٍ مادية ومعنوية بسبب السياسة الأميركية تجاه هذه الأراضي .

إن معالجة الأزمة الراهنة في الخليج تقتضي شلّ التخريب الذي تقوم به القاعدة الإستعمارية الإستيطانية وتوفير مناخ صالح لهذه المعالجة . وواضح أن قيام الولايات المتحدة بإصدار هذين التصريحين ومباشرة تنفيذهما سيحقق على صعيد توفير المناخ الصالح . فهل تقتنص الإدارة الأميركية الفرصة ؟ .

الانتفاضة .. وتحرك سياسي جديد منتظر

من عادتي أن أحرص على الوفاء بواجبات عضويتي في جميع المؤسسات العامة التي أشارك فيها . وثمار هذا الالتزام طيبة ، ومنها الإغتناء بتلاقح الأفكار والسعادة بلقاء الزملاء والرضى للقيام بالواجب . ولكني حين تلقيت الدعوة للمشاركة في دورة اجتماعات المجلس المركزي الفلسطيني التي انعقدت بين ١٠ و١٢/١٠/١٩٩٠ وجدت نفسي أكثر حماساً من المعتاد لتلبية الدعوة . وبدا لي رأنا التمس تعليلاً لهذا الحماس أن جوّ الأزمات يقوي الشعور بالحاجة إلى التشاور وتبادل الرأي ، وقد صدق صاحب العِقد الفريد في حديثه عن الحرب حين أنتهى الى القول « والرأي فيها أبلغ من القتال » .

وجدت أيضاً أن هناك ثلاثة موضوعات أتطلع الى أن يوفيها المجلس حقها من البحث في انعقاده الذي تأخر عن موعده شهوراً ، واستهللت حديثي في المجلس بالإشارة إليها . فقد جاء هذا الانعقاد بينما دخلت إنتفاضة شعب فلسطين المباركة في وطننا المحتل الألف يوم الثانية متابعةً القيام بدورها في النضال من أجل التحرير والوقوف كخط دفاع أول عن وطننا العربي أمام الحملة الصهيونية الإستعمارية الجديدة التي تستهدفه . وجاء هذا الانعقاد وعدونا الصهيوني الإستعماري ماضٍ في هذه الحملة وفي تنفيذ مخططات التهجير الصهيوني لليهود من أوطانهم في الإتحاد السوفييتي الى قلب الوطن

العربي فلسطين بمساندة الولايات المتحدة الامريكية وتواطؤ أطراف دولية أخرى ، منتهكاً الشرعية الدولية وميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان . وجاء هذا الانعقاد وقد دخلت **أزمة الخليج شهرها الثالث** وظهرت بوضوح الأخطار العظيمة التي تهدد وطننا العربي من جرائها ، ومعاناة الكثيرين بسببها ؛ فطبيعي إذاً أن نعنى **بموضوع الإنتفاضة وموضوع التهجير وموضوع أزمة الخليج** . وكل منها يتبادل التأثير مع الآخر .

وجدت أن هناك **عدة قضايا تتعلق بالموضوع الثالث** تشغل الكثيرين من أبناء شعبنا وأمتنا تستحق **أن تُبحث** في المجلس ، واستشعرت واجبي في طرحها . ومن هذه القضايا **قضية نزع الفتيل المشتعل وقضية تخفيف المعاناة** التي نجمت عن الأزمة وأصابت الكثيرين من أبناء أمتنا **وقضية التعامل مع دعايات إعلام الأزمة** التي تحاول بث الفرقة بين شعوب أمتنا **وقضية إدارة الصراع مع العدو أثناء الأزمة** . ووجدتُ أن هناك عدة قضايا تتعلق بالموضوع الثاني في مقدمتها **كيفية مواجهة المستوطنين الجدد** الذين يتدفقون ضمن الحملة الصهيونية الإستعمارية الجديدة في ضوء ما وضح لي أثناء زيارة الوفد البرلماني العربي لموسكو في تموز الماضي من أن حبل التهجير على الغارب . كما وجدت أن **موضوع الإنتفاضة يطرح عدة قضايا منها استمرارها وتصعيدها والتحرك السياسي المنسجم معها** .

بدا الجو المحيط بهذه الدورة إنعكاساً **للجو المحيط في وطننا هذه الأيام** تعتمل فيه **مشاعر القلق والتوجس والضيق** من أخطار اندلاع الحرب والمعاناة على الصعيد الإنساني ، مع **مشاعر الأمل والرجاء والتفاؤل** بوجود فرصة سانحة لبناء موقف عربي قوي يفرض حل جميع أزمات المنطقة مرة واحدة . وقد جاءت أحداث الحرم القدسي يوم ١٩٩٠/١٠/٨ لتلفت النظر الى المدى الذي وصلت اليه الوحشية الصهيونية وهي تقوم بهذه المذبحة الجديدة والمدى

الذي وصلت اليه العدوانية الصهيونية وهي تجاهر بتعديها على المقدسات الإسلامية والمسيحية وتضع مخططات بناء الهيكل موضع التنفيذ في موقع المسجد الأقصى بادئة بارساء حجر الأساس . كما جاءت هذه الأحداث لتؤكد تصميم شعب فلسطين العربي على الذود عن المقدسات الإسلامية المسيحية ولو بقي وحده في مواجهة الإرهاب الصهيوني الى آن يأتي اليوم الذي ينضم اليه قومه العرب وإخوانه المسلمون ويسانده المؤمنون .

استمعت ملياً للتقارير التي تناولت الإنتفاضة ولعدد من المداخلات . وقد أسعدني أن أرى العناية الفائقة التي أولاها جميع الأعضاء لبحث أُمور الانتفاضة . كما أسعدني أن أجد أهتماماً كبيراً بموضوع التهجير الصهيوني لليهود من أوطانهم ، وعزماً على مواجهة هذا التهجير . وقد بدا لي أن الاقتناع بات راسخاً بأن هذه المواجهة يجب آن تستهدف إفقاد المستعمر المستوطن أمنه ، وإرهاقه اقتصادياً وخلخلته اجتماعياً وزعزعته عقيدياً ، وإضعاف صلته بالمستعمر الأصل ، ليسلّم سياسياً ويكفّ عن عدوانه ويعود إلى وطنه . كما أن الاقتناع بات راسخاً بضرورة تكثيف الجهود لتأمين استمرار الانتفاضة وتصعيدها وتوسيع ساحتها بحيث تشمل فلسطين كلها .

كان طبيعياً أن يولي المجلس عناية خاصة لأزمة الخليج ، وأن تعرض مناقشاته للحديث عن التحرك السياسي الفلسطيني الذي سبقها واستمر على مَدى عام . وقد استعرضتُ شريط مشاهد هذا التحرك على هامش الجلسات وأنا أحاول تقويمه فوقفت أمام السياسة الأميركية تجاه الصراع العربي الصهيونية كما تجلت في مواقف محددة خلال هذا العام . ووجدت من خلال هذه الوقفة تفسيراً للمناخ السائد في منطقتنا المفعم بمشاعر المرارة تجاه هذه السياسة الاميركية إزاء قضايانا العربية .

لقد تضمن هذا الشريط **الموقف الاميركي الذي انتهى بإعلان الإدارة الاميركية تجميد الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية** بعد استنزاف طاقات عربية وفلسطينية في السير وراء امكانية اجراء مفاوضات اسرائيلية فلسطينية . وتجلى في هذا الموقف الأميركي فشل جميع المحاولات الفلسطينية والعربية والدولية في اقناع الولايات المتحدة باحترام الشرعية الدولية في قضية فلسطين على الرغم من مسايرتها بتلبية طلباتها المتتالية . الأمر الذي أكد أن **السياسة الاميركية مصممة على إنكار الحقوق الفلسطينية والعربية** وتمكين الصهيونية من التحكم باسمها في المنطقة . **وتضمن هذا الشريط موقف الكونجرس الاميركي بمجلسيه حول القدس الذي** جاء مناقضاً للشرعية الدولية ولقرارات كثيرة اتخذتها الأمم المتحدة ، ومنها قرار مجلس الأمن رقم ٢٥٢ بشأن القدس في عام ١٩٦٧ . وتجلى في هذا الموقف المدى الذي ذهب اليه الكونجرس في المساس بمشاعر المؤمنين من مسلمين ومسيحيين وفي النيل من كرامة الأمة العربية والشعوب الإسلامية ، **والعداء التاريخي المتأصل للحضارة العربية الإسلامية التي لايزال بعض الغربيين أسرى له** . وتضمن الشريط أيضاً الموقف الأميركي في دعم التهجير الصهيوني ليهود الإتحاد السوفييتي دعماً مادياً ومعنوياً مستمراً ، آخر أخباره تقديم أربعمائة مليون دولاراً للحكومة الإسرائيلية لمساعدتها في توطين المهجرين . **كما تضمن الشريط الموقف الاميركي في الضغط على الدول العربية النفطية باتباع سياسة اقتصادية نفطية جائرة واستهداف القوى العسكرية** لعدة دول عربية وإضعاف النظام العربي . **وتجلى في هذا الموقف الذي عبرّت عنه المذكرة الاميركية للقمة العربية مدى الاستهانة بوزن الأمة العربية والدول العربية مجتمعة** .

لم يكن من غير المتوقع وهذا هو المناخ السائد في منطقتنا المفعم بمشاعر المرارة تجاه المواقف الاميركية إزاء قضايانا العربية ، **أن يأتي بيان المجلس متضمناً**

نقداً شديداً للسياسة الاميركية ، وأن يتردد الحديث عن مواقفها العدائية في عدة مواضع منه . **ففي موضوع مذبحة القدس** جاء الحديث عن « كشف وتعرية الموقف الاميركي المتواطىء مع جرائم حكام اسرائيل الذي يعطل دور مجلس الأمن الدولي في تطبيق أحكام الشرعية الدولية وقراراتها الخاصة بالقضية الفلسطينية والقدس الشريف ، ويمارس ضغوطاً متزايدة على مختلف الأطراف للتأثير في مسارات القرارات بما يخدم اسرائيل وجرائمها واحتلالها » . وفي **موضوع التحرك السياسي لإيجاد حل للصراع العربي الصهيوني** جاء الحديث عن دعوة المجلس « تكثيف الجهد السياسي لكشف أبعاد ومخاطر المخطط الاميركي الإسرائيلي الذي يحاول إبعاد الأنظار عن قضية شعبنا الفلسطيني باعتبارها محور الصراع في المنطقة ، والعمل لمواجهة هذا المخطط بالسعي الجاد مع جميع القوى الشقيقة والصديقة من أجل تنشيط الجهود لعقد المؤتمر الدولي للسلام في الشرق الأوسط وتولي مجلس الأمن الدولي دوره الفاعل في هذا الصدد بعيداً عن ضغوط الإدارة الاميركية وتحيزها الفاضح لصالح اسرائيل . وذلك تنفيذاً لقرارات الشرعية الدولية التي ترفض اسرائيل تنفيذها » . **وفي موضوع أزمة الخليج جاء الحديث** عن العمل لتحقيق الحل في الاطار العربي وإنهاء الوجود الاميركي والأجنبي . وفي موضوع دعايات إعلام الأزمة جاءت الإشارة إلى أن الحملات الإعلامية تخدم أهداف المخطط الاسرائيلي الامريكي ضد القضية والأمة والانتفاضة .

واضح أن هذا الحديث عن السياسة الاميركية ومواقفها كما جاء في بيان المجلس والأحاديث التي تم طرحها في الاجتماع ، **حملت في طياتها تقويماً سلبياً لنتائج التحرك السياسي الذي بدأ في ديسمبر ١٩٨٨** وراهن على إمكانية زحزحة الادارة الاميركية عن دعمها المطلق للسياسة الاسرائيلية العدوانية بتلبية طلباتها المتتالية . وقد طالبت بعض المداخلات صراحة **بوقفة مراجعة وتفكر**

لرسم خطوط تحرك سياسي جديد ، تقوم بها لجنة تفكير .

لقد أوضحت الأحاديث التي طرحت في المجلس وفي أروقته عدداً من النقاط التي يجب أن تشملها المراجعة . فالتحرك السياسي المطلوب يجب أن يقوم على قاعدة الانتفاضة الصلبة ويعتمد القوة الذاتية ويلتزم استراتيجية النفس الطويل . ويجب أن يجري التعبير عنه بلغة التحرير وبمصطلحاتها . ويجب أن يرسم خطوطاً حُمراً تشعر الادارة الاميركية أو سواها أنه لايمكن تجاوزها فتيأس من امكانية تلبية أي مطلب لها يتجاوز خطاً أحمراً . كما يجب أن يبادر بطرح مطالبنا من الادارة الاميركية والدول الأخرى معتمداً منطق الفعل واسلوب المبادرة . ويجب أخيراً أن يعتمد معياراً واحداً لنجاحه هو تحرير الأرض وإنهاء كابوس الاحتلال الجاثم على كاهل الأهل .

إن الحاجة ماسة لوقفة المراجعة والتفكر هذه . ولابد لها أن تشمل العلاقات الفلسطينية العربية التي دار حديث حولها جرى فيه التطلع الى الوصول لإبرام اتفاقيات محددة مع جميع الشقيقات العربيات وبخاصة الدول المجاورة لفلسطين تتضمن فيما تتضمن نصوصاً واضحة تتعلق بأبناء فلسطين المقيمين فيها ، وتنظم تنسيق العمل من أجل التحرير . وإن من الملفت للنظر أن هذا الأمر لم يتم على الرغم من مضي الأيام . وواضح كم تشتد المعاناة في غيابه وبخاصة حين يتم تجاوز التقاليد والأعراف عند حدوث الأزمات وانتشار دعايات إعلامها . وقد تطرقت مناقشات المجلس إلى هذا الموضوع ووفته حقه . وهو يستحق حديثاً مستقلاً .

لقد دخلت انتفاضة شعبنا العظيمة الألف يوم الثانية في وقت يشهد حملة التهجير الصهيوني الجديدة ليهود السوفييت ، ويشهد استمرار أزمة الخليج . وواضح أن إدارة الصراع يجب أن تأخذ في اعتبارها هذه الحقائق .

وهذا يعني أن يبدأ تحرك سياسي جديد يستند إلى انتفاضة امتدت جذورها في أرض الوطن ليساعد على تصعيدها وانتشارها ، ويستفيد من كل ماكشفت عنه أزمة الخليج على صعيد التعامل مع الولايات المتحدة ، ويستهدف مواجهة الحملة الصهيونية الجديدة التي ينظمها التحالف الإستعماري الصهيوني . فلننتظر هذا التحرك ولنترقبه ولنحضر له ولنرسم خطوطه لنعرضه على دورة المجلس الوطني القادمة التي أكد المجلس في اختتام أعماله « أن الظروف باتت تستلزم البدء في الإعداد لعقدها » .

دروس الحرب الكورية ونزع الفتيل المشتعل

أتابع دراستي لأزمات عالمية حدثت خلال القرن العشرين الميلادي ، بينما تدخل أزمة الاجتياح العراقي للكويت شهرها الثاني وأسبوعها السادس تحديداً . وأجد أن هناك عدة موضوعات تستأثر باهتمامي .

أحدُ هذه الموضوعات هو إمكانية نزع الفتيل المشتعل وتجنب اندلاع الحرب ، والتقاط الأنفاس وتكثيف الجهد لايجاد الحل السياسي للأزمة . وهذا الموضوع يدعوني إلى أن أُعنى بمتابعة اجتماع هلسنكي بين بوش وجورباتشيف الذي تحدد له يوم الأحد ١٩٩٠/٩/٩ ، تماماً كما عنيت بمتابعة اجتماع دي كويار وعزيز في عمان ومتابعة كل تحرك دبلوماسي حدث . وإذا كانت بعض هذه التحركات لم تسفر بعد عن نتائج حاسمة إلا أنها أشارت إلى وجود إمكانية الحوار . وقد استوقفني تصريح وزير الدفاع الفرنسي يوم ٨٠/٩/٤ الذي حذر فيه من أن مائة ألف على الأقل سيلقون مصرعهم في حالة اندلاع حرب في منطقة الخليج ، وقال « إن مثل هذه الحرب ستكون باهظة التكاليف وتؤدي إلى خسائر فادحة » . ووجدت نفسي أراجع ماقرأته عن الخسائر المادية والبشرية المتوقعة في دراسات المتخصصين ، ثم أعود إلى ماكتب عن الخسائر التي وقعت فعلاً في الأزمات العالمية السابقة .

★ ★ ★

لعل أخطر ما تحمله الأزمة العالمية في عصرنا هو أنها تنذر بحرب تختلف عن الحروب التي جرت في القرون السابقة في كونها لاتقتصر على الجنود بل تشمل الجميع من البشر وتستهدف بتخريبها كل شيء . وقد أوجز مؤرخو الحرب العالمية الأولى أحاديثهم عن الخسائر البشرية بأن العمليات الحربية التي حدثت فيها « كانت بمثابة مذبحة رتيبة لعشرة ملايين من الرجال معظمهم دون سن الأربعين » . وسجل هؤلاء المؤرخون استخدام الغازات السامة كسلاح مساعد لنيران المدفعية في التمهيد للهجوم منذ ربيع عام ١٩١٥ وحتى نهاية الحرب . ويلاحظ مؤرخو الحرب العالمية الثانية أن معدل الخسائر من الأرواح فيها فاق سابقتها ، ووردت في قوائم الوفيات أرقام عالية عن وفيات النساء والأطفال وكانت أعلى الأرقام تلك التي تدل على المفقودين ، وقد جاوزت جملة القتلى من المدنيين عدد القتلى من أصحاب الزي العسكري وقُدّر مجموع هؤلاء وهؤلاء بنحو خمسين مليون نسمة .

لقد مثلّت أزمة كوريا عام ١٩٥٠ أول أزمة عالمية في عالمنا المعاصر — عالم مابعد الحرب العالمية الثانية — لم يتمكن أطرافها من نزع فتيلها المشتعل ، فاندلعت الحرب الكورية التي دامت ثلاثة أعوام « وكلفت ثمانية ملايين اصابة بشرية وخسائر مادية عظيمة » . ويذكر جيلنا أخبار تلك الحرب ، وكم هو مفيد اليوم أن نستذكر تطورات الأزمة التي أدت إلى نشوبها . فقد بدأت هذه الأزمة بتوتر بين جزأي كوريا التي جرى تقسيمها عام ١٩٤٨ وأصبح خط العرض ٣٨ْ حداً بين دولتين شمالية وجنوبية متنافستين . ولم يلبث هذا التوتر أن تصاعد حين خرقت خمس فرق شمالية الخط يوم ١٩٩٠/٦/٢٥ وغطت في ثلاثة أيام الستين كيلومتراً التي تفصلها عن سيؤول ، وحاصرت العاصمة الجنوبية . وهكذا اشتعلت الحرب وتدخلت الأمم المتحدة بطلب من الولايات المتحدة الاميركية ، فتبنى مجلس الأمن مشروع قرار اميركي بفرض عقوبات

على كوريا الشمالية . وقامت الولايات المتحدة قبل ذلك برمي ثقلها مع كوريا الجنوبية فأمدتها بالقوى الجوية والبحرية الاميركية . وقدمت ست عشرة دولة وحدات عسكرية للانخراط تحت راية منظمة الأمم المتحدة . وبينا كانت هذه الجيوش الحليفة تدحر الخصم وتجتاح أرضه وتبلغ حدود منشوريا ويبدو وكأن الكوريين الشماليين خسروا القضية ، إذا بثلاثين فرقة صينية يوم ١٩٥٠/١١/٢٤ تهجم على عرض الجبهة كله فتتصاعد الحرب ويحدث تحول . وقد كان رد فعل ماك آرثر على هذه المفاجأة أن خاطب جنوده آمراً إياهم باستئناف الهجوم وقائلاً « إنني أتمسك بالوعد المقطوع أن أردكم الى بلادكم قبل عيد الميلاد » . ولكن تفاؤله هذا لم يدم فاشتد إحباطه حتى أنه اقترح في نيسان / ابريل ١٩٥١ التلويح باستخدام السلاح الذري ضد الصينيين ، فكان أن عزله الرئيس ترومان من جميع قياداته مع الاعتراف بأنه من أكبر الزعماء العسكريين الاميركيين ، وهكذا انتهت اسطورة الذي هزم اليابانيين . ودخلت الحرب مرحلة ثالثة شهدت مفاوضات طويلة وعسيرة لإبرام هدنة تم التوصل اليها بعد سبعة وثلاثين شهراً ويومين من نشوب الحرب . ولم تعترف هذه الهدنة بغالب ولا مغلوب ، وعادت الجيوش المتحاربة الى قواعدها بعد أن خسرت ماخسرت.وتكرّس انقسام كوريا فترة أخرى وظل خط العرض ٣٨ْ هو الحد الفاصل .

ليس خافياً أن هناك اختلافاً بين الأزمة الراهنة والأزمة الكورية يشمل فارقاً زمنياً يمتد لأربعة عقود حدثت خلالها تطورات في النظام الدولي ، وفارقاً مكانياً . ولكن هذا الإختلاف لا يعني عدم وجود تشابه في بعض الأمور . وهذا مايدعونا إلى الوقوف أمام أهم الدروس المستفادة من الأزمة الكورية .

الدرس الأول هو أن استخدام الأمم المتحدة كمظلة للتدخل العسكري يحمل في طياته خطر إضعاف النظام الدولي اذا لم يكن الإجماع متحققاً . وقد

تعرضت الأمم المتحدة آنذاك لهذا الخطر لأن الاتحاد السوفييتي لم يكن موافقاً على التحرك الاميركي في المنظمة الدولية لمعالجة الأزمة . وعبّر عن اختلافه برفضه الإسهام في مناقشات مجلس الأمن قبل أن تحصل الصين الشعبية على المقعد الدائم الذي كانت تحتله الصين الوطنية . وأدى غيابه إلى صدور القرار القاضي بتدخل الأمم المتحدة دون أن يصطدم بحق النقض الذي يتمتع به الاتحاد السوفييتي . وتعلمت موسكو درساً هو ألا تغيب عن أي اجتماع ينعقد في مجلس الأمن . وواضح أن مظلة الأمم المتحدة في ظل هذا الاختلاف لم تستطع أن تخفي حقيقة الصراع القائم في الحرب الكورية بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي ، وأظهرت المنظمة الدولية منحازة فأضعفتها .

الدرس الثاني هو أن الأزمة التي بدأت محلية سرعان ما أصبحت إقليمية فعالمية ، وأنها ما أن اشتعل فتيلها حتى تتالت تداعياتها ، وأن هذه التداعيات حملت في طياتها مفاجآت لم تكن محسوبة نقلت الحرب التي اندلعت من مرحلة إلى أخرى .

الدرس الثالث هو أن اندلاع الحرب أدى الى تصعيد استخدام السلاح لدرجة التفكير باستخدام السلاح النووي الاميركي ضد الصين الشعبية.، ويقول دروزيل استاذ التاريخ الفرنسي في كتابه التاريخ الدبلوماسي « ويخيل أن الرئيس ترومان فكرّ آنذاك بإمكان استعمال القنبلة الذرية ضد الصينيين . وفي هذه الظروف المأساوية وبينما كانت الجيوش تنسحب نحو الجنوب ، شخص آتلي — رئيس وزراء بريطانيا العمالي — الى واشنطن بعد أن استقبل في لندن روبيرشومان الفرنسي . وبالرغم من أنه كان مصمماً على معارضة سياسة التهدئة ، فقد ألحّ لدى الرئيس الاميركي لصالح سياسة التعقل ، وأعرب له عن قلقه من السياسة الحربية غير الفطنة التي يسلكها الجنرال ماك آرثر » . ويلفت النظر هنا أنه كان على الساسة أن يُلجموا القادة العسكريين الذين يصبحون ابعد

اندلاع الحرب أسرى فكرة واحدة هي استخدام كل سلاح ممكن لكسب الحرب . كما يلفت النظر أن آتلي البريطاني الذي كان مع سياسة التشدد التي يبدو أنها سياسة بريطانية تقليدية فرضتها التجربة الاستعمارية ، لم يلبث أن اتجه الى التعقل حين أصبح خطر استخدام أسلحة التدمير الشامل ماثِلاً أمامه .

الدرس الرابع هو أن أطراف الحرب لم تجد أمامها الا أن تبدأ مفاوضات الهدنة ، وأن هذه المفاوضات استمرت فترة طويلة منذ ١٩٥١/٧/١٠ حتى صيف ١٩٥٣ ، وأنها انتهت على الرغم من توقفها مرات الى إسكات المدافع وقعقعة السلاح ، وأنها توصلت إلى حلول بشأن تبادل الأسرى .

الدرس الخامس هو أن هذه الأزمة والحرب التي اندلعت بسببها أدت إلى إجراء تعديل اساسي في النظام الدولي والى نتائج سياسية خطيرة . فقد برزت الصين الشعبية كقوة في عالمنا ولم تلبث أن احتلت مقعد الصين في مجلس الأمن ، ثم أصبحت مالكة للسلاح النووي . وتعرضت الولايات المتحدة للمكارثية لعدة سنوات فسادت فيها تيارات متصارعة على الصعيد الداخلي ، وتورطت على الصعيد الخارجي بسياسة التدخل في شؤون الشرق الاقصى .

★ ★ ★

إن الدرس الأهم الذي نخرج به من التأمل في أزمات عصرنا العالمية هو أن الحرب التي تندلع بفعلها ذات طبيعة مختلفة عن حروب العصور الماضية ، في أن تداعياتها سريعة ومعاناة المدنيين فيها بالغة وتخريبها يشمل كل شيء . وهذا مايدعونا الى أن نتابع الجهد عند حدوث أية أزمة لننزع فتيلها المشتعل ونمنع اندلاع الحرب . وعلينا من أجل ذلك أن نعمل على تهدئة أؤلئك الذين يدقون طبول الحرب وينفخون في أوارها ، وأن نمحصّ حججهم ونفند الباطل منها . ويلفت الإنتباه استخدام استطلاعات الرأي في عصرنا لإثارة شهية الناس الى

الحرب . ولايملك أولو الألباب الا أن يسبروا أغوار هذه الاستطلاعات ليتبينوا صحتها ومدى توجيهها . ومثل على ذلك ماقرأناه هذا الأسبوع حول استطلاع رأي في بريطانيا أجرته صحيفة صنداي تايمز كشف عن تزايد التأييد لمرجريت تاتشر بنسبة ٦٥٪ مقابل ٢٠٪ لنيل كونيك في خضم أزمة الخليج الراهنة ، بينما كشف استطلاع آخر أجرته صحيفة صنداي كوريسبوندت عن تقدم حزب العمال برئاسة كونيك على حزب المحافظين برئاسة تاتشر بنسبة ١٤٪ .

لعل أقوى مثل على معاناة المدنيين البالغة في أزمات عصرنا العالمية والحروب التي تندلع بفعلها ، مانشاهده اليوم ونعيشه ونعانيه منذ بداية الأزمة الراهنة ونحن نتابع أخبار النازحين بسبب الأزمة ومايعانوه في هجير الصحراء ، وأخبار الأجانب الذين لم يسمح لهم بالسفر ، وأخبار تفجر النوازع الإقليمية وأخبار الخسائر المادية التي يتحملها البسطاء . وكل هذا والحرب لم تندلع بعد فكيف اذا اندلعت لاسمح الله . وواضح أن أعداد من أضيروا حتى الآن تقدر بالملايين وهي في تزايد ، ألا يدعونا ذلك الى أن نبذل قصارى جهدنا لإيقاف استفحال الازمة ؟ وإن معاناة المدنيين هي موضوع يستحق حديثاً خاصاً ، تماماً كموضوع الاستعمار الاستيطاني ودور قاعدته في الأزمة الذي يستأثر هو الآخر باهتمامي .

لقد كان كاتب هذه السطور واحداً من كثيرين من الذين يعملون لنزع الفتيل المشتعل خلال الأيام الماضية . وفي حديث له مع مسؤول عربي كبير مؤخراً كان التوافق كاملاً على أن الأولوية الآن هي لهذا النزع والتقاط الأنفاس وفتح الباب أمام الأخذ والرد . وأن لنا أن نتابع كل تحرك دبلوماسي يضع نصب عينه ذلك ، ونحث عليه . وان لنا ألا نمل التحذير من اندلاع الحرب لأنها ستكون باهظة التكاليف وتؤدي إلى خسائر فادحة . والله هو الحافظ .

الأزمة ، وإصلاح الخلل في النظام الدولي

العالم كله يتطلع إلى إيجاد حل لأزمة الخليج التي دخلت شهرها الثالث . ودراسة الأزمات العالمية تبين بوضوح أن إيجاد هذا الحل يقتضي إصلاح الخلل في النظام الدولي القائم ، لأن نشوب الأزمة العالمية هو في حقيقة الأمر ــ كما رأينا في دراستنا ــ تعبير عن وجود هذا الخلل وبلوغه حداً من التفاقم قد يوصل إلى اندلاع حرب .

السؤال الذي يبرز بعد مضي شهرين على العيش في ظل الأزمة هو

أين وصل الذين يتحملون مسؤولية النظام الدولي القائم في مواجهتهم أنفسهم بضرورة مباشرة إصلاح الخلل فيه ؟

طبيعي أن تتجه الأنظار بداية إلى الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن باعتبارها تتحمل مسؤولية خاصة في هذا النظام ، ثم تتركز على الدولتين الكبيرتين ، فتقف وقفة قصيرة أمام الاتحاد السوفييتي ، وتطيل الوقوف أمام الولايات المتحدة التي عملت بكل قوة لتكون القطب الوحيد في النظام الدولي القائم وتصدت لتكون المبادرة في الدفاع عنه حفاظاً على أمر واقع يناسبها وطبيعي أيضاً أن تحاول هذه الأنظار رؤية ما إذا كانت هذه الدول الخمس قد بدأت تجاهر باعترافها بوجود هذا الخلل ، لأن هذا الاعتراف دليل

على مواجهة النفس ، وما إذا كانت قد شرعت في اتخاذ أية خطوة لإصلاح الخلل لتدلل على أنها باشرت عملية الإصلاح .

لقد اجتمع وزراء خارجية الدول الخمس الكبرى الأعضاء في مجلس الأمن مع بيريز دي كويار الأمين العام للأمم المتحدة بعد أن صاغوا موقفهم المشترك من أزمة الخليج ، .وأطلعوه على آرائهم إزاء تطوراتها ، كما نقلت وكالات الانباء يوم ١٩٩٠/٩/٣٠ . ويبدو مما أعلنه مسؤول غربي كبير باسمهم أنهم لم يصلوا بعد الى الحد الأدنى الذي يعتبر مواجهة للنفس ، وأنهم لايزالون مستكبرين عن الاعتراف جهراً بالخلل الموجود في نظامهم الدولي القائم ، فنراهم يستخدمون اللغة القديمة غير المفيدة إياها ، وانهم لم يشرعوا بعد في اتخاذ خطوات عملية إزاء عدد من القضايا الملحة فهم في أماكنهم يراوحون . فقد أعلن هذا المسؤول الغربي « أن الوزراء طالبوا بالانسحاب العراقي الفوري وغير المشروط من الكويت ، وعودة الأسرة الحاكمة اليها وإطلاق سراح الرهائن الأجانب المتحتجزين في العراق والكويت . واتفقوا بصفة خاصة على حق كل دول الشرق الأوسط في العيش في أمان بما في ذلك إسرائيل . وأيدوا الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، لكنهم رفضوا أي محاولات للربط بين أزمة الخليج وتسوية النزاع العربي الاسرائيلي لأن مثل هذا الربط سيدمر أي تقدم بشأن القضيتين والمطالبة به « مراوغة » . وأكد الوزراء في الوقت نفسه ضرورة إعطاء الأولوية القصوى للمشكلة الفلسطينية حتى لاتعتقد الدول العربية أن الدول الكبرى مهملة ذلك » .

إن عدم وصول هؤلاء الوزراء الى الحد الأدنى الذي يعتبر مواجهة للنفس لايعني أنهم لايشعرون بالخلل الموجود في النظام الدولي . فهذا الشعور واضح عند الحديث عن ضرورة إعطاء أولوية قصوى للمشكلة الفلسطينية ، وهو يبرز من بين سطور ما أعلنه هذا المسؤول الغربي . ولكن التصريح باسم

وزراء خارجية الدول الخمس الكبرى يكشف عن أنهم لايريدون الاعتراف بشعورهم هذا . ولذلك فإنهم لم يشرعوا في اتخاذ أية خطوة بشأن قضية فلسطين التي يعلمون جيداً أن تعاملهم معها يجسد الخلل القائم في النظام الدولي في أفظع صوره .

يستوقف نظرنا ونحن نتطلع الى الدول الخمس مجتمعة في إطار مجلس الأمن ، تحرك واحدة منها مؤخراً فيما يمكن أن نعتبره محاولة للإفصاح عملياً عن الشعور بالخلل وعن الشروع في اتخاذ خطوة . وهذه الدولة هي فرنسا التي تقدم رئيسها فرنسوا ميتران بمبادرة من ثلاثة بنود ، أوضح أولها « بأن كل شيء يصبح ممكناً بعد الإعلان عن نية الانسحاب العراقي ، وأوضح الثاني « أن المجتمع الدولي هو الضامن لسيادة الكويت وللتعبير الديموقراطي عن اختيارات الشعب الكويتي » . وأوضح الثالث القبول الواضح « بمبدأ تسوية جميع مشكلات المنطقة بما في ذلك مشكلة الشرق الأوسط والشعب الفلسطيني الذي يرزح منذ ثلاثة وعشرين عاماً تحت الاحتلال » .

لقد أوضح الإعلام الفرنسي وهو يتحدث عن هذه المبادرة أنها تحاول وضع أسس عقلانية للتفاهم دون المساس بقرارات مجلس الأمن الخاصة بأزمة الخليج ، وأنها تنطلق من الاعتقاد بأنه لايزال من الممكن تفادي اندلاع الحرب في الخليج . والحق أن كل محاولة تسعى الى نزع الفتيل المشتعل تستحق التقدير ، لأننا ندرك ماذا يعني اندلاع الحرب . ولكن لا مفر من المصارحة بأن صياغة البند الثالث جاءت بشكل أضعف المحاولة ، لأنه اقتصر على القبول الواضح بالمبدأ ، ولم يتحدث عن أية خطوة عملية تجسد هذا القبول الذي كان موجوداً طيلة الثلاثة والعشرين عاماً الماضية التي رزح خلالها الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال . ومع ذلك يسجل للمبادرة أنها عملياً أرست مبدأ الربط بين مختلف قضايا المنطقة . ولاشك في أن اعتماد هذا المبدأ هو السبيل

لإيجاد حل صحيح لأزمة الخليج وللمباشرة في إصلاح بعض الخلل الموجود في النظام الدولي . والحق أيضاً أنه إذا استوقف نظرنا هذا التحرك الفرنسي بمحاولته التي تحمل معنى إيجابيا ، فإنه يستوقف نظرنا أيضاً الموقف البريطاني الذي يمثل غاية السلبية ، ويذكرّ بموقف حكومة المحافظين إبان الحرب العالمية الثانية التي يرى عدد من المؤرخين البريطانيين أن رفعها شعار « استسلام المانيا بلا قيد ولا شرط » أدى الى جعل خسائر الحرب تتضاعف مرات ، وأوصل لا إلى تدمير المانيا فحسب بل والى إنهاك بريطانيا أيضاً . والمتتبع لتصريحات رئيسة الوزراء ووزير الخارجية هيرد بشأن حل أزمة الخليج والمفردات التي يستخدمانها يتذكر ذلك الشعار ويتحسب من عواقبها الوخيمة . وحين نتوقف بالنظر أمام موقف الصين العضو الثالث في مجلس الأمن نجد أنه لايزال بحاجة إلى بعض وقت كي يفصح عن نفسه بوضوح ، ونراه يتخذ وضعاً دفاعياً أمام ضغوطات الولايات المتحدة وبريطانيا اللتين تريدان من الصين أن تتخذ موقفاً مطابقاً لموقفهما ، ولكننا نلمس فيه تربصاً وميلاً الى التميز عن مواقف بقية الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن .

نركز النظر على الاتحاد السوفييتي ، فنجد أنه كان سبّاقاً بين هذه الدول الى التنبيه لضرورة اعتماد النظرة الشاملة لأزمة الخليج والإشارة إلى أن العناية بإيجاد حل للصراع العربي الصهيوني يساعد على حلها . وقد اختار أن يؤكد إشارته عند زيارة وزير الخارجية الفرنسي لموسكو في بدايات الأزمة . وكان واضحاً أثناء قمة هلسنكي أن جورباتشيف كان معنياً بالحديث عن الربط كعامل مساعد لايجاد الحل ، وأن بوش استمع إلى ذلك ولكنه تمسك بعدم قبوله له في الوقت الحاضر مع الموافقة على الإعلان عن نية الاهتمام بالصراع العربي الصهيوني مستقبلاً بما في ذلك عقد مؤتمر دولي . ولكن يلفت النظر أن تصريحات وزارة الخارجية السوفيتية حريصة على طمأنة الغرب والولايات

المتحدة بخاصة الى أن الاتحاد السوفييتي ملتزم بما يتطلبه التفاهم الاميركي السوفييتي . كما يلفت النظر إقدام موسكو على إعادة العلاقات القنصلية مع تل أبيب وتسيير خط جوى بينهما ، وهذه خطوة تشجع الصهيونية على تنفيذ مخططاتها لتهجير اليهود السوفييت من أوطانهم في جمهوريات الاتحاد السوفيتي ، وهي تأتي في أعقاب عودة العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفييتي والمملكة العربية السعودية . وواضح أنها تثير علامة استفهام كبيرة تنتظر تفسيراً واضحاً لها . ويبقى الإنطباع العام عن الموقف السوفييتي بشأن التحرك لإصلاح الخلل في النظام الدولي وحل أزمة الخليج والصراع العربي الصهيوني أنه لايتطابق مع موقف الولايات المتحدة ، ولكنه لايتناقض أيضاً ، وأنه حريص على أجراء التفاهم معها ، ولكنه حريص أيضاً على أن يكون شريكاً فعالاً تؤخذ بعين الاعتبار مصالحه في حدها الأدنى ، وأنه قابل للتطور في اتجاهين بحسب تطورات الأحداث في المنطقة .

نصل في تركيزنا النظر الى الولايات المتحدة الأميركية التي تتحمل مسؤولية خاصة في النظام الدولي القائم اليوم باعتبارها « القطب الأكبر » أو « الأوحد » حسبما يطيب لبعض مفكريها السياسيين أن يصفوها . وأول مايلفت نظرنا هذه العلاقة الخاصة القائمة بين الموقف الأميركي والموقف البريطاني ، والتأثير الذي تمارسه بريطانيا على الولايات المتحدة . وتفسير ذلك ما يحكم زعيمة النظام الدولي السابقة من مصالح مشتركة مع زعيمته الحالية ، ومايقوم بين « المحافظين » في بريطانيا و« الجمهوريين المحافظين » في امريكا من انسجام ، وما نشأ من علاقة شخصية بين رئيسة الوزراء تاتشر والرئيس بوش . وواضح أن التأثير البريطاني هو في اتجاه معاداة أي تطوير للنظام الدولي ، ويستميت في الدفاع عن الأمر الواقع الذي رسم خطوطه الرئيسية منذ أوائل هذا القرن ، ويرفض من ثم إصلاح أي خلل فيه .

لقد أعلن الرئيس بوش في خطابه أمام الجمعية العامة في دورتها الحالية من على منبر الأمم المتحدة ، الموقف الأميركي من أزمة الخليج ومن الصراع العربي الصهيوني وقضايا أخرى في بنود ثلاثة . وقد تميز البند الأول بالتحديد في صياغته ونصُّه « بعد الانسحاب العراقي الكامل غير المشروط لابد من التوصل الى تسوية دائمة وكاملة للخلافات التي كانت قائمة بين البلدين » . ونص البند الثاني على « أن تقوم دول منطقة الخليج بوضع ترتيبات أمنها المشترك » . أما البند الثالث فنص على « أن تنهي دول وشعوب المنطقة خلافتها ونزاعاتها التي قامت بين العرب واسرائيل » . ويلفت النظر أن صياغة هذا البند الثالث جاءت بعيدة كل البعد عن التحديد . فبينما تحدث البند الأول عن انسحاب كامل غير مشروط ، تحدث البند الثالث عن إنهاء خلافات ونزاعات . وهذا يشير إلى أن الولايات المتحدة مع استشعارها ضرورة الحديث عن إصلاح الخلل في النظام الدولي إزاء ماتراه من مطالبة دولية بذلك ، إلا أنها مازالت تستخدم في الحديث عن القضايا التي يتجسد فيها هذا الخلل وفي مقدمتها قضية الصراع العربي الصهيوني لغة غامضة بعيدة عن التحديد لاتختلف عن لغتها القديمة التي استخدمتها ثلاثة وعشرين عاماً طويلة .

إن من الواضح اليوم إن إدارة الرئيس بوش تتعرض لضغوطات متزايدة كي تواجه النفس بضرورة إصلاح الخلل القائم في النظام الدولي . والجديد الذي حدث في الشهرين الماضيين هو أن هذه الضغوطات خارجية وداخلية في وقت واحد . وكم هو حيوي بالنسبة لنا أن نحيط بالضغوطات الداخلية لما لها من تأثير فعال . وواضح أن أثر هذا الجديد ظهر في خطاب الرئيس بوش أمام الجمعية العامة يوم ١٩٩٠/١٠/١ في نقطة محددة هي الربط بين مختلف المشكلات الإقليمية ، الأمر الذي جعل المراقبين يرون في ذلك بداية تحول في سياسة الادارة الأميركية التي كانت ترفض بشدة هذا الربط .

الأمثلة كثيرة على هذه الضغوط الداخلية التي يتعرض لها الرئيس بوش ، ومنها ماحدث أثناء لقائه بالاميركيين العرب في ختام مؤتمرهم حين واجهته اسئلة حول اعتماد معيارين في النظام الدولي . والحق أن الصحافة الاميركية حفلت خلال الشهرين الماضيين بالمقالات التي كتبها كبار القوم حول ضرورة أن تواجه الولايات المتحدة نفسها بالخلل القائم في النظام الدولي ومن ثم تعمل على إصلاحه . وقد أوضح مايكل كنزلي في واشنطن بوست يوم ١٣/٩/١٩٩٠ من خلال عنوان مقاله طبيعة الحوار الدائر فجاء العنوان صارخاً « القانون الدولي : أهو فقط حين يلائمنا ؟ » ، وصدّر المقال بكلمة للرئيس بوش هي « لابد لاميركا والعالم أن يساندوا حكم القانون . ونحن عازمون على ذلك » ، ثم أوضح بصراحة أن الرئيس بوش حين لم يستطع استخدام شعاري « الديموقراطية والحرية » لجأ إلى شعار « النظام الدولى والشرعية الدولية » ، وانتهى افي مقاله الى القول « إذا أردنا حقا اعتماد القانون الدولي حين نراه مفيداً لنا ، فإن علينا أن نحترمه في كل الأحوال ، وحتى حين نراه غير ذلك » .

إن ماتسببه لنا الأزمة الراهنة من المعاناة كثير كثير وعلى مختلف الصُعُد ، وهذا مايدعونا إلى أن نحشد كل قوانا لحلّها والعمل على إصلاح الخلل القائم في النظام الدولي ، الذي كشفت عنه الأزمة بوضوح . وإن مما يخفف من وطأة هذه المعاناة إن الضغوطات تتزايد على المسؤولين عن هذا النظام الدولي ليواجهوا أنفسهم ويباشروا الإصلاح . ولابد أن تصل هذه الضغوط الى التسليم باعتماد القانون الدولي في كل الاحوال وفرض الانسحاب الاسرائيلي من جميع الأراضي العربية والفلسطينية المحتلة ، وتأييد قيام نظام أمن جماعي عربي اسلامي في المنطقة له حديثه الخاص .

دراسة في أزمات عالمية

« تشريح » دعايات إعلام الأزمة

اكتب هذا الحديث وأزمة الخليج دخلت أسبوعها التاسع . وبينما تطول هذه الأزمة وتتفاقم ، يتأكد لنا أن من بين الأولويات التي يجب أن نعني بها الى جانب نزع الفتيل المشتعل ، التخفيف من معاناة الناس .

لقد حفلت الأيامُ الستون الأولى للأزمة بصور من هذه المعاناة على الصعيدين المادي والمعنوي تذيب القلوب وتحرق الأكباد ، وشملت هذه المعاناة فيما شملت أهلنا في الكويت وأهلنا في العراق وأهلنا في عدة أقطار عربية مجاورة ، وأخوة لنا في الإنسانية كانوا مقيمين في رحابنا العربية . وتعددت المشكلات التي أوجدتها الأزمة ، فمنها ما تمثل في تشتيت الأسر وفقدان الاتصال ، ومنها ماتمثل في انهيار العملات وفقدان الممتلكات الشخصية ، ومنها ماتمثل في خطر المجاعة ..

إن من أفظع ماتشهده الأزمات العالمية هو تلك الانتهاكات لحقوق الإنسان التي تتم في ظلها . وهناك صعيدان تتزايد عليهما هذه الانتهاكات عادة هما صعيد « إعلام الأزمة » وصعيد « الاجراءات الرسمية » . وقد سجلت المنظمة العربية لحقوق الانسان قبل أيام بحزن عميق هذه الظاهرة في الأزمة الراهنة ، ونادت من أجل ذلك أبناء الأمة العربية فرداً فرداً على الصعيدين

الرسمي والشعبي أياً كانت مواقعهم في بنيان الوطن العربي الكبير ، كي يقوم كل منهم بواجبه في مواجهة هذه الانتهاكات والتخفيف من معاناة الناس والدعوة إلى احترام حقوق الانسان والذود عن كرامته إنطلاقاً من الايمان بأن الله كرّم بني آدم وتطبيقاً للإعلان العالمي لحقوق الإنسان .

★ ★ ★

نتأمل في « إعلام الأزمة » التي نعيشها اليوم ، فنجد أن جلّ الاعلام الرسمي « دعايات » تنطلق من « المحلية القطرية » منكرة وحدة الأمة ، ومُستهدفة بث الفرقة بين شعوب الأمة الواحدة ، وشانَّةً حملات على هذا الشعب أو ذاك تمس شرفه وسمعته ، ومُحمِلّة الإنسان أوزاراً لم تجنِها يداه .

يهتز ضمير الإنسان السوي المدرك حين يقرأ ماتتضمنه هذه الدعايات أو يستمع إليها ، ويأرق وجدانه ، ومن المؤلم أن الجهات التي تقف وراءها لاتكتفي بأن تصدرها مطبوعة في صحف ومجلات ، فتذيعها لتُسمَع مرة أو أكثر من إذاعاتها . ومن المؤلم أيضاً أن نفراً من البسطاء يقع فريسة لها وبخاصة أؤلئك الذين طحنتهم الأزمة . والأمثلة على هذه الدعايات كثيرة ، نجدها في الإعلام الرسمي هنا وهناك ، ونجد أن مضمونها واحد وإن اختلف المُستهدف بها ، ونجد أن هذا المضمون لايصمد أمام النظر العقلي فيتهافت ، وأنه دوماً « عنصري » يعتمد التعميم ، وأنه من ثم يضرب بعرض الحائط بمعتقدات الأمة وقيمها وبالإعلان العالمي لحقوق الإنسان . ومعلوم أن المادة الأولى من الإعلان تقرر أن على الناس أن يعاملوا بعضهم بعضاً بروح الأخوة ، وأن المادة الثانية تعارض التمييز من أي نوع ، وأن المادة الثانية عشرة تُحرّم تعريض أي أحد لحملات تمس شرفه وسمعته وتعطي كل واحد الحق في أن يحميه القانون من هذه الحملات . ومعلوم أن الله يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

إن « إعلام الأزمة » يتضمن دعايات حافلة بالاساءات . وتعتبر هذه الدعايات في نظر الأخلاق والقانون عدواناً وجناية . ويلّح السؤال من يتحمل مسؤوليتها وكيف نتعامل معها ؟

* * *

لقد جرى الوقوف مؤخراً أمام أمثلة على هذه الدعايات في « إعلام الأزمة » ظهرت في عدة أقطار عربية تصف شعبا بكاملها بأبشع النعوت في أكبر الصحف في هذا القطر أو ذاك ، وتُحرِّض الناس على الفتك بالأفراد من هذا الشعب أو ذاك ، والحكومة على تشريدهم واستباحتهم . ولفت النظر أن إذاعة دولة كبرى قرأت أحد هذه المقالات مرتين في يوم واحد مرددة كل ماتضمنه من إسفاف .

كان أول ماتم الخروج به من هذه الوقفة أن الموقف الرسمي له دور خاص في إشعال نار « إعلام الأزمة » . فالأقلام التي توظف فيه لاتبادر بإطلاق الدعايات إلا بعد أن تأخذ الضوء الأخضر للبدء ، ويكون لها بعد ذلك أن تتفنن في الصياغة . والمنابر التي يجري إطلاق الدعايات منها خاضعة بشكل أو بآخر لمعطي الضوء الأخضر . وقد لفت النظر في هذه الأمثلة التي جرى الوقوف أمامها أن الذين أعطوا الضوء الأخضر لم يلبثوا أن وقفوا ينددون بإعلام الأزمة في أقطار أخرى وبالدعايات التي استهدفوا بها ، وهي بدورها بالغة الإسفاف . وواضح أن منطقهم لم يبدُ متماسكاً لأنهم ينددون بأمور عند الآخرين يفعلونها هم . ولفت النظر أيضاً أن الأقلام التي جرى توظيفها في هذه الأمثلة كانت قد راجعت نفسها في لحظات تأثر رأت فيها الناس على حقيقتهم إثر عودة المياه الى مجاريها بين الأقطار الشقيقة قبل بضعة شهور فجاهرت بالاعتراف بين أيدي القراء بشعورها بالإثم لما كتبته في تأجيج نار العداوة بين الشعوب الشقيقة ، داعية (أنفسها) ورجال الإعلام وحملة الأقلام

« الى إعادة النظر في اسلوبنا الإعلامي في معالجة قضايانا العربية وفي الخلافات التي يمكن أن تحدث بين حكوماتنا » ، كما قال أحدهم مقرراً أن مارآه في تلك اللحظة أكدّ له « أننا كنا في واد وكانت شعوبنا في واد آخر ! نحن نجسم الخلافات ونفجر الصراعات ونخلق الكراهية والحقد في العقول قبل القلوب والشعب يقرأ لنا ويستمع الينا ولكنه لاينفعل ولايتأثر بما نكتبه ومانقوله » ، وواعداً أن يستوعب الدرس والحقيقة التي كانت غائبة عنه وألا يكرر التجربة مرة أخرى . ولكن لم تمض فترة إلا وعادت « حليمة لعادتها القديمة » ، ولفت النظر أخيراً أن المنابر التي انطلقت منها الدعايات لم تلبث أن تنصل مسؤولو تحريرها من مضمون هذه الدعايات وحصروا مسؤوليتها في كاتبيها وبرروا السماح بنشرها بأن ذلك يقع ضمن حرية التعبير !!!

واضح من « تشريح » إعلام الأزمة أن من يتحمل مسؤوليته المباشرة ويتولى كبره أطراف ثلاثة هي من يعطي الضوء الأخضر له والقلم والمنبر . ومهما تنصل أي منها من المسؤولية ومن تحمل نصيبه ، فإن ملّفه لا مفرّ حافظ ذلك في الدنيا ، وأن حسابه في الآخر آت لاريب فيه وقد أوضحته الآية الكريمة « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

* * *

كيف يتعامل الناس الذين تستهدفهم هذه الأطراف الثلاثة بدعايات إعلام الأزمة مع هذه الدعايات ؟ وماهي حدود مسؤوليتهم في مواجهتها ؟

تكشف الوقفة أمام الأمثلة موضع الدراسة أن قطاعاً واسعاً من الناس يرفض بفطرته السليمة دعايات إعلام الأزمة . ويعبر عن رفضه بمقاطعة الوسائل التي يعتمدها هذا الإعلام . وقد تحدث ثلاثة شبان جرى سؤالهم عما إذا كانوا يقرأون هذا النوع من المقالات ثم عن اسباب عدم قراءتهم له فقالوا

تابعنا هذه المقالات فترة ، ثم رأينا الخير كل الخير في مقاطعتها ، وتعودنا على أن نغلق المذياع اذا سمعنا مايؤذي آذاننا . وتكشف الوقفة أيضاً أن هناك قطاعاً آخر يقرأ هذه الدعايات ويستمع اليها من موقع « إعرف عدوك الذي يستهدفك بالسوء » ليتنبه إلى مايحيكه له . وتختلف معاناة هذا القطاع بحسب خبرته ، فتبلغ أشدها اذا كان حديث الخبرة ، وتتضاءل كلما تحصن من خلال الخبرة ضد ماتنفثه الدعايات من سموم وماتحركه من نوازع بغيضة في اطار رد الفعل . وتكشف الوقفة أن هناك قلة تتأثر بتلك الدعايات وتقع فريسة لها . ويكون المطحونون بالأزمة ممن اصابتهم النكبة أكثر استعداداً لهذا الوقوع بسبب معاناتهم .

إن الناس الذين تستهدفهم دعايات إعلام الأزمة مسؤولون ايضاً أن يتحصنوا ضدها وأن يواجهوها . والمسؤولية هنا فردية . وهي تنطلق من حقيقة تكريم الله للإنسان بأن جعل له السمع والبصر والفؤاد ، و« إن السمع والبصر والفؤاد كل أؤلئك كان عنه مسؤولاً » .

لابديل اذا أردنا أن نخفف من معاناة الناس من « إعلام الأزمة » ودعاياته التي تمس المقدسات وتنتهك حقوق الإنسان ، من أن يتحمل كل فرد مسؤوليته في تحصين نفسه ضدها ومواجهتها . وأن يتمسك بهويته بكل دوائر انتمائها مستعصياً على محاولات اصطناع تناقض بين الدائرة القطرية والدائرة العربية والدائرة الحضارية العربية الإسلامية أن تنجح معه .

إن النهوض بهذه المسؤولية يكتسب أهمية قصوى حين تكون الأزمة داخل البيت الواحد تفعل فعلها بين الأهل ، ويكون الآخر المتربص بالأمة ككل نافخاً فيها . وقد ألح عليّ منذ أن بدأت هذه الأزمة أن أراجع رائعة نيكوس كازانتزاكي الروائية حول الحرب الأهلية في اليونان في اعقاب الحرب

العالمية الثانية . ومأأروع وصفه لإعلام الأزمة بعد حدوثها حين يقول « وبدأ القساوسة والصحفيون وذوو المناصب بدعوة « أهل كاستللوس » ــ القرية الجبلية ــ أن يقتلوا جيرانهم وأصدقاءهم وإخوانهم ، ويقولون لهم أن هذا هو الطريق الوحيد لينقذوا الدين والوطن ! هكذا ظهر فجأة تبرير لهذا ، وطني وديني » . وحين انقسم الناس كان على العجوز واعظ القرية أن يحدد موقفه وسط الحاح الجانبين عليه أن يتخذ جانبه ، فاختار أن يقف مع أهل القرية جميعاً يخفف معاناتهم لأنه يحبهم جميعاً حتى ولو أنهم في خضم الحرب اتهموه وكرهوه وصبوا عليه الشتائم ، هذا يتهمه بالخيانة وهذا يتهمه بالتزوير ، وهو مستعصٍ على دعايات إعلام الأزمات لأنه يعرف أهل قريته حق المعرفة ، أيضاً تربص « حكام العالم » بهم وببلادهم وبلاد أخرى مستضعفة .

لابد أن يتجسد النهوض بهذه المسؤولية الفردية في قيام أقوى العلاقات بين أبناء الأمة الواحدة من شعوبها كلها ، والتعبير العملي عن روابط الأخوة التي تجمع بينهم وروحها ، « ولايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » .

لقد حفلت أيام الأزمة الستون الأولى بصور تجسد هذا النهوض بالمسؤولية الفردية حاولت دعايات إعلام الأزمة أن تتجاهلها وتطمسها ، ومع ذلك ظهر بعضها فيه . وحفلت أيام الأزمة أيضاً بصورٍ معاكسة تنكر فيها أفراد عرب لمسؤوليتهم الفردية فخاضوا مع الخائضين ومسوا المقدسات وأخلوا بالحرمات فشاركوا الأطراف الثلاثة التي تتولى كبر دعايات إعلام الأزمات تحمل مسؤولية الانتهاكات التي يقومون بها .

إن نار الأزمات تكشف عن المعدن الثمين وما يُغطّيه من الخَبَث . ويقيناً سنشهد يوماً يتحمل فيه كل من شارك في دعايات إعلام الازمات

مسؤوليته كاملة ويحاسب بمقتضاها بعد أن تنتهي هذه الأزمة وتخرج منها أمتنا أقوى وأطهر يتلألأ معدنها الثمين .

دراسة في أزمات عالمية

بين حلٍّ .. وحل

اكتب هذا الحديث وقد مضت عشرة أسابيع على حدوث أزمة الخليج . وواضح أن الإحساس بالحاجة إلى حلٍ لهذه الأزمة يتزايد بقوة في وطننا العربي وفي عالمنا ككل ، بينما تشتد المعاناة بسببها على صُعدٍ عدة وفي مختلف قارات كوكبنا الأرضى . وذلك شأن الازمات العالمية .

وسط هذا الإحساس القوي بالحاجة الماسة إلى حل ، وبينما تتفاقم الأزمة بفعل ردود أفعال غير محسوبة يحكمها منطق القوة المتغطرسة ، يتعالى الصوت المنادي بإيجاد حل عربي إسلامي للأزمة معبراً عن أمل النجاة من أخطار محدقة لايعلم الا الله سبحانه أشكالها وألوانها اذا جرت محاولة فرض حلول خاطئة .

مجموعة اسئلة تبرز أمامنا ونحن نتأمل في تعبير « الحل العربي الإسلامي للأزمة » الذي يرتفع اليوم كشعار نابع من ضمير الأمة ووجدانها .

ماهو المقصود بالحل العربي الاسلامي للأزمة ؟ وما الفارق بينه وبين الحل الدولي ؟

لماذا كان هذا الحل هو الحل الصحيح ؟ وماهو الإعتراض على الحل الدولي ؟

ماهي الخطوات التي يجب القيام بها للسير فيه ؟

إن تحديد المقصود بالمصطلحين « الحل العربي الاسلامي » و« الحل الدولي » بداية ، أمر ضروري كي يكون الانطلاق في الحديث عنهما من فهم واضح واحد لهما ، فلا يحدث الإختلاف لأن في الأذهان مفاهيم متباينة بشأنهما . ومازلت أذكر كيف كان رد الفعل عنيفاً عند أحد المعنيين لدى سماعه المصطلح الأول لأنه على حد قوله « لايعني له شيئاً على أرض الواقع ، ولأن هناك من يقول به لمجرد تأجيل الحل » .

هل يمكننا أن نتوافق على تحديد لمصطلح « الحل العربي الاسلامي » للأزمة ، بأنه الحل الذي يحصر جُلّ الأزمة في نطاقها الإقليمي وهو دائرة الحضارة العربية الإسلامية ضمن إطاري جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي ، وينطلق من الروابط القائمة بين الدول داخل هذه الدائرة ، ويعتمد فضلاً عن المواثيق الدولية شِرعة الأمة النابعة من عقيدتها وقيمها ، ويستخدم أدوات ووسائل عربية اسلامية ؟

وبالمقابل هل يمكننا أن نتوافق على أن « الحل الدولي » للأزمة هو الحل الذي « يُدّولها » ويجعل نطاقها العالم كله ضمن إطار الأمم المتحدة وحدها ، ويعتمد قرارات مجلس الأمن ، ويستخدم أدوات ووسائل دولية قافِزاً فوق النطاق الإقليمي .

واضح من هذا التحديد الأولي أن « الحل الدولي » للأزمة يعتمد بشكل خاص على الولايات المتحدة الاميركية التي تمثل القطب الحاكم للنظام الدولي القائم اليوم في عالمنا ، ولامفر من ثم أن يستخدم في المقام الأول وسائل اميركية .

★ ★ ★

إن اعتماد الحل الدولي للأزمة على الولايات المتحدة الأميركية بخاصة هو وجه الاعتراض الاساسي عليه داخل الساحة الاميركية نفسها وفي العالم . ويمكننا أن نسوق مجموعة أسباب لهذا الاعتراض الاساسي .

السبب الأول تاريخي يتعلق بتاريخ التدخل الاميركي في الازمات الاقليمية خلال النصف الثاني من هذا القرن . ويوضح هذا التاريخ أن هذا التدخل كان في كل مرة وبالاً على الولايات المتحدة نفسها وعلى الإقليم الذي شهد الأزمة . ومن الأمثلة على ذلك أزمة كوريا عام ١٩٥٠ التي تفجرت حرباً طاحنة ، والتورط الامريكي في فييتنام الذي بقي محفوراً في الذاكرة الاميركية مقترناً بصور ماسببه من معاناة .

السبب الثاني استراتيجي يتعلق باستراتيجية الولايات المتحدة وسياستها تجاه المنطقة . وهي استراتيجية كشفت الأزمة الراهنة عن مدى تخبطها ومقدار الأخطاء الجسيمة التي نجمت عنها في السياسة الاميركية . فقد تبنت هذه الاستراتيجية فكرة عزل مصر عن شقيقاتها العربيات ، وإضعاف النظام العربي ومحاولة استبداله بنظام إقليمي تكون اليد العليا فيه للكيان الصهيوني ، واعتماد هذا الكيان قاعدة لحماية المصالح الاميركية في المنطقة بعامة والنفطية منها بخاصة وإبرام تحالف استراتيجي اميركي اسرائيلي وتمكين اسرائيل من الاستمرار في احتلال الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة وجعلها أكثر سلاحاً من الدول العربية مجتمعة ، وتغذية الصراع إبان الحرب العراقية الايرانية مما أدى إلى تضخم مخزون السلاح في المنطقة ، واتباع سياسة اقتصادية أدت الى تفجرات اجتماعية في عدة دول عربية و .. و .. والحق أن المتأمل في حصاد هذه الاستراتيجية يعجب كيف توهم بعضنا بأنها محكمة وأن الباطل لايأتيها لا من بين يديها ولا من خلفها وقد جاءت الأزمة الراهنة لتدلل على العكس .

السبب الثالث اعتقادي يتعلق بأن الجزيرة العربية تضم الحرمين الشريفين ، وهي أرض حرم . وقد اقتصر الوجود فيها منذ زمن الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب على المسلمين . وأي وجود آخر يحمل في طياته حدوث مضاعفات وتداعيات على جميع الصعد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية العسكرية . ولهذا السبب تأثير خاص في هذه الفترة من تاريخ العرب والمسلمين لأن ثالث الحرمين الشريفين وهو بيت المقدس تحتله الصهيونية العنصرية بدعم من الولايات المتحدة الاميركية التي وصل الأمر فيها حد أن يصدر الكونجرس الاميركي قرار اعتبار القدس عاصمة أبدية لاسرائيل !!

السبب الرابع سياسي أخلاقي يتعلق بسياسة الولايات المتحدة التي تعتمد مقياسين وتكيل بكيلين حين ترفع شعارات حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية والشرعية الدولية ، فتفقد الصدق وتكشف عن وجود أزمة قيم تتحكم فيها . ويلفت النظر أن جُلّ المحللين السياسيين الذين تحدثوا عن هذه السياسة بمناسبة أزمة الخليج أشاروا الى هذه الأزمة في القيم والى الخلل الأخلاقي الذي يكمن وراءها . وقد تضمنت خطابات كثير من رؤساء الوفود في الدورة الحالية للأمم المتحدة أمثلة كثيرة على هذه السياسة ، فتحدثت عن موقف الولايات المتحدة من تعطيل قرار مجلس الأمن ٢٤٢ بشأن الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ وقرار مجلس الأمن ٢٥٢ بشأن القدس وقرار ٤٢٥ بشأن جنوب لبنان . كما استحضر المتابعون عدد المرات التي استخدمت فيها الولايات المتحدة لتعطل الشرعية الدولية حق النقض في مجلس الأمن .

لقد تردد الحديث عن هذه الأسباب الأربعة داخل الساحة الأميركية في الحوار الجاري بين كبار القوم على صفحات الصحف أو في أروقة الكونجرس والإدارة ومراكز البحث . ويمكننا أن نسوق أمثلة كثيرة مما جاء في أهم

المقالات التي نشرت منذ بداية الأزمة ، ولامفر لنا من الاختيار . فهذا جيمس م . بيري يستحضر في مقاله يوم ٩٠/٨/٢٦ بجريدة وال ستريت جورنال دروس الأزمة الكورية ضمن السبب التاريخي ويقول « إن الاميركيين الذين أيدوا التدخل أول الأمر بنسبة ٦٥ إلى ٢٠ لم يلبثوا بعد أربعة شهور أن غيروا عواطفهم وجاءوا بايزنهاور عام ١٩٥٢ لينهي الحرب » . كما يتذكر امرارات فييتنام . وهذا توم ديكر يدعو بوش في مقاله يوم ٩٠/٩/١٢ في نيويورك تايمز الى العناية بالأمور الداخلية في الولايات المتحدة الى جانب عناية بأزمة الخليج . وهاهو مارك سومر يكتب في كريستيان سانيس مونوتور يوم ١٩٩٠/٨/٢٧ مشيراً إلى نقاط الضعف في الوضع الأميركي ومنبهاً إلى أخطار اندلاع الحرب على الأحوال الداخلية الاميركية وطارحاً بدائل أخرى تتعلق بالطاقة . وقد كتب عدد من الكتاب عن الأخطاء الاستراتيجية الاميركية ، وذكّر وليام كوانت في مقاله يوم ١٩٩٠/٨/٣٠ في نيويورك تايمز كيف عبرّ أحد رجال الكونجرس قبل عام عن عدم جدوى تقديم المساعدة لمصر لأن الولايات المتحدة لاتحصل على شيء مقابل بلايين الدولارات التي تدفعها لها ، ليصل إلى القول بأن الأزمة أثبتت غير ذلك . وكان جيمي كارتر صريحاً في الحديث عن هذه الأخطاء في مقالة يوم ٩٠/٨/١٢ في واشنطن بوست وبخاصة فيما يتعلق بالصراع العربي الاسرائيلي وقضية فلسطين بخاصة . كما تناول عدد آخر من الكتاب السبب الاعتقادي ومنهم توماس ستوفر الذي تحدث عن « محور عراقي ايراني محتمل » في مقالة يوم ٩٠/٨/٢٣ في كريستيان سانيس مونوتور . وعرض آخرون للسبب السياسي في الكثير من المقالات التي علق بعضها على حديث جيمس بيكر وزير الخارجية الاميركي إقامة حلف أمني كحلف الاطلسي في الخليج . وقد اعتبر كاليب كار وجيمس شيس في نيويورك تايمز يوم ١٩٩٠/٩/١٣ هذه الدعوة « كارثة حقيقية » . وتجسد هذا السبب

السياسي في طريقة تعامل الكونجرس مع طلب الرئيس بوش إلغاء الديون العسكرية على مصر ، وفي حديث المندوب الاميركي بيكرنغ في الأمم المتحدة الذي استخدم « المقياسين » في تفسيره لقراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٦٦٠ .

يتردد الحديث عن هذه الأسباب الأربعة خارج الولايات المتحدة في أوساط حليفاتها الغربيات في أوروبا ، وهذا ما دعا فرنسا الى طرح مبادرتها . ويتردد في أوساط دول أعضاء في مجلس الأمن مثل الصين التى قال سفيرها لى داويو أثناء مناقشة مجلس الأمن الانتهاكات الاسرائيلية في الأراضي الفلسطينية المحتلة « ان الأمم المتحدة لاتتحدث بصوت واحد في الشرق الأوسط » مشيراً إلى اعتماد الولايات المتحدة مقياسين . ويتردد الحديث بقوة أشد في أوساط دول العالم الثالث التي تعاني الأمرين من الطريقة التي تسير الولايات المتحدة النظام الدولي بموجبها .

* * *

إذا كان الشك في سلامة إدارة الولايات المتحدة للأزمة هو السبب الرئيسي للاعتراض على الحل الدولي ، فإن إلحاح الحاجة الى الحل العربي الإسلامي للأزمة نابع من ضرورة أن يعتمد هذا الحل فضلاً عن المواثيق الدولية شرعة الأمة النابعة من عقيدتها وقيمها ، وأن يضع نصب عينه من ثم « العدل » أساساً للحل ، وهو الأساس المفقود الغائب في الحل الدولي الاميركي . لن يكون صعباً على الأسرة العربية اذا ركزت اهتمامها « على الحل العربي الإسلامي » أن تتوصل الى اتفاق على مبادىء هذا الحل ، وأن تقنع الأسرة الدولية بها ، وأن تباشر تنفيذه . وهذا يقتضي إنهاء المراهنة على الحل الآخر ، واعتماد دبلوماسية تستلهم قيم الأمة وتفسح المجال أمام الاتصال والحوار وصولا للقاء وتوقف دعايات إعلام الأزمة . وقد أثبتت تجارب كثيرة ماضية

أن هذا اللقاء تحقق في أحوال بلغ الخلاف أشده . كما أكدت تصريحات جميع أطراف الأزمة حرصهم على هذا الحل .

ان أهم ماكشفت عنه الأسابيع العشرة الأخيرة على صعيد النظام الدولى هو ضرورة اعتماد العدل ضمن الاسس التي تقوم عليها ممارسات الشرعية الدولية . وهذا مايمهد الطريق أمام الحل العربي الاسلامي .

واضح أن الوضع دقيق ، وهو يقتضي أن تحسم الأمة إرادتها وتفعل منطلقة من الإيمان بالله الفعال لما يريد .

دراسة في أزمات عالمية

النظام العالمي في قديمه وجديده

لاتزال أزمة الخليج تستأثر بالنصيب الأوفى من اهتمامنا . ولانزال وقد دخلت شهرها الثالث وأسبوعها الحادي عشر نبذل قصاري الجهد لاحتوائها وايقاف تفاقمها ، وكل منّا مجتهد في اختيار الجانب الذي يصب فيه جهده وفي تحديد ماينبغي عمله .

لعل أبرز ما يلفت النظر الآن أن الرغبة في معالجة الأزمة موضوعياً تزداد ، وأنه كلما زادت هذه المعالجة الموضوعية كلما تراجعت المعالجة الدعائية لإعلام الأزمة وتضاءل تأثيرها . وواضح أن انعقاد الندوات العلمية التي تتناول الأزمة يساعد على تغليب المعالجة الموضوعية .

لقد كان هذا الأمر نصب عيني حين وصلتني دعوة اتحاد المحامين العرب للمشاركة في « ندوة أزمة الخليج تحديات الحاضر والمستقبل » التي عقدها في القاهرة يومي ١٥ و١٦/١٠/١٩٩٠ ، وللتعقيب على بحث يتناول آثار الأزمة على الأمن العربي . فكان أن رحبت بالدعوة ولبيّتها .

ألحّ عليّ وأنا أُحضّر حديثي أن هذه الأزمة ذات جانبين ، فهي من جهة أزمة عربية وهي من جهة أخرى أزمة عالمية . ويحتدم الصراع في الجاسب الأول بين اخوة من العرب ، بينما يحتدم الصراع في الجانب الآخر بين هؤلاء الأخوة

في طرف وقوى خارجية في طرف آخر . وقد حرصت في مستهل حديثي على أن اشكر الاتحاد لدعوته ولأنه أسهم بهذه الندوة في رفع مستوى الحوار ، وعلى أن أوضح أن معالجتنا الفكرية للموضوع تنطلق من النظر الى الدائرة العربية كوحدة ، وتعتمد إرادة الفعل . وآثرت أن أبدأ بالبعد الدولي للأزمة .

تبدو أزمة الخليج على صعيد الدائرة العالمية أزمة عالمية لها آثارها على نظام الأمن العالمي . ويكثر الحديث في دائرة الحضارة الغربية ـــ بعالميها الأول والثاني أو الغرب والشرق ـــ عن أن العالم يشهد قيام نظام عالمي جديد ، وعن أن التعامل مع أزمة الخليج هو أول اختبار لهذا النظام . وقد أعلن الرئيس الأميركي جورج بوش أنه « لابد لأميركا والعالم أن يساندوا حكم القانون . ونحن عازمون على ذلك » في معرض حديثه عن الأزمة والنظام العالمي الجديد .

السؤال الذي يبرز أمامنا ونحن نتفحص مصطلح « النظام العالمي الجديد » هو ماهو الجديد حقاً في هذا النظام ، وماهو القديم فيه الذي أكل الدهر عليه وشرب ؟

يبرز هذا السؤال ونحن مدركون أن حدوث « أزمة عالمية » هو في قيقته تعبير عن وجود خلل في النظام العالمي القائم ، ومن مظاهر هذا الخلل ستئثار المهيمنين على هذا النظام وتحكمهم في الشرعية الدولية يفسرونها على هواهم ، الأمر الذي يؤدي إلى إخفاق نظام الأمن الجماعي ، كما أننا مدركون أن وجود هذا الخلل يؤدي بعد حدوث الأزمة العالمية الى تتالي تداعياتها ومضاعفاتها ، الأمر الذي يهدد باندلاع حرب واسعة بسببها تشتد فيها التفاعلات وتكثر التحولات . وإن لنا أن نستحضر ماحدث في أزمة عام ١٩١٤ أولى الأزمات العالمية التي أدت إلى نشوب ماعرف بالحرب العالمية الأولى ، ثم ماحدث في أزمة عام ١٩٣٩ التي أدت إلى نشوب ماعرف بالحرب

العالمية الثانية ، ثم ماحدث في الأزمات العالمية التي عاشها عالمنا المعاصر منذ عام ١٩٤٥ ومنها أزمة برلين عام ١٩٤٨ والأزمة الكورية عام ١٩٥٠ وأزمة السويس عام ١٩٥٦ .

الجديد في النظام العالمي هو **التفاهم** الذي حدث بين الولايات المتحدة الاميركية قطب مايعرف بالعالم الأول والاتحاد السوفييتي قطب مايعرف بالعالم الثاني على حل المشكلات القائمة بينهما سلمياً وإنهاء الحرب الباردة . وقد جاء هذا التفاهم في أعقاب التغيرات التي حدثت في أوروبا الشرقية في عهد « إعادة البناء » وحملت معها تحولات أدت إلى تطلع الولايات المتحدة لأن تكون القطب الأوحد في النظام العالمي .

واضح أن هذا الجديد لم يغير شيئاً في **توجهات** العالم الأول تجاه معالجة الخلل القائم في النظام العالمي . وقد لفت النظر أن الرئيس بوش تحدث في أعقاب قمة هلسنكي في اغسطس الماضي عن السلام والاستقرار ، ولم يذكر **العدل** الذي يعتبر افتقاده في هذا النظام أساس هذا الخلل . وهكذا بقي افتقار النظام العالمي الى العدل هو القديم الثابت فيه الذي أكل الدهر عليه وشرب ، بما يعنيه من استحكام لأزمة القيم التي يعاني منها وطغيان المتحكمين فيه واعتمادهم مقياسين . بل إن هذا الجديد **قوّى نزوع** الولايات المتحدة للإنفراد في قيادته والاستئثار بالنصيب الأكبر من المغانم ، على حساب مايعرف بالعالم الثالث ، والحَقُّ هو أن النظام العالمي الذي تم وضعه في يالطا أسقط من حسابه مصالح الدول التي استقلت حديثاً في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية وعرفت باسم العالم الثالث .

لقد تجلّى هذا النزوع الاميركي للتحكم في النظام العالمي خلال الأعوام الخمسة الماضية في أمثلة كثيرة في مناطق مختلفة من العالم . وكان من بين هذه

الأمثلة في منطقتنا **إعلان الولايات المتحدة عزمها على العمل لتقليص القوة العسكرية** لسوريا والعراق وايران . وقد رأينا كيف اصدرت قمة الدول الصناعية السبع في طوكيو عام ١٩٨٦ قرارها بالتضييق على سوريا إقتصادياً ، وكيف تولت بريطانيا القيام بدور خاص ضمن المجموعة الأوروبية لتنفيذه . ثم كيف أصدرت قمة الدول الصناعية السبع في فيينا عام ١٩٨٨ قرارها بمنع دول العالم الثالث من تطوير صناعة السلاح فيها ومن تصنيع الصواريخ المتوسطة المدى ، مستهدفة بخاصة التعاون العراقي المصري الأرجنتيني على هذا الصعيد ، وكيف تولت بريطانيا القيام بدور خاص في تنظيم حملة إعلامية على قوة العراق العسكرية . كما كان من بين هذه الأمثلة **دأب الولايات المتحدة على العمل للحيلولة دون تنفيذ قرارات الأمم المتحدة التي تمثل الشرعية الدولية** والخاصة بالانسحاب الاسرائيل من الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ وبقضية فلسطين عموماً وحقوق شعب فلسطين العربي ، واستخدامها حق النقض المرة تلو المرة لمنع مجلس الأمن من إدانة ممارسات الإرهاب الصهيوني الاسرائيلي ، وقيامها بتقديم الدعم المادي والمعنوي للتوسع الاسرائيلي العدواني وإمداده بحملة التهجير الجديدة لليهود السوفييت من أوطانهم . وواضح أن كل استعمال لحق النقض هو بمثابة ضربة معول في بنيان الشرعية الدولية ونظام الأمن الجماعي العالمي . وكان من بين هذه الأمثلة **اتباع الولايات المتحدة سياسة اقتصادية تجاه النفط وأسعاره أدت الى إرهاق الدول المنتجة ، وتبنّيها سياسة إعلامية معادية للحضارة العربية الاسلامية وقيمها ومقدساتها** كما تجلت في قرار الكونجرس الامريكي بشأن القدس هذا العام وبقضية سلمان رشدي التي قامت بريطانيا بدور خاص فيها .

إن الخلل القائم في النظام العالمي بسبب افتقاره الى العدل يطرح على صعيد العالم **قضية توزيع الثروة** ودول الشمال ودول الجنوب ، وضرورة

إصلاح النظام الاقتصادي العالمي . كما يطرح **قضية الموقف العدائي الغربي للحضارات الأخرى** في عالمنا والحضارة العربية الاسلامية بخاصة . ويطرح **قضية العداء الغربي للعرب** وسعي الغرب الدائم لتمكين الصهيونية من التحكم في الوطن العربي . وقد كان وزير الخارجية الفرنسي رومان دوما أول من حذّر في الغرب من أن أزمة الخليج بما تكشف عنه من خلل في النظام العالمي قد تؤدي الى تفجير هذه القضايا الثلاث وفتح ملفاتها . وكان المؤرخ الاميركي ستافريانوس قد نبّه في كتابه « الصدع العالمي » في مطلع الثمانينيات الى أن « الهوة الآخذة في الاتساع بين العالم الأول والعالم الثالث أوجدت لأول مرة **كمون الثورة** على نطاق عالمي » ، بعد أن أوضح أن من المسلم به « أن تخلف العالم الثالث وتطور العالم الأول لايمثلان ظاهرتين منفصلتين ، وانما هما متصلتان عضوياً ووظيفياً ، لأن أولاهما نتجت عن الأخرى » .

العالم كله إذن في ظل النظام العالمي القائم اليوم فيه المفتقر الى العدل بجديدة وقديمه يشهد وجود كمون الثورة فيه على نطاق عالمي . وعلينا ونحن نتعامل مع أزمة الخليج في بعدها العالمي أن نتنبه لهذه الحقيقة ونأخذها في الاعتبار مدركين أن هذا النظام العالمي قابل لحدوث تفجرات فيه . والحق أن علينا ونحن نتشوف تداعيات الأزمة ومضاعفاتها المتوقعة اذا اندلعت حرب بسببها ، أن نركز أنظارنا **على الأوضاع الداخلية لكل طرف من أطرافها وعلى العلاقات القائمة بين هذه الأطراف** . ونشير في هذا المجال الى أن هذين الجانبين لم يأخذا حقهما في عملنا البحثي ، وعلينا أن نتدارك ذلك ونعتني بهما . ويمكن للمتابع أن يلاحظ أن الولايات المتحدة الاميركية تعاني على الصعيد الداخلي من ضغوطات كثيرة مادية ومعنوية ليس العجز الكبير في الميزانية إلا واحداً منها . والأمر نفسه يصدق على بريطانيا والاتحاد السوفييتي وعلى دول كثيرة أخرى . كما يمكن للمتابع أن يلاحظ أن العلاقات القائمة بين

اطراف النظام العالمي فيها دخن وتشهد احتدام التنافس وتخلف في النفوس مرارات . فالاتحاد السوفييتي الذي سلّم للولايات المتحدة بأمور لايفتأ يشكو من المحاولات الاميركية لتقليص دوره مردداً بأنه لابد أن يكون شريكاً ، وفرنسا والمانيا في أوروبا الغربية تعانيان من بعض توجهات السياسة الاميركية في القارة الاوروبية ولاتخفيان ضيقهما من العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وبريطانيا . والأمر يصدق على علاقات الصين واليابان والهند مع الدول الغربية .

النتيجة التي نصل إليها من النظر في النظام العالمي القائم وآثار أزمة الخليج عليه وعلى الأمن العالمي هي أن تفاقم الأزمة واندلاع حرب بسببها قد **يؤدي إلى تفجرات كثيرة ، وأن العالم يعيش فترة يبدو فيها الظرف مناسباً للدعوة إلى إصلاح النظام العالمي وتطويره** . وهذا يعني أن علينا نحن في الدائرة العربية بمختلف أطرافنا أن نحاول **أولاً** على صعيد إدارة الأزمة التحلي بضبط النفس والعمل على نزع الفتيل المشتعل ، وأن نطرح **ثانياً** رؤيتنا لإصلاح النظام العالمي وتطويره مركزين على القضايا الثلاث القائمة بيننا وبين الغرب منذ أن استهدفنا بظلمة وفرض النظام العالمي المفتقر الى العدل . وواضح أن هذا الظرف المناسب لم يأتِ إلا بعد أن اكتملت التفاعلات الجارية في منطقتنا والعالم منذ عقود ، وأنه يتيح لنا أن نشارك لأول مرة على مستوى الندية في رسم النظام العالمي الذي يكفل مصالح جميع البشر في كوكبنا الأرضي ويقوم على العدل فيثمر السلام والاستقرار . نقول لأول مرة لأن الدول الأوروبية هي التي رسمت في معاهدة لندن ١٨٤٠ علاقاتها بالدولة العثمانية ومصر وحصرت بها محمد علي ، وهي التي انفردت في مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ برسم النظام الأوروبي الذي يحكم العالم ، ثم كان هذا شأنها عند رسم النظام العالمي في فرساي عام ١٩١٩ وفي يالطا عام ١٩٤٥ وصولاً إلى مالطا عام ١٩٨٩ .

العمل لإقامة نظام إقليمي عربي إسلامي

الوصول الى نظام عالمي جديد قائم على العدل ينظم أمور عالمنا هدفٌ يستحق أن نعمل من أجل تحقيقه . وهذا النظام كي تكون أركانه ثابتة وطيدة ، يقتضي أن تكون الأنظمة الإقليمية الموجودة في إطاره صحيحة قوية . ومن هنا يتجه تفكيرنا إلى موضوع النظام الإقليمي المطلوب في دائرتنا الحضارية العربية الاسلامية .

لقد جاءت أزمة الخليج لتكشف بأقوى مِجهر عن الخلل الموجود في النظام الدولي وفي الأنظمة الإقليمية الموجودة في إطاره ، وبعضها يتعلق بمنطقتنا . وهذا مايدعونا أن نولي موضوع العمل لإقامة النظام الإقليمي العربي الإسلامي حقه من العناية . وقد تناولتُ هذا الموضوع في الجزء الثاني والأخير من حديثي في ندوة « أزمة الخليج تحديات الحاضر والمستقبل » التي دعاني إليها اتحاد المحامين العرب للمشاركة في أعمالها .

تبدو أزمة الخليج على صعيد دائرة الحضارة العربية الإسلامية أزمة إقليمية لها آثارها على أمن منطقتنا . وقد كشفت هذه الأزمة عن **الخلل الموجود في جميع أنظمة الأمن** التى تم وضعها للمنطقة ، وفي النظرة الأمنية التي تحكم هذه الأنظمة . والحق أن ممايلفت النظر أننا نتحدث عن « الأمن القومي

العربي » كهدف نضع تحقيقه نصب أعيننا في **غياب وجود فعلي لنظام أمن عربي** ، وأن أنظمة الأمن التي تم وضعها حكمتها نظرات وقتية وكان الإعتبار الغالب فيها هو ربطها بالنظام الأمني الغربي .

لقد أبرمت الولايات المتحدة الاميركية **التحالف الاستراتيجي الاسرائيلي الاميركي أوائل الثمانينيات** لتحمي مصالحها في المنطقة على حد ظنّها ، وأسندت لإسرائيل القاعدة دوراً في استراتيجيتها تجاه الاتحاد السوفييتي ، ودوراً في استراتيجيتها تجاه منابع النفط في المنطقة ، ودوراً في استراتيجيتها تجاه الدول العربية . وقد بلغ الأمر بالارهابي الصهيوني اريل شارون إثر إبرام هذا الاتفاق أن تحدث عن اليد الاسرائيلية الطويلة التي تتحرك عبر أربعة دوائر قطر الأخيرة منها بين باكستان والمغرب وتحيط الثالثة بدول النفط العربية وتحيط الثانية بدول الجوار لفلسطين وتحيط الأولى بفلسطين نفسها . وإذا كانت التغيرات في أوروبا الشرقية قد قللت من قيمة القاعدة الاسرائيلية في الاستراتيجية الاميركية تجاه الاتحاد السوفييتي ، فإن أزمة الخليج أثبتت أن هذه القاعدة لم تؤدِ ذلك الدور المتصور في الاستراتيجية الاميركية تجاه منابع النفط . وقد أثبتت الأزمة أيضاً أن هذه القاعدة تمثل عبئاً ثقيلاً على السياسة الاميركية سواء على صعيدإسهامهافي الإخلال بالشرعية الدولية أو على صعيد تكاليفها كقاعدة مادياً ومعنوياً . كما أثبتت الأزمة أن السياسة الاميركية التي عملت على إضعاف النظام العربي وعزل مصر وإقامة نظام إقليمي لاسرائيل مكان متميز فيه لم تكن بعيدة النظر من زاوية حماية المصالح الاميركية . ولاشك في أن **الظرف مناسب الآن لقيام اطراف الدائرة العربية** بمطالبة الولايات المتحدة مراجعة استراتيجيتها هذه بهدف تغييرها .

قام النظام العربي الذي جسدته جامعة الدول العربية مع انتهاء الحرب

العالمية الثانية في وقت كانت فيه بريطانيا لاتزال تتحكم في المنطقة . وقد تم إبرام معاهدة دفاع مشترك بين أعضاء هذا النظام ، ولكن النظام الأمني لم يقم لأن نصوص المعاهدة بقيت في الغالب حبراً على ورق ولم يقترن الابرام بايجاد الأداة . وبقيت كل دولة عربية بمفردها تعالج مسألة أمنها القطري في الغالب الأعم . وقام في أعقاب نشوب الحرب العراقية الايرانية التعاون الخليجي كمحاولة لتأمين أمن أعضائه الست . وجاءت أزمة الخليج لتكشف عن العجز الفاضح على **مستوى أمن التجمعات الإقليمية** في الدائرة العربية بعامة . كما كشفت عن **فشل النظام الأمني القطري الذي سارت عليه كل دولة بمفردها** . وقد اعتمد هذا النظام في دول الخليج بخاصة على سياسات أمنية تتعلق بالسكان وبالإنتماء وبالثروة أثبتت الأزمة انها أدت إلى عكس ماتوقعه واضعوها منها .

كشفت أزمة الخليج أيضاً عن أن ارتباط بعض الدول في الدائرة الحضارية العربية الإسلامية **بأنظمة أمنية خارجية** وإنفصالها التام عن أمن جاراتها في الدائرة له مخاطر كثيرة عليها وعلى المنطقة .

واضح في ضوء ماكشفت عنه الأزمة من خلل على صعيد أمن المنطقة أن الحاجة ماسة لقيام دولها بوقفة مراجعة **تستهدف إقامة نظام أمني نابع من** المنطقة ينطلق من النظر الى الدائرة الحضارية العربية الاسلامية بمجملها . وتجدر الاشارة هنا إلى أن المخططات الخارجية تنظر الى هذه الدائرة باعتبارها وحدة وتستهدف في الوقت نفسه الإبقاء عليها مجزأة ، بعد أن نجحت في ذلك أوائل هذا القرن مع سقوط الدولة العثمانية . ويلفت النظر أن الكثير من بحوثنا العربية تتعامل مع دول الجوار الجغرافي للوطن العربي وكأن الأصل أن تكون معادية له ، متبنية نظرة المخططات الخارجية . وقد آن **الأوان أن تنطلق بحوثنا من اعتبار هذه الدول ضمن دائرتنا الحضارية العربية الإسلامية** التي قام الغرب

باستهدافها بغزوته وفرض عليها التجزئة وربطها بأنظمة أمنية خارجية لتبقى تابعة له ، وأن الأصل في العلاقات معها هو التعاون .

النتيجة التي نصل اليها من النظر في أنظمة الأمن القائمة في منطقتنا وآثار أزمة الخليج عليها هي أن منع تفاقم الأزمة والحيلولة دون **اندلاع الحرب بسببها هدف حيوي بالنسبة لجميع دول المنطقة** ، وأن المنطقة تعيش فترة يبدو فيها الظرف مناسباً للدعوة الى قيام نظام أمني عربي إسلامي للدائرة الحضارية العربية الإسلامية . وهذا يحدث لأول مرة منذ أن وضعت مخططات سايكس ـ بيكو عام ١٩١٦ وفرض مؤتمر فرساي عام ١٩١٩ تجزئة المنطقة وتم الغاء الخلافة عام ١٩٢٤ .

يبرز السؤال عند هذا الحد من الحديث ، ما هي الأفكار التي تتبلور بشأن إدارة الأزمة ؟

الفكرة الأولى تتعلق بتوجهنا تجاه الأزمة ، وهي ألا نقع أسرى الآلام المادية والمعنوية التي تسببها الأزمة ، فتشل طاقة التفكير والإبداع فينا ، بل نتوجه نحو إدارتها مسلحين بالإيمان بقدرتنا على معالجتها وبحسن الخاتمة ومتمثلين روح تراثنا في التعامل مع الأزمات وعصارة التجربة الإنسانية . واذا كان عدد من باحثينا قد استشهدوا بالقول الصيني « ان الأزمة هي مخاطر وفرص » فإننا حين نستحضر تاريخ الأزمات نجد بحق أن الأفكار الموحية ولدت وسط الأزمات الحادة . وقد رأينا كيف اقترنت ولادة فكرة الوحدة الأوروبية بأزمة برلين في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وولادة فكرة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز في أعقاب الأزمة الكورية وأزمة السويس .

إن روح تراثنا في التعامل مع الأزمات مستمدة من عقيدتنا . فسورة الشرح في القرآن الكريم تؤكد أن مع العسر يسراً . وقد تحدث رسول الله

صلى الله عليه وسلم بعد نزولها قائلاً « لايغلب عسر يسرين » مشيراً إلى الآيتين والى أن العسر فيهما معرّف بينما هناك يسران . والقول المأثور « اشتدي ازمة تنفرجي » يتردد في أوساطنا على مدى قرون . وهذه الروح مستمدة أيضاً من لساننا العربي . فالأزمة لغة الشدة وهي من الأزم أي العض بالانياب والقطع والجدب والمحل والشدة والقحط والمأزم هو مضيق الوادي الذي إذا تم عبوره جاء الفرج . وقد قال أجدادنا « إن الشدة إذا تتابعت انفرجت ، واذا توالت تولت » .

واضح أن مسؤولية خاصة في تغليب هذا التوجه تقع على كاهل المفكرين الذين ينطلقون في قيامهم بدورهم من انتمائهم للأمة ككل ، وعليهم واجب بلورة الأفكار الصحيحة والدعوة اليها والسعي لتنفيذها .

الفكرة الثانية تتعلق بمواصفات الحل الصحيح لمشكلة أمن المنطقة ، وهي أن يقوم في منطقتنا نظام أمني نابع منها .

لابد لهذا النظام أن يستند بداية الى حق المواطَنة العربية وهو حق تحدثت عنه الدساتير والمواثيق العربية ولكنه لم يقنن في الغالب ولم تأخذه القوانين القطرية في الاعتبار . وقد كشفت الأزمة عن الآثار السلبية لذلك . ولابد لهذا النظام من أن يستلهم عقيدة الأمة وقيمها وروح تراثها ، ولابد له من أن يعتمد على ترابط المجتمع الذي يقوم على أساس مكين من الشورى والديموقراطية والعدالة الاجتماعية والوحدة . ولابد لهذا النظام أن يتجاوب مع السعي لتحقيق أهداف الأمة وأولها العمل لتحرير فلسطين والأراضي العربية المحتلة الأخرى ، ولتوحيد الوطن ، ولتحقيق الكفاية والعدل . ولابد لهذا النظام من أن يشمل الدائرة الحضارية العربية الإسلامية التي يقع وطننا العربي في قلبها .

إن هذا النظام هو القادر على إقامة علاقات الندية مع الأنظمة الأمنية

الأخرى في عالمنا . وسيكون مطلوباً إقامة هذه العلاقات كي نسهم في أمن عالمنا كأنداد مع الآخرين .

بديهي أنه لا مكان في هذا النظام للقاعدة الصهيونية الاستعمارية الاستيطانية التي لابد أن يتم حصرها ومنعها من القيام بدورها التخريبي لأمن المنطقة .

الفكرة الثالثة تتعلق بالتحرك العربي المطلوب لطرح هذا الحل وهي أن يتكثف الحوار بين جميع الأطراف العربية ليتحقق التوافق عليه وعلى مواصفاته ، وأن ينطلق هذا الحوار من التسليم بضرورة العمل على نزع الفتيل المشتعل وتخفيف معاناة أهلنا الذين تطحنهم الأزمة ، وأن تواجه الأطراف الدولية بموقف عربي واحد على هذا الصعيد .

لقد بدأت الولايات المتحدة تتحدث عن نظام أمني للمنطقة ، وعن أفكار بشأنه طرحها وزير الخارجية جيمس بيكر . ولابد من قطع الطريق أمام محاولة فرض مثل هذا النظام الخارجي ، لأن نظام أمن المنطقة يجب أن ينبع منها .. وتشهد ساحة الأزمة تحركاً دولياً نشطاً يجري فيه حوار متصل فطبيعي إذاً أن يتصل حبل الحوار بيننا . وقد أثبتت تجارب سابقة أن خلافات بالغة الحدة بيننا ماأسرع أن انتهت . ولابد لنا أن نصوغ مجموعة طلبات تتعلق بالأزمة وبقضايا المنطقة نوجهها للولايات المتحدة لتلتزم بالشرعية الدولية ، ومن هذه الطلبات تصريح بشأن الانسحاب الاسرائيلي من القدس ، وآخر بشأن الانسحاب الاسرائيلي من جميع الأراضي العربية المحتلة . ولابد من التعبير عن ذلك كله بلغتنا ومصطلحاتنا . ولنثق وسط معاناتنا بسبب الأزمة أنها ستنفرج .

حول الغرب والعرب والأزمة(*)

ـــ كثر الحديث هذه الأيام عن تضاد الحضارتين العربية الاسلامية والغربية .. لماذا فشلت محاولة التعايش بين الحضارتين ؟

● الذي فشل فشلا ذريعا هو محاولة الغرب فرض حضارته على ابناء الدائرة العربية الاسلامية الذين ينتمون للحضارة العربية الاسلامية تماما كما فشل في فرض حضارته على المنتمين للحضارات الأخرى .

ان الأصل في العلاقة بين الحضارات هو أن تتفاعل فيثمر تفاعلها خيرا عظيما على الانسانية وهذا ما غلب في مراحل التاريخ الانساني المتتالية الى أن شهد العالم في القرون الثلاثة الماضية بخاصة محاولة الغرب فرض حضارته بقوة السلاح من خلال احتلاله لأوطان الآخرين واستعمارها ومكمن العلة هنا هو أن الفكرة التي سيطرت على الغرب وهو يقوم بذلك هي فكرة وحدانية حضارته واعتبار الآخرين برابرة استمرارا للمفهوم الاغريقي ولابد أن نلاحظ ـــ والكلام للدكتور الدجاني ـــ الصلة بين المحاولة والرغبة في التحكم في الآخرين واستغلالهم اقتصاديا . وهكذا رفع الغرب شعار التحديث بمعنى

(*) حوار اجراه صلاح توفيق لصحيفة العرب ونشرته يوم ١٩٩٠/١١/١٢

التغريب . وقد صدرت أصوات مفكرين غربيين تحذر من تحكم هذه الفكرة وتدمغها بأنها خاطئة .

لقد أكدت مجريات الأحداث في دائرتنا الحضارية والدوائر الحضارية الأخرى أن التغريب أو التحديث بمفهوم الغرب ينتمي دوما إلى الفشل الذريع والى سقوط رموزه ، أن الآفاق رحبة أمام تفاعل صحيح بين الحضارتين العربية الاسلامية والغربية يتم في اجواء الرضا والسلم وعلى أساس من الندية ، وينطلق من فكرة تعدد الحضارات وضرورة تعارفها واسهامها جميعها في بناء حضارة عالمنا الحديث .

الموقف الغربي العدائي

ـ ماهو تفسيركم لما يحدث في الخليج على المستويين العربي والعالمي ؟

● نعم هناك صعيدان للأزمة الراهنة في الخليج .. فهي على الصعيد العربي أزمة عربية بدأت بين قطرين عربيين ولم تلبث أن شملت اقطارا أخرى عربية ، وذلك اثر اجتياح الجيش العراقي الأراضي الكويتية في الثاني من أغسطس الماضي واعلان الحكومة العراقية ضم تلك الأراضي ومضمون الأزمة هنا متعدد الجوانب ، فهناك جانب العلاقة بين قطرين عربيين متجاورين ، وكيفية التعامل مع خط الحدود القائم بينهما الذي تم رسمه كحد سياسي فاصل اثر سيطرة بريطانيا على ذلك الجزء من وطننا العربي وعدم جواز استخدام القوة في فض المنازعات ، وهناك العلاقات العربية في المنطقة وما يتصل بها من علاقات دولية ، وهناك جانب النظام العربي ، وهناك أيضا جانب المعاناة التي تصيب قطاعات واسعة من الأمة بفعل الأزمة .

أما الأزمة على الصعيد العالمي ، فهي ذات جوانب متعددة أيضا حيث فتحت ملف الموقف الغربي العدائي للأمة العربية جمعاء ، والتحالف الغربي الصهيوني الاستراتيجي تعبيرا عن هذا العداء ، كما فتحت ملف العداء الحضاري الغربي للحضارة العربية الاسلامية ، وهناك جانب يتعلق بموقف الغرب في الشمال من دول الجنوب مجتمعة ، وقد فتح ملف الشمال الغني والجنوب الفقير ، وهناك جانب الخلل في النظام الدولي القائم وجميع هذه الجوانب هي التي سرعان ماجعلت أزمة الخليج أزمة عالمية ومعلوم أن الأزمة العالمية تحدث تعبيرا عن وجود خلل في النظام العالمي القائم .

اسباب الأزمة

ــ د. الدجاني دعنا نقترب اكثر من الأزمة .. هل أمريكا على استعداد للمغامرة في الخليج خاصة وأن تجربة فيتنام قد تركت اثرا في الرأي العام الامريكي حتى وقتنا هذا ؟ وأين تقفون من الرأي القائل أن نية الغرب القضاء على القوة العراقية .. استنادا الى الحملات الاعلامية التي واجهها العراق قبل احداث الخليج ؟

● كلما تتالت الأيام كلما اتضح بصورة أفضل الأسباب التي أدت الى نشوب الأزمة ، وقد حرصت كدارس للتاريخ منذ بدايتها على أن اقرن الحديث عن أسبابها المباشرة بالأسباب الكامنة التي أخص من بينها توجه الغرب عامة والولايات المتحدة وبريطانيا بخاصة للقضاء على القوة العسكرية لثلاث من دول المنطقة حينما أوشكت الحرب العراقية الايرانية على الانتهاء ، وهذه الدول الثلاث هي العراق وايران وسوريا . ولقد رأينا كيف اتخذت قمة الدول الصناعية السبع قرارها عام ١٩٨٦ في طوكيو بمحاصرة سوريا إقتصاديا ثم رأينا

قرار هذه القمة قرار عام ١٩٨٨ في فيينا الذي يمنع دول العالم الثالث من تصنيع السلاح المتقدم وبخاصة الصواريخ متوسطة المدى واستهداف التعاون العراقي المصري الأرجنتيني على هذا الصعيد ، ولفت انتباهنا الاعلام الغربي الامريكي البريطاني بخاصة وهو يصعد دعاياته تجاه حظر السلاح المتقدم في هذه المنطقة وهذه الدول ، كما لفت الانتباه الاسهام الصهيوني في هذه الدعايات وهكذا يتضح أن الولايات المتحدة بخاصة والغرب بعامة يستهدف القضاء على القوة العسكرية النامية في أي بلد عربي وتنمية القوة الاسرائيلية في الوقت نفسه ، وذلك تحت ما يسمى بالنظام العالمي الجديد الذي يسعى الغرب الى فرضه في عالمنا ، وقد تساءلنا عن الجديد حقا في هذا النظام العالمي فوجدنا أن الجديد فيه محصور من نقطة الاتفاق الذي تم مع الاتحاد السوفييتي حول اعتماد الوسائل السلمية في التعامل بين العالم الأول والعالم الثاني وانتهاء الحرب الباردة وكل ماعدا ذلك قديم هو جوهر النظام العالمي الذي قام في يالطا ١٩٤٥ وجذوره في فرساي عام ١٩١٩ وهو نظام يفتقد العدل ويقوم على أساس التحكم في دول العالم الثالث .

ويضيف د. صدقي الدجاني في معرض اجابته على نفس السؤال : لاشك أن الولايات المتحدة تجري حسابات دقيقة حول الخطوات التي ستتخذها بعدما اتخذته من خطوات حتى الآن وتدخل في هذه الحسابات مايمكن أن يصيبها من خسائر بشرية ومادية اذا لجأت الى القوة العسكرية لتدمير قوة العراق الردعية كما يدخل في هذه الحسابات طول المدة المحتملة لحرب تندلع . وما يحدث اثناء ذلك من تداعيات ومضاعفات على مختلف الأصعدة ، وقد غلب الرأي الذي ينصح الولايات المتحدة ومختلف أطراف الأزمة بنزع الفتيل المشتعل وضبط النفس والتوجه لتكثيف التحرك السياسي والذي يقول بإمكانية الحل النابع من المنطقة . ومع ذلك هناك قوى قوة تريد التصعيد داخل الولايات المتحدة

والصهيونية العالمية ككل وفي المنطقة الأمر الذي يجعل اصحاب الرأي الأول متحسبين للمغامرة ولعل ما يساعد هؤلاء على أن يمنعوا المغامرة أن يعتنوا بدراسة الأوضاع الداخلية الأمريكية والعلاقات الامريكية الأوروبية ليحسنوا ادارة الأزمة وليمارسوا بدورهم ضغوطا تحمي المنطقة والعالم من نتائج المغامرة .

ـــ ماهي الأهداف الحقيقية التي دفعت امريكا الى حشد قواتها في منطقة الخليج بهذه السرعة الفائقة وبهذا الحجم ؟

● ذكرنا هدفاً أساسيا هو العمل على ضرب القوة العسكرية النامية في بعض دول المنطقة ، واحتواء القوة العسكرية العربية والاسلامية بعامة ، وهناك هدف آخر هو تمكين القبضة الامريكية على النفط العربي وهناك هدف ثالث هو اختبار التوجهات الامريكية لاقامة النظام الدولي الجديد الذي يتحكم فيه القطب الامريكي الأوحد .

ـــ كيف ترون الموقف السوفييتي اتجاه أزمة الخليج ؟

● هو موقف متحرك تحكمه ضوابط معينة ، ولكنه قابل للتغيير في الوقت نفسه بفعل ما تأتي به الأزمة من تداعيات ومضاعفات .. أهم ضابط فيه هو حرص الاتحاد السوفييتي في هذه المرحلة على عدم مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية ،والحفاظ على التفاهم الذي قام بينهم وأهم عامل في تطويره هو تطلع الاتحاد السوفييتي الى أن يتنامى دوره في السياسة العالمية وتزداد نسبة مشاركته فيها حتى تتجاوز الحد الذي حددته الولايات المتحدة لهذه المشاركة ضمن نسبة ضئيلة، وواضح أنه كلما طالت الأزمة كلما بدا هذا التطور اكثر وضوحا وواضح أيضا أن هناك عناصر تنمي هذا التطور أو تضعف منه من بينها العلاقات السوفييتية الأوروبية إذ أن بروز مواقف أوروبية تحاول الخروج

من قبضة الولايات المتحدة يشجع الاتحاد السوفييتي على مزيد من التطوير .. كما أن حدوث تفاهم عربي سوفييتي حول العلاقات العربية السوفييتية القائمة على المصالح المتبادلة يساعد على ذلك .

أزمة قيم

ــ المعايير التي تعاملت بها امريكا مع أحداث الخليج تختلف مع المعايير التي تعاملت بها مع القضية الفلسطينية .. كيف تفسرون ذلك ؟

● باختصار شديد التفسير هو أزمة القيم التي تحكم الحضارة الغربية بعامة والتي تؤدي الى الكيل بكيلين أحدهما مع النفس والآخر مع الآخرين وهذه الأزمة هي وراء الخلل القائم في النظام العالمي الذي فرضه الغرب ، ويتجلى هذا الخلل على مختلف الصور الاقتصادية والعسكرية وحقوق الانسان الى آخره ، ولقد رأينا كيف تقرر الدول الصناعية السبع تصنيع الأسلحة المتوسطة المدى في دول العالم الثالث بينما تتيح ذلك لنفسها ، وأن خربت كوكب الأرض بأسلحة الدمار التي تصنعها والفضاء المحيط به أيضا ولعل من هم النتائج غير المتوقعة لأزمة الخليج أنها سلطت الأضواء على هذا السلوك المشين الذي يعتمد معيارين ، وهكذا سمعنا أصواتا غربية تنبه الى ضرورة تلافي في ذلك . ولكن لابد من الاشارة الى حقيقة أن هذه الأصوات لاتزال تتلجلج في قول الحق وتتردد في اعتماد المعيار الواحد .

الجنسية القطرية

ــ أثارت أزمة الخليج عددا من القضايا الهامة .. ومن هذه القضايا

مسألة توزيع الثروة العربية ، والربط بين أزمة الخليج وحل القضية الفلسطينية .. وهي أمور تثير جدلا واسعا في أوساط المثقفين العرب .. فما رأيكم فيما هو مطروح بالنسبة للقضيتين ؟

● أتمنى أن يشهد وطننا العربي نهوض المفكرين العرب بواجبهم في هذه الفترة لينيروا الطريق أمام دائرة المثقفين التي يقفون في مركزها .. والحق أن أزمة الخليج تدعو الى وقفة مراجعة للنظام العربي بجميع ابعاده الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وعلاقاته بدول الجوار وتطويره ليكون نظاماً عربيا تحكمه قيم الحضارة العربية الاسلامية شاملا دائرتها الحضارية بمجملها كما كان عليه الحال قبل الغزوة الاستعمارية الغربية ، والأفكار كثيرة ومن بينها فكرة تطبيق مبدأ المواطنة العربية ومعالجة الآثار السلبية الخطيرة لمفهوم الجنسية القطرية ، وماترتب على هذا المفهوم من المساس بمقدرات الأمة وقطع أوصاله ونحن نرى اليوم وكلنا ألم على صعيد الاجراءات المتخذة بسبب الأزمة مساس بروابط الأخوة بحجة الأمن والحفاظ عليه على الرغم من أن كل النظريات التي يقوم عليها الأمن القطري اسقطتها الأزمة ، ثم مانراه على صعيد دعايات اعلام الأزمة من استهداف الذين يتولون هذه الدعايات شعوبا عربية بكاملها بحملات عنصرية تنتهك قيمنا الروحية واعلان حقوق الانسان ، والحديث على هذا الصعيد الفكري يستحق أن يتابع .

ادارة الأزمة

بقي أن أقول ، والحديث مازال للدكتور الدجاني : انني لم أبدأ الحديث عن الربط لأن هذا المصطلح مثل كثير من المصطلحات التي تتردد في لغتنا السياسية اليومية ، جاءنا من الغرب بشكل يجعلنا نختلف حوله بينما لو نظرنا في

الوضع القائم لرأينا أن قضايا المنطقة مترابطة اشد الترابط فما من قضية الا وتتبادل التأثير مع الأخرى ، ثم لرأينا أيضا أن التقدم في طريق حل أي منهما يؤثر ايجابيا على حل القضايا الأخرى .. ضمن هذا المفهوم أقول أنني لايمكن أن أرضى بتأجيل الوصول للحل العربي للأزمة اذا اوشك التوصل اليه في انتظار حل القضايا الأخرى ، وأنا أدير الأزمة في هذا الموقف أو ذاك هو من حقيقة انتمائنا جميعا الى دائرة عربية واحدة ، ولعل الشعار الذي يجب أن يرفع بدلا من استخدام ذلك المصطلح الذي جاءنا من الآخر هو أن نحسن ادارة الأزمة لحل جميع قضايانا ولكي نصل إلى نظام منشود الى منطقتنا ونسهم في نظام عالمي أساسه العدل .

الجامعة والنظام الأمني

ـــ الإنسان العربي .. وعجز الأنظمة العربية عن مواجهة الأزمة .. كيف ترونه ؟

● ان حديثنا عن وقفة مراجعة وتفكر وثيق الصلة والحقيقة أن الأزمة كشفت عن جوانب الخلل الموجود في النظام العربي وفي الأنظمة الأمنية التي اقترنت به ويلفت النظر أننا لانرى نظاما أمنيا واحدا في منطقتنا ، بل نرى أنظمة متضاربة مفروضة في الغالب من الخارج فالتحالف الاستراتيجي الاسرائيلي الأمريكي نظام أمن استعماري استيطاني عنصري للتحكم في المنطقة ككل ، وعضوية بعض دول الجوار في احلاف خارجية مثل تركيا نظام أمن آخر .

والجامعة العربية لم تستطع أن تقيم نظام أمن عربي ، وأنظمة الأمن المرتبطة بالمجالس الاقليمية ثبت عجزها . فاملأر وباختصار يقتضي وقفة المراجعة الشاملة ،

وتوجهنا في هذه المراجعة الشاملة محكوم بروح عقيدتنا فنحن أمة تقرأ آيات سورة الانشراح « فان مع العسر يسرا وأن مع اليسر عسرا » وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يغلب عسر يسرين » . كذلك نحن أمة تردد القول المأثور .. اشتدي أزمة تنفرجي ، والحق أن منطقتنا والعالم في لحظة تاريخية الفرصة فيها مواتية لاقامة النظام فيها على أسس صحيحة في مقدمتها العدل .

« حول الفكر العربي والأزمة »(*)

لأن الدكتور أحمد صدقي الدجاني ، مشغول بتتبع ورصد ثوابت ومتغيرات الفكر السياسي العربي ، ومحاولة استيعابها وفهمها في ضوء مايمر بنا من أزمات ، فقد جاءت الأزمة الحالية ــ الخليج ــ لا لتحدث تغييرا أو تأثيرا ببعض هذه الثوابت أو تلك المتغيرات ، وانما لتسقطها تماما ، وكلها مرة واحدة ، كما قال احد خبراء السياسة .

ــ لذلك قلت : لماذا مع كل أزمة جديدة ، وما أكثر أزماتنا ، نعود لنبحث عن ثوابت جديدة ، بعد أن تكون التي قبلها قد سقطت تماما .. أين الخلل بالضبط ، في الفكر السياسي الذي لم ينضج ، أم في الدول التي تتعامل مع هذا الفكر ، أم في كليهما معا ؟!

● قال : هذا ما يبدو على السطح ، فيتراءى للمرء أن الثوابت ، كل الثوابت في الفكر السياسي العربي قد سقطت بفعل الأزمة ، وأن العرب يبدأون من جديد ، وهذا أمر مفهوم لأنه نابع من طبيعة الأزمات ، ومتوقع حين تحدث وتتفاقم أن تظهر في اطارها ردود فعل حادة ، ويزيد من قوة هذه الظاهرة ما يقترن بالأزمة من « دعايات اعلام الأزمة » في عالمنا المعاصر الذي

(*) حوار اجراه سليمان جوده لجريدة الوفد ونشرته يوم ١٩٩١/١١/١٥

يعاني من وقوع كثير من وسائل الاعلام في أسر هذه الدعايات ، ولكن لا يلبث الأمر ان يتغير ، وتبدو صورته الحقيقية ، من خلال النظرة التي تسبر اغوار الأزمة وتتجاوز السطح . ولعل هذا يدعونا أن نحسن التعامل مع الأزمات حين تحدث ، بأن نعتمد على المعالجة الموضوعية التي يجب أن تأتي قبل الوقوع في أسر التمزق . إن حاجتنا تشتد خلال الأزمات الى اعمال الفكر ، والانطلاق من روح عقيدتنا ، التي توجهنا إلى العمل كي تنفرج الأزمة ! لقد دخلت أزمة الخليج شهرها الرابع ، وما عاد ممكنا أن نبقى في إطار ردود الأفعال ، فلابد من أن ننتقل الى ارادة الفعل ، ونُعمل منطق العمل ، وهذا سيقودنا حتما الى استذكار الثوابت في فكرنا السياسي العربي .

اعلام الأزمة

ـــ ماذا تقصد بدعايات اعلام الأزمة ؟

● من الظواهر التي تلفت النظر في عالمنا المعاصر ، بصورة عامة ، ظاهرة اعلام الأزمات ، على حد تعبير المصطلح الذي يطلق عليه في الغرب ، والمقصود به هو انعطاف وسائل الاعلام في عصر ثورة الاتصال الى اثارة القارىء والمشاهد والمستمع بسبل مختلفة لشد انتباهه وربطه ، وقد وضح أن لهذه الظاهرة أثارها الجانبية الخطيرة في طريقة التعامل مع الأحداث ، هذا بصورة عامة ، فإذا جئنا لأزمة بعينها كأزمة الخليج ، نجد أنه ضمن اعلام الأزمة ككل تتردد وسط المعاناة التي حدثت دعايات مغرضة موجهة تقوم بها الأطراف المتصارعة في الأزمة ذاتها ، تجاه بعضها بعضا ، وأبرز ما يلفت النظر في هذه الدعايات أنها تستند الى التعميم وتمس المقدسات والحرمات وتركز على اثارة مشاعر التعصب والاقتتال بين الأخوة ، فيحدث التحول من القضية

الكلية الى قضايا جزئية تتبدد فيها الطاقات كما أنه يلاحظ أن هذه الدعايات تخلق في بعض الاحيان في اطار روح الجماعات نوعا من الحمى ، فتؤدي إلى افعال تمس القيم الأساسية للأمة ، وتقطع ما أمر الله به أن يوصل .

لقد رأينا كيف أن اجتياح الجيش العراقى للكويت ، قد أدى الى معاناة الكثيرين ، ثم رأينا ان دعايات اعلام الأزمة قد أدت الى تفاقم هذه المعاناة ، وسببت من العذاب النفسى للمستهدفين بها ، وهم جميع أبناء الأمة الشيء الكثير ، واقترنت دعايات اعلام الأزمة بالإجراءات ، التي تتخذ إبان الأزمات ، وهذه بدورها تسبب الكثير من العذاب المادي ، وكلاهما ــ الدعايات والاجراءات ــ تقعان في أطار رد الفعل ، ويكفي أن نتابع مايحدث هذه الأيام ، فيما يخص أبناء أمتنا لنرى كيف تستشرى مشاعر القطرية الاقليمية ، وكيف يضار بسببها الملايين ، ممن يعدون من هذا القطر أو ذاك ويفصلون من اعمالهم ، فيصيبهم الضرر تماما كما يصيب البنية الأساسية في وطننا . والأمر الذي يبعث على الأسى أن تتم هذه الدعايات والاجراءات تحت حجة الحفاظ على الأمن ، لأن المفارقة هنا أنها ستؤدي في حقيقة الأمر الى الحاق اشد الأذى بالأمن .

قلت: ان هذه الاجراءات وتلك الدعايات الاطار العام الذي تجريان فيه، سوف تؤدي جميعها ، الى تغيير سياسي جزرى في النظام السياسي العربي ، وهذا التغيير لم تبد ملامحه للعين المجردة حتى الآن ، ولكننا يمكن أن نستشفها ببعض التحليل ؟

ــ التغيير الذي سيحدث متوقف على تفاعل عاملين رئيسيين ، احدهما خارجي ، والآخر عربي متعلق بنا وبأيدينا ، ونستطيع من خلال هذا العامل الأخير أن نجعل التغيير في صالحنا ، وأي رؤية مستقبلية لاتدخل عامل ارادة

الفعل وتطلعات الأمة واحلامها في اعتبارها . هى رؤية قاصرة .

لابد ان نتمسك بفكرنا السياسي العربي ، وهو انتماؤنا جميعا الى دائرة واحدة تضم كل الأطراف المتصارعة في هذه الأزمة ، إذ أن هذه الأطراف التي يحتدم الصراع فيما بينها تواجه جميعها، وفي وقت واحد، خطراً خارجيا يتهددها كلها ان أهل مكة ادرى بشعابها ، وقد اثبتت ازمات وحروب نشبت واندلعت في داخل دائرتنا العربية الاسلامية ، انه ما أسرع أن ينتهي الخلاف بيننا مهما بلغت مرارات المعاناة .

هذا التوجه يقتضي الا ينقطع حبل الحوار بيننا بحال من الأحوال ، بحيث نوجد نحن الحل لهذه الأزمة .

أمن .. وأمن

ــ كيف ذلك ، وقد عجز الأمن العربي على كل أصعدته ، الاقليمي والقومي والقطري ، عن مواجهة الأزمة والتعامل معها في حينها ؟!

● **لقد كشفت الأزمة حقا ، على صعيد دائرتنا العربية عن خلل** كثير في مجالات عدة ، والتغيير يجب أن يكون علاجا لهذا الخلل ، فقد بدا واضحا عجز أنظمة الأمن الموجودة في المنطقة ، وهي بالمناسبة ليست نظاما واحدا ، وجميعها من مخلفات عهد السيطرة الاستعمارية ، فالأمن القطري اثبت عجزه ، وأمن التجمعات الأقليمية كذلك ، وبدأ النظام العربي بلا نظام أمني فعال ، عاجزا عن فعل أي شيء في اطار جامعة الدول العربية ، كما بدأ الخطر من ارتباط بعض دول المنطقة بنظام أمن خارجي متربص بها .

لابد إذن من أفكار جديدة تحقق التغيير على صعيد أمن المنطقة ، وتخلق

نظامها القادر على حفظها وحفظ السلام العالمي .

كذلك بدا الخلل على صعيد الشورى والديمقراطية ، وعلى صعيد « المواطنة » العربية حيث تنتهك حقوق هذه « المواطنة » على الرغم من أن جميع الدول العربية تقرها من حيث المبدأ ، ولكنها لم تقننها ، الأمر الذي أدى الى نتائج وخيمة ، وأيضا على صعيد حقوق الانسان ، وبالفظاعة ملف انتهاكات حقوق الانسان اثناء الأزمة .

لقد آن أوان المراجعة ، ونحن مدعوون لتغيير كل ذلك .

إن المثل الصيني يقول : ان الأزمة تعني مخاطر وفرصا »، وهي في لساننا العربي تشير الى طريق في مضيق الوادي ، إذا تم عبوره ، جاء الفرج ، فلنبذل قصارى جهدنا للخروج من هذه المحنة ، ومحو كل خلل كشفت عنه هذه الأزمة ، وخاصة خلل العلاقات العربية ، والعلاقات العربية مع العالم الخارجي .

جوهر الصراع

ـــ اذا كانت هذه المحنة سوف تمتد باثارها ، وظلالها ، على كل العالم العربي ، فإن فلسطين جزء من هذا العالم ، أو بمعنى آخر القضية الفلسطينية ، وأنا أرى أن تأثر القضية الفلسطينية بما حدث ، ومستقبلها ، مرهون بعاملين : موقف منظمة التحرير من الأزمة ، ثم مذبحة المسجد الأقصى ، ما رأيك ؟

● أكدت الأزمة ، فيما اكدت ، ان قضية فلسطين هي جوهر الصراع القائم بين أمتنا والتحالف الاستعماري الصهيوني ، وأن هذه القضية تسبب فيما تسبب نشوب صراعات عربية عربية ، وأستطيع أن أجمل ما كشفته الأزمة في هذا الاطار في حقائق استراتيجية .

الأولى : ان قيمة الكيان الصهيوني ، كقاعدة استراتيجية غربية ، لحماية مصالح الغرب النفطية ، ليست كما تصورها المخططون الغربيون ، أو لم تعد كذلك .

الثانية : ان عبء هذه القاعدة على كاهل الغرب ، وتهديدها لمصالحه في المنطقة ، وتأثيرها السلبي على النظام العالمي أكثر من أن يحتمله موجدوها . ويكفي ماكشفت عنه الأزمة من أن النظام العالمي يسير وفقا لمقاييس في الشرعية الدولية ، الأمر الذي افقد هذه الشرعية صدقها ، وهكذا تأكد أن كل مرة مارست فيها الولايات المتحدة حق النقض لصالح الكيان الصهيوني ، كانت بمثابة معول في تهديم النظام الدولي .

الثالثة : ان الحاجة ملحة لنظام عربي قوى في المنطقة ، ولقيام مصر بدور متميز فيه ، وهو أمر يدلل على خطأ السياسات الأمريكية التي عملت بدفع من الصهيونية على عزل مصر عن اشقائها ، وعلى اضعاف النظام العربي وصولا إلى انهائه والقضاء عليه .

الرابعة : ان روح الانتفاض في الوطن المحتل وثابة لا يوقفها شيء ، وقد دخلت الانتفاضة يومها الألف مؤكدة قدرتها على الاستمرار وصمودها امام انفراد القوة الغاشمة الاسرائيلية بها ، في محاولة يائسة لقمعها دون جدوى ، ويقينا فإن روح الانتفاض هذه كامنة في الأمة كلها ، ولابد أن تحسب حسابها القوى الدولية .

كل هذه الحقائق استطاعت أن تبدد الغيوم التي خيمت بسبب ماتعرضت له العلاقات الفلسطينية مع بعض اطراف الأزمة العربية من اهتزاز ، حاولت دعايات اعلام الأزمة ان تزيد فيه ، وتصل بهذه العلاقات الى القطيعة ،

وجاءت مذبحة المسجد الأقصى وما تلاها من بطولات الانتفاضة لتذكر الجميع بجوهر الصراع ، ولتبدد الكثير من سوء فهم موجود عند بعض اطراف الأزمة ، بشأن ما اسماه البعض بربط حل أزمة الخليج بحل قضية فلسطين ، لأن حقيقة الأمر تشير الى أن الصلة بين قضايا أمتنا كانت دائما قائمة ، وأن التقدم لحل احداها يحقق تقدما لحل القضايا الأخرى ، ولا يعنى هذا بالذات أن يرهن حل قضية ، بحل تلك القضايا الأخرى اذا كان حلها ممكناً .

الصراع يصبح عقيدياً

دخلت إنتفاضة شعب فلسطين العظيمة عامها الرابع . وهذه مناسبة لوقفة مستقبلية تمتد فيها ببصرنا نحن أبناء الأمة العربية بخاصة وأبناء دائرة الحضارة العربية الإسلامية بعامة لرؤية ماسيحدث من خلال التشوف والاستشراف ، كي نحدد ماينبغي علينا عمله وفاءً بواجبنا نحو فلسطين والقدس، ونبادر الى «الفعل» و«اقتحام العقبة» و« الكدح» ، مستعينين بالله « الفعال لمايريد » الذي هدانا النجدين ووعدنا بأن نلقى كدحنا وبأن يفوز المجاهدون بإحدى الحسنين ويجيء النصر .

عشت مع هذه الذكرى على مدى شهر في عدة مناسبات . فشاركتُ في مناقشةِ التقرير الاستراتيجي الذي يصدره مركز الدراسات الإستراتيجية بالأهرام في الندوة السنوية التي يعقدها لهذا الغرض مركز الدراسات السياسية بجامعة القاهرة وكان موعدها هذه السنة يومي ١٧ و١٨/١١/٩٠ وقد خصص أحد محاورها للصراع العربي الصهيوني والانتفاضة ، وتناولتُ موضوع ماينبغي عمله في محاضرتي عن « الصراع العربي الصهيوني » و« أزمة الخليج » التي ألقيتها بدار الندوة ببيروت يوم ٢٦/١١/٩٠ واغتنيت بالحوار الذي دار حولها وبما جاء فيه عن الانتفاضة . وكانت الإنتفاضة حاضرة بما أوجدته من حقائق في افتتاح المؤتمر الرابع للعلوم السياسية بجامعة القاهرة والحوار الذي دار مع

الأخ الدكتور عصمت عبد المجيد بعد القائه الخطاب الإفتتاحي ، ثم في الحوار الذي دار في أعقاب محاضرتي العامة حول «مستقبل الصراع العربي الصهيوني بينما يعيش وطننا العربي هذا العالم المتغير » يوم ١/١٢/٩٠ . وشاركت أيضاً في ندوة نقابة أطباء مصر التي انعقدت بدار الحكمة في القاهرة يوم ١٤/١٢/٩٠ ضمن مؤتمر لدعم الإنتفاضة نظمته قيادتها . وتفرغت ساعات للقاء عدد من الأخوة الأعزاء القادمين من الضفة والقطاع ، ولقراءة تقارير إسرائيلية صدرت بمناسبة مضي ثلاث سنوات على الإنتفاضة . واستحضرت ماضمنته كتابي « الانتفاضة وادارة الصراع » الذي دفعت به الى المطبعة وهوثالث كتبي عن الإنتفاضة .

* * *

سؤال يبرز أمامنا في بداية هذه الوقفة المستقبلية بمناسبة دخول الانتفاضة عامها الرابع ، هو « كيف نقرأ الانتفاضة قراءة صحيحة ؟ » وبماذا نخرج من هذه القراءة ؟ »

إن القراءة الصحيحة للإنتفاضة ضرورة لعملية الإستشراف والتشوف والرؤية ومن ثم صنع المستقبل . والقراءة في اللسان العربي تعني مقارنة الأشياء بعضها ببعض . وهذه المقارنة هي التي تمكن من وضع اليد على العناصر المكونة والعوامل الفاعلة والتمييز بين ماهو ثابت وماهو متغير والوقوف أمام التطورات الحادثة في المناخ السائد والتعرف على حال الأمة . وفعل قَرَأَ عند « ابن فارس » صاحب « مقاييس اللغة » مشتق من فعل قرن ، وقد اشتق لفظ القرآن منهما ، ويُفرِّق العلماء بين القراءة والتلاوة ، فالأولى تعنى الفهم وتركز عليه من خلال المقارنة والأخرى تركز على الترتيب . وقد دار الحوار حول كيفية قراءة الانتفاضة في ندوات انعقدت فطرحت عدة أفكار لعل أهمها تلك

التي تؤكد على ضرورة تتبع حركة الناس وأخذ التحرك الجماهيري في الاعتبار والحسبان في أي تحليل سياسي لأن الاقتصار على تتبع مايجري على الصعيد الرسمي لايُمكّن من الرؤية الشاملة . وهذه الفكرة تدعونا إلى أن نعنى « بتاريخ الأفكار » ورصد تكوُّن « التيار الغالب » الذي لايقف في طريقه شيء حين يتدفق . والحق أننا لو طبقنا هذه الفكرة وقرأنا فترة ثلاث سنوات من الانتفاض مقارنين بين ماقبل الانتفاضة وما في زمن الانتفاضة لرأينا حقيقة كون الإنتفاضة التعبير الأقوى عن بداية الصحوة في مواجهة الغزوة الصهيونية الإستعمارية ، ولأحطْنا بما حققته على مختلف الصعد في الصراع العربي الصهيوني .

لقد صدرت عدة تقارير عن أحداث الانتفاضة في ثلاثة أعوام بمناسبة حلول يوم ٩/١٢/٩٠ ، نقف فيها أمام إحصاءات تتعلق بروح الإنتفاض ، فوجدت مركزاً إسرائيلياً تابعاً للمستوطنين الصهاينة قد حصر ٢٢٢١٨ عملية رشق حجارة ومظاهرات وإقامة حواجز على الطرق و١٥٧ هجوماً بالأسلحة النارية و٣٤٩٥ عملية إلقاء زجاجات حارقة و٣٢٣ عملية عبوات ناسفة و١٠٠٤ حرائق متعمدة . ووجدتُ أن المصادر الفلسطينية حصرت عدد الشهداء الذين قضوا نحبهم في سبيل الله فبلغ ١٣٩١ شهيداً وعدد الجرحى المصابين فبلغ ٨٥٠٠٠ . واستحضرت ما حققته روح الإنتفاض في مجتمعنا العربي الفلسطيني على صعيد العمل المؤسسي في مختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والثقافية فوجدت إنجازات مباركة ترهص بولادة جديدة للصحوة . وتشوقت لسماع مايقوله أهلنا الذين جاءوا من الداخل عن المناخ العام السائد هناك ، فوجدت أنهم يقولون « لارجوع وسنمضي في طريق الانتفاضة حتى نحرر الوطن والمقدسات ونتغلب بإذن الله على كل الصعوبات » .

إن ما نخرج به من قراءة الإنتفاضة في هذه الوقفة المستقبلية ، هو أن عام الانتفاضة الرابع سيكون بإذن الله عام « الاستمرار والتصعيد والشمول » .. استمرار الانتفاضة وتصاعدها وشمولها . فهذا ماقرره الشعب المنتفض ، وعلى المسؤولين في الأمة أن يرتبوا أمورهم على هذا الأساس ويضعون هذا الأمر في اعتبارهم في ضوء حقيقة أن الأمة متجهة إلى أن يكون عام الانتفاضة الرابع أيضاً بإذن الله عام « التلاحم بالانتفاضة » ، بعد أن ظهرت بدايات هذا التلاحم في السنوات الثلاث الماضية في عدة صور على الصعيد الشعبي .

* * *

سؤال آخر يبرز أمامنا في هذه الوقفة المستقبلية هو

« ماذا سيكون عليه توجه عدونا التحالف الصهيوني الاستعماري في العام الرابع ؟ »

أن توجه الطرف الصهيوني في هذا التحالف واضح لا لبس فيه أكدته تصريحات وسياسات وممارسات صهيونية . ويكفي أن نقف أمام تصريح اسحق شامير يوم ١٩٩٠/١١/١٨ ، من بين تصريحات أخرى كثيرة ، الذي أطلقه في اجتماع مؤسسي حركة ليكود وقال فيه « إن قادة حزبنا السابقين تركوا لنا رسالة واضحة أن نسيطر على « أرض إسرائيل !! » من البحر المتوسط الى نهر الأردن ، من أجل مستقبل الهجرة الجماعية والشعب اليهودي الذي سيتجمع معظمه في هذه البلاد » ، لنرى بعد تحليل مضمون التصريح ومكان إطلاقه وتوقيته أن عدونا الصهيوني ماضٍ في عدوانيته سادرٌ في غيِّه يحاول الهرب من مواجهة الحقائق التي أوجدتها الإنتفاضة بالمضي قدماً في طريق مسدود . ويكفي من بين السياسات أن نشير إلى سياسة التهجير الصهيوني ليهود الاتحاد السوفييتي التي يجرى تنفيذها بإصرار على الرغم مما تسببه من

مضاعفات داخل التجمع الاسرائيلي وقد عهد بالتنفيذ الى رموز إرهابية إسرائيلية في مقدمتهم اريبل شارون ، لنرى أن عدونا الصهيوني متابع حشد يهود أوطان أوروبية في حملته الصهيونية الجديدة على وطننا العربي . ويكفي من بين الممارسات أن نقف أمام ماكشف عنه العدو الصهيوني في مناقشات الكنيست يوم ٩٠/١٢/١٢ من اعتماد اسلوب جديد لقمع الإنتفاضة يقوم على « نشر الجيش الاسرائيلي قناصة من أفراده على مسافات بعيدة من رماة الحجارة وإطلاق النار على سيقان الفلسطينيين » ، وتسليح أربعين ألف مستوطن صهيوني في اطار ماأسماه يعقوب تيريز مفتش البوليس الاسرائيلي « الحرس المدني للمساعدة في مواجهة ، الانتفاضة » . وهذا يعني أن عدونا الصهيوني سيغرق في ممارسات الارهاب الرسمي وغير الرسمي . وقد جاء اغلاق سلطات الاحتلال مدينة القدس أمام أبناء فلسطين يوم ١٩٩٠/١٢/١٦ لاتاحة الفرصة للمستوطنين الصهاينة كي يقوموا باحتفال عدواني ، دليلاً آخر على هذا التوجه الصهيوني ، ومثله جاء قرار إبعاد أربعة من قيادات الاتجاه الاسلامي في الانتفاضة في الأسبوع نفسه .

لايزال توجه الطرف الاستعماري في « التحالف الصهيوني الاستعماري » هو هو ونحن في بداية العام الرابع للانتفاضة ، الى متابعة خط سَيْره الذي يمكن الاحتلال الاسرائيلي للأراضي الفلسطينية والعربية من الاستمرار ومشاغلة الدول العربية بعملية تسوية تستهدف في نهاية المطاف إضفاء شرعية على هذا الاحتلال ومحاصرة منظمة التحرير الفلسطينية بأساليب شتى من ترهيب وترغيب بغية الخلاص منها . ولكن يلفت النظر أن حقائق جديدة أوجدتها الانتفاضة ، وتداعيات أزمة الخليج تفعل فعلها في التأثير على هذا التوجه الأمر الذي يدعو الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا إلى إعادة النظر في بعض أساليبهما للتحرك على صعيد الأمم المتحدة ، وإبراز نقاط

اختلافهما مع الحكومة الاسرائيلية حول تفاصيل لاتمس جوهر تحالفهما الوثيق مع الصهيونية ، والالتفاف حول مايثيره دعمهما للتهجير الصهيوني من ردود أفعال عربية بالتظاهر بتأجيل تقديم بعض المساعدات لاسكانهم . كما يلفت النظر بروز إمكانية هزّ أركان هذا التحالف اذا تأكدت واشنطن ولندن من أن المشاعر العدائية لها تتزايد في الدائرة الحضارية العربية الإسلامية .

★ ★ ★

السؤال الثالث الذي برز أمامي في هذه الوقفة المستقبلية هو « ماهو التحول الرئيسي الذي سيطرأ على الصراع العربي الصهيوني في العام الرابع ؟

طبيعي أن يبرز هذا السؤال بعد الاجابة عن السؤالين اللذين برزا قبله . فالعام الرابع سيكون عام احتدام الصراع بين « انتفاضة مستمرة متصاعدة شاملة » تشد أنظار أبناء الحضارة العربية الإسلامية « وتحالف صهيوني استعماري » مصمم على عدوانه مجاهر بحقده على هذه الحضارة العربية الاسلامية التي ينتمي إليها العرب مسلمين ونصارى .

الدلائل تترى واحداً تلو الآخر لتشير إلى أن الصراع العربي الصهيوني يتحول تدريجياً ليكون صراعاً عقائدياً . فعلى الصعيد الصهيوني أصبحت الهيمنة لمقولة « اليهود والأميين (جويِّم) و« شعب الله المختار » و« أرض التوراة من النيل الى الفرات » و« بناء الهيكل بعد هدم المسجد الأقصى » و« طرد الفلسطينيين أو قتلهم » . وعلى الصعيد الاستعماري تتزايد الحملات الدعائية ضد أبناء الحضارة العربية الإسلامية وتجد أُرضاً خِصبة لها بين أناس ورثوا عقدة حروب الفرنجة وبفعل الإعلام الصهيوني . وقد جاء هذا التحول إلى المجاهرة بالعداء في صفوف التحالف الاستعماري الصهيوني للحضارة

العربية الاسلامية من اعتماد لغة التعايش التي استخدمها للوصول لأهدافه ، بفعل الانتفاضة العظيمة وتداعيات أزمة الخليج .

أصبح واضحاً على الصعيد العربي أن الصراع العربي الصهيوني يوشك أن يستكمل تحوله ليكون صراعاً عقائدياً . فقد بات الاقتناع كاملاً بأن الولايات المتحدة وبريطانيا تستهدفان أمتنا العربية بالعداء وتريدان تمكين الصهيونية العنصرية من الهيمنة على الوطن العربي والتحكم فيه لحسابهما . وذلك بعد أن استنفذت السياسة الغربية الاستعمارية جميع أوراقها التي استخدمتها لفرض التسليم على العرب بالأمر الواقع . وبات الاقتناع كاملاً بأن الصهيونية ماضية في إقتراف جرائمها لاتقبل إلا بالهيمنة الكاملة ولا يحد أطماعها شيء .

لعل أهم مايتضمنه هذا التحول على الصعيد العربي هو أن المضمون العقيدى له يجمع بين أركان الهوية الثلاثة اللسان بما يعنيه من الانتماء الى القوم ، والدين بما يمثله من بعد روحي ، والتاريخ بما يحققه من امتداد زماني . ويلفت النظر أن بعض أوساط العدو الصهيوني تنبهت إلى هذا التحول على الصعيد العربي . وقد اشارت وثيقة صدرت من الخارجية الاسرائيلية يوم ٩٠/١١/١٨ الى « أن استمرار عرقلة المسيرة السلمية واستمرار تصاعد الانتفاضة دون ظهور بوادر للحل السياسي أدى إلى إثبات صدق العقيدة الدينية في رؤية الصراع وتزايد المؤمنين بها». وتوقعت هاآرتس وهي تتحدث عن هذه الظاهرة يوم ٩٠/١٢/٢٩ أن الصراع بين أبناء فلسطين مسلمين ونصارى ضد الاحتلال داخل الوطن المحتل سيتحول الى صراع عقيدي ضد اليهود . والحق أن أبرز مالاحظته في جميع المناسبات التي شاركتُ فيها للاحتفال بدخول الانتفاضة عامها الرابع هو أن الاقتناع بات راسخاً في أعماق أبناء أمتنا بأن عدونا المتمثل بالتحالف الصهيوني الاستعماري يتعامل مع

الصراع العربي الصهيوني على أنه صراع وجود ، وليس أمامنا من ثم إلا أن نعتبره بدورنا صراع وجود الى أن نفرض عليه التسليم بحقوقنا ، وأن لاغنى في مثل هذا الصراع عن المجاهرة بكونه صراعاً عقيدياً . ولعلي أورد أمثلة حية لما رأيت في حديث قادم .

★ ★ ★

نتائج عدة ستنتج عن هذا التحول في الصراع العربي الصهيوني والانتفاضة تدخل عامها الرابع . ولابد أن نأخذها في اعتبارنا ونحن ننظر في هذه الوقفة المستقبلية فيما ينبغي عمله ؛ وفي كيفية إدارة الصراع العربي الصهيوني . وهذه لها حديثها الذي يتناغم مع شعار الانتفاضة المعبر عن روح الانتفاض في زمن الانتفاض « لا رجوع .. ولابديل عن تحرير فلسطين » .

المواجهة على الصعيد العسكري

الإنتفاضة ترفع شعار « لارجوع .. ولابديل عن تحرير فلسطين ، والشعب المنتفض مصمم على تصعيد انتفاضته وتوسيعها ، وأشقاؤه في دائرة الحضارة العربية الإسلامية يتهيأون للالتحام بالانتفاضة . والطرف الصهيوني من التحالف الصهيوني الاستعماري ماضٍ في عدوانيته ، ولم يتحول الطرف الاستعماري بعد عن دعمه وإن بدأ يستشعر أعباء هذه السياسة على مصالحه في منطقتنا . والصراع يصبح عقيدياً وقد جعله عدونا صراع وجود . ومجموعة نتائج تنتج عن هذا التحول في الصراع العربي الصهيوني بعد ثلاثة أعوام من الإنتفاض ، لابد أن نأخذها في اعتبارنا ونحن ننظر فيما ينبغي عمله في عام الانتفاضة الرابع ، على صعيدي المواجهة العسكري والسياسي في إدارة الصراع ، بينما لاتزال أزمة الخليج قائمة .

واضح أن أمتنا اليوم تستشعر أولوية الصعيد العسكري للمواجهة في هذا الصراع العربي الصهيوني ، بعد أن رأت بأمِّ عينها الصهيونية العالمية ماضية في حملة تهجير جديدة لليهود من أوطانهم لتغزو بها وطننا العربي ، متابعةً عملية الاستعمار الإستيطاني ، تشن حرباً لاهوادة فيها على الشعب المنتفض وتحشد لهذه الحرب الجيش الإسرائيلي و« البوليس » وحرس الحدود والفرق الخاصة . **فنحن إذاً في حرب فعلية تدور رحاها على أرض فلسطين المباركة**

وفي جنوب لبنان . وطبيعي والأمر كذلك أن تكون الأولوية للدفاع عن النفس بداية بالوسائل الممكنةمع السعي لتطويرها . وطبيعي أيضاً والأمر كذلك أن تختفي تدريجياً في أوساط الأمة أية مراهنات على « حديث التسوية » الذي دأب الطرف الاستعماري في التحالف على ترديده منذ ثلاثة وعشرين عاماً لإشغالنا عن توفير متطلبات المواجهة على الصعيد العسكري وتمكين حليفة الصهيوني من إحكام القبضة على أراضينا المحتلة .

ماهي حصيلة المواجهة على الصعيد العسكري خلال ثلاث سنوات من الإنتفاض ، وماذا نتوقع لها في السنة الرابعة ؟

● لقد خاضت الانتفاضة على مدى ثلاث سنوات متتالية غمار ماأسماها عدونا الصهيوني الحرب السابعة في الصراع العربي الصهيوني بنجاح ولله الحمد ، وهاهي تدخل السنة الرابعة .واعتمدت من بين الوسائل الممكنة الحجارة والحشد الجماهيري في منازلة جحافل جيش العدو و«بوليسه»، صابرة على متطلبات « الوغى » وإرهاب العدو الرسمي وغير الرسمي، ومتحكمة في عملية ضبط النفس لصالح عملية إدارة الصراع . ولم يكن من غير المتوقع وعدونا يطور أساليبه ووسائل قمعه أن تطور الإنتفاضة وسائلها ، فتستخدم الزجاجات الحارقة السهلة الصنع في مواجهة المصفحات والدبابات ، وتلجأ عند الضرورة « للشبّرية » للرد على عمليات القتل بالرصاص المطاطي والرصاص العادي التي يقوم بها العدو «بالدم البارد». وواضح الآن أن مُضيَّ العدو في عدوانه وقيامه بعدة مذابح في أوساط الشعب الأعزل كان أفظعها مذبحة القدس يوم ١٩٩٠/١٠/٨ ، ومجاهرته بالعزم على « بناء الهيكل » على أنقاض المسجد الاقصى ، واستمراره في حملة التهجير اليهودي كان لابد أن يفرض على الانتفاضة تطويراً جديداً في وسائلها فحدث التوسع في استخدام « الشبرية » ، وبدأ التلويح بالرد على الرصاص بالرصاص . **وإن لنا الآن أن**

نتوقع ماسيحدث ضمن هذا المجرى للأحداث كي نهيء أنفسنا في دائرتنا العربية ودائرتنا الإسلامية له . وما سيحدث ــ بكلمات ــ هو احتدام المواجهة على الصعيد العسكري بين الإنتفاضة والعدو الصهيوني على مدى هذا العام الرابع مع حدوث تطور نوعي في وسائل المواجهة ، داخل فلسطين المحتلة بكاملها .

• **شهد جنوب لبنان في زمن الإنتفاض عمليات مقاومة مباركة** حققت حداً من التكامل مع الانتفاضة . وجاءت مصدقة لما توقعناه من نتائج لحدوث الإنتفاضة في فلسطين . كما كانت استمراراً لظاهرة بداية الصحوة العربية الإسلامية للغزوة الصهيونية التي سيحفظ تاريخنا فضلاً خاصاً لجنوب لبنان فيها . ولو أننا أمعنّا النظر في الخط البياني لعمليات المقاومة المباركة في جنوب لبنان لرأيناه متفقاً في اتجاهه ومتشابهاً في تصاعده مع الخط البياني لعمليات الانتفاضة العظيمة . ولقد لفت النظر أن هذه العمليات حققت قفزتين خلال الشهور الستة الماضية جاءت الأولى مع تجميد الولايات المتحدة حوارها مع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وجاءت الأخرى إبان أزمة الخليج أثناء تحرك الرئيس الأميركي بوش في منطقتنا وأوروبا الغربية . **وإن لنا أن نتوقع الآن ، بعد أن أعلن موشى أرينز وزير حرب العدو اثناء زيارته الجزء المحتل من جنوب لبنان في الشهر الماضي بأن جيش الاحتلال الاسرائيلي لن ينسحب ، وبعد أن أثارت مضاعفات أزمة الخليج مسألة تطبيق قرار مجلس الأمن رقم ٤٢٥ الخاص بجنوب لبنان ، وبعد أن توافق أخوتنا اللبنانيون مع شقيقتهم سوريا على صيغة الوحدة الوطنية والعمل على استعادة لبنان لوحدته ، أن تحتدم المواجهة على الصعيد العسكري بين المقاومة في جنوب لبنان والعدو .**

كانت الأنظار متجهة منذ بدء الانتفاضة إلى **خطوط التماس مع العدو تحسباً من قيامه بعمليات تخريبية ، تعوَّد عليها منذ تشكلت عصاباته الارهابية في الاربعينيات ، في دول الجوار العربي لفلسطين وتوقعاً لحدوث ردود أفعال عربية شعبية ورسمية على الجرائم التي يقترفها العدو وهو يحاول قمع الانتفاضة** . وقد شهدت السنوات الثلاث الماضية عدة أحداث في دول الجوار تحوم شبهات قوية على وجود أصُبع للعدو فيها ، ومنها إثارة اضطرابات ومحاولات إيقاع بين الأخوة العرب وانتهاك حرمة الأراضي اللبنانية والبحر والجو . وجاء نشر الكتاب الذي يتناول عمليات الموساد لينبّه الى هذا النوع من العمليات التخريبية . **ولكن كان من الملاحظ أن فعالية هذا التحرك الصهيوني جاءت قليلة في زمن الانتفاض بفعل الوعي الذي تنشره روح الإنتفاض** . وبالمقابل رأينا ردود **الأفعال على جرائم العدو في أوساطنا الشعبية تتحول إلى أعمال فردية بطولية عبر خطوط التماس وتتميز بالروح المعنوية الهائلة والايمان العميق** . وقد أحصى العدو خمس عشرة عملية من هذا النوع عبر نهر الأردن وعمليتين عبر « أيلة » . واذا كان مجموع ماحدث جاء أقل مما تطلبه « التلاحم بالانتفاضة » إلا أنه أرهص بحدوث الظاهرة وفعل فعله الرمزي . وقد رأينا أيضاً على الصعيد الرسمي العربي في دول الجوار تطوراً في لغة الخطاب السياسي المتعلق بالصراع العربي الصهيوني . **وإن لنا أن نتوقع مع مضي العدو في عدوانه واستمرار الانتفاض أن تشهد خطوط التماس توتراً متزايداً** .

على الرغم من كل محاولات العدو ليجعل ساحل البحر.هادئاً رأينا عدة محاولات للمقاومة الفلسطينية خلال السنوات الثلاث الماضية تركب البحر **لتصل إلى ساحل أرضها المباركة حيث اللقاء بالشاطىء الذي يحتضن رفات** أجداد أبطال ذادو عن الديار وتقوم فيه أضرحة شيوخ المرابطين الأولياء . واذا

كانت نسبة كبيرة من هذه المحاولات لم تحقق النجاح لعيوب خطيرة شابتها ، الأمر الذي أثار غضب جماهيرنا ، الا أن تكرارها جاء تعبيراً عن إصرار على جعل الشاطىء خطاً للمواجهة تأكيداً لحق شعبنا في أن يقاوم عدوه الذي يحتل أرضه من كل الجهات ، وتجسيداً لتصميم أبناء فلسطين خارج وطنهم على العودة لتحرير الوطن . وقد جاء نجاح بعض هذه المحاولات على الرغم من كل الصعوبات مشجعاً على الاستمرار فيها . **وإن لنا أن نتوقع في السنة الرابعة للانتفاضة أن تتسم هذه المحاولات بالدقة في تحضيرها وإعدادها وأن تتالى بنسبة اكبر للرد بخاصة على حملة التهجير الصهيوني لليهود ، وأن تتميز باتباع أساليب جديدة مبتكرة .**

ماهو أبرز ما ستتميز به المواجهة على الصعيد العسكري في عام الانتفاضة الرابع ؟

ـــ إن النظر المتمعن في هذا الأمر من خلال تقارير المقاومة زمن الانتفاض وتقارير العدو يجعلنا **نتوقع أن تكون البطولة الفردية المبادرة التي يقوم بها أبناءُ لأمتنا هي أبرز ماتتميز به هذه المواجهة** . ولقد توقفت تقارير العدو طويلاً أمام ظاهرة البطولة الفردية المبادرة هذه . واستحضرت قائمة طويلة من العمليات في ساحات المواجهة الأربع ، داخل فلسطين وفي جنوب لبنان وعبر خطوط التماس الأخرى ، وعلى ساحل البحر ، منذ ما أسمته ليلة الطائرة الشراعية قبل ثلاث سنوات التي واجه فيها البطل معسكراً كاملاً الى نهار سيناء والنقب الذي تمكن فيه البطل من السيطرة على طريق يَغُصُّ بالحركة ووسائل النقل طيلة إحدى وعشرين دقيقة اصطاد خلالها الجنود الاسرائيليين مثل « بطات تسبح في بحيرة » وخلف وراءه أربعة قتلى منهم وأربعة وعشرين جريحاً بينما هرب بقية الجنود . والوصف لجريدة هاآرتس يوم ٩٠/١١/٣٠ **وتنتهي تقارير العدو الى أن الجيش الاسرائيلي الذي يتكلف ملايين الدولارات**

سنوياً ، ويتحدث عن السيطرة على الفضاء الخارجي ، ويتسلح بأحدث الصواريخ واكثر الغواصات تطوراً ، يجد نفسه تحت وطأة المشاكل الصغيرة لافراده وهم يواجهون الانتفاضة بخاصة والمقاومة بعامة يعاني من مستوى اطلاق نار متدن الى خلل في تنفيذ الأوامر . وقد اضطرت السلطات العسكرية أن تحقق في كيفية استطاعة البطولة الفردية المبادرة مواجهة العديد من الجنود الاسرائيليين في عدة عمليات حدثت أخيراً من بينها تلك التي شهدها جنوب لبنان واستطاع فيها فدائي واحد أن يتصدى للدورية الاسرائيلية التي قتلت زميلين له غيلة وجرحت الثالث ، وأن يقتل خمسة جنود ويجرح ضعف هذا العدد يوم ٩٠/١١/٢٧ .

ـ نتوقع بالمقابل أن تتفشى بفعل ظاهرة البطولة الفردية المبادرة العربية ، في أوساط العدو ظاهرة التمزق النفسي التي تعبر عن نفسها بين الجنود الاسرائيليين في الإقدام على الانتحار وبين الشباب الاسرائيليين المطلوبين للجندية في رفض الخدمة العسكرية . وقد سجلت إحصاءات زمن الانتفاض أن عدد الجنود الاسرائيليين المنتحرين بلغ ٣٥ عام ١٩٨٧ و٤٥ عام ١٩٨٨و١٠٠ عام ١٩٨٩ و١٦٦ عام ١٩٩٠ . كما بلغ عدد رافضي الخدمة العسكرية الذين قدموا للمحاكمة ٥١ في نهاية العام الأول للانتفاضة و٩٥ في العام الثاني و٣٣ في العام الثالث . كما نتوقع أن يتزايد مع هذه الظاهرة لجوء العدو الى تصعيد إرهابه الرسمي وغير الرسمي في محاولة محاصرة تفشي التمزق النفسي في صفوفه .

لاشك في أن المواجهة على الصعيد العسكري في الصراع العربي الصهيوني إبان العام الرابع للانتفاضة ستتأثر بالأجواء المحيطة بفعل أزمة الخليج وبما يحدث في هذه الأزمة من تداعيات ومضاعفات ، وبما ستؤول اليه الأمور سلماً أو حرباً . والأمر المؤكد هو أنه في كل الأحوال سيغلب على

الصراع العربي الصهيوني الطابع العقيدي ، وستكون الأولوية فيه للمواجهة على الصعيد العسكري في الحرب الفعلية التي تدور رحاها على أرض فلسطين المباركة وفي جنوب لبنان . ولقد تأملتُ طويلاً أثناء الاحتفالات بدخول السنة الرابعة للانتفاضة التي شاركت فيها ، وفي وجوه جيل جديد من الشباب مستنفر للنزال متطلع للإلتحام بالانتفاضة مؤمن بأن عدم الخوف من الموت هو الذي يوصل للحياة الحرة التي تليق بالإنسان خليفة الله في الأرض ، فرأيت اننا على أبواب فترة تعطي فيها امتنا بسخاء لتحرير بيت المقدس . وبدا هذا الأمر كأقوى مايكون في احتفال ببيروت في دار الندوة وآخر في نقابة الأطباء بالقاهرة حيث احتشد مايربو عن الألف من الشباب المسلم ذكوراً وإناثاً ليحتفلوا بالانتفاضة . وقد دعاني ذلك الى أن اقرأ بتمعن الرسالة التي بعث بها « ايمن حسن » لأسرته ونشرتها جريدة الشعب القاهرية يوم ٩٠/١٢/١٨ ، وأضمها الى ملف رسائل أصحاب البطولات الفردية المبادرة الذي احتفظ به .

واضح أن المواجهة على الصعيد العسكري في الصراع العربي الصهيوني تتطلب نوعاً معيناً من المواجهة على الصعيد السياسي يتكامل معها ويساندها ويعززها ويدعمها . وهو يستحق منا حديثاً آخر .

المواجهة على الصعيد السياسي

اذا كانت الرؤية المستقبلية للعام الرابع للانتفاضة توجهنا الى أن نضع في اعتبارنا أن الأولوية فيه ستكون للمواجهة على الصعيد العسكري ، فإن هذه المواجهة تتطلب نوعاً معيناً من التحرك السياسي يتكامل معها ويساندها ويعززها ويدعمها .

ماهو الخط العريض للتحرك السياسي المطلوب ؟

الإجابة عن هذا السؤال تقتضي تقويم التحرك السياسي الذي قمنا به كعرب خلال سنوات الانتفاضة الثلاث بخاصة وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاماً منذ حرب عام ١٩٦٧ بعامة . والحق أن هذا التقويم حدث في الوقفة المستقبلية بمناسبة دخول الانتفاضة عامها الرابع وسط احتدام أزمة الخليج ، وأوصل التيار الغالب في الأمة الى إقتناع راسخ بما ينبغي أن يكون عليه التحرك السياسي مستقبلاً . وهذا الاقتناع الراسخ هو « **إنه لابد وأن يحدث التحول الى غير رجعة عن أسلوب التفاوض الذي اعتمدته الدول العربية منذ عام ١٩٦٧ في أمور الصراع العربي الصهيوني داخل الأمم المتحدة ومع الولايات المتحدة الاميركية بخاصة في ضوء دروس زمن الانتفاض وأزمة الخليج ، لأن ذلك الأسلوب لم يختر الوقت المناسب لنا للتفاوض ولم يحصر أوراقنا العربية التي**

نستخدمها ولا أحسن من ثم توظيف هذه الأوراق ، فأدى الى الرضوخ لمطالب اميركية مطلباً إثر مطلب بالتنازل عن حقوقنا الثابتة وبدون أي مقابل ، بينما عدونا الصهيوني مستمر في عدوانه منكر حقوقنا مجاهر بأهدافه التوسعية » .

لقد دار حوار غني في المناسبات التي احتفلت بذكرى الانتفاضة حول مضمون هذا الاقتناع الراسخ . وتضمن هذا الحوار قراءات لشواهد ماثلة على ذلك الاسلوب تختلف عن قراءات سادت من قبل وتطرح تساؤلات عن مدى مناسبة قرارات اتخذها أصحاب القرار . ومن هذه القرارات قبول عدد من الدول العربية بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ قبل أن يحصلوا مِن الولايات المتحدة على تفسير دقيق لمنطوقه والتزام بتنفيذه ضمن مدى زمنّي محدود والتأكد من أن الطرف الآخر سيحترمه وينفذه . ومنها قرار قمة فاس الثانية الذي تضمن ماسمي « بمشروع سلام عربي » الذي اتخذته القمة العربية دون أن تحصل من الولايات المتحدة على التزام بأن الطرف الآخر سيقبل به . ومنها التصريح الصحفي الفلسطيني في مؤتمر صحفي بجنيف إثر اجتماع للأمم المتحدة في ديسمبر كانون أول عام ١٩٨٨ بشأن « التقسيم ونبذ الإرهاب » الذي صدر ليبدأ حوار اميركي فلسطيني دون الاتفاق على تحديد واضح مسبق لهدف هذا الحوار ومستواه والتزامات واشنطن إزاءه .

واضح أن هذه القراءة الجديدة هي من وْحي روح الانتفاض وقد استوعبت دروس ادارة الصراع كما بدت إبان هذه الفترة . وهي حين تطرح تساؤلاتها لاتغفل عن طبيعة الظروف التي أحاطت بمتخذي القرارات وقت اتخاذها ، وليس هدفها من طرح التساؤلات إثارة خلافات حول الماضي لأن همها هو المستقبل . بل إنها لاتسقط من حسابها أنه كان لهذه القرارات آثار غير مباشرة أدت إلى تبلور هذا الاقتناع الراسخ من خلال معاناة التجربة وتبدد

أحلام ومراهنات . والمهم الآن هو أن نحدد الخط العريض للتحرك السياسي المطلوب بعد أن تيقّن من طبيعة الخلل الذي تحكّم في سابقه .

إن أمتنا اليوم على يقين من وجود خلل في تحركنا السياسي العربي في نطاق الصراع العربي الصهيوني . **ويكفي دليلاً على وجود هذا الخلل أن تحركنا السياسي العربي لم يوصل إلى حدّ أدنى لأي من الأهداف المرحلية التي استهدفناها منه . وقد أصبح واضحاً أيضاً لنا ان هذا الخلل في تحركنا ناجم عن الخلل الكامن في التحرك السياسي الغربي تجاه الصراع العربي الصهيوني الذي قبلنا أن نربط تحركنا به . فهذا التحرك السياسي الغربي الذي قادته الولايات المتحدة منذ عام ١٩٦٧ ودارت أوروبا الغربية في فلكه رفع شعار « التسوية السلمية » ولكنه لم يثمر الا مزيداً من المواجهات العسكرية والعنف والإرهاب الرسمي وغير الرسمي الصهيونية التي هي في حقيقتها استمرار للحرب الصهيونية المتصلة ضد العرب .**

لقد أصبح مطلوباً بإلحاح منا نحن العرب في ضوء هذه الحقيقة .. حقيقة خلل التحرك السياسي الغربي الذي رفع شعار التسوية السلمية للصراع ، أن نواجه بتحركنا السياسي الجديد الغرب بهذه الحقيقة ، ونعمل كي يسود في أوساطه يقين بأن تحركه سار في اتجاه خاطىء وأنه لايمكن أن يوصل إلا الى مزيد من المعاناة لجميع الأطراف وهو في مقدمتها . ولن يكون خافياً علينا في تحركنا أن تياراً غربياً قوياً كان يرفع الشعار وهو مدرك أنه غير موصل ، وأن هدفه من رفعه هو تمكين الاحتلال الاسرائيلي للأراضي العربية من الاستمرار ، وأنه لذلك اخترع ماأسماه « إدارة الصراع » بحيث يكون الغرض الرئيسي من أفكاره ومبادراته المتعلقة بالتسوية السلمية هو «ملء فراغ قائم» يخشى منه اذا لم يُملأ أن يؤدي إلى تفجر . فتحركنا السياسي الجديد يستهدف

أن يكشف هذا التيار الغربي القوي الذي تعشش فيه الصهيونية لتيار غربي آخر مضلل .

المقولة التي يجب أن يخاطب بها تحركنا السياسي الجديد الغرب بعامة والولايات المتحدة بخاصة هي « **إن التحرك السياسي الغربي منذ عام ١٩٦٧ في الصراع العربي الصهيوني الذي رفع شعار تسوية سلمية لم يأت بالسلام بل أدى إلى استمرار الحرب . وهذا يؤكد أن الخلل كامن فيه . وهو المسؤول عن تغذية الجنوح الصهيوني الى جنون تهجير اليهود من أوطانهم الى الأرض العربية وجنون أحلام التوسع في الأرض العربية وجنون توهم القوة الاسرائيلية التي لاتقهر . وهو المسؤول عن وصول مجموعة من قيادات الإرهاب الصهيوني الى أعلى المناصب الوزارية في الحكومة الاسرائيلية . كما** أنه المسؤول عن أية ردود أفعال تظهر في أوساطنا العربية معبّرة عن يأس أصحابها من كل شيء ، لاتقع ضمن الاستجابة العربية المباركة المتمثلة في بداية الصحوة التي تجسدها الانتفاضة » .

الجزء الآخر من هذه المقولة التي يجب أن يخاطب بها تحركنا السياسي الجديد الغرب بعامة والولايات المتحدة بخاصة هو « **إن على الغرب أن يتحول والى غير رجعة عن تحركه السياسي الذي أدى الى ذلك كله ، الى تحرك سياسي جديد يأخذ بعين الاعتبار الحقائق الاستراتيجية** التي أظهرتها الانتفاضة العظيمة وأهمها أن روح الانتفاض في أمتنا كأقوى ماتكون ولن يهدأ لنا بال حتى نحرر أراضينا العربية المحتلة وكذلك الحقائق الاستراتيجية التي أظهرتها ازمة الخليج وأهمها أن « القاعدة الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية » لن تكون ذات فائدة استراتيجية لتأمين المصالح الغربية مع وطن عربي لايقبل التعامل إلا على اساس من الندية بل ستكون عبئاً يتزايد ثقله يوماً بعد يوم .

وهذا يعني أن على الولايات المتحدة أن تغير استراتيجيتها في المنطقة من مواجهتنا بالعداء الى احترام حقوقنا وحضارتنا ومصالحنا . وبدون ذلك ستتهدد مصالحها ومصالح الغرب في وطننا .

سيكون على تحركنا السياسي الجديد الذي يخاطب الغرب بهذه المقولة ، أن يساعد جميع الأطراف الدولية بما فيها الغرب المعنية بالصراع العربي الصهيوني على التحول الى تحرك سياسي جديد يرفع شعار « إنهاء الاحتلال الاسرائيلي للأراضي العربية فوراً ، والقضاء على نزعات الصهيونية التوسعية » ، وذلك بعدة أمور أهمها **رفض أية دعوة من هذه الأطراف الدولية لنا لمجرد النظر في « تنازلات » نقدمها بحجة إقناع الرأي العام أو الطرف الآخر .**

لقد آن الأوان أن نغلق نحن العرب نهائياً هذا الباب . وحجتنا في إغلاقه مقنعة كل الإقناع . فهذا الباب لم تدخل منه إلا الأعاصير الصهيونية . ومثلنا الشعبي يقول « الباب الذي يأتيك منه الريح إغلقه لتستريح » . والأعاصير الصهيونية التي دخلت منه هي التي أدت الى هذا الجنون الصهيوني السائد في وطننا المحتل وفي الساحة الدولية على السواء . ولابد أن يعرف الغرب عنا أننا لانقبل بمجرد فتح موضوع « تنازلات نقدمها » ، وأن نعوده على عدم الإقتراب من هذا الموضوع . وهذا يقتضي منا نحن أيضاً أن نرفض الانسياق لفتح هذا الباب بحجة تحقيق اختراقات في الغرب يزينها لنا غربيون هي عند اختبارها مجرد تظاهرات إعلامية تذهب جفاءً كالزَبَد ولا يبقى منها عند عصرها « مايسمن أويغني من جوع » .

كثيرة هي الأمثلة التي تدلل على ضرورة اعتماد هذا الحزم في تحركنا السياسي الجديد لنساعد جميع الأطراف الدولية . ومن بينها ماقاله لي أستاذ

اميركي من أصل عربي مؤخراً عن حوار دار بينه وبين مسؤول في وزارة الخارجية الأميركية معني بمنطقتنا في ربيع عام ١٩٩٠ ، عبرّ فيه هذا المسؤول عن اعتقاد الادارة الاميركية بأنها قادرة على أن تطلب أي شيء من الأطراف العربية التي تحاورها وهي واثقة من أنها ستنجح في الحصول عليه منها في نهاية المطاف ، بينما الأمر عكس ذلك مع الطرف الإسرائيلي . وتساؤل هذا المسؤول حين طالبه محدثه بإعادة النظر « لماذا نغير هذا الإعتقاد ونعيد النظر اذا كانت الممارسة العملية أكدت هذا الاقتناع ! » وسرد سلسلة مطالب اميركية تمت تلبيتها جميعاً من أطراف عربية خلال تحركات التسوية في عام ١٩٨٩ . وأمثلة أخرى عن زيارات قام بها مسؤولون عرب في نطاق هذه التحركات الى دول غربية أو لقاءات مع مسؤولين غربيين ثم تقديم تنازلات أساسية مقابل مجرد حدوثها ، ولم تثمر شيئاً على أرض الواقع . ونقف في أحد الأمثلة أمام دولة شرّقية أوروبية أرادت أن تلبي مطلباً صهيونياً بإعلان دعوتها لإلغاء قرار الأمم المتحدة القاضي بأن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية وأن تعيد علاقاتها بالكيان الصهيوني من خلال زيارة لرئيسها الجديد يقوم بها اليه فعمدت الى تغطية ذلك كله بلقاءات مع بعض المسؤولين العرب . وأمثلة أخرى مع عدة دول أوربية غربية وصل الحد بإحداها الى ان تطلب الغاء الميثاق الوطني الفلسطيني .

واضح اليوم أن المناخ السائد في منطقتنا مع دخول الانتفاضة عامها الرابع إبان احتدام أزمة الخليج مختلف كل الاختلاف على صعيد متخذي القرار عما كان عليه أثناء حدوث تلك الأمثلة . وهو مناخ يمكّنهم من اعتماد الحزم وانتهاج تحرك سياسي عربي جديد خطّه العريض التمسك بحقوقنا ، وهدفه التكامل مع المواجهة على الصعيد العسكري للعدوان الصهيوني ومساندته وتعزيزه ودعمه ، ووسائله حصر أوراقنا العربية الفعالة وتوظيفها أحسن

توظيف ، وروحه روح الإنتفاض وتوطين النفس على صراع النفس الطويل ، وأساسه إنتظار التفاوض الى أن يحين الوقت المناسب للتفاوض حين نكون قادرين على تحقيق أهدافنا وأولها تحرير أراضينا .

عن مستقبل العلاقات اللبنانية الفلسطينية

كلما ترددت كلمة المستقبل يتداعى الى الخاطر عزم الإنسان على الفعل لتحقيق مايريد ، تحثّه أحلامه التي صاغها وهو يعيش أيامه من خلال تجاربه ، مستمداً العون من خالقه الحليم الخبير الفعّال لما يريد . ويخطر على البال ونحن في ندوة عن « لبنان وآفاق المستقبل » أنه قد آن الأوان لأن تزدهر شقائق النعمان بين أشجار أرز لبنان ، لتبشر بمولد جديد لتموز الذي هو « الابن الحق » ، ليكون كما خلقه بارئه « أدوناً » سيداً ، يجسد الخير والحق والجمال والعدل ويقوم بدوره تجاه أهله .

الحديث عن لبنان وآفاق المستقبل يتضمن موضوعنا الحيوي « مستقبل العلاقات اللبنانية الفلسطينية » ونحن في هذا الموضوع أمام ورقة عمل محكَمة هي من نوع « الأوراق العصارات » الحافلة « بالفكر الجوامع » القوية السبك والصياغة . وهذا ماهو متوقع أن تكونه ، وكاتبها هو الأخ الأستاذ شفيق الحوت الذي عاش هذا الموضوع بكيانه في زهرة شبابه وفي كهولته ، على الصعيدين الخاص والعام ، فكراً وفعلاً .

لقد وجدت نفسي وأنا أتأمل في هذه الورقة أنني متفق معها في منطلقها وبنيانها ومنهجها وماتوصلت إليه من أفكار . وهذا أيضاً ماهو متوقع . وقد

جمعتني بكاتبها بيئة واحدة ورفقة تجاوزت ربع قرن . وتعقيبي إذن هو على الموضوع من موقع الإتفاق مع الورقة وأجمله في نقاط ثلاث في معرض التأكيد أو التفصيل .

أولاً ، إنّ المعالجة الصحيحة لموضوع العلاقات بين أي قطرين عربيين يجب أن تنطلق من كونهما يحملان الهوية العربية ، وينتميان الى وطن عربي كبير وحضارة واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية التي شارك في بنائها أبناء الأمة نصارى ومسلمين ، ويواجهان مصيراً واحداً . وحين يكون القطران العربيان هما لبنان وفلسطين فلابد أن تضع المعالجة في اعتبارها أنهما جزءان غاليان من أرض الشام التي لم تعرف الحدود السياسية الفاصلة بين أقطارها إلا في هذا القرن العشرين . كما لابد أن تضع المعالجة في اعتبارها ايضاً أنهما وسوريا والأردن مستهدفون مباشرة بالغزوة الصهيونية الإستعمارية الاستيطانية .

لقد اعتمدت الورقة هذه المعالجة الصحيحة ، وطالبت « أن ينطلق الطرفان من مفهوم لا لَبس فيه حول هويتهما المشتركة كشعبين عربيين شقيقين ، بينهما من أواصر الأخوّة والروابط القومية ووحدة المصير مايحفز كل واحد منهما على نصرة الآخر وتقديم مابوسعه من أسباب الدعم والتأييد لمجابهة العدو الواحد ، واعتبار قدسية النضال من أجل تحرير الجنوب والحفاظ على وحدة لبنان واستقلاله ، نابعة من مصدر قدسية النضال نفسه من أجل تحرير فلسطين واستعادة شعبها حقوقه ، بما في ذلك إقامة دولته المستقلة فوق ترابه الوطني » ونبّهت الورقة الى أن إقامة هذه العلاقات يجب أن تحكمها الروح القومية ، والى أن الدور السوري يبرز هنا بالغ الاهمية لإنجاز هذه العملية .

واضح أن القانون الدستوري رقم ١٨ الذي صدر يوم ١٩٩٠/٩/٢١

مستلهماً وثيقة الوفاق الوطني التي تم التوصل اليها في الطائف ، أكد هوية لبنان العربية والتزام لبنان بمواثيق الجامعة العربية ، تماماً كما أكدت الوثيقة أن لبنان الذي هو عربي الإنتماء والهوية تربطة علاقات أخوية صادقة بجميع الأقطار العربية، وتقوم بينه وبين سوريا علاقات مميزة ... وواضح أيضاً أن الميثاق الوطني الفلسطيني أكد هوية فلسطين العربية والتزامها العربي ، تماماً كما أكدت قرارات المجلس الوطني في دوراته المتتالية على الروابط الأخوية بين فلسطين وكل شقيقاتها العربيات ، وعلى العلاقات المميزة بينها وبين شقيقاتها في بلاد الشام .

كان الإنطلاق من الهوية العربية حين بدأ البحث في العلاقات بين الأقطار العربية أواخر الحرب العالمية الثانية . ويتجلى هذا المنطلق في محاضر « مشاورات الوحدة العربية » التي جرت في الفترة بين آب / أغسطس ١٩٤٣ وشباط / فبراير ١٩٤٤ بين مصر والعراق وشرق الأردن والمملكة العربية السعودية وسوريا ولبنان واليمن وفلسطين ، في وقت بدأت فيه موجة التحرير بالتدفق لتحمل معها استقلالاً ، ولو منقوصاً لكل هذه الأقطار عدا فلسطين . **ويومها سجّل لبنان في بيان مكتوب أنّ قضية فلسطين « تشغل خواطر اللبنانيين كغيرهم من أبناء الأقطار العربية إن لم يكن أكثر ، وذلك لمتاخمتها لحدود لبنان » ، « وأن لبنان لايألو جهداً للعمل في سبيل التعاون والتكاتف بين البلدان العربية لما في ذلك من الخير العميم للجميع .. وهو مقتنع بفوائد التعاون المشترك وخاصة مع سوريا » ، وخاطب رئيسُ وزراء لبنان اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي العام قائلاً إن لبنان لايهمه غير مايهمكم وهو يعتبر نفسه من البلاد العربية ، بل ومن صميمها » . وكم هو مفيد لو أضيفت النصوص الخاصة بمناقشة موضوع لبنان والعلاقات العربية في هذه المحاضر إلى « الوثائق الخلفية » . وقد شهدت الاعوام التي تتالت منذ ذلك الحين اختبارات لهذا المنطلق حدث فيها التمسك به أحياناً والتخلي**

عنه احياناً أخرى ، وتأكد من خلالها في الحالين أن **المعالجة الصحيحة لموضوع العلاقات الغربية لا تتم بدونه** . ولاشك في أن الانطلاق من الهوية العربية سيمكن الطرفين اللبناني والفلسطيني من إقرار المبادىء التي يعتمدها تفاوضهما والإتفاق على الثوابت السياسية الستة التي حددتها الورقة في الصفحة الرابعة ووصفتها بأنه يستحيل الخلاف عليها .

ثانياً : السؤال الذي يبرز ونحن ننظر في موضوع العلاقات اللبنانية الفلسطينية في هذه الأيام هو « **هل نحن في لحظة مناسبة للوصول إلى نتيجة في هذا الموضوع ؟** »

اللحظة التاريخية المناسبة لتحقيق هدف ما هي تلك التي تشهد نضج الحمل به ، واذا كان الهدف خاصاً بالعلاقات فإن الحمل ينضج حين يكون طرفا العلاقة قد تهيأ او تكون الأطراف الأخرى المحيطة بهما المساعدة لهما متهيئة وتكون الأطراف المعادية غير قادرة على المنع .

لقد أوضحت الورقة **أن الطرف اللبناني** يقترب من التهيؤ . فلبنان دخل مرحلة جديدة ومضى في منعطف مابعد الطائف . وسيصل هذا المُضيّ بالحكومة اللبنانية « الى محطة يتوجب عندها فتح ملف العلاقات اللبنانية — الفلسطينية » . **أما الطرف الفلسطيني** فهناك عدة أسباب تجعله تواقاً لمباشرة البحث في هذا الملف ، منها : ترتيب الأمور الحياتية لأبناء فلسطين المقيمين بين إخوتهم في لبنان ، وتنظيم الوجود السياسي والعسكري الفلسطيني في لبنان ، والتعاون اللبناني الفلسطيني لمواجهة العدوان الإسرائيلي المستمر . **وواضح أيضاً أن الجوّ العربي المحيط بالطرفين يشهد تفاعلات على طريق التهيؤ . فسوريا مقبلة على متابعة جهودها لإنهاء الأزمة اللبنانية** ، وهي راغبة في إيجاد حلول ناجحة لكل مسببات الأزمة . وقد جدّت ظروف عربية ودولية خلال

هذا العام ومنذ نشوب أزمة الخليج بخاصة جعلتها أكثر قدرة على التحرك . والأردن متهيّء للإسهام بدور إيجابي في هذا الموضوع من موقع اهتمامه بموضوع أبناء فلسطين الموجودين خارج وطنهم ، وكونه من بلاد الشام .

الجديد المؤثّر الذي شهده الجو العربي المحيط هذا العام هو عودة العلاقات بين سوريا ومصر . ولاشك في أن التفاعل الناجم عن ذلك يمكن أن يسهم في الاقتراب من اللحظة التاريخية المناسبة . وقد نجم عن حدوث أزمة الخليج وضع يمكن فيه العمل للوصول الى مساندة العراق لعملية تنظيم العلاقات اللبنانية ــ الفلسطينية ، فضلاً عن مساندة الأقطار العربية الأخرى لهذه العملية .

سيبقى الكيان الصهيوني هو الطرف المعادي للترابط اللبناني الفلسطيني . ولن يكفّ عن محاولة الإيقاع بين الأشقاء ، ولكن محاولاته هذه لن تكون هذه المرة ناجحة بعد أن أوضحت المحنة حقيقة العدوّ الصهيوني لكل هؤلاء الأشقاء . وسيحاول العدو الصهيوني أيضاً التأثير بأساليبه على بعض الأطراف الدولية لتتخذ مواقف معادية للتفاهم اللبناني الفلسطيني . ولكن هذه المحاولات يمكن إفشالها بتحرك عربي مناسب .

ستبقى السياسة الاميركية تجاه المنطقة ولبنان وفلسطين عاملاً سلبياً يواجه الجهود المخلصة لتحقيق الترابط اللبناني الفلسطيني . وهي سياسة حافلة بالتناقضات والتخبط وقابلة للاختراق الصهيوني . وسيكون على التحرك العربي أن يواجهها ويضع نصب عينيه هدف الوصول بالولايات المتحدة الى تغيير استراتيجيتها في المنطقة ولاشك في أن الظرف الراهن وأزمة الخليج في بُعدها الدولي كأزمة عالمية تفعل فعلها هو ظرف مناسب لتحقيق هذا الهدف .

يمكننا أن نقول في الإجابة عن السؤال الذي برز « إننا نقترب من

اللحظة التاريخية المناسبة للوصول الى مانريده في هذا الموضوع ، وإن علينا أن نعمل لاستكمال دراسة كل مايتعلق بموضوعات الملف ، ونسعى مع جميع الأطراف العربية المعنية لمباشرة الأمر ومواجهة المعوقات .

لقد تحدثت الورقة عن العامل الدولي الذي « يبقى الأهم والأكثر فعالية في توجيه المسارات السياسية في المنطقة ، ومنها بالطبع المسار اللبناني والمسار الفلسطيني » . **وهذا ماهو حادث في ظل التجزئة والفرقة والتبعية . ولكن أهمية العامل الدولي تنقص وفعاليته تقل في ظل الوحدة الوطنية والتضامن القومي** . فتأثيره يتناسب عكساً مع العامل الوطني والعامل القومي على مجريات الأحداث . ولعل من أهم مانستخلصه من دراسات الأزمات العالمية أن بإمكان الأطراف الاقليمية أن تؤثر على الأطراف الدولية ، وأن كل طرف من هذه الأطراف الدولية ، وان كان قوة عظمى ، يعانى من ضغوطات داخلية وخارجية ، وأن العلاقات بين هذه الأطراف الدولية فيها دخن ، وقابلة للاهتزاز .

ثالثا : يحتل الجانب الخاص بالأمور الحياتية لأبناء فلسطين في لبنان مكاناً متميزاً في العلاقات الفلسطينية ـــ اللبنانية . ويتأثر مستقبل هذه العلاقات بمجملها بمدى النجاح في معالجته . وحين نتحدث عن أبناء فلسطين هؤلاء فهم بالنسبة لإخوانهم اللبنانيين أبناء العمومة منذ آلاف السنين والجيران والأصهار ورفاق النضال منذ أن استُهدفت فلسطين واستُهدف لبنان والوطنُ العربي بعامة بالغزوة الصهيونية الاستعمارية .

لقد وفّت الورقة المحكمة هذا الجانب حقه من المعالجة وخصصت له القسم الأول من الملف . ووقفت أمام مايكتشفه الباحث باندهاش من أن كل ماصدر على الصعيد الرسمي اللبناني في هذا الموضوع مرسومان . والحق أن

الباحث يكتشف أيضاً باندهاش حين يراجع المباحثات الفلسطينية اللبنانية أن هذا الموضوع لم ينل حظه من العناية ، ولم يتم الوصول فيه الى أية اتفاقات مكتوبة اذا استثنينا القاهرة لعام ١٩٦٩ ، التي تناولت في القسم الأول منها هذا الوجود الفلسطيني بإيجاز وعمومية . والأمر نفسه يصدق على المباحثات الفلسطينية مع جميع الدول المضيفة ، وواضح أن له أسبابه التي آن الأوان أن نعالجها .

إن البحث في هذا الجانب لابد أن ينطلق من المنطلق العربي بداية ، ولابد أن يعمد إلى إعادة النظر مستخلصاً عبر التجربة الماضية ، ولابد أن يتوصل الى ابرام اتفاق مكتوب ، ولابد أن يتجسد المنطلق العربي فيه بإقرار مبدأ المواطنة العربية الى جانب المواطنة القطرية ، وتقنين هذا المبدأ .

والحق أنّ الحاجة ملحّة على صعيد جميع أقطارنا العربية لإقرار هذا المبدأ وتقنينه بالنسبة لكل المواطنين العرب ، اذا أردنا للأمن العربي أن يستتب ، وللتضامن العربي أن يتحقق . فلم يعد المواطن العربي يحتمل القيود التي تقيد في وطنه الكبير بذريعة الجنسية القطرية التي لم يقع في أسرها الا في هذا القرن ولم يعد مقبولاً أن تتحكم مصالح فئات محدودة ، مستفيدة من التشرذم في مصالح العامة بالتفنن في وضع القيود والسدود . وقد خبر المواطن العربي من أي قطر كان في العقدين الأخيرين مدى حيوية أمور التنقل والإقامة في وطنه الكبير بالنسبة اليه وإلى ازدهار أمته ، وأطّلع على عودة الغرب الذي أوجد هذه الجنسية القطرية ونقلها الينا ، الى الأصل ، فقامت مواطنة دول الشمال الأوروبي الخمس ، وأوشكت المواطنة الأوروبية ان تكتمل .

اذا كانت المواطنة العربية ضرورية لكل عربي فإن تطبيقها أشد الحاحاً بالنسبة للعربي الفلسطيني ، والأسباب معروفة . وقد آن الأوان ان ينظر اليه في

أماكن التجمع العربية المختلفة بمنظارها . وهذا يقتضي ، عند اعادة النظر ، التفكير في عنوان الاتفاق . وقد استخدمت الورقة الاسم الذي تم وضعه عام ١٩٤٨ لأبناء فلسطين إنطلاقاً من الواقع . وحدث في فترة أن استخدم البعض اسم « العائدين » بدل « اللاجئين » . ولعلنا نتحدث عنهم باعتبارهم من ابناء الشعب العربي الفلسطيني المقيمين في هذا القطر العربي أو ذاك . وقد أبدعت الورقة في صياغة النقاط التي يجب ان يتضمنها أي مشروع اتفاق .

ب ــ عالجت الورقة القسم الثاني من العلاقات والخاص بالوجودين السياسي والعسكري الفلسطيني في لبنان ، وسجلت ستة ثوابت كمؤشرات للحلول المرجوة . ويهمنا أن نقف أمام السادس منها وهو لبّ الخمسة الأخرى . وهذا الثابت هو « حتمية الاتفاق على تصور استراتيجي من شأنه ضبط أي تحرك سياسي أو عسكري في مسار عملية الصراع الدائرة ، مع رعاية خصوصية كل طرف في توزيع المهمات والأدوار والمقصود هنا سورية ولبنان وفلسطين ، على أمل السعي المتواصل لتشمل وحدة هذا التصور عواصم عربية أخرى » . نقف أمام هذا الثابت لنؤكد على ضرورته . فهذا الإتفاق كفيل بقطع الطريق على إثارة التناقض بين من يجب أن يكونوا معاً في مواجهة العدو . وهو أيضاً لازم لحشد طاقاتهم معاً بانسجام وتناغم .

إن هذا الاتفاق الاستراتيجي سيُمكنّ من التحرك نحو العواصم العربية الأخرى. ولعله يستكمل بمشاركة الأردن فيه ، والمعزز بدعم الأقطار العربية الأخرى له . وقد اثبتت تجاربنا ، وتجارب آخرين في عالمنا إمكانية التوصل اليه . وعلى هذا « فهو تنظير طموح ولكنه واقعي » ومنطقتنا تعيش مخاضاً في عالم تعاد صياغة توازناته .

لقد طرحت الورقة مجموعة أفكار تتعلق بالوجودين هي عصارة تجربة

أربعة عقود . وهي كفيلة عند تمثّلها بأن تأخذ بأيدي طرفي العلاقة لإقامتها على اساس مكين وفي أروع صورة .

إن ازدهار شقائق النعمان بين اشجار أرز لبنان إرهاص باقتراب مرحلة تالية سنبقى نعمل حتى ندخلها ، وهي مرحلة تحرير جميع أراضينا العربية المحتلة والانتصار على الغزوة الصهيونية الاستعمارية ، واستقلال فلسطين لتعود الوحدة الى أرض الشام في الجناح الشرقي من وطننا العربي الكبير . نقول هذا ونحن نعيش في زمن الانتفاض وروح الانتفاض تفعل فعلها في أمتنا . وستكون إقامة علاقات لبنانية ـــ فلسطينية على أساس مكين علامة بارزة على طريق بلوغنا هذه المرحلة . وتحية تقدير للورقة وكاتبها ولمركز دراسات الوحدة العربية .

لبنان وآفاق المستقبل

كي تتفتح شقائق النعمان بين أشجار أرز لبنان

اكتب هذا الحديث بعد أن أمضيت أسبوعاً في زيارةٍ للبنان ، هي الأولى مىد ثماني سنوات ونصف . وقد جاءت هذه الزيارة تلبية للدعوة الكريمة التي وجهها لي مركز دراسات الوحدة العربية للمشاركة في ندوة « لبنان وآفاق المستقبل » التي انعقدت في بيروت يومي ٢٣ و٢٤ تشرين الثاني ـــ نوفمبر ١٩٩٠ ، بينما لبنان يحتفل بذكرى يوم الاستقلال الذي يوافق يوم «٢٢» وبيروت تتأهب لدخول مرحلة عودة شرعية الدولة للإمساك ببيروت الكبرى .

فياضة غامرة كانت المشاعر التي تملكتني طيلة الأسبوع منذ لحظة هبوط الطائرة في مطار بيروت عصر يوم ١١/٢٢ الى ساعة مغادرتي المطار ظهر يوم ١١/٢٩ ، وكثيرةٌ كانت الأفكار التي تأملت فيها ومن بينها أفكار موحية ، وحافلٌ كان البرنامج الذي تضمن فضلاً عن الندوة إلقاء محاضرة عن « الصراع العربي الصهيوني أثناء أزمة الخليج » في « دار الندوة » ببيروت مساء يوم ١١/٢٦ وتلبية أربع حفلات تكريم أتاحت لي لقاء صفوة من أهل الرأي وخاصة الأصدقاء والسير على الأقدام طيلة صباح الأحد لزيارة « الربوع » في أحياء بيروت واللقاء بأهلها في يوم عطلتهم انطلاقاً من « فردان » حيث كنت أنزل مروراً بالكورنيش حيث المنارة فالزيتونة فخط التماس حيث كانت قهوة « الحاج داود » فالبرج فوادي ابي جميل فالصنائع ثم كورنيش المزرعة

والفاكهاني وصبرا وشاتيلا والرملة البيضاء والمصطبة .

ألّح عليّ وأنا ابدأ هذه الزيارة السؤال « هل اقتربت اللحظة التاريخية التي ستشهد انتهاء الأزمة اللبنانية ؟ » وخطر على بالي وأنا أتأمل عنوان الندوة أن موقفنا من المستقبل يتضمن « عزم الانسان على الفعل لتحقيق مايريد ، تحثه أحلامه التي صاغها من خلال تجاربه وهو يعيش أيامه ، مستمداً العون من خالقه عالم الغيب والشهادة الحليم اللطيف الخبير الفعال لما يريد » . وقد رأيت أن أبرز هذه الفكرة فجعلتها في فاتحة حديثي في الندوة . كما خطر على بالي أيضاً أنه « آن الأوان لأن تزدهر شقائق النعمان بين أشجار أرز لبنان ، لتبشّر بمولد جديد تموز الذي هو « الابن الحق » ، ليكون كما خلقه بارئه « أدوناً » سيداً ، يجسدّ الخير والحق والجمال والعدل ويقوم بدوره تجاه أهله » . وقد جهرت بهذا العزم في فاتحة الحديث أيضاً . والحق أن قصة « تموز » أو « أدون » برزت أمامي منذ أن هيأت نفسي للزيارة ولم تفارقني على مداها . وقد عدت الى ماكتبه « فريزر » في « الغصن الذهبي » عنها وتأملت في رموزها التي تتصل بدورة الحياة الزراعية على مدى الفصول الأربعة في بلاد الهلال الخصيب بدءاً من « سومر » جنوب العراق حيث نجد القصة محفوظة على ألواح الطين بالكتابة المسمارية وصولاً الى أرض كنعان حيث بيبلوس ونهر « أدونيس » والقصة مكتوبة بالابجدية الكنعانية « الفنيقية » . وتتضمن هذه القصة إصابة الابن وسيل دمه واختفاءه حين اختطفته قوى الشر وسيطرة الجفاف وبكاء العذارى ثم تغلب قوى الخير وظهور تموز من جديد وتفتح أزهار شقائق النعمان في الربيع التي اكتسبت حمرتها من دمه بعد هطول الأمطار وتدفق الأنهار . وخطر على بالي وأنا أتأمل لهفتى على لبنان وإقبالي اننا ننطلق الى هذا العزم من تعلق كل عربي به ، فما مِن واحد من الناطقين بالضاد إلا وللبنان في قلبه مكانة ، وقد اشرت الى هذه الحقيقة أيضاً في فاتحة

محاضرتي . وخطر على بالي أننا نعيش في زمن الانتفاض وأن المقاومة اللبنانية أسهمت بدور متميز في إنطلاق روح الانتفاض .

أتاحت لي أعمال الندوة أن أبلور الاجابة عن السؤال الذي ألّح عليّ . وقد بدا لي وأنا أسعد بتبادل التحيات مع الأخوة المشاركين أن انعقاد الندوة وتفاعلهم فيها هو في حد ذاته دليل على اقتراب اللحظة التاريخية . فهاهُم اكثر من خمسين من أهل الرأي اللبنانيين من مختلف الطوائف والاتجاهات يلتقون في رحاب مركز دراسات الوحدة العربية على النظر في آفاق المستقبل مع آخرين فلسطينيين وأخوين سوريين وأخ عراقي وأخ جزائري ، وفي هؤلاء السياسي واستاذ الجامعة والصحفي وعالم الدين والنائبُ الاقتصادي . وكما هي العادة في كل ندوات المركز جاءت دقة التنظيم مع إتقان التحضير مع روعة الالتزام بقضايا الأمة لتوجد أفضل مناخ لتلاقح الأفكار .

النتيجة التي توصلتُ إليها بعد مناقشة المحور الأول من محاور الندوة الأربعة الخاص بمستقبل الوحدة الوطنية والنظام السياسي اللبناني هي أن وثيقة الوفاق الوطني التي تم الاتفاق عليها في « الطائف » قبل اكثر من عام أوجدت بحق مناخاً جديداً يمكن للوحدة الوطنية أن تتحقق فيه ويمكن للنظام السياسي اللبناني أن ينهض من عثرته . وقد جاء صدور القانون الدستوري رقم ١٨ يوم ١٩٩٠/٩/٢١ الذي استلهم الوثيقة ليكون علامة بارزة في طريق موصل بإذن الله . وهناك اقتناع سائد الآن في أوساط أهل الرأي أن للدول العربية الشقيقة وبخاصة سوريا دوراً في تعزيز هذه الوحدة الوطنية . وقد عبّرت عن هذا الاقتناع ورقة الأستاذ جهاد الزين بقولها « بات من المسلم به أن « الخارج » يساهم في تعزيز الوحدة الوطنية بالقدر الذي يطل على الوضع اللبناني الداخلي من خلال الدولة .. وإن باستطاعة البلدان العربية المعنية قومياً بوحدة الكيان اللبناني والمدركة لمخاطر تفككه على الأمن القومي العربي نفسه ، أن تعيد صياغة

علاقات السنوات السابقة لتصحيحها باتجاه التركيز على محورية المدخل الشرعي للتعاطي مع لبنان .. » وأبرز الحوار الذي دار حول الموضوع أن جميع الأطراف التي تورطت في الأزمة استخلصت العبر والدروس من معاناة خمسة عشر عاماً ، وفي مقدمة هذه الدروس إدراك اخوتنا الموارنة حقيقة العداء الاسرائيلي الصهيوني للبنان بمجموعة ، وعدم صدق مزاعم الغرب في توجهاته نحوهم ، وقوة الوشائج التي تربطهم بأخوتهم العرب في لبنان والوطن العربي عامة . وكم أسعدني أن استمع الى حديث غني على هامش الندوة من زميل ماروني عن الاطماع الاسرائيلية في لبنان وتاريخها ودورها في رسم حدوده الجنوبية وتركيزها على سرقة مياه لبنان . كما أسعدني أن أعرف من زميل آخر من آباء الكنيسة المارونية عن « منتدى القدس » الذي تم تأسيسه في « دير مار نوهرا » بقرنة الحمراء بالمتن « كجمعية علمية مستقلة وملتقى روحي وفكري وحركة صلاة وعدالة وسلام من أجل القدس ورسالتها » .. لمواجهة كل أشكال التخلف والتعصب والعنصرية وفي مقدمتها الصهيونية لكونها تشكل خطراً على الوجود والمصير لا في القدس فحسب بل على العالم العربي بكامله .. وعلى اليهود أنفسهم » . ومن بين هذه الدروس توافق أخوتنا اللبنانيون جميعهم على مسؤوليتهم الجماعية في التصدي للمشكلة وعلى انتمائهم العربي .

لقد تميزت مناقشة المحور الثاني الخاص « بمستقبل الأوضاع الاقتصادية في لبنان بسيادة منطق « ارادة الفعل » التي جعلها الأخ الدكتور الياس سابا مدخله لبحث الموضوع في ورقته المتميزة وفي عرضه الشيق . فالحديث تركز على مايمكن أن يحققه الانسان بانتاجه وأبى أن يقع في شرك البحث عن مساعدات خارجية « واليد العليا خير من اليد السفلى لا . كما أجمع الحديث على ضرورة العناية بالبعد الاجتماعي في معالجة الأزمة اللبنانية وأوضاع لبنان

المستقبل ، وهو مالم تتطرق اليه « وثيقة الطائف » ، إذ لايمكن إغفال الإعتبارات الإجتماعية والإقتصادية التي ساهمت في تأجيج نار الحرب . وقد دعاني هذا الحديث والمناقشات التي دارت حول الطائفية والوحدة الوطنية الى أن أذكر بضرورة استحضار أطلس المجتمع اللبناني بخريطة مِلله وخريطة شرائحه الاجتماعية وخريطة أنماطه الحياتية وخريطة أقوامه . وكم تجاوب الحضور مع الفكرة الموحية التي احتتم بها الباحث القدير ورقته وأعرب عن قناعته « أنه لايمكن للبنان أن يتحرر من تبعيته المفرطة للخارج (والناتجة أصلاً من اعتبارات بنيوية هيكلية) إلا عن طريق دخوله تجمعات اقتصادية يتكامل اقتصاده معها وتفسح المجال واسعاً أمام نشاط قواه البشرية وتفوقها . ومن هذا المنطلق نعتبر أن مصلحة لبنان الاقتصادية في المستقبل هي قيام مثل هذه التجمعات ، وأن يكون لبنان فيها بمثابة القلب والعقل (ولم نفهم بعد في هذا الخصوص موقف لبنان من مجموعة المشروعات الاقتصادية العربية المشتركة).
وقد طرح د.سابا من موقعه كرجل علم وسياسي واقتصادي « امكانية قيام تجمع اقتصادي يضم لبنان وسوريا وفلسطين والأردن والعراق كخطوة أولى مع التذكير بأن الارتباط الوثيق بين الاقتصاد اللبناني والاقتصاد السوري ، رغم تفاوت الأنظمة في فترات طويلة ، يجعل من الضروري ومن الملح إقامة أقوى العلاقات الاقتصادية بين البلدين من أحل تدعيم عملية إعمار لبنان وترسيخ الوفاق الوطني » .

اتصل الحوار حول هذه الفكرة الموحية . وقد خطر على بالي أن الأفكار الموحية تتضمن دوماً عودةٌ الى الأصل ووعدٌ مستقبلي . والعود الى الأصل هو ثمرة تفاعل الانسان مع المكان والزمان . كا خطر على بالي أن علينا عند التعامل مع الأفكار الموحية أن نأخذها بكلياتها ، وأن نوطن النفس على تحقيقها ولا نغفل في الوقت نفسه عن دراسة جزئياتها ، مدركين أن الواقع القائم قابل

للتغيير . وقد تطرق الحوار الى ضرورة توثيق العلاقات بين لبنان ومصر لأن اقتصاد بلاد الشام متكامل مع اقتصاد مصر منذ قديم الزمان وقد لفت نظري أخي الأستاذ هاني فاخوري الى ماتكتشفه الأرقام والإحصاءات على هذا الصعيد . كما تطرق الحوار الى ضرورة تجاوز لبنان مجرد دور الوساطة الذي اعتمده في الحقبة الاستقلالية الأولى حيث لم تعد ظروف المنطقة تفسح في المجال الواسع أمامه ، وأن يعتمد الدور الجديد كما أكد د. سابا على « الكفاءة والاختصاص والامتياز والتفوق لا على السمسرة والشطارة والحذلقة البهلوانية . ولدى لبنان واللبنانيين كل المقومات المطلوبة لمثل هذا الدور شرط أن تتوافر لهم القيادة السياسية الكفوءة والمخلصة » .

كان أول يومي الندوة حافلاً على صعيد مناقشة أوضاع لبنان الداخلية . وقد أوصلنا الى التشوق لدخول اليوم الثاني الذي ناقش مستقبل العلاقات اللبنانية السورية ومستقبل العلاقات اللبنانية الفلسطينية ، ضمن رؤية لموقع لبنان في وطنه العربي الكبير . وبدا للمشاركين في ختام اليوم الأول أن الحاجة ماسة لإعطاء الجانب التربوي والثقافي حقه من البحث في ندوة خاصة لما لهذا الجانب من أهمية في صياغة الأفكار وترسيخ القيم اللازمة للحفاظ على الوحدة الوطنية .

حرصت كعادتي على أن آخذ حظي من استنشاق الهواء الطلق بعد انتهاء يوم عمل طويل حافل . وتأملت ، وأنا أسير في شوارع رأس بيروت وأرى الحياة تدب فيه على الرغم من كل الخراب الذي سببته الحرب ، في « قوة الحياة » وفي خصائص أهلنا في لبنان . وتوقفت أمام المحلات التي تتم أضاءتها بمولدات كهربائية خاصة ، ورأيت اقبال الشباب على الاستمتاع بأوقاتهم ضمن حدود الممكن ، وتذكرت مارأيته في مشوار الصباح من اقبالهم على العمل بحيوية . فتأكد لي أن نظرنا يجب أن يتركز على الانسان وأن علينا أن

نعمل من أجل الولادة الجديدة كي تتفتح شقائق النعمان بين أشجار أرز لبنان . وتفاءلت خيراً بانجاز خطوة « بيروت الكبرى » . وتهيأتُ لمتابعة العيش مع « لبنان وآفاق المستقبل » . وسأتابع حديثي بإذن الله عن هذا الموضوع لأصل الى الجواب عن السؤال الذي برز حول اقتراب اللحظة التاريخية التي ستشهد أنتهاء الأزمة اللبنانية بإذن الله .

لبنان وآفاق المستقبل

وصولاً إلى إنهاء الأزمة اللبنانية

هل اقتربت اللحظة التاريخية التي ستشهد أنتهاء الأزمة اللبنانية ؟

أتابع النظر في هذا السؤال الذي ألّح عليّ بمناسبة زيارتي للبنان للمشاركة في ندوة « لبنان وآفاق المستقبل » . وأكتب هذا الحديث وقد دخلت انتفاضة شعب فلسطين العظيمة عامها الرابع بينما تداعيات أزمة الخليج ومضاعفاتها تتتالى . وقد بدا لى وأنا أختم اليوم الأول للندوة الذي كان مخصصاً لأوضاع لبنان الداخلية أن الوحدة الوطنية اللبنانية توشك أن تتعافى مما أصابها وأن جميع الاخوة أياً كانت مواقعهم في أطلس مجتمعهم قد تمثلوا عبر الأزمة على هذا الصعيد الداخلي . وتشوقت لمناقشات اليوم الثاني الذي كان مخصصاً للعلاقات اللبنانية السورية والعلاقات اللبنانية الفلسطينية .

استحضرت مفهومي للحظة التاريخية لتحقيق هدف ما فوجدت أنها تحين حين تكون جميع الأطراف التي تسعى لهذا الهدف قد تهيأت له وتوافقت عليه وتكون الأطراف المعادية له غير قادرة على المنع . وتأملت وأنا أتابع عرض الورقة الخاصة بعلاقات لبنان وسوريا والتعقيبات عليها في البعد العربي للقضية اللبنانية الذي يبدو واضحاً حين نستذكر تاريخ إعلان استقلال لبنان عام ١٩٤٣ ، فتجلى لي أمر ترابط البعدين المحلي الوطني والعربي القومي في وضع

كل دولة من دولنا العربية بحيث تستحيل معالجة الأوضاع الداخلية بمعزل عن العلاقات القومية . واذا كان هذا الأمر يصدق على كل الدول العربية بدون استثناء ، فإنه يتميز بقوته بالنسبة لقطرين عربيين هما فلسطين ولبنان لأنهما كانا الهدف المباشر للغزوة الاستعمارية الصهيونية لوطننا العربي في القرن الماضي . وهذا ما أوجب تخصيصهما بقرارين في بروتوكول الاسكندرية لعام ١٩٤٤ وافق عليهما بقية الدول العربية توطئة لتأسيس جامعة الدول العربية وإبرام ميثاقها . وقد تطلب القرار الخاص بلبنان تقديم حكومته تعهداً محدداً بشأن التزاماته العربية وموافقة شقيقته سوريا بخاصة لما بين القطرين من علاقة خاصة . وطبيعي أن يتم بحث العلاقات اللبنانية السورية في ضوء هذا الوضع الخاص ، فيتناول اللحظة الراهنة والبعد التاريخي ورؤية المستقبل .

لقد وفق الأخ الأستاذ معن بشور في تضمين ورقته عن مستقبل العلاقات اللبنانية السورية أهم الأفكار الخاصة بمختلف جوانب الموضوع . والحق أنه مما أسعدني أن أجد جميع أوراق هذه الندوة من نوع « الأوراق العصارات » كما خطر على بالي أن أسُميها ، التي تقدم في صفحات قليلة عصارات بحوث كثيرة وزبدة مايقال في الموضوع . وهكذا انتقلنا من الوقوف أمام حقيقة « أن الحديث عن العلاقات اللبنانية السورية في الظرف الراهن مرتبط بواحدة من أكثر قضايا الأزمة اللبنانية تعقيداً وحساسية .. وهو محاصر بخطاب ايديولوجي أو خطاب تاريخي .. وفيه آلاف التفاصيل الصغيرة .. وله بُعده العربي .. وتداخلاته اللبنانية .. ولم يجر تضمينه وثائق مكتوبة في الغالب .. ويتم بعد إبرام وثيقة الطائف » ، لنناقش أفكاراً شائعة أراد الباحث من حصرها وضعنا في صورة دروس الماضي وعبره دون الوقوع في أسره . وقد تأملنا من خلال استحضار التاريخ الممتد آلاف السنين للقطرين كيف تبدو العقود السبعة الأخيرة التي شهدت إقامة حدود سياسية بينهما فترة استثنائية

حيث كانت الحدود قبل ذلك إدارية . ورأينا من خلال مناقشة هذه الأفكار الشائعة التي تردد إبان الازمة أن اكبر خطأ يقع المرء فيه هو اعتماد المنظارين الأبيض والأسود لأن الحقيقة تجمع بينهما ولا تستثني أياً من ألوان الطيف . وكان بيت القصيد أن نصل الى ماينبغي عمله مستقبلاً ، فوجدنا أنفسنا أمام « فكرة التكامل بين القطرين كسبيل لمواجهة تحديات المستقبل التي تشمل تحدي السلام الأهلي وتحدي المطامع الصهيونية الحالية والمستقبلية وتحدي مواكبة العصر بالمقاييس العلمية » .. وهي من الأفكار الموحية .

بدا واضحاً من مجمل التعقيبات التي استمعنا اليها والتي أغنت مختلف جوانب الموضوع ، ومن مجمل المداخلات التي جاءت من المشاركين في الندوة ، أن الاقتناع أصبح راسخاً بحقيقة وجود علاقات خاصة بين لبنان وسوريا ، وأنه لابد من الوصول الى تجسيد عملي لهذه الحقيقة بإقامة علاقات مميزة بين القطرين والدولتين تضمنت وثيقة الوفاق الوطني الاشارة اليها ، وأن المطلوب الآن البحث في تفاصيل هذه العلاقات المميزة وإبرام اتفاقات مكتوبه بشأنها تصدر عن المؤسسات الشرعية . كما بدا واضحاً أن النجاح في ذلك يقتضي السعي لتوفير المناخ الصالح الذي يطمئن جميع الأطراف اللبناينة والسورية ويقضي على هواجس موجودة لدى بعض اخوتنا الموارنة بخاصة . ومن هذه الهواجس التساؤل « هل هذه العلاقات التكاملية تعني الغاء لسيادة الدولة على كامل إقليمها الجغرافي ؟ » واسئلة أخرى تتعلق بالتعاون الأمني بين لبنان وسوريا . ولكن طارحيها يسلمون بأن واقع الجغرافيا والتاريخ يفرض وجود علاقات خاصة وتكاملية بين القطرين . فالخطر الصهيوني ــ كما قال د. عصام خليفة ــ « يتحداهما معاً بالتوسع والاستيطان . ونصف حدود لبنان هي مع سوريا ، وثمة أنهار وطرق ومواصلات مشتركة بحيث يمكن القول دون مبالغة إن سوريا هي رئة لبنان » . وقد وجدت وأنا استمع الى طرح الهواجس

أن من المفيد تذكير طارحيها بأن عالمنا المعاصر لايعرف في أي من دو له مفهوم « الاستقلال » بمعزل عن مفهوم « الاعتماد المتبادل » . وكان من بين المصادفات أن أعود ومعي من رحلتي بكتاب لأخ ماروني كان كتائبياً بارزاً ينتهي فيه كاتبه بعد عرض قصة الموارنة في الحرب الى « الاقتناع حتى الأعماق بأن لبنان زائل لا محالة اذا أصر على انقاذ نفسه بمعزل عن سوريا .. فكيف رغماً عنها ؟ » والكتاب يستحق حديثاً خاصاً .

جاء موضوع مستقبل العلاقات اللبنانية الفلسطينية ليكون آخر موضوعات الندوة بعد مناقشة موضوع مستقبل العلاقات اللبنانية السورية . وبدا الترابط شديداً طيلة مناقشته بين الموضوعين انطلاقاً من الصلة القائمة بين أقطار بلاد الشام التي تشكل بمجموعها سوريا الكبرى . وقد اتصفت ورقة أخي الأستاذ شفيق الحوت التي عالجت الموضوع بأنها « محكمة . وهي من نوع الأوراق العصارات الحافلة بالفكر الجوامع القوية السبك والصياغة » كما قلت في تعقيبي عليها . ومن هذا النوع كان تعقيب العلامة السيد محمد حسن الأمين . وكذلك المداخلات التي تتالت ولعلها المرة الأولى منذ عام ١٩٨٢ بل وقبل ذلك ، التي تجري فيها مناقشة العلاقات اللبنانية الفلسطينية على صعيد الفكر السياسي بهذا الوضوح وهذه الموضوعية .

كان المنطلق في معالجة هذا الموضوع الذي طالبت به الندوة بعامة هو « مفهوم لا لبس فيه حول هويتهما المشتركة كشعبين عربيين شقيقين ، بينهما من أواصر الأخوة والروابط القومية ووحدة المصير مايحفز كل واحد منهما على نصرة الآخر وتقديم ما بوسعه من أسباب الدعم والتأييد لمجابهة العدو الواحد » . فالمعالجة الصحيحة لموضوع العلاقات بين أي قطرين عربيين يجب أن تنطلق من كونهما يحملان الهوية العربية ، وينتميان الى وطن عربي كبير وحضارة واحدة هي الحضارة العربية الاسلامية التي شارك في بنائها أبناء الأمة

نصارى ومسلمين ، ويواجهان مصيراً واحداً . وقد أضفت في تعقيبي القول « وحين يكون القطران العربيان هما لبنان وفلسطين فلابد أن تضع المعالجة في اعتبارها ايضاً انهما جزءان غاليان من بلاد الشام التي لم تعرف الحدود الفاصلة بين أقطارها الا في هذا القرن العشرين ، وانهما وسوريا والأردن مستهدفون مباشرة بالغزوة الصهيونية الاستعمارية الاستيطانية » . وقد انتهى أخي الأستاذ شفيق الحوت من هذا التحديد للمنطلق الى القول « وتبرز هنا الأهمية البالغة للدور السوري لإنجاز هذه العملية ، نظراً الى ما لسوريا من مصالح مشروعة تمس أمنها القومي المباشر في لبنان ، إضافة الى ماتملكه أصلاً من موقع جغرافي سياسي يجعلها من بين أطراف الصراع العربي المجابهة لاسرائيل قطباً أساسياً تجاوزه أو القفز فوقه في أي تحرك أمني أو سياسي يتصل بعملية الصراع سلمياً كان أو عسكرياً » .

إن ملف العلاقات اللبنانية الفلسطينية كما رتبه باحثنا الذي عاش هذا الموضوع « بكيانه ، في زهرة شبابه وفي كهولته ، على الصعيدين الخاص والعام ، فكراً وفعلاً » ، يتألف من قسمين يتناول الأول الشؤون المعيشية والمدنية لابناء فلسطين المقيمين في لبنان ويتناول الآخر مسألة الوجود السياسي والوجود العسكري الفلسطيني في لبنان . وقد وفّت الورقة المحكمة هذا الجانب الخاص بالأمور الحياتية حقه من المعالجة بعد أن وقفت أمام حقيقة أن كل ماصدر على الصعيد الرسمي اللبناني في هذا الموضوع مرسومان . واقترحت إحداث مرجعية لبنانية تكفل إدارة شؤون أبناء فلسطين الذين قُدر عددهم عام ١٩٨٣ بحوالي ٣٧٥ ألف نسمة ، والاتفاق على بروتوكول بين لبنان وفلسطين يقوم على مبدأ التعامل بالمثل ويتناول مختلف المجالات من العمل والضمان الاجتماعي الى حرية الاقامة والتنقل والسفر يستنير بما تسير عليه دول مضيفة أخرى وبخاصة سوريا وبما صدر عن جامعة الدول العربية من توصيات ،

وحصر القضايا الأمنية داخل المخيمات في إطار السلطات المدنية والقضائية ، والتنسيق في كل مايتعلق بأعمال وكالة غوث اللاجئين ، واعتماد مكتب منظمة التحرير الفلسطينية قناة للاتصال .

لقد قلت في تعقيبي عن هذا الجانب الخاص بالأمور الحياتية « إنه يحتل مكاناً متميزاً في العلاقات . ويتأثر مستقبل هذه العلاقات بمدى النجاح في معالجته . ونحن حين نتحدث عن أبناء فلسطين هؤلاء فهم بالنسبة لاخوانهم اللبنانيين أبناء العمومة منذ آلاف السنين والجيران والأصهار ورفاق النضال منذ ان استهدفت فلسطين واستهدف لبنان والوطن العربي بعامة بالغزوة الصهيونية الاستعمارية » . وأكدت على المنطلق العربي في معالجته ، وعلى استخلاص عِبر التجربة الماضية ، وعلى ان يتوصل الى إبرام اتفاق مكتوب ، وعلى أن يتجسد المنطلق العربي فيه باقرار مبدأ المواطنة العربية الى جانب المواطنة القطرية وتقنين هذا المبدأ . وكم أسعدني أن أجد إجماعاً في الندوة وفي اللقاءات التي حظيت على التسليم بهذه الأفكار والاقتناع بضرورة الاسراع في معالجة هذا الجانب والشعور بأن الجو مناسب لذلك .

كان واضحاً أن الأمر مختلف بالنسبة للجانب العسكري والسياسي من العلاقات . وقد استشعرت الورقة ذلك وعالجته بموضوعية وصراحة مسجلة ستة ثوابت كمؤشرات للحلول المرجوة تتعلق بترابط قضية فلسطين وقضية لبنان في اطار الصراع العربي الصهيوني . وسادس هذه الثوابت « هو لب الخمسة الأخرى » كما وصفته الورقة وهو « حتمية الاتفاق على تصور استراتيجي من شأنه ضبط أي تحرك سياسي أو عسكري في مسار عملية الصراع الدائرة مع رعاية خصوصية كل طرف في توزيع المهمات والأدوار . والمقصود هنا سوريا ولبنان وفلسطين ، على أمل السعي المتواصل لتشمل وحدة التصور عواصم عربية أخرى » . وقد تحدث العلامة السيد محمد حسن الأمين

عن التعقيدات والصعوبات التي تواجه البحث في هذا الجانب فصنفها الى تعقيدات ذات مصدر لبناني وأخرى ذات مصدر فلسطيني وثالثة ذات مصدر عربي . وتساءل بشأن الأولى تساؤلات لم تتضمن وثيقة الطائف اجابات محددة لها ومنها « هل يمكن قيام لبنان موحد ومستقل وذي سيادة حقيقية دون إنجاز التحرير ؟ واذا كان الجواب بالسلب فإن السؤال الذي يطرح نفسه : كيف نحرر الأراضي اللبنانية المحتلة من قِبل العدو الصهيوني ؟ هل يتم اعتماد خيار المقاومة ؟ هل يتم اعتماد القوة العسكرية المنظمة المتمثلة بالجيش اللبناني ؟ هل يتم اعتماد التحرك الدبلوماسي والسياسي ووسيلة الأمم المتحدة ومجلس الأمن لفرض تطبيق القرار ٤٢٥ ؟ وهل نأخذ بهذه الخيارات مجتمعة أو نأخذ بها على نحو البدلية ؟ » وبدا لي من مجموع ماسمعت أن هذا الجانب سيجد معالجة له على صعيد عربي يكون لسوريا دور خاص فيه .

لقد برز السؤال عن اقتراب اللحظة التاريخية التي ستشهد انتهاء الازمة اللبنانية مرة أخرى أمامي في ختام الندوة . ووجدت أن البعد العربي للأزمة قد نضج ، فالجو العربي المحيط بها يشهد تفاعلات لاستكمال التهيؤ . فسوريا مقبلة على متابعة جهودها لانهاء الازمة وهي راغبة في ايجاد حلول ناجحة لكل مسببات الأزمة . وقد حدثت ظروف عربية ودولية خلال هذا العام ومنذ نشوب أزمة الخليج بخاصة جعلتها اكثر قدرة على التحرك . وهناك جديد مؤثر شهد الجو العربي المحيط هذا العام هو عودة العلاقات بين سوريا ومصر . ولاشك في أن التفاعل الناجم عن ذلك يسهم في الاقتراب من اللحظة التاريخية المناسبة . وقد نجم عن التفاعلات الأخيرة في المنطقة وضع يمكن العمل فيه لكسب تأييد جميع الأقطار العربية لإنهاء الأزمة .

اللحظة التاريخية إذاً تقترب . ولكن سيبقى الكيان الصهيوني يحاول بكل قوته تأخيرها. وستبقي السياسة الاميركية تجاه المنطقة ولبنان وفلسطين

عاملاً سلبياً. وهذا يعني أن علينا أن نواجه هذين الأمرين كي نعطل قدرتهما على تأخير اللحظة التاريخية. وان باستطاعتنا ذلك اذا نحن عززنا وحدة لبنان الوطنية ووفرنا له الدعم العربي، والوصول الى بيروت الكبرى شاهد على ذلك.

أزمَة الخَليج والإنتفَاضَة(*)

● شددت في كتاباتك الأخيرة على النظام العربي .. الأمن الاقتصادي .. الوحدة .. المواطنة ، الخ ، ولمست الثغرات في هذا النظام ، والعقبات أمام الوحدة وغيرها .. فما هو موقفكم من أحداث الخليج الحالية ؟ وخاصة من خلال الرؤية القومية .. تلك الرؤية التي اصابها الانقسام كما اصاب كل الرؤى والتيارات الأخرى على الساحة العربية تجاه هذه الأزمة ؟!

ـــ الموقف الذي اتخذته لنفسي بدءً لتحديد المنهج الذي اتعامل وفقه مع الازمة وقد حددته على صعيد الفكر منذ اليوم الأول لها : بأن نحاول فهم ماحدث ثم نبحث في الأسباب الكامنة له ثم نقف متأملين فيما سيكون له من تداعيات ومضاعفات .

لقد بدا واضحا منذ اليوم الأول اننا امام ازمة وقعت بين قطرين عربيين لكن سرعان ما أصبحت ازمة عربية داخل الدائرة العربية الواحدة ثم ما اسرع ان اصبحت بين ليلة وضحاها ازمة عالمية دخلت فيها أطراف دولية كثيرة ، ومن هنا كان لابد من التعامل معها على مستويين : المستوى الأول : يخص الدائرة العربية وينظر الى الازمة باعتبارها تمثل صراعاً قائما داخل هذه

(*) حوار اجراه الأستاذ مجدي رياض ونشر بصحيفة الوحدوي اليمنية يوم ١٩٩١/١/٧

الدائرة .. والمستوى الثاني ينظر اليها على الصعيد العالمي باعتبارها تتعلق بأزمة النظام العالمي وباعتبارها تضع الدائرة العربية بمجموعها امام خطر خارجي كبير ، فكيف نوفق من موقف وقوفنا نحن على أرض وطننا الكبير .

من موقع استحضارنا نحن لدوائر انتمائنا وهويتنا المحلية والوطنية والعربية والحضارية وكلها معا تشكل هويتنا العربية ضمن الحضارة العربية الاسلامية ، كيف نقف لنعالج هذين الامرين مع وجود تناقضات وتصادمات فيها ..

كان علينا على الصعيد الفكري ان نبذل الجهد وفق ذلك المنهج ، وقد توصلنا قدر المستطاع وفق المعلومات المتوافرة الى معرفة الأسباب المباشرة ، لكننا وقفنا طويلاً امام الأسباب الكامنة وبمجموعها كشفت أمامنا عدة ملفات ، ثلاثة منها تتعلق بأزمة النظام الدولي وبعلاقتنا مع الدائرة الخارجية ، واثنان منها متعلقان بوضعنا داخل الدائرة العربية .

وقد لفت انتباهي حقيقة : ان وزير الخارجية الفرنسي في آخر الأسبوع الأول للأزمة قد اشار الى الملفات الثلاثة على الصعيد الدولي .. وهي :

أولاً : موقف الحضارة الغربية تجاه الحضارة العربية الاسلامية فالازمة تنذر بفتح الملف ومعلوم أن هذا الموقف هو موقف عدائي ومعلوم أن قوى معينة في قلبها الصهيونية العالمية تسعى دائما الى استعداء الحضارة الغربية على حضارتنا ومختلف الحضارات الأخرى من خلال نظرة عنصرية .

ثانيا : انذرت الأزمة بفتح ملف الموقف الغربي من الكيان الصهيوني واعتماده كقاعدة صهيونية استعمارية غربية للتحكم في أمتنا ووطننا العربي ككل وهو يثير في نفوس جماهيرنا الكثير ..

ثالثا : فتح ملف توزيع الثروة في عالمنا ، وهو ملف الأغنياء في الشمال

والفقراء في الجنوب ومعلوم ان الفقر والغنى في عالمنا ظاهرتان متلازمتان لأن الغنى جاء نتيجة نهب مالدي الجنوب وافقاره !!

● ماذا عن الملفين الخاصين بالدائرة العربية ؟!

ـــ الملفان اللذان برزا في دائرتنا العربية هما يتعلقان بالشورى والديمقراطية فقد بدا واضحا من قراءة الأسباب المباشرة وقراءة الأسباب الكامنة أن افتقاد الشورى والديمقراطية كان سبباً أساسياً لتدهور الحال الى ماوصل اليه .

حقيقة مازالت طريقة اتخاذ القرار في كثير من دولنا لاتتم عبر المؤسسات فتأثر كثيراً بالنوازع التي تحدث على صعيد الفرد الذي له قدرة ومركز قوة على أن يفعل كذا وكذا ، ولو ان الشورى ـــ الديمقْراطية ـــ أحكمت من خلال مؤسساتها لأمكن التقاط الأنفاس وما وصل الصراع بين الأخوة الى استخدام السلاح ولأمكن الوصول الى حلول ولأمكن طرح القضايا بدون الارتباط بقوى خارجية تقوم بضبط أمورنا .

الملف الثاني الذي فتح بقوة هو ملف العلاقات بين هذه الدول العربية والتي قامت فقط في هذا القرن بعد خطوط سايكس بيكو ، ملف العلاقات بين هذه الدول القطرية فتح على اكثر من صعيد : فتح على صعيد النزعة القومية في الأمة من أجل بلوغ هدف التوحيد ، فتح على صعيد المواطنة العربية الى جوار المواطنة القطرية ، فتح على صعيد العلاقات القائمة بين هذه الدول مقارنة مع علاقاتها بالدول الغربية التي كانت تستعمرها ..

● ما هي المواقف التي رأيتم اتخاذها بعد أن فتحت أمامكم هذه الملفات الخمس ؟! (العربية والدولية)؟!

ـــ المواقف التي اتخذناها على صعيد الفكر تجاه الملفات التي فتحتها الازمة أمامنا هي :

أولاً : كان واضحا ان الأزمة تسببت في معاناة شديدة للكثير من ابناء أمتنا وانذرت بمزيد من هذه المعاناة فكان الموقف أن نفعل بكل ما أوتينا من قوة لتخفيف المعاناة عن الانسان العربي ، وعلى هذا الصعيد رفعنا شعار حقوق الانسان العربي ، وأخذنا على عاتقنا ان نشير الى كل انتهاك لهذه الحقوق ، والحقيقة أننا وقفنا أمام انتهاكين أحدهما جاء من خلال هذه الاجراءات التي اتخذتها هذه الدول أو تلك بحرمان الانسان العادي من مدخراته تحويشه العمر ومن أشياء بسيطة يريد أن يأخذها ، وتفرض عليه أن يغادر بطريقة غير مناسبة ، نأخذ من أهلنا المقيمين في الكويت من الكويتيين ومن العرب ليخرجوا بين ليلة وضحاها . وكان لابد من التنبيه الى خطورة هذا الأمر .. والحديث عن نتائجه ضمن اطار انتهاك حقوق الانسان ..

ثانياً : وقفنا امام امر آخر وبقوة ، وهو ماسميته « باعلام الازمة » حيث قامت مراكز دعائية صهيونية بالغرب الى جانب بعض المراكز الاعلامية الغربية الاستعمارية بحملة دعائية تستهدف الوقيعة بين ابناء أمتنا على صعيد جنسياتهم القطرية ، تستخدم الجنسية للادانة .. فهذا من جنسية كذا فعل كذا ولابد ان يخرج من البلاد ، وهذا من جنسية كذا التي فعلت واقترفت .. الخ ، وكان لابد من الموقف الذي يواجه دعايات « اعلام الازمة » ويرفع شعارات حقوق الانسان . وعلى صعيد آخر يذكرنا بأننا أمة واحدة وبأننا أخوة ، ولقد استطعنا ان نحقق تقدما ملموسا عندما انتقلنا ببحث أزمة الخليج من دائرة دعايات الأزمة الى البحث العلمي في عدد من الندوات هنا وهناك ..

ثالثاً : وكان الموقف الثالث هو التنبيه الى الخلل القائم في النظام الدولي ،

فالأزمة لاتتحول إلى أزمة عالمية الا اذا وجد هذا الخلل، والخلل في النظام الدولي له مظهران أولهما اخفاق الأمن الجماعي وثانيهما شدة التنافس بين الدول المتسلطة على هذا النظام الدولي . واذا سألنا انفسنا : أين هذا الخلل بينما الجميع يتحدثون عن نظام دولي جديد ؟! فنقول ان الجديد محصور في نقطة واحدة وهي ان احد القطبين في النظام السابق سلم بالقيادة للقطب الآخر !! فأصبح نظاماً دولياً ذا قطب واحد ولكن الخلل الذي كان قائما فيه مازال مستمراً ، فهذا النظام الدولي يفتقد الى العدل ، بل من الممكن ان يتفاقم بانفراد قطب واحد فيه ..

ولذلك كانت مهمتنا ان ننبه بكل ماأوتينا من قوة الى ضرورة اصلاح النظام الدولي . وننبه أمتنا ككل الى أنه في مثل هذه الازمات العالمية تسنح الفرصة لإحداث تطوير وهي تسنح لنا كأمة عربية لأول مرة منذ حوالي قرن ونصف ..

● بالنسبة لما أسميته بأعلام الازمة .. هناك نقطة نريد استيضاح الموقف منها . فهذا الاعلام يدق طبول الحرب ويدفع كل القوى نحوها ، فما هو موقفكم من هذا التصعيد وذلك الحل ؟!

ــ أن الموقف الذي اخترناه هو أن نمنع نشوب الحرب لأننا رأينا أنه اذا تطورت الأحداث على صعيد الدائرة العربية بحيث تقوم الحرب ويقاتل الانسان العربي أخوة عرب لنا وتقضي على قوة دولة عربية هي جزء من قوة الدول العربية مجتمعة حتى لو حدث ماحدث بينها وبين دولة أخرى ..

لذا كان لابد من العمل بكل ما أوتينا من قوة لنمنع اندلاع الحرب آخذين بعين الاعتبار كل التداعيات والمضاعفات التي يمكن أن تحدث تبعا لذلك .

ومن زاوية أخرى رفعنا شعارات تقول بإمكانية حل عربي يستوحي القيم الاسلامية . وقد حرصت أن أضيف كلمة الاسلام لمعنيين : الأول هو ضرورة التأكيد على القيم الروحية التي جاءت من السماء. تلك القيم التي تؤكد على العدل وهو المفتقد من النظام الدولي ولا سلاما لعالمنا الا اذا اقترن بالعدل ، والسبب الثاني هو أن هذه الازمة قد كشفت عن الفظائع التي حدثت في دائرتنا العربية الاسلامية حين فصل الوطن العربي عن عمقه ، وفي الوقت نفسه جاءت الازمة لتتيح الفرصة لأول مرة أن يفيد اقامة الصلة بين دائرة الوطن العربي التي تحتل مركز دائرة الحضارة العربية الاسلامية وبين بقية دول الجوار في هذه الدائرة الحضارية ، في اطار كل ماسبق نقول بامكانية ان نصل كعرب الى المعالجة بعد ادانة عدد من الأمور التي حدثت .

● اذا انتقلنا من المستوى الفكري — النظري — الى المستوى السياسي — العملي — كيف يمكن لهذا الحل أن يتم على أرض الواقع في ظل هذا النظام العربي القائم بتداعياته وتناقضاته ؟!

— الحقيقة، أن الاساس الفكري ضروري أولا حتى يتسنى لنا البحث عن الوسائل . والوسائل التي اقترحناها منذ البداية هي ألا نقطع حبل الحوار بين دولنا العربية ، كل الدول ، وعلينا أن نتحرك بكل قوة على المستويين : الرسمي والشعبي ، فعجيب أن تأتي الوفود المختلفة : غربية — يابان — الصين ، الخ، وتزور بغداد ويجري الحديث هنا وهناك في عواصم عربية أخرى ولا يحدث مثل هذا التحرك عربيا ومازلنا نرفع بكل قوة ضرورة استمرار الحوار حتى حين تقع الأزمة وتصبح على أشدها ..

وعلينا ايضا ألا نضع فكرة الشروط المسبقة على الطريقة الغربية التي يتقنون التظاهر بها والتي يتحدثون فيها انه لابد من التسليم دون قيد أو شرط ،

و...و ، ويفعلون غير ذلك أخذين بعين الاعتبار القوة القائمة ليس الا ..

وقد رأينا من الضروري أن نتحرك وفق هذا ونتحاور ونحاول التفاهم . حقيقة أننا رضينا عن بعض التحركات الشعبية التي حاولت ولكنها لم تستكمل وافتقدنا بصفة خاصة تحركا شعبيا يمثل أهل الرأي في الوطن العربي ، وأسباب ذلك تعود الى تعقيدات معنية ولكن الأمر مازال مطلوبا .

والذي نراه مازال ممكنا هو أن يحدث تحرك عربي يصل الى امكانية لقاء عربي لايكون الهدف فيه تصعيد التوتر ، ومن هنا فحتى عمليات الادانة يجب أن تخضع من أجل هذا الهدف ويكون بالامكان أن نبحث ، لايمكن أن نغفل البعد الدولي فنحن واقعيون .. ولكننا من المدرسة التي تقول : آن الآوان لنا كعرب ونحن نتعامل مع هذه القوة الخارجية التي نصفها بأنها قوى عظمى .. نأخذ بالاعتبار أمرين : الأول هو أن هذه الدول تعاني كل منها في داخلها ضغوطا كثيرة ، والثاني هو أن العلاقات بين هذه الدول بعضها ببعض يحكمها تنافس ليس بالقليل .

واذا اضفنا الى هذين العاملين العوامل الخاصة بنا وهي اننا ادرى بمنطقتنا (أهل مكة ادرى بشعابها) وأنه بإمكاننا ان نتابع الأمور ونصل الى أعماقها ، وأن التجارب السابقة أكدت أن خلافات اكثر حدة واشد صعوبة ـــ كما حدث بين العراق وايران ـــ انتهت في لحظة معينة بين ليلة وضحاها .. وفي تاريخنا العربي الاسلامي أمثلة كثيرة على ذلك كموقعة الجمل مثلا ـــ فنحن نعرف بيئتنا وطبيعتنا وينبغي أن يكون الحل عربيا ..

● ما هي محددات هذا الحل ؟!

ـــ محددات هذا الحل العربي الذي يستوحى القيم الاسلامية هي :

١ ـ انه لايجوز بحال أن نبغي بعضنا بعضا

٢ ـ ولا يجوز بحال في الوقت نفسه أن نسمح للقوى الأجنبية أن تكون في بلادنا .

٣ ـ لابد من ادارة الازمة بحيث يتم توظيفها وفق مواقعنا المتضادة من اجل قضايانا المشتركة وترتيبها وحلها (وقد حدث تطبيق جزئي لهذا التوظيف فيما يخص الأزمة اللبنانية) .

٤ ـ وضمن اطار اداره الأزمة طرحنا موضوع الصراع العربي الصهيوني كجوهر للصراع والمشاكل في منطقتنا وأن الخلل في النظام الدولي انعكس اكثر ما انعكس في هذه القضية بالذات ، لذا فلابد لنا أن نستمر في الضغط على الولايات المتحدة لكي تصل الى الاعتماد على المعيار الواحد ولايمكن أن يكون للشرعية الدولية معياران ولابد اذن من الاشتغال بهذا الصراع الوجودي ..

وقد تألمنا كثيرا لأن شعار الربط بين الازمة وبين موضوع الصراع العربي الصهيوني نفخت فيه الدعاية الغربية المعادية لتخل بموضعيته وشرعيته ، وتثير حفيظة البعض .

● موضوع الصراع العربي الصهيوني يدفعنا الى سؤال هام حول اثر ازمة الخليج على الانتفاضة ، ففي كتاباتك الأخيرة تشير الى وجود بداية الصحوة العربية بالانتفاضة ورأيت أن هناك عوامل مؤثرة في هذه الصحوة بعضها متغيّر وبعضها ثابت ، من ضمن هذه العوامل المتناقضات العربية / العربية ، والبعد الدولي : أزمة الخليج الآن تكثف هذين العاملين . فما هي النتائج المباشرة على الانتفاضة ؟!

ـ الواقع اننا هنا سوف نتعرض لنوعين من الآثار : نوع مادي مباشر ،

وهو على هذا الصعيد كان ولاشك سلبيا ، لأن أزمة الخليج ولما سببته من معاناة للناس حرمت الانتفاضة من مبالغ كبيرة من المال كانت تأتيها حقا لها من ابناء فلسطين ومن أخوة عَرَب ، ومعلوم أن أهلنا في الخليج من ابناء فلسطين كانوا يقومون بواجباتهم نحو أسرهم ومعلوم أيضا أن صندوق الانتفاضة كان يتلقى دعما من الصعيد الشعبي العربي ومن الصعيد الرسمي العربي وقد توقف ..

نشير أيضا بعد ذلك لأثر معنوي سلبي وهو ان الصراع العربي / العربي دائما يترك اثرا سلبيا على أهلنا بالداخل ، لأنهم وهم يواجهون العدو يدركون كيف أن هذا العدو يستهدف أمتنا ككل وأنه يجب أن نخضع التناقضات كلها من أجل التناقض الرئيسي .

ولكن يجب القول أيضا أن أزمة الخليج لم تقلل من عزيمة الانتفاضة على مستوى مواجهة التحالف الصهيوني الغربي ، بل لعل ماحدث من تداعيات فيها أدت الى مجيء القوات الأجنبية قد زاد من حفز الهمة على مقاومة العدو بالداخل ..

وعلى صعيد آخر يجب القول بالاثر المتبادل أيضا ، لأن أزمة الخليج قد حدثت في الفترة التي اصطلح على تسميتها بزمن الانتفاض ، وقد جاءت هذه الأزمة في جانب منها معاكسة لروح الانتفاضة ــ وهو الانسياق وراء تناقضات ثانوية ــ ولكن من جوانب أخرى وفي مقدمتها ادارة الازمة فقد أفادت الأوساط العربية من روح الانتفاض خاصة على صعيد التعامل مع القوى الخارجية ، والمتأمل في ادارة الازمة يجد أن بعضا من هذه الادارة استفاد من روح الانتفاض وعبر عن هذه الصحوة حيث يتصرف تجاه الآخر ــ العدو الخارجي ــ من موقع وعيه الذاتي ومن موقع معرفته بهذا العدو وجوانب قوته

وضعفه ومن موقع توطين النفس على منازلته .. الخ . وهذا ما اقصده بأثر الانتفاضة على منطقتنا في زمن الانتفاض ..

● ولكن يتردد في اعلام الازمة أن أزمة الخليج قد سرقت الأضواء من الانتفاضة بل ومن القضية الفلسطينية ، وأن هذه الأزمة قد هزت معاهدة الدفاع العربي المشترك باجتياح الكويت وهذا سيعطي المبرر للعدو على هذا الصعيد ؟!

ـــ فيما يخص النقطة الأولى : فقد حدث بالفعل تحويل انتباه الاعلام ولكن اذا نظرنا الى الملفات التي فتحتها الأزمة والى ماكشفت عنه على صعيد الخلل في النظام الدولي والى الموقف الذي وجدت الولايات المتحدة نفسها فيه امام العالم وهي تعتمد معيارين وتكيل بكيلين فان من الواضح تماما أن قضية فلسطين لم تشهد تحريكا لها على مدى ٤٢ سنة الماضية مثل ما شهدته أبان هذه الشهور .. وهذا الفضل لايعزى مثلما حدث من انتهاكات أو صراع أو بغي لهذا الطرف العربي على هذا الطرف العربي بقدر ما نسجل أن الظروف قد أدت الى هذا .

ونحن نورد هذه الحقيقة في معرض تنبيه الأقطار العربية الى أن الوقت مناسب لأمرين :

الأول : هو الاسهام في تطوير النظام الدولي بحيث يعتمد معياراً واحدا .

الثاني : هو التحرك معا من موقع واحد للوصول بالولايات المتحدة الى اصدار تصريحات واضحة بينه تعبر عن احترامها للشرعية الدولية وقد اقترحنا تصريحات محددة بالذات احدها : يتعلق بالقدس ويوجه لمنظمة المؤتمر

الاسلامي تعلن فيه الولايات المتحدة ضرورة انسحاب اسرائيل من القدس المحتلة عام ١٩٦٧ م ، والثاني تصريح يقدم للجامعة العربية بشأن الانسحاب من جميع الأقطار العربية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ م (الضفة والقطاع والجولان وجنوب لبنان) بمعنى الالتزام الكامل بضرورة الانسحاب الكامل ضمن مدى زمني قصير جدا ..

والحقيقة .. ومع كل التصريحات التي تتتالى بأن أزمة الخليج اضرت بقضية فلسطين الا أنني أرى أن التحريك السابق للقضية على مدى ثلاثة وعشرين عاما بالمنهج الذي صار فيه كان يمكن أن يصل الى شيء حاسم ، بل ان الانتفاضة دللت على اسلوب الوصول الى الشيء الحاسم . وروح الانتفاض أوحت بكيفية ادارة كل ازماتنا . وقد دعوت مؤخرا وبقوة الى ضرورة أن تتحول كل الدول العربية والى غير رجعة عن اسلوب التفاوض الذي اعتمدته منذ ثلاثة وعشرين عاما مع الولايات المتحدة الامريكية والذي لم يحسن توقيت التفاوض وأهمل توظيف الأوراق العربية في هذا التفاوض فأدى الى التخلي عن حقوقنا حقا أثر حق وبدون أي مقابل مع بقاء العدو على مواقفه وازدياد عدوانيته وتوسعه . وقد آن الآوان أن نعتمد أسلوبا جديداً نستمده من روح الانتفاض . وآن الآوان أن نقدم كل ما باستطاعتنا لخدمة الشعار الذي نراه مرفوعا للانتفاضة وقد اخذت عامها الرابع وهو شعار الاستمرار والتصعيد والشمول وهذا الدعم يجب أن يصل ليطبق جزء آخر من الشعار يخص الأمة وهو الوصول الى التلاحم الكامل بالانتفاضة ..

دراسة في أزمات عالمية

حديث الحرب والسلم

اكتب هذا الحديث في الأسبوع الأول من عام ١٩٩١ الميلادي من وحي التأمل في الأحداث الجارية . وقد دعاني الى هذا التأمل سؤال وجهته لي إذاعة عربية عما اذا كانت الحرب ستندلع يوم الخامس عشر من هذا الشهر أو بعد ذلك بقليل ، أم أن الأزمة ستجد حلاً سلمياً .

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أستمع فيها إلى مِثل هذا السؤال . فقد سمعته مرات يتردد على الألسنة في المجالس والطرقات . بل إني رأيته مرات في عيون آثر أصحابها الصمت . وتذكرتُ صورة رسمها مؤرخ بيزنطي في القرن الخامس الميلادي بحديثه عن سؤال يتعلق بخلاف ديني نشب كان يتردد في البيوت والأسواق والحمامات والطرقات .

تركت نفسي على سجيتها بعد أن حضرّت إجابتي عن السؤال ، فكان أول ماخطر على بالي ما قاله زهير بن أبي سلمى في معلقته عن الحرب . وتذكرتُ البيت الأول من مجموعة الأبيات الشعرية :

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرّجم

ورغبت أن أراجع بقية الأبيات فاستعنت بابنتي التي تتابع دراساتها العليا في الأدب العربي ، فجاءتني بشرح المعلقات السبع للزوزني ، وقرأت

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة   وتضرى إذا ضريتموها فتُضرم
فتعرككم عرك الرَّحى بثفالها   وتلقح كشافا ثم تنتج فتُتْئِم
فتنتج لكم غلمان أشأم كلّهم   كأحمر عادٍ ثم تُرضع فتفطِم
فتغلل لكم مالا تُغلّ لأهلها   قرى بالعراق من قفيز ودرهم

لقد كان زهيرٌ الشيخ الذي خبر الحياة يخاطب قومه في هذه الأبيات لأن الحرب وقعت بينهم حين تقاتلت قبيلتا عبس وذبيان . وما أفظع ماتسببه الحرب على الصعيدين المادي والمعنوي حين تقع بين الأخوة داخل البيت الواحد . فالكل فيها « قاتل ومقتول » على حد وصف جليلة بنت مرة في قصيدتها الخالدة التي قالتها بعد أن قتل أخوها جساس زوجها كليب . وهذه الحرب بين الأهل ماأسرع اذا « بعثوها » أن تضرى ويمتد لهيبها ، فتعركهم عرك الرحى جميعاً وتطحنهم ، وهي ليست عاقراً بل المشكلة فيها أنها ولود وأنتاجها شؤم وغلّتها كلها خسائر . وقد خصص زهير جزءاً من قصيدته لمدح الرجلين اللذين نجحا في إنهاء هذه الحرب وفي إدراك السلم ، وهما هرم بن سنان والحارث بن عوف . وماأروع المعاني التي ساقها في مدحهما وهو يحلف يميناً « نعم السيدان وجدتما كاملين مستوفيين لخلال الشرف في حال يحتاج فيها الى ممارسة الشدائد وحال يفتقر فيها الى معاناة النوائب » ، وهما اللذان تحملا أعباء ديات القتلى .

يميناً لنعم السيدان وجدتما   على كل حال من سحيل ومُبرَم
تداركتما عبساً وذبيان بعدما   تفانوا ودقوا بينهم عطر منشَم
وقد قلتما أن ندرك السِّلم واسعاً   بمالٍ ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن   بعيديْن فيها من عقوق ومأثم
عظيمين في عَليا مَعَد هُديتما   ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم

وأتأمل كيف بقي ذكر هذين الرجلين العربيين مقترناً في ذاكرتنا التاريخية بحسن الثناء بعد أن حفظت لنا قصيدة زهير ماقاما به . وما أعظم أن يظفر الانسان في حياته وبعد مماته بالأحدوثة الحسنة التي اعتبرها بعض الحكماء من أحمد الأشياء .

تشوقت عند هذا الحد إلى أن أراجع « كتاب الفريدة في الحرب » من « العقد الفريد » لابن عبد ربه الاندلسي . وحين فعلت وجدت أنني كنت أبحث فيه عن نظرة قومنا الى الحرب بعامة والاقتتال بخاصة . وهي نظرة ترى أنه اذا كانت الحرب ضرورة في بعض الأحيان فإن اللجوء اليها يجب ألا يكون إلا حين تستعصي الحلول . ولابد في كل الأحوال أن يعمل العقلاء على الحيلولة دونها ماأمكن ذلك وعلى إطفاء نارها اذا ما اشتعلت وقد تأملت في قول العرب « الحرب غشوم ، لأنها تنال غير الجاني » فوجدته يتضمن حكمة التحسب . وتوقفت أمام أقوال تحذّر من الإنسياق الى الحرب أوردها صاحبُ العقد الفريد . فهذا عنترة الفوارس يقول في وصف الحرب « أولها شكوى ، وأوسطها نجوى ، وآخرها بلوى » . وقد شبهها عمرو بن معد يكرب حين سأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه عنها بالفَتيّة المتزينة في أولها ثم لاتلبث أن تعود عجوزاً شمطاء ، في أبيات هي :

الحرب أول ما تكون فتيةٌ تسعى بزينتها لكل جهول
حتى اذا حميت وشبّ ضرامها عادت عجوزاً غير ذات خليل
شمطاء جزّت رأسها وتنكّرت مكروهة للشم والتقبيل

وهذا نصر بن سيّار يقول محذراً :

أرى خلل الرماد وميض نارٍ فيوشك أن يكون لها ضرام
فإنّ النار بالعودين تُذكى وإن الحرب أولها الكلام

فإنْ لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري أأيقاظ أميةُ أم نيامُ

كانت إجابتي على السؤال الذي يتردد على كل لسان وتطرحه العيون « إن الوضع القائم اليوم قبل أحد عشر يوماً من يوم الخامس عشر من كانون ثاني — يناير ١٩٩١ يشير الى أن الاحتمالين قائمان ، فاحتمال اندلاع الحرب وارد وهناك عدة عوامل تحاول تغليبه وتنفخ فيه من أخطرها استمرار الحشد العسكري ودعايات إعلام الأزمة التي تدق طبول الحرب والتوتر البادي على مستوى القيادة في عدد من الفرقاء . واحتمال الحيلولة دون اندلاعها وارد ايضاً وهناك عدة عوامل تساعده أهمها ادراك عربي على الصعيدين الرسمي والشعبي بأخطار الحرب على أمتنا ووطننا بخاصة بفعل ماستشهده من اقتتال بين إخوة ومايمكن للعدو الصهيوني أن يفعله أثناءها ضد الأخوة المتقاتلين ، وإدراك دولي على الصعيد الرسمي يتنامى تدريجياً على الصعيد الشعبي بأن أحداً في العالم لن ينجو من أخطار الحرب وتداعياتها ومضاعفاتها . وهذا مايدعونا الى التحرك بكل ماأوتينا من قوة خلال هذه الأيام لتغليب الاحتمال الثاني والعمل لمنع اندلاع الحرب . ومن هنا فإن السؤال الملح الآن هو كيف نعمل ؟ وماذا نعمل ؟

واضح اننا لانبدأ في عملنا من الصفر . فمنذ نشوب الأزمة تبلورت مجموعة أفكار حول ماينبغي عمله جرى اختبارها عملياً . ومن هذه الأفكار الدعوة لنزع الفتيل المشتعل والتقاط الأنفاس ، والدعوة لاعتماد الحوار وممارسة الدبلوماسية السرية فيه توطئة لإعلانه ، والدعوة للوقوف في وجه مايقترن بالأزمة من انتهاكات لحقوق الانسان على صعيد الاجراءات والممارسات وعلى صعيد دعايات إعلام الأزمة ، والدعوة للتحرك لتوظيف جميع الأطراف العرب

أوراقهم أثناء الازمة لإعادة بناء نظام أمني عربي إسلامي لمنطقتنا الجذرية لكل قضايانا .

لقد انتشر الوعي بأخطار حرب تندلع بين أبناء أمتنا وفي مختلف أنحاء عالمنا . وبدت واضحة إرادة الغالبية في تجنب اعتماد الحرب كحل والصبر على متطلبات الوصول الى حل سلمي . وعلينا بأن نكثف الجهد لمتابعة الدعوة لنزع الفتيل المشتعل والتحذير من شدّ الاعصاب الذي ينجم عن تحديد موعد ملزم لتغليب الخيار العسكري ، مع تقديرنا لتحرق مَنْ تكويهم الأزمة بنارها على استخدام « الكي » كآخر دواء .

كان من أبرز ماشهدته الشهور الأربعة الماضية إقبال أطراف رئيسيين في الأزمة على الحوار ، واللجوء الى أشكال مختلفة من الدبلوماسية . وقد للغرب على هذا الصعيد نصيب أكبر من نصيب العرب على غير ماينبغي يكون عليه الوضع . ولفت النظر من بين هذه الاشكال تلك الزيارات التي قامت بها شخصيات معروفة بادرت للتحدث في التسوية السلمية أثناء تحركها في موضوع الرهائن . ومازال مطلوباً استمرار التحرك على صعيد غير رسمي من قِبل « الحكماء » في وطننا العربي وفي العالم لإنضاج الحل السلمي للأزمة مضموناً وشكلاً . و« الحكماء » هم شخصيات خبرت العمل العام ولم تعد أسيرة « قيود السلطة » ونصب عيونها المصلحة العامة . ويتميز هؤلاء بفهمهم لغات الأطراف كلها وبقدرتهم من ثم على التقريب بينها . ومن الملاحظ أن الأزمة قدمت مثلاً صارخاً على الاختلاف القائم بين لغات الحوار القائم بين لغات الحوار التي تعتمدها الأطراف . وقد جرى الوقوف بخاصة أمام اللغة الاميركية لكون الولايات المتحدة دولة كبرى ولخصوصية التجربة الاميركية وحداثتها . وكان من أبرز ماجرى استخلاصه أنها لغة تعمد الى الانذار النهائي

بداية حين تريد فتح باب الحوار ، فهي تقول « هذا أو الطوفان » أو تقول « لا خيار الا هذا » و« إما هذا أو لاشيء البتة » أو تقول « تأخذ هذا بحذافيره أولا تأخذ شيئاً » الخ ... تعبيراتها « الحاسمة » في ظاهرها . وكم من مرة أدت هذه اللغة الى استمرار باب الحوار مغلقاً أم أنها كانت تريد فتحه . وجرى الوقوف أيضاً أمام لغة أوروبية غربية وأخرى روسية وأمام اللغة العربية في الحوار . وهذا الموضوع يستحق حديثاً خاصاً يضع نصب عينه إرساء أسس لغة جديدة للتفاهم في عالمنا تقوم على القيم والاخلاق وتأخذ بعين الاعتبار تنوع الحضارات .

شهدت الشهور الماضية أيضاً إنطلاق أصوات كثيرة للوقوف في وجه انتهاكات حقوق الانسان الذي كوته الأزمة بنارها . ولكن ماتحقق على هذا الصعيد كان أقل بكثير من المطلوب تحقيقه . ونحن مدعوون الى أن نضاعف جهودنا لإنهاء معاناة جميع من عركتهم الأزمة « عرك الرحى بثفالها » وفي مقدمتهم أهلنا الكويتيون ومن بينهم أخوة عرب وعاملون من غير العرب كانوا يقيمون في وطننا ضيوفاً علينا .

لقد رجحت وأنا أُحَضِّر إجابتي عن سؤال الاذاعة العربية أن يتم لقاء « بيكر وعزيز » قبيل الخامس عشر من هذا الشهر . وها قد تم الإتفاق على موعده . وحين يأتي موعد نشر هذا الحديث يكون اللقاء قد تم ، وجرى فيه طرح ماتبلور من أفكار حول الحل السلمي للأزمة وترتيبات مابعد الأزمة . وهذه علامة أولى تحثنا على أن ننضج نحن العرب رؤيتنا لأمن منطقتنا ولكيفية معالجة قضايانا جذرياً ، فلنعمل على العودة لمباشرة حوار عربي شامل ، يستحضر فيه المتحاورون معلقة زهير بن ابي سلمى وما قاله في السيدين هرم بن سنان والحارث بن عوف ، اللذين قالا « ندرك السلم واسعاً بمالٍ ومعروف من القول » .

حديث عن الجذور التاريخية للأزمة

أستفتح بالذي هوخير ، وأستهل هذا التعقيب بالإعراب عن شكري لمجلة الاتجاه وأخي الدكتور محمد ابو القاسم حاج حمد مديرها العام ورئيس تحريرها على تنظيم هذه الندوة وجَمْع هذا المنتدى لمناقشة أزمة الخليج وإنعكاساتها الإقليمية والعربية والدولية . وأرجو أن يسهم لقاؤنا في الارتقاء بالحوار حول الأزمة الى أعلى مستويات المعالجة الفكرية بالعقلية النقدية التحليلية الفاعلة التي تستجيب لمصالح أمتنا والإنسانية ، فنحاصر دعايات إعلام الأزمة بكل ما فيها من تعدٍ على القيم الخُلقية العُلا وبعدٍ عن الموضوعية ، ونجعل نجوانا خيراً ونصب أعيننا قوله تعالى « لاخير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » .

أعرب أيضاً عن التقدير للجهد الذي بذله الدكتور محمد كمال يحي في إعداد ورقته عن « الجذور التاريخية لأزمة الخليج وأثرها على القضية الفلسطينية » . وأثني على العرض التاريخي للأحداث التي زرعت بذور الأزمة أوائل هذا القرن والتمس العذر له في معالجته أثر الازمة على قضية فلسطين . وأنطلق في تعقيبي على « الموضوع » بجزئيه من النظر الى دائرة الوطن العربي كوحدة مع الأخذ في الاعتبار جميع الأطراف فيها ، ومن اعتماد « إرادة

الفعل » التي شاءت إرادة الله « الفعال لما يريد » أن يزود الانسان بها .
وأضع في الاعتبار ماتضمنته رسالة الدعوة من اعتبار أن الأزمة « أزمة شاملة وماسة بالوجود العربي كله ومنبثقة في جذورها عن سلبيات التركيب ، وليست مجرد أزمة ثنائية بين العراق والكويت أو اقليمية تقتصر على دول مجلس التعاون الخليجي والعراق فقط » ، ومن « ضرورة الخروج بالأزمة من طروحات الأفعال وردود الأفعال الضيقة على المستوى القطري العربي ، وكذلك الخروج من التوظيف الدولي للأزمة ضمن استراتيجية المصالح الأجنبية في المنطقة ، واعادة طرحها بعقلية نقدية تحليلية تستجيب للمصالح العربية العليا في عالمنا » .

البحث في الجذور التاريخية لأزمة الخليج يقتضي أن نستحضر بداية بنظرة شاملة الأزمة بصعدها جميعها. فنحن أمام أزمة نشبت يوم ١٩٩٠/٨/٢ إثر احتياح الجيش العراقي للكويت، فبدأت بين قطرين عربيين متجاورين، ولم -لبث أن غدت أزمة عربية بين عدة أقطار عربية تمس النظام العربي في صميمه، لم تلبث أن أضحت أزمة عالمية تتداخل فيها تفاعلاتٌ كثيرة وتتصل بها مجموعة قضايا تتصل بالنظام الدولي القائم وبالعلاقة بين دائرة الحضارة الغربية ودائرة الحضارة العربية الاسلامية بخاصة والدوائر الحضارية الأخرى في عالمنا بعامة. والحق أننا لو تأملنا في الأسباب المباشرة لنشوب الأزمة لرأينا أنها حدثت على جميع هذه الصعد المحلية والعربية والاقليمية والدولية، وبلغ تفاعلها مداه خلال الشهور السبعة الأولى من عام ١٩٩٠. ونخرج من هذا التأمل أيضاً برؤية حقيقة أن وراء هذه الأسباب المباشرة أسباباً كامنة.

يقتضي هذا البحث في الجذور التاريخية لأزمة الخليج أيضاً أن نتعرف على امتداد هذه الجذور، ونلاحظَ علاماتٍ عليها تشير الى أحداث حاسمة حدثت وتساعدنا على تحديد المراحل المتتالية في هذا البُعد التاريخي للأزمة .

وهكذا نجد حين نتجاوز السطح ونسبر أغوار العمق مرحلة بدأت منذ صيف ١٩٨٨ مع انتهاء الحرب العراقية الايرانية، ثم مرحلة أخرى بدأت قبل ذلك بثمانية أعوام حين اندلعت تلك الحرب عام ١٩٨٠، ثم مرحلة بدأت إثر اعلان استقلال الكويت عام ١٩٦١. ونمضي في سبر الأغوار وتتبع الجذور التاريخية فنمرّ بعدد من العلامات أهمها علامة انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ وانشاء منظمة الأمم المتحدة ضمن صورة النظام الدولي الذي رسمها مؤتمر يالطا. ونرى في هذه المرحلة بين عامي ١٩٤٥ و١٩٦١ علامة تشير الى حرب السويس عام ١٩٥٦. ونجد أيضاً مرحلةً سبقت بدأت عام ١٩٣٠ حين توصل العراق مع بريطانيا الى اتفاق لتنظيم للعلاقة بينهما تضمن اشارة الى الكويت. ثم نرى علامة بارزة جداً هي إلغاء الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤ في أعقاب الهزيمة التي لحقت بالدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى. ونرى علامة تشير الى احتلال بريطانيا للعراق عام ١٩١٨ ثم إقامته كدولة وإقامة دول عربية أخرى بحدود سياسية فاصلة بينها لأول مرة منذ ثلاثة عشر قرناً فيها الدولة العربية الاسلامية في ظل نظام سياسي واحد هو نظام الخلافة. كما نرى هذه العلامة مقترنة بعلامة تشير الى مؤتمر فرساي عام ١٩١٩، وبأخرى تشير الى اقامة عصبة الأمم وفرضها الانتداب على هذه الدول التي أقيمت وفقاً لما اتفقت عليه بريطانيا وفرنسا زعيمتا النظام الأوروبي آنذاك في اتفاق سايكس بيكو عام ١٩١٦، وبثالثة تشير الى احتلال بريطانيا لفلسطين آخر عام ١٩١٧ في أعقاب اصدارها تصريح بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين في موقع القلب من دائرة الحضارة العربية الاسلامية. ونصل في سبر الأغوار الى مرحلة بدأت أواخر القرن الماضي أبرمت فيها بريطانيا اتفاقية مع شيخ الكويت عام ١٨٩٩ حين كانت الكويت شأن العراق جزءاً من الدولة العثمانية لها صفة قائمقامية تابعة للبصرة الولاية. ونلاحظ أن هذه المرحلة تقع ضمن الموجتين الثانية والثالثة

من الغزو الأوروبي للوطن العربي الذي بدأت موجته الأولى عام ١٨٣٠ باحتلال فرنسا للجزائر وتضمنت هذه الموجة ـ احتلال بريطانيا لعدن عام ١٨٣٩ وزحفها على ساحل الجزيرة العربية الجنوبي فالشرقي وصولاً للكويت. وبدأت موجته الثانية عام ١٨٨١ باحتلال فرنسا لتونس وبريطانيا لمصر عام ١٨٨٢ فالسودان عام ١٨٩٦ فالكويت. وبدأت موجته الثالثة عام ١٩١١ باحتلال ايطاليا لليبيا واحتلال فرنسا للمغرب عام ١٩١٢ ثم احتلال بلاد الشام والعراق في اعقاب الحرب العالمية الأولى غوراً من قبل بريطانيا وفرنسا. كما نلاحظ أن هذا الغزو الأوروبي استهدف قبل ذلك اطراف العالم الاسلامي منذ القرن السادس عشر الميلادي وتمكن خلال القرن الثامن عشر من التغلغل فيه عاملاً كل فصله عن الوطن العربي في قلبه فاحتلت روسيا الجمهوريات الاسلامية وسط آسيا واحتلت بريطانيا الهند وهولندا اندونسيا. وواضح أن جميع هذه الأحداث استقرت في الذاكرة التاريخية لأمتنا العربية والشعوب الاسلامية.

نتأمل في الأحداث التي تتالت خلال القرن العشرين بخاصة بحثاً عن أهم العوامل التي تفاعلت في تكوينها، فنجد أن أحد هذه العوامل هو ماأصاب أمتنا من ضعف بفعل غياب الشورى الى حد ليس بالقليل عن حياتنا. كما أن الغزو الأوروبي الاستعماري كان عاملاً فعالاً آخر. وقد برز «النفط» كعامل أساسي في رسم خريطة المنطقة منذ أواخر القرن الماضي حين ظهرت أهميته في الغرب. ويمكن أن نذكر للدلالة على ذلك ماورد في يوميات هرتزل عن «الموصل» حين ظهر فيها النفط، وكيف تضاعف الحماس البريطاني لإيجاد قاعدة صهيونية تابعة لهم في المنطقة لتحمي المصالح النفطية البريطانية.

نتأمل في المرحلة القريبة من الجذور التاريخية للأزمة، فنقف أمام الفترة

الممتدة بين عامي ٨٠ و٨٨ التي بدأت بتفجر الحرب بين العراق وايران، ونرى علامة تشير الى الضربة الاسرائيلية للمفاعل الدري العراقي في حزيران ١٩٨١ التي تمت بضوء أخضر أمريكي. ونتذكر الموقف الذي تقفه الولايات المتحدة من محاولات دول الدائرتين العربية والاسلامية تطوير قدراتها العسكرية وبخاصة في مجال الأسلحة غير التقليدية ومنها السلاح النووي. نرى أيضاً تدفق صحوة في المنطقة كان لقيام الثورة الاسلامية في ايران دور في إيجاد مناخ صالح لها، وجاءت الحرب العراقية الايرانية لتبدد جزءاً من طاقاتها.

لقد انتهت هذه الحرب عام ١٩٨٨، وبدا واضحاً أن الدول الصناعية السبع قلقة إزاء تنامي القوة العسكرية لبعض الدول العربية في المنطقة. وهكذا قررت «قمة فيينا» الحيلولة دون قيام دول العالم الثالث بتطوير أسلحتها وبخاصة في مجال الصواريخ متوسطة المدى. ورأينا كيف بدأت الصحافة في الغرب حملة إعلامية دعائية واسعة استهدفت دولاً بعينها من بينها العراق، وكان للإعلام الصهيوني العالمي دور خاص فيها. وقد حدث هذا كله في وقت كانت الانتفاضة الفلسطينية على أشدها تنشر روح الانتفاض في المنطقة وتقدم مثلاً رائعاً على الصحوة.

أحداث كثيرة جرت في المنطقة إبان النصف الأول من عام ١٩٩٠ في اعقاب التحولات الحادة التي شهدتها أوروبا الشرقية على مدى عام بطولة. ولسنا هنا في مجال سرد هذه الأحداث ولكننا نشير إليها لنقول إنها أوصلت الى حدوث تفاعلات حادة على المستويات المحلية والاقليمية والدولية في المنطقة، وسجلّ خطها البياني ذروته في التصاعد فجر يوم ١٩٩١/٨/٢ حين قام العراق باجتياح الكويت. وما أسرع مانشبت أزمة لم تلبث أن غدت أزمة عالمية. ومأأسرع أن سلطت هذه الأزمة الأضواء على ملف الشورى وملف العلاقات

العربية في الدائرة العربية، كما سلطت الأضواء في الدائرة الدولية على ملفات الدعم الغربي للكيان الصهيوني، والموقف الغربي الحضاري من الحضارة العربية الإسلامية، وغِنى الشمال وفقر الجنوب.

اسبوعيات حرب الخليج

العمل لإيقاف حربٍ مدمرة

أكتب هذا الحديث وقد مضى أسبوع بطوله على اندلاع حرب الخليج . قُضي الأمر ووقع ماحاول الكثيرون في عالمنا أن يحولوا دون وقوعه . وهانحن في مرحلة جديدة بدأت قبيل فجر يوم الخميس ١٩٩١/١/١٧م الموافق ١ رجب ١٤١١ هـ ، بعد مضي خمسة شهور ونصف من نشوب أزمة الخليج فجر يوم الخميس ١٩٩٠/٨/٢ . والحرب التي اندلعت لها طابع العالمية وتدور رحاها على الأرض العربية . وواضح أن معاناتنا ستكون شديدة جداً على الصعيدين المعنوي والمادي . وسيكون لهذه الحرب آثار بعيدة على حياتنا وعلى قضايا كثيرة في عالمنا الذي يشهد تحولات . وسابق لأوانه ونحن في الأيام الأولى للحرب أن نحيط بكل هذه الآثار أو نحدد ماسيحدث من تداعيات ومضاعفات ، والله سبحانه وحده يعلم ماتنتهي إليه .

اندلاع الحرب يعني أن العوامل التي رأيناها في النصف الأول من شهر كانون ثاني / يناير تتفاعل لتحدث الشرارة تغلبت في قوتها على العوامل التي رأيناها تتفاعل لتطفىء الشرارة . وأعود الى ماسجلته يوم الرابع من الشهر في وصف الوضع الذي كان قائماً ، « إن الوضع القائم اليوم قبل أحد عشر يوماً من موعد الخامس عشر من كانون ثاني / يناير ١٩٩١ يشير الى أن الاحتمالين قائمان . فاحتمال اندلاع الحرب وارد وهناك عدة عوامل تحاول تغليبه وتنفخ

فيه من أخطرها استمرار الحشد العسكري ودعايات إعلام الأزمة التي تدق طبول الحرب والتوتر البادي على مستوى القيادة في عدد من الفرقاء .. » ويتداعى الى الخاطر ماكتبناه في شرح عامل الحشد العسكري أثناء الأزمة وكيف أن هذا الحشد يكوّن حين تنشب أزمات عالمية عاملاً جديداً يدفع بقوة في اتجاه الحرب . وقد كتبنا أيضاً عن دور دعايات إعلام الأزمة في تصعيد الأزمات ودفعها لتتفجر حروباً . وكم حذّر الحكماء من التوتر البادي على مستوى القيادة في عدد من الفرقاء ، ونصحوا بعمل مايُغيِّر المناخ المحيط بهؤلاء القادة بحيث يخفف التوتر فيقلّ العناء وتقوى المرونة .

إن تغلب هذه العوامل واندلاع الحرب لايعني أن قوة العوامل الأخرى التي تتفاعل لتطفىء النار المشتعلة ضعفت . فاشتعال النار واشتداد المعاناة يُقوّيها . وهذه العوامل هي « إدراك عربي على الصعيدين الرسمي والشعبي بأخطار الحرب على أمتنا ووطننا بخاصة بفعل ماستشهده من اقتتال بين أخوة ومايمكن للعدو الصهيوني أن يفعله أثناءها ضد الاخوة المتقاتلين . وادراك دولي على الصعيدين الرسمي والشعبي بأن احداً في العالم لن ينجو من اخطار الحرب وتداعياتها ومضاعفاتها » . والحق أن الأسبوع الأول لهذه الحرب بما حفل به من تدمير وما أظهره من حقائق على أرض المعركة عزز هذا الإدراك وقواه . وهذا يعني أن المناخ صالح للقيام بتحرك يستهدف أولاً وقف اطلاق النار والكف عن عملية التدمير الجارية التي لن يكون أحد بمنجاة منها ، ثم مباشرة الحوار بين الأخوة في دائرتنا العربية الاسلامية ، ومن ثم الانتقال الى الحوار على الصعيد الدولي .

علينا أن نركز في هذا التحرك على ضرورة الحوار بين الاخوة بعد أن يُوقف إطلاق النار أولاً ، لأن هذا هو مفتاح الحل . ولابد من مصارحة الغرب

بأن أساليبه في إدارة الازمة منذ نشوبها كانت عاملاً رئيسياً في تعقيدها وفي الوصول بها بعد تصعيدها الى حد اندلاع الحرب . وعليه من ثم اذا اراد أن يُجنِّب نفسه والعالم آثار استمرار هذه الحرب المدمرة أن يفسح المجال أمام التحرك العربي الاسلامي لينهيها ، وأهل مكة ــ مذ كانوا ــ أدرى بشعابها . والأمثلة كثيرة على ذلك . ولابد من مصارحة الغرب ايضاً بأن أساليبه هذه تعاني من أزمة القيم التي تفعل فعلها في ثقافته وحضارته . وقد آن له أن يدرك ذلك حتى يتهيأ لمعالجة هذه الازمة ، ويقبل معونة الحضارات الأخرى في عالمنا له وفي مقدمتها حضارتنا العربية الاسلامية .

لقد تطرق الحديث الى أزمة القيم التي تعاني منها حضارة الغرب في عدة مناسبات شاركت فيها قبيل اندلاع الحرب في خضم مناقشة مسار أزمة الخليج . وكانت إحدى هذه المناسبات حفل لوداع سفير عربي كريم ضم عدداً من شيوخ القوم وحكمائهم ممن خبروا السياسة الدولية . وكانت المناسبة الأخرى ندوة لمناقشة أزمة الخليج وانعكاساتها الاقليمية والعربية والدولية عقدت بالقاهرة وضمت عدداً من اخوتنا مثقفي الخليج وهي تستحق حديثاً خاصاً . وقد تركز النظر في المناسبة الثالثة على حضارة الغرب أثناء البحث في مشروع عربي للثقافة في ندوة بمعرض القاهرة الدولي للكتاب انعقدت يوم ١٩٩١/١/١١ ، وتتالى الحديث عن أزمة القيم التي تفعل فعلها في هذه الحضارة من المشاركين في الندوة أولاً ثم من الحضور الكرام الذين عقب عدد منهم على طرح وحيد من المنصة انفرد بترديد المقولة إياها عن « عظمة الغرب وتقدمه وكون حضارته هي النموذج الذي يجب أن يحتذى وضرورة أن نحذوا حذوه ونحاول اللحاق به » !! وكان مما لفت النظر أن كلّ المعقبين أجمعوا على رفض هذه المقولة الانغماسية التي لم تعد تجوز على أحد في عالمنا خارج دائرة الحضارة الغربية باستثناء القلة الانغماسية ، بل ولم تعد تجوز على كثيرين في

دائرة الحضارة الغربية نفسها . وقد أسعد الحضور الاستماع الى صاحب الطرح وهو يحاول في تعقيبه الأخير على المعقبين توضيح موقفه وماقصده بعد أن رأى إجماعاً على رفض المقولة .

بدا لي خلال هذه المناسبات اننا في دائرة الحضارة العربية الاسلامية ونحن مطحونون برحى الحرب الدائرة في منطقتنا أكثر إدراكاً من أي وقت مضى لأزمة القيم الغربية التي تحكم عالمنا المعاصر بحكم سيطرة الغرب عليه . وألحَ عليّ أن أراجع ماكتبته عنها في أعقاب حرب رمضان قبل سبعة عشر عاماً . فكان مما قرأت في كتابي « ماذا بعد حرب رمضان » .

« من المتوقع أن يرث عالم الغد من عالمنا المعاصر مشكلاته التي لم يتم التوصل الى حلول لها .. وتأتي في مقدمة المشكلات الموروثة مشكلة « أزمة القيم » في عالمنا التي تلقي بظلها الثقيل على جميع المشكلات الأخرى وتؤثر على محاولات إيجاد حلول صحيحة لها . وتهدد هذه المشكلة وجود إنسان عالم الغد ومصيره وتمزق نفسه وتؤرق روحه وترهق فكره بعد أن اكتوى الانسان المعاصر بنارها وعانى أشد المعاناة من نتائجها وويلاتها . ويكفي أن نشير الى نتائجها التي ظهرت في هذا القرن .. حربان عالميتان وحروب أخرى كثيرة محدودة . وشبح الفناء بالسلاح النووي في الأفق لايكاد يغيب ويشتد وطأة بين حين وآخر مع ازدياد التوتر . ومجاعات وقحط ومسغبة ومرض وجهل يطحن ملايين البشر على الرغم من كل « التقدم » الذي حققه الانسان . واستغلال وتسلط وعنصرية وفوارق ضخمة بين سكان كوكبنا الأرض ، وأخبار ذلك كله تصل الإنسان المعاصر من مختلف أنحاء عالمنا الصغير الذي يعيش ثورة الاتصال وتضغط بثقلها عليه إن لم يعشها بنفسه .

تتجلى أزمة القيم هذه في سيطرة منطق « القوة الغاشمة والمصلحة » على

الحضارة الغربية الحديثة التي فرضته بدورها على العالم أجمع بعد أن تسلطت عليه . وقد جسدتها الأنظمة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية التي ظهرت في هذه الحضارة ، وحكمت بها علاقات شعوب الغرب بعضهم ببعض وعلاقاتهم مجتمعين بأمم العالم الأخرى . واشتد خطر أزمة القيم هذه مع ماحققته الحضارة الغربية الحديثة من تقدم علمي مادي قام على بعض القيم السليمة ، فقدم لمنطقة القوة الغاشمة والمصلحة ما يمكنه من التحكم . وكانت نتيجة ذلك وبالاً على الغرب نفسه وعلى العالم في وقت واحد . وهكذا اقترنت الكشوفات الجغرافية والثورة الصناعية بالاستعمار وويلاته . ومن ثم بالتنافس الاستعماري ، وأوصلت الى نشوب عدد من الحروب التي تضاعفت ويلاتها مرات بفعل التقدم المادي حتى بلغت ذروتها في عالمنا المعاصر . ونجمت عن ذلك كله مشكلات كثيرة » .

تداعى الى خاطري عند هذا الحد ماأورده المؤرخ الامريكي ستافر يانوس في كتابه المتميز « الصدع العالمي » عن الغزو الاستعماري الأوروبي لأمريكا الذي كان من قياداته كريستوفر كولمبوس . فمددت يدي الى الكتاب وتذكرت أن الغرب سيحتفل قريباً جداً بمضي خمسة قرون على حملة كولمبوس ، وأن نقاشاً يجري اليوم هناك حول تقويم مافعله الرجل من وجهة نظر إنسانية . وكان مما قرأت عن كولمبوس .

« روى كولمبوس كيف أنه حين حط رحاله في جزر الباهاما فوجىء بأن « هنود الأرداك » كانوا وديعين . « وقد أبدوا كثيراً من المودة نحوه حتى لتخال بأنهم سيسلمونك قلوبهم . وكانت المعجزة أنهم حافظوا على صداقتنا الى حد غريب » . ولكن كولمبوس نفسه سرعان ماكتب الى ملك اسبانيا « من هنا بمشيئة روح القدس ، يمكننا أن نرسل العبيد الذين يمكن بيعهم .. اذا أمرتم

جلالتكم بذلك .. لأنه يمكن تحويل المواطنين كافة في الجزيرة الى عبيد . فهؤلاء الناس لايحسنون استخدام الأسلحة على الإطلاق » . وقد شحن كولمبوس فعلاً خمسمائة منهم عام ١٤٩٥ مات مائتان في البحر اثناء الرحلة ومات الباقون في غضون سنوات قلائل ضحايا امراض أوروبية لم تكن لديهم مناعة ضدها . وفرض كولمبوس على كل « هندي » في الرابعة عشرة من عمره أو اكثر أن يجلب الى حصونه مره كل ثلاثة أشهر مقداراً من مسحوق الذهب بسعة أحد أجراس صقوره . وصنع علامات نحاسية لتعطى لأي هندي أو هندية دلالة تسليم ماعليهم من إتاوات . وحكم على من لايسلم إتاوته بالموت بقطع يديه ذكراً كان أو أنثى . وقد خلدت اللوحات الاسبانية القديمة صور المشاهد الرهيبة للهنود ، وهم يتخبطون في سيرهم وعيونهم جاحظة رعباً لمرأى أذرعهم المقطوعة وهي تنزف دماً . وشابه هذا الوضع ماحدث في البرازيل والكونغو حيث كان البرتغاليون والبلجيكيون المقاولون يجذون آذان المواطنين وأيديهم اذا أخفقوا في تسليم نصيبهم من المطاط الطبيعي . وقد ثبت بالأدلة القاطعة استحالة تنفيذ مافرضه كولمبوس من إتاوات ذهبية لأن الجزر كانت خالية من حقول الذهب وقد قدم الناس كل حليهم . فكان أن حاول الهنود الفرار الى الجبال فطاردتهم الكلاب ومزقت أجسادهم . وعمد بعض هنود الارداك الى ممارسة الانتحار الجماعي بقتل أنفسهم ، فمات في غضون سنتين نصف السكان الذين كان عددهم حوالى نصف مليون ، وبحلول عام ١٥١٥ لم يبق على قيد الحياة الا عشرة آلاف هندي . وبعد مضي خمسة وعشرين عاماً انقرض هذا العرق بأكمله » .

لقد حفلت القرون الخمسة الماضية التي شهدت الخروج الأوروبي لغزو القارات الأخرى بالكثير من الجرائم التي اقترفها الغزاة الأوربيون وأدت الى انقراض الملايين . وكانت أزمة القيم الغربية وراء ذلك كله . ولعل أخطر ما آل

اليه الأمر اليوم أن التدمير والإبادة لا يطولان اليوم البناء والناس فحسب ، وانما يطولان أمنّا الأرض نفسها بعد أن تطورت الأسلحة البسيطة الى اسلحة الدمار الشامل في مصانع السلاح الغربية . وقد أصبح الذهب الأسود هو المطمع بعد أن كان من قبل الذهب الأصفر .

إن كل يوم يمضي في هذه الحرب المدمرة ينتهي بإصابة أمنا الأرض بابشع الأضرار ، ويصيبنا نحن في الدائرة العربية الاسلامية بخاصة في قلوبنا . فالحرب تدور رحاها في أوطاننا وكل منا لسان حاله يردد قول جليلة بنت مرة « أنني قاتلة مقتولة » . وهذا يدعونا الى أن نتكاتف جميعاً لنصوغ موقفاً واحداً وسط كل التناقضات القائمة بيننا ، وهو موقف الدعوة لوقف فورى لإطلاق النار والكف عن عملية التدمير الجارية لربوعِنا الغالية ، ومن ثم مباشرة الحوار بيننا . ولابد لهذا الموقف أن يلجم الغرب عن المضي في أساليبه في ادارة مايجري لأنها كانت عاملاً رئيسياً فيما وصلنا اليه وفيما نحن فيه ، ونسأل الله أن يكشف الغمة .

لقد وضعنا نصب أعيننا منذ نشبت أزمة الخليج أن نعمل للحيلولة دون تفجرها حرباً مدمرة . ونحن واضعون نصب أعيننا منذ تفجرت هذه الحرب واندلعت أن نعمل بكل ماأوتينا من قوة لإيقافها وإنهائها . وسنبقى نردد « لايغلب عسر يسرين » ، ونتلو قوله تعالى « فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب » .

خواطر أثناء الحرب

(١)

أتابع الكتابة وقد اندلعت حرب الخليج . اتأمل في وقع الزمن فيبدو لي كل يوم من أيام الحرب طويلاً طويلاً تمضي ساعاته بطيئة ثقيلة . أجد لزاماً على المرء أن يقف وقفة يعيد فيها تنظيم وقته . أضع نصب عيني في هذا التنظيم ألا أقع أسير إعلام الأزمات في عصر ثورة الاتصال ، فأكتفي بسماع نشرة أخبار واحدة في الأغلب كل يوم وقد اسمع نشرة أخرى اذا تناهى الى سمعي خبر أود التحقق منه . وأحرص على أن أنجز أعمالي كالمعتاد باذلاً جهداً اكبر لتوفير المزاج المناسب للانجاز . أخصص وقتاً للتفاعل مع الآخرين لأن حاجة الانسان الى التواصل تتضاعف في المحن والجوائح والكوارث ، وشعاري في هذا التفاعل « نجوى خير » من وحي الآية الكرية « لا خير في كثير من نجواهم إلا مَن أمر بصدقة أو معروف إو إصلاح بين الناس . ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » . أصرف جانباً من الوقت في القراءة المتأنية والتأمل .

أجلس للكتابة حاملاً القلم لأقوم بواجبي كواحد من أهل القلم تجاه القارىء الكريم . وأفكر في الموضوعات التي أتناولها ، فأجد أن الأحداث الجارية تفرض نفسها على الجميع ، ولكن من حق الانسان ألا يقع تحت وطأتها . وهكذا التزم بألا أعالجها مباشرة الا اذا استشعرت الحاجة لذلك .

واختار لكتابتي موضوعات تلّح علي أحب أن أطرحها ، هي في حقيقة الأمر على صلة غير مباشرة بما نحن فيه ، وتتعلق بثقافتنا . ومنها موضوع « فواتح الكتب في تراثنا » .

(٢)

اكتب هذا الحديث وقد دخلت حرب الخليج يومها التاسع عشر . وقد أمضيت ثلاث ساعات مساء أمس مع شابين صحفيين عربيين أجيب عن اسئلتهما . وكان كلاهما مهتماً بالتعرف على ماسيكون عليه النظام الدولي بعد انتهاء حرب الخليج . ويبدو أنهما لاحظا من اجاباتي انني معني بالنظر في ماسيحدث أثناء الحرب الدائرة من تداعيات ومضاعفات ، فرغبا عند الفراغ من الحوار أن نركز الحديث على هذه التداعيات والمضاعفات المنتظرة ، وكان الوقت قد فات .

بدأت نهاري كالمعتاد بعد صلاة الصبح بسماع نشرة الأخبار . وأجريت مكالمتي الهاتفية اليومية مع أخ عزيز هو شيخ من شيوخ الفكر الاستراتيجي . وسألت الله أن يكشف الغمة ويحفظ أهلنا أينما كانوا في وطننا الكبير ويمدنا بقوة من عنده للصبر والعمل الصالح . ولايغلب عسرٌ يسرين .

وجدت نفسي راغباً في أن أتابع حديث فواتح الكتب في تراثنا ، فجلست للكتابة وقرأت ما افتتح به عبد الرحمن الجبرتي كتابه « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » ، « الحمد لله القديم الأول ، الذي لايزول ملكه ولايتحول ، خالق الخلائق وعالم الذرات بالحقائق ، مفني الأمم ومحيي الرمم ومعيد النعم ومبيد النّقم وكاشف الغمم وصاحب الجود والكرم ، لا اله الا هو كل شيء هالك الا وجهه ، له الحكم واليه ترجعون . واشهد ان لا الله الا الله

تعالى عما يشركون ، واشهد ان سيدنا محمداً عبده ورسوله الى الخلق أجمعين ، المنزل عليه نبأ القرون الأولين صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ماتعاقبت الليالي والأيام وتداولت السنين والأعوام » .

(٣)

اكتب هذا الحديث وقد مضت خمسة أسابيع بطولها على اندلاع حرب الخليج . وهاهو التحرك السياسي لانهائها يدخل طوراً جديداً في الأسبوع الخامس بما صدر عن مجلس قيادة الثورة العراقي يوم ١٩٩١/٢/١٥ وما بلورة جورباتشيف رئيس الاتحاد السوفييتي يوم ١٩٩١/٢/١٨ من مقترحات لمبادرة ، بينما لاتزال الأعمال الحربية مستمرة والمعركة البرية تلوح في الأفق القريب لم يتوارَ شبحها بعد .

واضح أن المحاولات مستمرة في اطار التحرك السياسي لابعاد شبح المعركة البرية . وكثيرون يتمنون أن تنجح هذه المحاولات . ولكن ردود الفعل على الأفكار التي جرى طرحها مؤخراً يجعلنا نتحسّب آسفين من احتمال اشتداد الوطيس لبضعة أيام وربما أسابيع أخرى قبل أن تتوافق الأطراف على حل يوقف الحرب الدائرة . وعلينا الا نسقط من حسابنا اذا حدث ذلك مايمكن أن تشهده هذه الأيام أو الأسابيع من تداعيات ومضاعفات .

اكثر من موضوع ألحّ عليّ في هذا الأسبوع الخامس ليكون موضوع حديثي . فقد شغلت بالتأمل في التداعيات والمضاعفات التي جرت منذ نشوب أزمة الخليج وبتشوف الآتي منها . كما شغلتُ وأنا أتأمل في حديث تسويات مابعد انتهاء الحرب بمراجعة ماحدث لمنطقتنا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وكيف تم القضاء على « الدولة العلية العثمانية » و« إلغاء نظام الخلافة

الاسلامية » الذي استمر ثلاثة عشر قرناً . ثم جاء موضوع « غطرسة القوة » ليزاحم هذين الموضوعين .

رؤية لمستقبل قضية فلسطين بعد اندلاع حرب الخليج

بعد خمسة شهور ونصف من نشوب أزمة الخليج فجر يوم الخميس ١٩٩٠/٨/٢ اندلعت حرب مدمرة قبيل فجر يوم الخميس ١٩٩١/١/١٧ م الموافق ١ رجب / ١٤١١ هـ لها طابع العالمية وتدور رحاها على الأرض العربية في العراق والكويت بخاصة .

واضح أنه سيكون لهذه الحرب آثار بعيدة على قضايا كثيرة في عالم الذي يشهدُ تحولات ، ومن بين هذه القضايا قضية فلسطين والصراع العربي الصهيوني . وإذا كان من السابق لأوانه ونحن في أيام الحرب الأولى أن نحيط بكل هذه الآثار أو نحدد ماسيحدث من تداعيات ومضاعفات ، فإنّ بإمكاننا أن نتعرف على معالم مجرى الأحداث وننظر في التفاعلات الحادثة بين العوامل الثابتة المكونة لها .

★ ★ ★

كانت أزمة الخليج في بداية شهرها الثاني حين أكملت الانتفاضة الفلسطينية ألف يوم من الانتفاض على الاحتلال الاسرائيلي الصهيوني للأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة . وقد اندلعت حرب الخليج بينما دخلت هذه الانتفاضة عامها الرابع مسجلة تصعيداً ملحوظاً ! على غير ماتوقعت كثير من

الدوائر الصهيونية والغربية . الأمر الذي أكد أن هذه الظاهرة عميقة الجذور في أرضها بحيث لم تستطع أزمة في حدة أزمة الخليج أن تؤثر على روح الانتفاض فيها سلبياً . وهذا مايدعونا الى أن نقرأ الانتفاضة قراءة صحيحة ، لأن هذه القراءة ضرورية للقيام بعملية الاستشراف والتشوف والرؤية المستقبلية .

لقد كان الاحتفال بدخول الانتفاضة عامها الرابع مناسبة لوقفة تتم فيها هذه القراءة . والقراءة في اللسان العربي تتضمن معنى مقارنة الأشياء بعضها بحيث يمكن وضع اليد على العناصر المكونة للأحداث وعلى العوامل الفاعلة والتمييز بين ماهو ثابت وماهو متغير ورصد التطورات الجارية في المناخ السائد والتعرف على حال الأمة . وتولي هذه القراءة عناية لتتبع حركة الناس وتأخذ في الأعتبار والحسبان في أي تحليل التحرك الجماهيري ضمن رؤيتها الشاملة .. فهي تقع في إطار « تاريخ الأفكار » الذي يرصد « التيار الغالب » في المجتمع .

الصراع العربي الصهيوني كما هو واضح من اسمه يقوم بين طرفين ومعسكرين ، وجوهره قضية فلسطين التي عنصراها الأرض والشعب . والسؤال الذي يبرز بمناسبة اندلاع حرب الخليج والنظر في مستقبل قضية فلسطين بعدها هو

« كيف كان توجه كل من طرفي الصراع عشية نشوب الأزمة ؟ وماذا طرأ على المتوجهين بفعلها ؟ وماذا سيطرأ عليهما بفعل الحرب ؟ » .

كان التوجه الصهيوني عشية نشوب الأزمة محدداً ومحكوماً بحملة التهجير الصهيوني لليهود السوفييت من أوطانهم الى فلسطين ، وهي الحملة التي مثّلت حلقة جديدة في سلسلة حلقات التهجير الصهيوني لليهود من أوطانهم منذ عام ١٨٨٢ الذي استهدف قلب الوطن العربي . وقد وضعت هذه الحملة نصب

عينها عدد المليون مُهجَّر تبلغه خلال التسعينيات لتكون أكبر الحملات جميعاً في تاريخ الغزو الاستعماري الصهيوني لفلسطين . ولم تخفِ الصهيونية تطلعها لاغتصاب أراضٍ عربية أخرى لإسكان المهجرين اليهود فيها وإحلالهم محل أصحابها العرب ، مطمئنة الى التحولات التي جرت في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية بعامة ضمن دائرة الحضارة الغربية وأدت إلى أن تصبح الولايات المتحدة ومعها بريطانيا صاحبة اليد العليا « في هذه الدائرة . وقد اوجز اسحق شامير في تصريحه وهو يستقبل طلائع هذه الحملة شرح هذا التطلع حين قال « هجرة كبيرة كهذه تتطلب اسرائيل الكبرى » .

اقترنت حملة التهجير الصهيوني هذه كما كان متوقعاً ووفق ماحدث في الحملات السابقة بتصعيد الإرهاب الاسرائيلي الرسمي وغير الرسمي لشعب فلسطين العربي الرازح تحت الاحتلال ، في محاولة أخرى لإنهاء الانتفاضة . كما اقترنت هذه الحملة بالرفض الاسرائيلي لمجرد التحرك لأية تسوية سلمية تنهي احتلالها للأراضي الفلسطينية والعربية في جنوب لبنان والجولان السورية . واقترنت أيضاً بنجاح تكتل ليكود والمجاهرين برفع شعارات « اسرائيل الكبرى » و« طرد العرب من فلسطين » و« القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية » و« التوسع في الأردن لأنه فلسطين » ، في تولي السلطة والانفراد دون « التجمع » بتشكيل الحكومة الاسرائيلية التي أعلنت على لسان رئيسها مراراً أنها تدعو الدول العربية فرادى الى القدس لإبرام تسويات معها !! وهكذا كان التوجه الصهيوني عشية نشوب أزمة الخليج نحو تصعيد العدوان المستهدف اغتصاب مزيد من الأرض العربية وإسكانها بيهود مهجرين من أوطانهم يحلون محل أصحابها العرب الذين يجري طردهم منها بوسائل مختلفة مباشرة وغير مباشرة .

شجّع هذا التوجُّهَ الصهيوني على أن يصبح غالباً في التجمع الاسرائيلي ،

ويعبرّ عن نفسه في سياسات توسعية ، الموقفُ الداعم له في الغرب بعامة وفي الولايات المتحدة بخاصة . وقد تجسدّ هذا الموقف في الضغط على الاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية ، لا لمجرد السماح بالتهجير الصهيوني لليهود الأوروبيين الشرقيين بل للتعاون في إنجاح عملية التهجير الكبرى ، وتجسد في توفير الدعم المالي لمتطلبات نقل المهجرين واستيعابهم وتوطينهم ، وفي إغلاق أبواب الدول الغربية أمامهم كي يحتشروا في فلسطين والأراضي العربية المحتلة . واتجهت السياسة الاميركية منذ ربيع عام ١٩٩٠ الى تضييق الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية وصولاً الى تجميده في شهر يونيو / حزيران من ذلك العام . كما اتجهت الى استخدام أقصى الوسائل الدبلوماسية تجاه الدول العربية للقبول بالتهجير كأمر واقع ، وبدا ذلك جلياً في المذكرة التي وجهتها الخارجية الاميركية لمؤتمر القمة العربي الذي انعقد ببغداد أواخر مايو ـــ أيار الماضي . وجاهرت هذه السياسة بتصميمها على تحقيق التفوق الاسرائيلي بالسلاح على الدول العربية مجتمعة ، وبعزمها على تحديث قوة بعض هذه الدول على الصعيد العسكري ، وبتأييدها للسيطرة اليهودية على بيت المقدس والمقدسات الإسلامية والمسيحية .

كان التوجه الفلسطيني عشية نشوب أزمة الخليج قد أصبح أشدّ عزماً وأقوى تصميماً على استمرار الانتفاضة وتصعيدها وتوسيع دائرتها ، بعد أن وصل التحرك السياسي لإجراء مفاوضات اسرائيلية فلسطينية باشراف اميركي الى طريق مسدود ، وظهرت بشكل جلي أخطار حملة التهجير الصهيوني الجديدة ، وتصاعدت سياسة القمع الاسرائيلية للانتفاضة الفلسطينية . وهكذا ارتفع في أوساط شعب فلسطين العربي الرازح تحت الاحتلال الصهيوني شعار « لا رجوع ... ولابد أن تنتصر الانتفاضة » . وأصبح التيار الغالب في الساحة الفلسطينية عموماً ينادي بتصعيد الانتفاضة .

عززّ هذا التوجه الفلسطيني ، المناخُ الذي ساد في الوطن العربي خلال الشهور السبعة الأولى من عام ١٩٩٠ بفعل حملة التهجير الصهيوني والارهاب الاسرائيلي الرسمي وغير الرسمي المستهدف الانتفاضة والسياسة الاميركية بوسائلها الدبلوماسية القاسية . وقد بدا هذا المناخ مشبّعاً باستشعار خطر ماثل وبيأسٍ من التحرك السياسي الاميركي لإبرام تسوية عادلة وبإقتناع بأن السياسة الاميركية معادية للمصالح العربية وبإحساسٍ بضرورة حماية الانتفاضة ودعمها . وتجلى هذا كله في عدة مناسبات منها اجتماع مجلس التعاون العربي على مستوى القمة بعمان في ربيع عام ١٩٩٠ واجتماع القمة العربية غير العادي ببغداد على المستوى الرسمي ، وردود الفعل العربية الإسلامية على قرار الكونجرس الامريكي بشأن القدس على الصعيدين الشعبي والرسمي . وهو القرار الذي تحدث عن القدس كعاصمة أبدية لاسرائيل .

لعل أهم نتيجة يخرج بها مؤرخ الأفكار بشأن مستقبل الصراع العر الصهيوني وقضية فلسطين عشية نشوب أزمة الخليج بعد أن تعرف على تو كل من طرفي الصراع ، هي أن الصراع سيحتدم وهو يشهد بروز البعد العقيدي فيه بشكل حاد بحيث يتحول تدريجياً الى صراع عقيدي . فالهيمنة على الصعيد الصهيوني هي لمقولات « ارض اسرائيل الكبرى » و« اعادة بناء الهيكل محل المسجد الاقصى » و« اليهود والأميين » و« طرد الفلسطينيين أو قتلهم » والحملات الدعائية المعادية للحضارة العربية الاسلامية تتزايد في الغرب وتجد أرضاً خصبة لها بين الغربيين الذين لايزالون أسرى عقدة حروب الفرنجة والإعلام الصهيوني والاقتناع الغالب على الصعيد العربي « أن الصهيونية لاتقبل إلا بالسيطرة الكاملة على المنطقة بالتحالف مع الغرب » ، و« أن السياسات الغربية تستهدف الأمة العربية بالعداء » ، « ولاسبيل الا

سبيل المواجهة » ، « فالصراع صراع وجود » ، وهو « امتداد للصراع مع الفرنجة » .

* * *

لقد حفلت الخمسة شهور ونصف الشهر التي تصاعدت خلالها أزمة الخليج بأحداث تتعلق بالصراع العربي الصهيوني وقضية فلسطين أدت في مجموعها ومحصلتها الى النفخ في كلٍ من توجه طرفي الصراع ودفعهما الى المواجهة والضرب على وتر البعد العقيدي للصراع . فالسياسة الاسرائيلية تابعت تنفيذ مخططات التهجير الصهيوني لليهود السوفييت من أوطانهم الى فلسطين . ولم تتردد سلطات الاحتلال الاسرائيلي في القيام بمذبحة القدس يوم ١٩٩٠/١٠/٨ التي اقترنت بقيام عرب القدس بالدفاع عن مقدساتهم أمام اعتداء « جماعة الهيكل » ، والقيام بمذابح أخرى تالية في قطاع غزة والضفة الغربية . والسياسة الاميركية تابعت دعمها للتهجير الصهيوني لليهود ، وتعطيلها تنفيذ أحكام الشرعية الدولية في الأمم المتحدة بما يخص الصراع العربي الصهيوني وقضية فلسطين . وقد بدت المفارقة صارخة بين المعيار الذي تتعامل به الولايات المتحدة على صعيد الأمم المتحدة في القضايا التي تتعلق بمصالحها والمعيار الذي تتعامل به في قضية فلسطين . الأمر الذي أدى الى إبراز الخلل القائم في النظام الدولي . وقد شجعت هذه السياسة الاميركية اسحق شامير على أن يعلن يوم ١٩٩٠/١١/١٨ في اجتماع مؤسسي حركة ليكود « إن قادة حزبنا السابقين تركوا لنا رسالة واضحة أن نسيطر على أرض اسرائيل من البحر المتوسط الى نهر الأردن من أجل مستقبل الهجرة الجماعية والشعب اليهودى الذي سيتجمع معظمه في هذه البلاد » . كما وصل الأمر بسلطات الاحتلال إلى حد اقتراح اسلوب جديد لقمع الانتفاضة اعتمده الكنيست يوم ٩٠/١٢/١٢ يقوم على « نشر الجيش الاسرائيلي قناصة من أفراده على مسافات

بعيدة من رماة الحجارة وإطلاق النار ، وتسليح أربعين ألف مستوطن صهيوني للمساعدة في قمع الانتفاضة » . وقام موشى ارينز وزير الحرب الاسرائيلي بزيارة الأراضي اللبنانية المحتلة في الشهر نفسه وإعلان العزم الاسرائيلي على الاستمرار في احتلالها .

إن أزمة الخليج التي بدأت محلية لم تلبث أن أصبحت عربية ثم سرعان ماغدت عالمية. واذا كانت هذه الأزمة على الصعيد المحلي فتحت ملف «العلاقات العراقية الكويتية » ، وفتحت على الصعيد العربي ملف « العلاقات العربية العربية » وملف « الأوضاع العربية الداخلية » ، فإنها على الصعيد الدولي فتحت ملف « الغرب والدائرة العربية الاسلامية » وملف « التحالف الغربي مع الصهيونية للتحكم في الوطن العربي » وملف « غِنى الشمال وفقر الجنوب » ، كما توقع رولان دوما وزير خارجية فرنسا أن يحدث منذ الأسبوع الأول للأزمة . وإذا كانت هذه الأزمة على الصعيدين المحلي والعربي قد أثارت التعاطف مع شعب الكويت العربي والاستنكار لانتهاكات حقوق الانسان التي نجمت عن اجتياح الجيش العراقي للكويت ، فإنها أثارت في بعدها الدولي قلقاً شديداً في أوساط الدائرة العربية الاسلامية من طريقة تعامل الغرب معها ، وتحسباً قوياً من اندلاع حرب مدمرة على الأرض العربية ، وشجوناً كثيرة من واقع النظام الدولي الذي أوجده الغرب وتسيطر عليه الولايات المتحدة . وقد تردد الحديث بقوة في أوساط الدائرة العربية الاسلامية عن افتقار هذا النظام الى العدل واعتماد الغرب فيه معيارين . وغذّى هذا الحديث الموقف الاميركي في مجلس الأمن عند مناقشة مذبحة القدس وماتلاها من ممارسات ارهابية اسرائيلية . كما غذّاه رفض الولايات المتحدة القاطع لكل الدعوات الدولية التي طالبت بالعمل على تطبيق الشرعية الدولية بشأن الصراع العربي الصهيوني وقضية فلسطين ، والحجة الاميركية «بأن هذا الرفض « مبدئي »! كيلا ينال

المعتدي جائزة على عدوانه » . فهذه الحجة بدت تأكيداً على الوقوف الاميركي مع المعتدي الذي يحتل الأراضي الفلسطينية والعربية منذ عام ١٩٦٧ ، وتجسيداً لأزمة القيم التي تحكم سياسات الغرب والنظام الدولي وتجعلها تكيل بكيلين وتقيس بمقياسين .

أدت تفاعلات أزمة الخليج في بعدها الدولي الى تنبيه الذاكرة التاريخية لشعوب الدائرة العربية الاسلامية والبحث عن الجذور التاريخية للأزمة . وهكذا استحضرت هذه الذاكرة كيف انفردت الدائرة الغربية ـــ بغربها وشرقها ـــ في إقامة النظام الدولي عام ١٩٤٥ فأغفلت مصالح الشعوب الآسيوية الأفريقية التي كانت تناضل الاستعمار الغربي وتحررت وأصبحت تحمل اسم العالم الثالث ، وكيف خاضت بريطانيا وفرنسا حرب السويس عام ١٩٥٦ موظفتين القاعدة الاستعمارية الصهيونية التي أقامها الغرب في فلسطين عام ١٩٤٨ لمجرد أن مصر استخدمت حقها في تأميم قناة السويس ، وكيف عملت الولايات المتحدة تمكين « اسرائيل » من ضرب مصر عام ١٩٦٧ . واستحضرت الذاكرة التاريخية وهي توغل في تتبع الجذور التاريخية إنفراد الدائرة الغربية في إقامة النظام الدولي عام ١٩١٩ وقيام الدول المتحكمة فيه بتقطيع أوصال الدائرة العربية الاسلامية وتجزئة أراضيها وفرض الاستعمار الغربي تحت اسم الانتداب والوصاية على شعوبها وأقطارها ، وكيف أقرت « عصبة الأمم » عام ١٩٢٢ صك الانتداب البريطاني على فلسطين الذي تبنى جهراً وبدون مواربة تنفيذ تصريح بلفور الذي أصدرته بريطانيا يوم ١٩١٧/١١/٢ بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، وكيف أنهى الغرب الدولة العثمانية وفرض على تركيا إلغاء نظام الخلافة عام ١٩٢٤ ، وكيف أقام بين الأقطار العربية والاسلامية حدوداً سياسية لم تعرفها الدائرة العربية الاسلامية من قبل انطلاقاً من رؤية نظام الخلافة لدار الاسلام ، وكيف تحكمت

مصالح الغرب في رسم الحدود وتعسّفت في إنكار مصالح المنطقة .

لعل أهم ماكشف عنه البحث عن الجذور التاريخية للأزمة هو الصلة الوثيقة القائمة بين إقامة الغرب « وطنا قومياً لليهود في فلسطين » وما للدائرة العربية الاسلامية من أهمية استراتيجية وسياسية واقتصادية وحضارية تجعل الغرب يخشى قوتها ويعمل لإضعافها والتسلط عليها والتحكم بثرواتها . وكذلك الصلة الوثيقة بين الحدود السياسية التي أقامها الغرب بين الأقطار العربية ومخططاته للتحكم في ثروة النفط التي تختزنها أراضي الدائرة العربية الاسلامية . كما كان مما كشف عنه هذا البحث عن الجذور التاريخية للأزمة استهداف الغرب مصر بصورة خاصة منذ معاهدة لندن عام ١٨٤٠ بعد أن نجح التكتل الغربي في ضرب قوة محمد علي العسكرية ، وتركيز الغرب على إضعافها وعزلها ومحاصرتها ، لما لها من مكان ومكانة في الدائرة العربية الاسلامية .

★ ★ ★

ليس مستغرباً وقد اندلعت حرب الخليج أن نشهد أحداثاً تتعلق بالصراع العربي الصهيوني وقضية فلسطين تكون محصلتها أن تجعل المواجهة بين طرفي الصراع تدخل مرة أخرى المجال العسكري النظامي مع حدوث إختلاط للأوراق فيها ، وأن يبلغ البعد العقيدي في الصراع والقضية مداه ، أياً كانت النتائج التي تسفر عنها هذه الحرب . ومتوقعٌ أيضاً أن تكون لهذه الحرب آثار بعيدة على الصراع والقضية . ولقد جرت أحاديث كثيرة عن آثار الأزمة على الصراع والقضية خلال فترة تصاعدها . وكان جلّ هذه الأحاديث واقعاً في أسر دعايات إعلام الأزمة بكل مافيه من تشويش ، ولم يأخذ في الاعتبار تداعيات الأزمة ومضاعفاتها المتوقعة ، وافتقد وجود مقياس علمي يجري قياس الآثار به ، واستهدف تغليب وجهة نظر على أخرى . ومن هنا تبدو أهمية الرؤية

العلمية لهذه الآثار .

الآن وقد تعرفنا على المناخ المحيط اليوم بالصراع العربي الصهيوني وقصية فلسطين ، وعلى توجه طرفي الصراع ، وعلى جذوره التاريخية نصل الى الحديث عن المستقبل وبلور رؤيتنا المستقبلية للصراع والقضية بعد اندلاع حرب الخليج .

نستذكر في بداية هذا الحديث أن الرؤية المستقبلية وفق منهجنا في دراسة المستقبل تأخذ في اعتبارها عنصر الحلم الذي يتضمن أهدافاً تسعى الأمة الى تحقيقها وعنصر إرادة الفعل عند الانسان الذي شاء الله الفعال لما يريد أن يروده بها . ونستذكر أيضاً أن أهداف أمتنا التي بلورها نضالها المتصل في تاريخها الحديث تشمل التحرر من الاستعمار باشكاله والاستيطاني منه بخاصة والوحدة والكفاية والعدل وسيادة الشورى والديموقراطية وحمل الرسالة الحضارية للدائرة العربية الاسلامية الى العالم في تفاعلات مع حضارات العالم الأخرى لحماية أمنّا الأرض وسيادة العدل والسلام والرخاء بعد معالجة أزمة القيم التي تفعل فعلها في حياتنا المعاصرة .

إن أمتنا تريد تحرير أراضيها الفلسطينية والعربية التي لاتزال تحت الاحتلال الاسرائيلي منذ عام ١٩٦٧ . وتريد ايجاد حل عادل لقضية فلسطين يلبي حقوق شعب فلسطين العربي الوطنية ومصالح الوطن العربي كله ودائرة الحضارة العربية الاسلامية والمؤمنين كافة . وقد تأكد أثناء أزمة الخليج أن الوصول الى ذلك يتطلب أن نصل نحن العرب بالولايات المتحدة الاميركية الى تغيير استراتيجيتها في المنطقة القائمة على اعتماد « اسرائيل » قاعدة لها فيها وتمكين هذه القاعدة من التحكم . كما يتطلب أن نتعاون نحن العرب مع أطراف دولية أخرى لمعالجة الخلل القائم في النظام الدولي بجعله نظاماً يقوم على العدل

وليس على القوة الغاشمة وتحكمه القيم العلا .

واضح اليوم وحرب الخليج في بداياتها أن الحقائق الاستراتيجية التي كشفت عنها أزمة الخليج للغرب بعامة والولايات المتحدة بخاصة تزداد رسُوخاً . وهذه الحقائق هي تضاؤل قيمة « اسرائيل » الاستراتيجية في الحفاظ على المصالح الغربية النفطية بعد أن تضاءلت قيمتها الاستراتيجية في الصراع بين الغرب والشرق الغربيين إثر التحولات في الاتحاد السوفييتي ، وازدياد عبء هذه « القاعدة » الأخلاقي والمادي على كاهل الغرب بعد أن أدى وقوف الولايات المتحدة معها في مجلس الأمن وتعطيل الشرعية الدولية باستخدام حق النقض الى فقدان الثقة بالأمم المتحدة وبالنظام الدولي وبعد أن هددت المواجهة بإسالة الدماء ، والحاجة الماسة الى وجود نظام عربي قوي تكون مصر آخذة مكانها فيه على عكس ماعملت له السياسة الاميركية على مدى عقود ، وأخيراً انتشار روح الإنتفاض في فلسطين والدائرة العربية الأسلامية في زمن الانتفاضة ، وتطلعها لتحقيق أهداف الأمة واصلاح الخلل في النظام الدولي .

إن رسوخ هذه الحقائق الاستراتيجية في ذهن الغرب بعامة والولايات المتحدة بخاصة من خلال ماتُسببه الحرب من معاناة يشير الى وجود فرصة حقيقية للوصول بالولايات المتحدة الى تغيير استراتيجيتها في المنطقة ، بحيث تقوم هذه الاستراتيجية على التعامل مع الدائرة العربية الاسلامية بندية واحترام . وسيعنى ذلك أن تلتزم بتطبيق الشرعية الدولية في الصراع العربي الصهيوني وقضية فلسطين ، وتكف عن اعتماد القاعدة الصهيونية الاستيطانية للتحكم في المنطقة ، وتغير من أساليبها الدبلوماسية التي اسهمت بنصيب وافر في الوصول بأزمة الخليج الى اندلاع الحرب المدمرة . كما يشير رسوخ هذه الحقائق الى وجود فرصة حقيقية أمام الأسرة الدولية لإقامة نظام دولي عادل تحكمه القيم العلا . ومعلوم أن الحروب تنتهي دوماً بفتح الباب أمام التغيير

وإصلاح الخلل الذي كان سبباً في إندلاعها .

السؤال الذي يبرز بإلحاح عند هذا الحد من الحديث هو

اذا كانت الفرصة فعلاً سانحة لتحقيق هذين الأمرين ، فكيف يمكن لنا كعرب أن نعمل ونحن نعيش صراعاً محتدماً يتضمن اقتتالاً عربياً والحرب الدائرة على أراضينا تهدد وطننا بالخراب والتدمير والنظام العربي يبدو متصدعاً مشلولاً ؟

مطلوب بداية من كل الأطراف الدائرة بخاصة وفي الدائرة العربية الاسلامية بعامة أن لاتنسى لحظة انتماءها ، وتفرق بين صراع الاخوة واقتتالهم والصراع مع العدو المتربص بالاخوة جميعاً المستهدف الأمة والوطن . تذكر هذا الإنتماء حتي وهي تتقاتل كي تصدر في افعالها منه ، ويرسم كل منها لنفسه خطوطاً حمراً لايتجاوزها .

مطلوب من ثم أنه تتجه هذه الأطراف جميعها الى ايقاف الحرب المدمرة ومباشرة الحوار على صعيد عربي بينها ومن ثم على صعيد دولي بينها مجتمعة واطراف دولية أخرى .

مطلوب أن يبلور الحوار على الصعيد العربي خطوطَ نظام عربي متماسك يرسي العلاقات بين الدول العربية على اساس متين ، ويوفر متطلبات الأمن العربي ، وينظم العلاقة بينه وبين دول الجوار في دائرة الحضارة العربية الاسلامية وفق متطلبات الانتماء الواحد لهذه الدائرة ، ويتصور ماينبغي أن تكون عليه صِلاته الخارجية مع القوى الدولية الأخرى .

مطلوب أن يتحرك هذا النظام العربي المتماسك تجاه الغرب بعامة والولايات المتحدة بخاصة للوصول بهما الى بدء صفحة جديدة مع الدائرة

العربية الاسلامية والتخلي عن اعتماد القاعدة الصهيونية للتحكم والتعاون بندية لتلبية المصالح المشتركة على أساس من العدل . كما يتحرك أيضاً مع الأطراف الدولية الأخرى لإقامة علاقات التعاون والصداقة .

مطلوب أن يحرص التحرك العربي على اعتماد اسلوب يحفظ حقوقنا ويحول دون وقوعنا في الاسلوب الذي اعتمده الغرب معنا منذ عام ١٩٦٧ في أمور الصراع العربي الصهيوني وقضية فلسطين . وهذا يعني أن نحصر أوراقنا العربية ونحسن توظيفها عند اختيار الوقت المناسب للتفاوض ، لأن نغفل ذلك كله ونرضخ لمطلب اميركي إثر مطلب بالتنازل عن حقوقنا بدون أي مقابل بينما عدونا الصهيوني مستمر في عدوانه منكر حقوقنا مجاهر بأهدافه التوسعية .

واضح أن هذا « المطلوب » وثيق الصلة بعنصري الحلم وإرادة الفعل في الرؤية المستقبلية والسؤال الذي يواجه دارس المستقبل وهو ينظر في احتمال تحقيقه هو

هل المناخ السائد في الدائرة العربية الاسلامية صالح للتحرك فيها لتحقيقه ؟ وهل اتجاه مسار الأحداث موافق هذا التحرك ؟

إن المناخ السائد في الدائرة العربية الاسلامية مشبع بروح الانتفاض تتجلى فيه ظاهرة بداية صحوة في مواجهة الغزوة الصهيونية . والصحوة كما يعرفها مؤرخ الأفكار « هي حالة تجد الأمة فيها نفسها وقد دعت ذاتها وعرفت عدوها بجوانب قوته وضعفه على حقيقته ووطنت نفسها على مواجهته واثقة من قدرتها على الانتصار عليه في صراع النفس الطويل » . وقد بدأت هذه الظاهرة في التكون منذ حرب ١٩٦٧ كاستجابة لتحدي هذه الحرب ، وجاءت حرب رمضان ١٩٧٣ مقترنة باستمرار المقاومة الفلسطينية لتزودها

بقوة ، ثم بدت واضحة في أعقاب حرب ١٩٨٢ في لبنان ضد الغزو الاسرائيلي له ، وأصبحت تتألق في سماء المنطقة بفعل الانتفاضة الفلسطينية منذ ديسمبر / كانون أول ١٩٨٧ . وتفاعلت في تكوين هذه الظاهرة عوامل أدراك الهوية بعناصرها الثلاث العقيدة واللسان والتاريخ ، وتراكم الخبرة ، وتوافر حد أدنى من العمق . وهكذا بدا مسار الأحداث في اتجاه موافق لتحرك ايجابي وسط هذا المناخ المناسب .

أمر آخر يقف أمامه دارس المستقبل مقترن بالمناخ السائد ومسار الأحداث وهذه الظاهرة وهو أن معرفتنا للغرب على حقيقته بجوانب قوته وضعفه في نمو مستمر . وقد أدى ذلك إلى تبدد أوهام كثيرة حول صورته التي كانت في أذهان الكثيرين منا . فالانتفاضة بعد المقاومة في جنوب لبنان أثبتت أنه يمكن الوقوف أمام الآلة الاسرائيلية العسكرية التي جرى تصويرها على أنها لاتهزم والتحرك السياسي الاميركي لبلوغ تسوية أوضح أنه ليس الا دعوة لسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً . والحديث الغربي بعامة عن حقوق الانسان والشرعية الدولية له معياران والمعيار الذي يستخدم معنا يؤدي في حقيقة الأمر الى انتهاك حقوق الانسان وسيادة شرعية الغاب . وهذا الأمر بمجمله يجعل الحافز على التحرك في الدائرة الاسلامية قوياً جداً لتحقيق المطلوب ، واقتناص الفرصة السانحة لإيجاد حل عادل لقضية فلسطين وإقامة نظام متماسك وتحقيق الترابط في الدائرة الحضارية العربية الإسلامية والإسهام في إصلاح الخلل في النظام الدولي القائم ومعالجة أزمة القيم التي تفعل فعلها في حضارة الغرب .

أختتم هذا الحديث وقد دخلت حرب الخليج يومها السادس . وقد تضمنت الأيام الخمسة الأولى فيها مجموعة تداعيات أكدت أن الصراع العربي الصهيوني وقضية فلسطين هي جوهر الصراع القائم في المنطقة ولابد من تكاتف القوى التي تريد السلام القائم على العدل كي تصل بالولايات المتحدة الى تغيير

استراتيجتها تجاهها . كما أثبتت هذه التداعيات أن حقيقة القوة العسكرية الغربية حين يجري امتحانها تبدو مختلفة الى حد ليس بالقليل عن الصورة المرسومة لها في أذهان الكثيرين ، وأن عدداً من الأطراف العربية أصبح أكثر خبرة في التعامل مع الغرب بشكل يجعل الغرب مدركاً أن العالم في العقد الأخير من القرن العشرين وأوائل القرن الخامس عشر الهجري يتغير وأنه لابد للدائرة العربية الإسلامية ضمن العالم الثالث أن تأخذ مكانها فيها ، ولابد من أن يصبح العدل اساس النظام الدولي السائد في هذا العالم .

إن قضية فلسطين مطروحة اليوم على الغرب كما لم تطرح قط من قبل. وإن لنا وسط معاناة الحرب المدمرة التي تدور رحاها على أرضنا العربية أن نعمل لتحقيق أهدافنا ونوظف الظروف المحيطة لصالح انتصار القيم العلا . ونحن على يقين أن العسر لا يغلب يسرين كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت عليه سورة الشرح . وعلينا أن نلتزم متأسين به بدعوة الله له « فإذا فرغت فانصب والى ربك فارغب » فما أحوجنا الى بذل الجهد وأن يكون عملنا خالصاً لوجه الله الكريم .

حديث تسويات مابعد الحرب ..

بينما دخلت حرب الخليج مرحلة أخرى في أسبوعها الرابع ، بدأ الحديث يتزايد في أوساط « الغرب » عن « تسويات مابعد الحرب » . وبات هذا الموضوع مطروحاً علينا بإلحاح ، لننظر فيه « نحن العرب » ونبلور أفكارنا بشأنه ونعمل كي يأخذ « الغرب » هذه الأفكار بعين الاعتبار .

وقد يبدو من غير المنطقي للناظر الى السطح الحديث عن « العرب » كوحدة تمثل طرفاً واحداً بينما هم منقسمون في هذه الحرب وقتال يجري بين دول عربية ، ولكن النظرة سابرة الغور ترى حقيقتين تفرضان الحديث عن « العرب » بمجملهم وتجعلانه هو الحديث المنطقي .

الحقيقة الأولى هي أن الانقسام والاختلاف في الدائرة العربية لايمحو **حقيقة الانتماء العربي ، للمنقسمين المختلفين** ، الذي يجعل كل قطر عربي متأثراً بما يجري في الوطن العربي الكبير بل ولما سيحدث للقطر الذي هو في قتال معه .

الحقيقة الثانية هي أن « الغرب » يتعامل في آخر الأمر مع « الدائرة العربية » كوحدة ومع « العرب » كطرف ، بغض النظر عن الانقسام القائم . وذلك لأنه يعتمد في تعامله على « ثوابت » ، ويعتبر الانقسام القائم

ليس منها لأنه « متغير » . ويلفت النظر أن هذا التعامل يشمل المستوى الشعبي في الغرب لأسباب تاريخية ، وهذا مايفسر مابرز على هذا المستوى من مشاعر حادة لم تميز بين عربي وآخر ووضعت كل العرب في كفة واحدة بغض النظر عن جنسياتهم القطرية ومواقف حكوماتهم .

* * *

ليست هذه هي المرة الأولى التي يطرح علينا فيها كعرب موضوع تسويات مابعد الحرب بإلحاح خلال القرن العشرين . فقد شغلنا به إيما انشغال في أعقاب الحربين العالميتين الأولى والثانية ، **وخرجنا في كل من المرتين بمرارات لاتزال تفعل فعلها في حياتنا** . ولكن من الواضح **وجود فارق جوهري** بين هذه المرة والمرتين السابقتين لسببين أساسيين .

السبب الأول أن الحرب في هذه المرة تدور في ساحة وطننا العربي ، وأن التسويات التي بدأ الحديث عنها ستتركز على منطقتنا . بينما كانت الحرب في المرتين السابقتين شاملة ساحات كثيرة في عالمنا وساحة أوروبا بخاصة ، وكانت التسوية في منطقتنا في كل من المرتين جزءاً من تسويات أشمل .

السبب الثاني أننا نحن العرب بقسمينا نمثل طرفين رئيسيين في الحرب الدائرة رحاها . وفي تسويات مابعد الحروب يكون للطرف الرئيسي اعتباره وتأثيره .

إن هذا السبب الثاني هو الذي جعل بعض الحكماء العرب ينبهون منذ نشوب أزمة الخليج قومهم المنقسمين الى **بروز فرصة أمامنا نحن العرب بأن يكون لنا رأي مسموع في رسم مستقبل منطقتنا بخاصة وفي تعديل النظام الدولي بعامة ، لأول مرة في القرنين الأخيرين** . وهذه الفرصة تتيح لنا أيضاً

نحن العرب في إطار رسم مستقبل منطقتنا توثيق علاقاتنا مع الأقطار المجاورة الأخرى في دائرة الحضارة العربية الاسلامية التي استهدفتها الغزوة الاستعمارية الغربية كما استهدفتنا وفصلت بينها وبيننا .

لابد إذاً أن نغتنم هذه الفرصة ونولي موضوع تسويات مابعد الخليج فائق عنايتنا ، ونقبل عليه كمشاركين رئيسيين ، لا كما كان حالنا عام ١٩ حين كنا واقفين بباب فرساي ننتظر مايخطط لنا ويُفعل بنا ونلتمس الرأفة ، ولا عام ١٩٤٥ حين لم يكن لنا أي وجود في يالطا وبوتسدام وجاء وجودنا شكلياً في ليك سكسس ، ولا ما كان عليه حال محمد علي عام ١٨٤٠ حين فرضت عليه الدول الأوروبية معاهدة لندن .

* * *

لعل من أهم ماينبغي أن يكون حاضراً في أذهاننا ونحن نعالج هذا الموضوع هو مجموع عبر ودروس تسويات ما بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية وماتؤكدة هذه العبر والدروس من **حقيقة فشل الغرب في المرتين في إبرام تسويات تؤدي إلى الاستقرار ، ليس في منطقتنا فحسب بل في مناطق العالم المختلفة الأخرى وفي مقدمتها أوروبا نفسها** . فتسويات فرساي عام ١٩١٩ لم تلبث أن أدت إلى حدوث هزات اجتماعية عنيفة في القارة ، وبروز المذاهب الجمعية في عدد من دولها واشتداد التنافس بين هذه الدول . وقد كوت هذه التسويات أقطار آسيا وأفريقيا بنار الاستعمار الغربي تحت اسم الانتداب واسم الوصاية واسم الاحتلال ، وأجهزت على مبادىء ولون الأربعة عشر وشعار حق تقرير المصير ، وجعلت « عصبة الأمم » التي أنشأتها دول الغرب أداة بأيدي القوى العظمى ، فكان لابد أن يوصل ذلك كله الى نشوب أزمة عام ١٩٣٩ واندلاع الحرب العالمية الثانية . والأمر نفسه يصدق على تسويات عام

١٩٤٥ التي لم يكد الحبر الذي كتبت به يجف حتى اشتعلت نار الحرب الباردة . وفي المرتين كان الظلم الذي وقع علينا بالغ الشدة . والحق أن مراجعة ما كتبه الغربيون عن هذه التسويات تكشف عما يكاد يكون إجماعاً بينهم حول الضعف الشديد الكامن في بُناها الناجم عن قصرٍ في النظر وافتقارٍ لتحكيم القيم العلا . وقد ترددت في هذه الكتابات الأحاديث عن « إملاء فرساي » ومامثلته « يالطا » من « خيانة الغرب لدول أوروبا الشرقية » ومن « سقوط خلقي » .

إن علينا أن نُذكّر الغرب بهذه الحقيقة ، ونعمل مابوسعنا لنحول بينه وبين أن يكرر أخطاءه ، ونطرح أفكارنا بشأن منطقتنا ونحن أدرى بشعابها ، وندعوه لتحكيم القيم العلا .

لابد أن يكون حاضراً في أذهاننا أيضاً ونحن نعالج موضوع تسويات مابعد حرب الخليج ، بينما رحى الحرب دائرة ولم تتوقف بعد تداعياتها ومضاعفاتها ، **أن هذه التسويات تتأثر بالكيفية التي تنتهي عليها الحرب .** فالفرق كبير بين نهاية يتم فيها الإجهاز الكامل على أحد الأطراف كي يستسلم بدون قيد أو شرط ، ونهاية تحفظ لجميع الأطراف المتحاربين الماء في وجوههم . **وقد أصبح الآن واضحاً عند تقويم ما جرى في الحربين العالميتين أن عالمنا أبتلي بوقوع قادة غربيين في أسر مقولة « التسليم بدون قيد أو شرط » ومقوله « الصلح القرطاجي » الذي كانت روما قد فرضته حين هزمت قرطاجة وأجهزت عليها وأطلقت صيحة « الويل للمغلوب » فلم يكتب لهذا الصلح الاستمرار وعادت الحرب من جديد .** وآن الأوان أن نرفع عن أنفسنا هذا البلاء .

إن استمرار التسويات واستقرارها يتطلب مناخاً صالحاً لايشعر فيه أي

طرف بأن التسوية أمليت عليه إملاءً ، وبأن ظلماً فادحاً حلَ به ووقع عليه . وهذا يعني ألا يغيب العدل عن التسويات .

يصل بنا هذا الحديث المستقبلي عن تسويات مابعد الحرب عند هذا الحد الى مانحن فيه الآن ، ورحى الحرب دائرة ، ومعاناتنا بالغة أشدها ، ليدعونا الى أن نتصرف الآن بشكل يؤدي إلى إيجاد المناخ الصالح لاستمرار هذه التسويات واستقرارها . وقد تعود دارسو المستقبل أن يقولوا اذا كان الذي يعرف من أين يعرف الى أين ، فإن الذي يتشوف المستقبل يكون أقدر على التعامل الصحيح مع الواقع .

لابد إذن أن نحزم ارادتنا نحن العرب باختيار نهاية لهذه الحرب البشعة تحفظ ماء الوجه لجميع الأطراف المتحاربين ، ولا تجهز على أحد منهم . ونعمل من ثم على تكثيف الجهود الرامية لانضاج الحل السياسي الذي ينهيها بعيداً عن شعار « لابد من مغلوب يسلم بدون قيد أو شرط وينتظر أن يحل الويل به » ، لأن هذا الشعار لايفسح المجال لمناخ صالح لابرام تسويات تستمر مستقبلاً من جهة ، ويفرض استمرار الحرب حتى آخر رمق بكل مايتضمنه هذا الاستمرار من احتمالات حدوث تداعيات ومضاعفات من جهة أخرى . ولعل أخطر مايحمله « استمرار الحرب حتى آخر رمق » لنا وللعام ولأمنا الأرض ، بعد أن دخل القتال مرحلة أخرى في أسبوع الحرب الرابع ، هو استخدام « أسلحة التدمير الفتاكة » من كيماوية وجرثومية وحيوية ونووية بعد أن عانينا من استخدام اسلحة التدمير التي يسمونها « تقليدية » حيث يحدث الانسياق في خضم أتون الحرب الى تدمير كل شيء والتضحية بالمدنيين أولاً ، ولايعدم العسكريون والسياسيون ايجاد مبررات لذلك .

إن ماتعيشه من معاناة بسبب مايتعرض له « المدنيّون » منذ اندلاع الحرب يحثنا على ايقافها . والمدنيّون هنا هم « أهلنا » في مختلف أقطارنا التي أصبحت ساحات قتال . كما يحثنا على تكثيف جهودنا الرامية لانضاج الحل السياسي أن نقاط هذا الحل تكاد تكون قد تبلورت . وقد تضمن البيان السوفييتي الاميركي الأخير واحدة من أبرزها وهي إعلان العراق عزمه على الانسحاب ليتم وقف اطلاق النار . كما تضمنت التصريحات العربية الاسلامية واحدة أخرى وهي انسحاب القوات الأجنبية من المنطقة ، فضلاً عن نقاط أخرى . ومطلوب الآن بإلحاح أن نعمل لانعقاد مجلس الأمن لتتكثف الجهود السياسية فيه ، وأن نفسح المجال لمنظمة المؤتمر الاسلامي كي تجمع « الاخوة » في دائرة الحضارة العربية الاسلامية ، وأن نحث جامعة الدول العربية على القيام بدورها كي يتصل الحوار بين الاخوة في الدائرة العربية بعد أن انقطع على صعيد ثنائي بين بعضهم من جراء اغلاق السفارات .

أمر ثالث ينبغي أن يكون حاضراً في أذهاننا « نحن العرب » ونحن نعالج موضوع تسويات مابعد الحرب . وهذا الأمر هو أن تتصدى التسويات لجذور المشكلات التي سببت نشوب الأزمة واندلاع الحرب ، وأن تتضمن التسويات حلولاً جذرية لهذه المشكلات . ويقتضي هذا الأمر الانطلاق الى التسويات من مبادىء محددة نتفق عليها ونعمل على أن يوافق عليها الغرب . وأول هذه المبادىء أن أمن المنطقة العربية الاسلامية ينبع منها . كما يقتضي هذا الأمر رسم خطوط حمر من وحي هذه المبادىء لايجوز تجاوزها . وأهم هذه الخطوط الحمر هو ايقاف استهداف الغرب منطقتنا بحملة استعمار استيطاني صهيوني جديدة بدأت منذ عام ونيّف تحمل معها مليون يهودي سوفييتي وفق ماهو مخطط لها غربياً . فهذه الحملة التي كانت من أسباب تزايد

التوتر في المنطقة وتفاقم أزمة الخليج ، لاتزال تمثل أكبر خطر على أمن المنطقة وسبباً لاستمرار التوتر فيها . **ولابد لنا من ثم أن نصل مع الغرب الى اتفاق حول إيقافها ، والى احترام حقنا في « تحرير » أراضينا العربية الرازحة تحت الاحتلال الاسرائيلي ، وانقاذ حكم الشرعية الدولية .**

إن معالجة موضوع تسويات مابعد الحرب تقتضي منا **أن نباشر حواراً مفتوحاً في دائرتنا العربية الاسلامية حوله ، وهذا هو وقته** . ولابد أن يتطرق هذا الحوار الى دقائق تفاصيل عملية التسويات وآليتها . وهذه لها حديثها المستقل وإن لنا وسط عيشنا معاناة الحرب التي تدور رحاها في منطقتنا أن نعمل بكل ماأوتينا من قوة ليكشف الله عنا هذه الغمة ويخرجنا من هذا الكرب العظيم الى مستقبل يرضاه .

التغلب على غواية « غطرسة القوة »

يدخل عالمنا المعاصر عقد التسعينات من القرن العشرين ، وقد انفردت الولايات المتحدة الامريكية عملياً بصفة « القوة الأعظم » بين دِوله . وذلك بعد أن قادت تحالفاً دولياً تحت علم الأمم المتحدة ومظلة الشرعية الدولية في حرب منتصرة ضد العراق أرغمته فيها على الانسحاب من الكويت التي اجتاحها جيشه يوم ١٩٩٠/٨/٢ . وقد بدأت هذه الحرب يوم ١٩٩١/١/١٧ وانتهت يوم ١٩٩١/٢/٢٨ . وكانت أول حرب تخوضها الولايات المتحدة بعد حدوث الانهيار للشيوعية في أوروبا الشرقية ومايصطلح على تسميته بالعالم الثاني .

تضع صفة « القوة الاعظم » الولايات المتحدة أمام اختبار محدد ، واجهته جميع الدول التي تتابعت في حمل هذه الصفة عبر مراحل التاريخ . وهذا الاختبار هو في استخدام القوة . هل ستستخدم لإقرار العدل أم للتجبر والطغيان ؟ أتكون قوة غاشمة تنكر القيم العلا الإنسانية ، أم قوة راشدة تزود عن هذه القيم العلا الانسانية بعد أن تستلهمها ؟

يعلمنا التاريخ أن الدول التي حملت صفة « القوة الأعظم » ، تعرضت دوماً للوقوع في غواية مايسمى اليوم « غطرسة القوة » وهو ماكان يسمى

منذ القديم « الطغيان » . والغطرسة في لساننا العربي « الاعجاب بالشيء والتطاول على الأقران والظلم والتكبر » ، والطغيان هو « مجاوزة القدر والغلو في الكفر والعصيان » . ويعلمنا التاريخ أيضاً أن عواقب الوقوع في غواية « غطرسة القوة » وخيمة جداً . الأمر الذي يدعو الى العمل للحيلولة دونه . وهذا يقتضي بداية وقفة أمام هذا المصطلح .

يقترن مصطلح « غطرسة القوة » عندي « بويليام فولبرايت » عضو مجلس الشيوخ الأمريكي في فترة مابعد الحرب العالمية الثانية، الذي قدّم عصارة تجربته عام ١٩٦٦ في كتاب حمل هذا الاسم . وأذكر أنني قرأت الترجمة العربية للكتاب آنذاك ورجعت اليه عدة مرات في العقدين الماضيين . وحين نشبت أزمة الخليج وجدت المصطلح يبرز أمامي يومياً وأنا أتابع مجرياتها . وقد بدا لي أننا في لحظة تاريخية تشهد تفاقم الأخطار الناجمة عن « غطرسة القوة » ، وتتطلب تضافر جهود « الحكماء » لحماية البشرية من تفجر هذه الأخطار . كما بدا لي أن رؤية فولبرايت المستقبلية كانت نافذة سابرة . ولم استغرب ذلك لأن الرجل كما يكشف سجلّه كان « إنسانياً في نزعته » ، وقد بلور رؤيته بعد أن خدم في مجلس الشيوخ عضواً من الحزب الديموقراطي عن ولاية اركنساس ثم رئيساً للجنة العلاقات الخارجية لأربع فترات ، وكان قبلها عضواً في مجلس النواب منذ عام ١٩٤٢ ، وهو الذي قدّم مشروع قرار باسمه اعتبر اول دعوة لاقامة الأمم المتحدة ولمشاركة بلاده فيها .

لقد جاءت هذه اللحظة التاريخية التي تشهد تفاقم أخطار غطرسة القوة بعد ربع قرن من التحذير الذي أطلقه فولبرايت بشأنها . وجوهر هذا التحذير هو أن « الميل المعاصر في السياسة الخارجية الامريكية يتجه نحو مزيد من العنف والعدوان ، أي نحو السياسة الأقرب الى روح تيودور روزفلت بعيداً عن

السياسة الأقرب الى روح ابراهام لينكولن » ، وأن « اللغة الوطنية الاميركية تتغير تبعاً لذلك فتركز على القوة وشؤون الحرب ، وأن الدبلوماسية هي الأخرى تتحول الى مجرد العناية بالصورة والشكل والى الحديث عن تفاصيل الحرب والمواجهة النووية والتصدي للثورة بدلاً من التأكيد على خطط التحول الاجتماعي » .

كان فولبرايت قد وصل الى هذه الرؤية المستقبلية للسياسة الخارجيه الامريكية بعد أن نظر في حصيلة ربع قرن أمضتها الولايات المتحدة في « السلطة الدولية » كقوة عظمى ، وبدا له أن بلاده شهدت خلال تلك الفترة توزعاً بين اتجاهين بلغ حداً من الشدة جعله يرفع صوته قائلاً : « إن هناك اليوم اميريكتين . أمريكا لنكولن واولاي ستيفنسون وامريكا تيودور روزفلت وغلاة الوطنيين المحدثين . الأولى نزعتها انسانية والأخرى تحكمها الانانية وضيق الأفق . الأولى تنقد ذاتها ، والأخرى تؤمن بأنها دائماً على صواب .. الأولى حكيمة متزنة والأخرى حمقاء في استخدامها للقوة الشديدة » .

ماهي « غطرسة القوة » ؟

نبدأ بتعريف فولبرايت لها مادمنا قد استحضرنا حديثه عنها . « إنها حالة نفسية تعتري الأمم التي تبدو أثناءها الأمة في حاجة نفسية إلى إثبات أنها اكبر من أمم أخرى وأفضل وأقوى » . وهي لا مفر مؤدية بمن تعتريه إلى خوض الحرب التي تعزى أسبابها الى الأرض والأسواق والمصادر الطبيعية والدفاع عن المبادىء العظيمة أو التمكين الخالد لها ، وهذه جميعها لاتعدو أن تكون إيضاحات أو معاذير لقوى محركة في الطبيعة البشرية تتجسد في ماأسميه « غطرسة القوة » . وأحد الأمثلة التي ضربها فولبرايت من تاريخ بلاده

الحديث إقدام الولايات المتحدة على الحرب عام ١٨٩٨ لما اسمته « تحرير كوبا من الطغيان الاسباني » ، « الا أنها بعد أن فازت بالحرب التي كانت اسبانيا تود لو دفعت ثمناً غالياً لتفاديها ، وضعت الكوبيين تحت حمايتها وفي الوقت نفسه ضمت اليها الفيلبين لأن الله — كما قال الرئيس ماكينلي — ألهمه أن واجب امريكا تعليم أبناء الفيلبين وتحضيرهم ونشر المسيحية بينهم ، وأن يفعل أفضل مايستطيعه لهم كرفاقنا الذين ضحى المسيح من أجلهم »!!!! وقد تابع فولبرايت القول معلقاً « أليس من المثير حقاً أن يكون الصوت منسوباً لله في حين أن الكلمات هي لتيودور روزفلت وهنرى كابوت بودج والادميرال ماهان ، مستعمرو عام ١٨٩٨ الذين ارادوا ان تكون لامريكا امبراطورية لمجرد أن بلداً قوياً مثل امريكا لابد أن تكون له امبراطورية . ولقد عبّر البرت بيفردج الذي انتخب بعد ذلك مباشرة لعضوية مجلس الشيوخ الامريكي عن روح ذلك العصر بإعلانه إن الامريكيين جنس فاتح « ولابد أن نطيع دماءنا ونحتل اسواقاً جديدة وأراضٍ جديدة اذا لزم الأمر ، لأن في الخطة القوة اللانهائية لابد أن تختفي الحضارات الوضيعة والأجناس المتعفنة أمام الحضارات السامية للانسان الأقوى والأعظم نبلاً » .

لعل أهم ما قام به فولبرايت في دراسته لغطرسة القوة عام ١٩٦٦ هو تتبع جذور هذه الحالة في الأمة الامريكية على مدى قرن من الزمان منذ الحرب الأهلية الامريكية ، ثم تشوفه لمستقبلها وتحذيره من تفاقمها كظاهرة . وقد تحدث بطرحة عن « الصليبيين المتعصبين » الذين عانى منهم الجنس البشري أشد المعاناة بسبب مافعلوه بالغير باسم « تحضيرهم » و« تطهير أرواحهم » و« إرغامهم على الخلاص » . وأوضح أن المجتمعات الغربية لديها في تكوينها عناصر لمثل هذا اللون من التعصب الى جانب مالديها من عناصر إنسانية . وقد جاء هذا التعصب الى الولايات المتحدة مع المتعصبين الذين قَدِموا الى « نيو

انجلاند » في القرن السابع عشر ، وأصبح أسلوبهم في التفكير الذي يَعِدُ « القلة بالخلاص ، ويفرض اللعنة على الكثيرين » قوة فكرية أساسية في الحياة الاميركية .. » وهكذا رأى فولبرايت أن هذه الحياة تشهد عنصر التعصب يتصادم مع عنصر التسامح والاعتدال والتجربة الذي حمله المستنيرون الاوربيون المهاجرون .

لقد تجلت « روح امريكا الصليبية » كما يقول فولبرايت « في المقامرة الاستعمارية عام ١٨٩٨ التي أدت الى الحرب مع اسبانيا ثم الى بدء نصف قرن من التدخل الامريكي في شؤون كوبا الداخلية » . واتضحت هذه الروح الصليبية في صورتها الجديدة بعد دخول امريكا في الحرب العالمية الأولى حيث تحول الرئيس ولسون من الحديث عن السلام الى الحديث عن « القوة ، والقوة في أقسى مظاهرها وطاقاتها وأقصاها ، القوة دون هوادة وبلا حدود .. » ، ولم يسلم فرانكلين روزفلت المشهور بسياسته العملية من هذه الروح الصليبية ، كما يقول فولبرايت ، « فنسي إثر الهجوم الياباني الغادر على بيرل هاربر أحد المبادىء التاريخية الاميركية وهو حرية البحار وأصدر أمره الى كل السفن الامريكية في الباسفيك بأن تقوم بشن حرب بالطائرات والغواصات غير محدودة ضد اليابان . وأغرقت الغواصات الامريكية ١٧٥٠ سفينة تجارية يابانية ، وأودت بحياة ١٠٥ آلاف من المدنيين بين عامي ١٩٤١ و ١٩٤٥ ، وكم كان هذا الثمن فادحاً لحرية البحار » .

كان تحذير فولبرايت بلاده من أن تصبح رهينة أسر حالة « غطرسة القوة » شديداً . واعتبر أن التحدي العظيم في السياسة الخارجية الاميركية هو أن تتحرر من هذه الحالة وتتبنى التيار الإنساني وتركز همها على « بيتها الداخلي » ونظامه . وقد مضى على هذا التحذير ربع قرن بطوله حدثت خلاله

أمور وأمور في الولايات المتحدة أوصلتنا الى هذه اللحظة التاريخية التي تشهد تفاقم أخطار غطرسة القوة الى درجة تتطلب تضافر جهود « الحكماء » داخل الولايات المتحدة وخارجها لحماية البشرية من تفجر هذه الأخطار ويكفي أن نشير من بين هذه الأمور الى اقتران الروح « الصليبية » العنصرية بالروح « الصهيونية » العنصرية في فترة العهد الكيسنجري إبان حكم نيكسون وفورد بين عام ١٩٧٠ و١٩٧٦ ، ولمقاومة الروح الصليبية الصهيونية العنصرية التي تولدت عنهما للدعوات المؤيدة لحقوق الإنسان إبان حكم الرئيس كارتر بين عامي ١٩٧٦ و١٩٨٠ ، والمجاهرة بالهيمنة المنفردة وبالرسالة « التحضيرية » وحكم العالم إبان حكم الرئيس ريجان بين عامي ١٩٨٠ و١٩٨٨ . وهكذا اقتصرت اللغة المستخدمة على القوة والحرب ، وجاهرت الدبلوماسية بإسقاط « العدل » من الحساب وبفرض القبول بما تعرضه والاستسلام غير المشروط . كما نشير الى تنامي التيارات ذات النزعة الإنسانية في أوساط اميركية عدة داخل المجتمع المدني كردٍ على المتغطرسين ، وتعبيراً عن استشعار خطر الغطرسة .

إن هذه التيارات تنبه استمراراً لما فعل فولبرايت الى أن غطرسة القوة هي دليل على الافتقار الى الثقة بالنفس ، وليس كما قد يبدو للبعض وهم ينظرون الى السطح أنها ناجمة عن إفراط الثقة بالذات القومية . فهذا « الافتقار » الى الثقة بالنفس هو الذي يدفع صاحبه الى الانشغال عن معالجة أمور « بيته الداخلي » بالتدخل في أمور الغير والقيام بمغامرة خارجية . وهو الذي يدفع صاحبه الى المغالاة في تصرفاته . وقد توقف فولبرايت في كتابه أمام إعلان الرئيس فرانكلين روزفلت في يناير عام ١٩٤٣ إثر اجتماعه بتشرشل في الدار البيضاء ، الذي قال فيه « إن الحلفاء سوف يقاتلون حتى يستسلم اعداؤهم دون أية شروط » ، فاستغرب صدور هذه العبارة من رجل عرف بأنه عملي ، وعلق على قول روزفلت عنها بأنها « طفرت في ذهنه لساعتها » بقوله « إنها

طفرت من أعماق روح التعصب . وكان أساسها الاعتقاد بأن جانبنا فاضل وجانب الأعداء شرير ، ولايمكن لهم من ثم أن يتوقعوا بحكم العدالة بعد سقوطهم الا العقاب . ومبدأ الاستسلام غير المشروط مبدأ غير حكيم لأنه فضلاً عن سلبيته كهدف من أهداف الحروب وحقيقة أنه يطيل مدى الحرب فانه عند التنفيذ غير عملي ، وكم مرة تحول أعداء الأمس الى أصدقاء اليوم وقد قارن فولبرايت بين دولتين اهملتا لفترة طويلة البيت الداخلي وأمور تنميته وتنظيمه في القرن الماضي وهما الدولة العثمانية والامبراطورية النمسوية ، فانهارتا وبين الولايات المتحدة التي انفقت القرن الماضي في تنمية قارتها فظهرت قوة دولية في القرن العشرين .

لابديل أمامنا اذا اردنا أن ننقذ أمنّا الأرض من أخطار غطرسة القوة في عصرنا عن أن يتحد اصحاب النزعة الانسانية ويعملوا معاً لتحصين القوة بالقيم والمثل العلا فتصبح راشدة ، تقر العدل فيسود السلام . ولابد لعملهم هذا أن يشمل جميع القضايا المطروحة في عالمنا لمعالجتها وفق هذا المنظور ، على أن يكون التركيز في بداية مرحلة مابعد حرب الخليج على أكثر هذه القضايا إلحاحاً . وواضح أن هناك إجماعاً دولياً اليوم على أنها قضية فلسطين والصراع العربي الصهيوني .

إن أنظار العالم متجهة اليوم الى الولايات المتحدة الامريكية لترى كيف يكون تصرفها إزاء هذه القضية بعد أن حملت صفة القوة الأعظم في عالمنا ، وخاضت حرباً باسم « الشرعية الدولية » تبنت فيها شعار « التحرير » ، وتمسكت بتنفيذ قرارات مجلس الأمن التي اسهمت بنصيب وافر في صياغتها تنفيذاً كاملاً . فهل ستعتمد الولايات المتحدة « الشرعية الدولية » في قضية فلسطين ؟ وهل ستقبل تبني شعار التحرير بشأن الأراضي الفلسطينية والعربية

المحتلة منذ عام ١٩٦٧ ؟ وهل ستستخدم قوتها الأعظم لإرغام اسرائيل على تنفيذ قرارات مجلس الأمن بشأن قضية فلسطين والصراع العربي الصهيوني !

هذا هو الاختبار المحدد الذي سيتجسد فيه الجواب عن السؤال الكبير المطروح اليوم حول نجاح القوة الأعظم في عالمنا في تجنب الوقوع في غواية غطرسة القوة . وإن بإمكان أصحاب النزعة الانسانية في عالمنا أن يساعدوا الولايات المتحدة الاميركية على النجاح في هذا الاختبار بمطالبتها بثلاثة أمور ملحة تتعلق بقضية فلسطين والصراع العربي الصهيوني .

أولها دعوتها لتبني شعار « تحرير » الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة ، تعبيراً عن اعتبارها قضية فلسطين هي قضية تحرير وطن محتل وشعب يعاني من الاحتلال . وبدون هذا الأمر ستبقى الولايات المتحدة أسيرة لغة قديمة تعبر عن موقف غير عادل .

ثانيا دعوتها لاتخاذ موقف رافض للتهجير الصهيوني لليهود من أوطانهم الى فلسطين ، تعبيراً عن ادراكها أن هذا التهجير عامل حاسم في جرّ المنطقة الى حرب قادمة . وبدون هذا الأمر ستبقى الولايات المتحدة أسيرة موقف يواجه الوطن العربي بعداه .

ثالثا دعوتها لإنهاء التحالف الاستراتيجي الامريكي الاسرائيلي بعد أن أظهرت حرب الخليج أخطاره على مصالحها وعدم جدواه في حماية هذه المصالح .

أسبوعيات مابعد الحرب

معالجة أثر الحرب على الانتماء العربي للطفل

صباح الخميس ١٩٩١/٢/٢٨ الموافق ١٤ شعبان ١٤١١ بدأنا مرحلة مابعد حرب الخليج ، وخلّفنا وراءنا حديث الأزمة والحرب . وقد وجدت نفسي وأنا أدخل هذه المرحلة مقبلاً على قراءات مختارة من بعض سور القرآن الكريم أولاً ثم ألّحت عليَّ بعد ذلك مجموعة قصائد شعرية لأعود اليها . وهكذا أشبعتُ حاجة ملحة عندي على صعيد التأمل . وأصبحت قادراً على القيام بواجب دُعِيت اليه . ولعلي أفرد حديثاً خاصاً لتلك القراءات المختارة التي أقبلت عليها .

كان الواجب الذي دُعيت اليه كتابة ورقة عن « أثر حرب الخليج على الانتماء العربي للطفل » لندوة يعقدها المجلس العربي للطفولة والتنمية يومي ٢ و١٩٩١/٣/٣ بمقره بالقاهرة لبحث مواجهة آثار الحرب على الطفل العربي في مختلف المجالات . وقد تجاوبت مع الدعوة لشعوري بالحاجة الماسة الى العمل لمواجهة ماخلفته الحرب من آثار . ولكنني حين بدأت العمل والحرب حامية الوطيس أحسست بمدى صعوبة المهمة الملقاة على عاتق الفكر العربي وهو ينظر فيما ينبغي عمله برؤية عربية شاملة حرص مجلس الطفولة عليها وأبرزها في دعوته . وقد زادني هذا الاحساس تصميماً على إنجاز هذا الواجب ، فباشرت العمل ثم جاء وقف العمليات القتالية فأكملت جزأه الأخير .

مقدمة :

تضع ورقة العمل هذه نصب عينها في معالجتها موضوعها الأهداف المحددة لهذه الندوة ، وهي وضع تصور لأثر الحرب على الانتماء العربي للطفل ، واقتراح أسس ماينبغي عمله لمواجهة هذا الأثر مع تحديد أدوار الجهات المعنية في القيام به . وستحاول هذه الورقة الوفاء بما هو مطلوب منها من خلال تحديد جوانب الموضوع وإثارة تساؤلات حول هذه الجوانب وتسليط أضواء عليها وطرح أفكارٍ بشأنها ، معتمدة الإيجاز الشديد ، ومنطلقة من النظر الى الدائرة العربية كوحدة ومن ثم الى الطفل العربي أينما كان .

تمهيد :

يعيش أطفالنا العرب ضمن أمتهم العربية منذ يوم ١٩٩٠/٨/٢ واقعا حافلا بالمعاناة المادية والمعنوية على صعد عدة . وقد تفاوت النصيب من هذه المعاناة بين جهة وأخرى في وطننا العربي وبلغ أقصاه عند أبنائنا أطفال الكويت ثم في خطوط المواجهة .

بدأ هذا الواقع فجر ذلك اليوم الخميس اثر اجتياح الجيش العراقي للكويت **ونشوب أزمة الخليج** التي لم تلبث أن انتقلت بين عشية وضحاها من **المحلية** الى **الأقليمية فالعالمية** واستمرت في التفاقم على مدى خمسة شهور ونصف الشهر الى أن **تفجرت حربا طاحنة** فجر اليوم الخميس ١٩٩١/١/١٧ دارت رحاها على جزء من أرضنا العربية في الكويت والعراق وشرق المملكة العربية السعودية .

اقترن نشوب الأزمة وتفاقمها **بطغيان « إعلان الأزمات »** في عصر ثورة الاتصال بكل ما في هذا الإعلان من **دعايات واثارة** ، وبحدوث

اجراءات رسمية أدت الى زلزلة حياة الملايين من الأطفال العرب سواء منهم اولئك الذين بقوا في الكويت أو الذين نزحوا منها أو الذين تعرضوا في العراق للمقاطعة الاقتصادية أو الذين اضطرت اسرهم الى ترك اعمالهم . وشهدت الحرب حين اندلعت قصفا مدمرا أرهب أطفالا عربا كثيرين في خطوط المواجهة . كما شهدت قتلا بين جنود عرب وقفوا في مواجهة بعضهم بعضا ، وحدثت هذه المواجهة بين قوات تحالف دولي بقيادة الولايات المتحدة الامريكية ومشاركة عدد من الدول العربية وبين قوات العراق .

طبيعي في ظل هذا الواقع أن تكون معاناة الطفل العربي على أشدها فيما يخص هويته العربية وانتماءه العربي ، بفعل الحرب . ولابد لنا كي نتعرف على هذا الأثر أن نستحضر بدايةً مفهوم الإنتماء العربي .

الهوية ودوائر الإنتماء فيها :

الهوية هي « حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية » والانتماء هو « الانتساب » . وتتحدد هوية الطفل العربي من خلال تفاعل ثلاثة عناصر فيها هي عنصر اللسان العربي وعنصر العقيدة المؤمنة بالله سبحانه وعنصر التاريخ . ويتم تفاعل هذه العناصر الثلاثة في عدة دوائر انتماء هي الانتماء للموطن والقوم والانتماء للوطن الكبير والأمة والانتماء للعقيدة والانتماء للحضارة العربية الاسلامية ومن ثم الانتماء للعالمين . وكما أوضحنا في كتاب « حوار ومطارحات » فان الانتماء الى الموطن والقوم عامل أساسي في تحديد الهوية يأخذ مداه في الانتماء للوطن الكبير والأمة . كما أن الانتماء الى عقيدة عامل أساسي آخر . ويتغذى هذين الانتماءين على تاريخ الأمة ويثمر انتماء الى الحضارة التي شيدتها . ويتجسد هذا الانتماء الى هذه الدوائر جميعها في اطار الهوية الواحدة في أهداف تسعى الأمة الى تحقيقها تمت بلورتها من خلال عملها

المشترك المتصل . وهذه الأهداف هي في تاريخنا الحديث تحرير ووحدة وكفاية وعدل وشورى ديموقراطية وتعاون مع الآخرين على البر والتقوى من أجل سعادة الانسان وحماية أمه الأرض .

يتأثر الانتماء العربي سلبا حين يصطنع تناقض بين دوائره . وينجم عن ذلك اهتزاز الهوية ، والشك في أهداف الأمة . ولعل من أكثر صور التناقض شيوعا في هذه المرحلة من حياتنا العربية تلك التي تضع الانتماء الى الموطن والدولة القطرية في مواجهة الانتماء الى الوطن الكبير والأمة ككل . وأخطر ماينجم عنها أن الجزء يحاول إنكار صلته بالكل فيصبح ريشة في مهب الريح ومثله مثل شاه ضلت عن القطيع . ويتأثر الانتماء العربي ايجابا حيث يحدث التناغم والتكامل بين دوائره ، فتبدو الهوية متماسكة وأهداف الأمة واضحة تستحق أن يعمل الكل لتحقيقها .

واضح أن الصراعات التي تنشب داخل الأمة الواجدة بين الأخوة لها تأثير سلبي بالغ على انتماء ابنائها . ويحفل تاريخ الأمم بالأمثلة على ذلك . ومن هذه الأمثلة في تاريخنا العربي حرب داحس والغبراء قبل الاسلام وفتنة الجمل آخر العهد الراشدي . وقد أبدع الروائي نيكوس كازانتزاكي تصوير هذا الاثر في رائعته « الاخوة الاعداء » ويتفاقم هذا التأثير السلبي البالغ اذا تداخل الصراع بين الاخوة بصراع تخوضه أطراف أخرى .

تصور أثر حرب الخليج على الانتماء العربي للطفل :

يمكننا ونحن نستحضر الأحداث منذ يوم ١٩٩٠/٨/٢ أن نلاحظ أن « الطفل العربي » الذي أثرت الأزمة والحرب على انتمائه يشمل أولئك الأطفال العرب في الكويت وخطوط المواجهة واخوانهم في بقية أنحاء الوطن العربي

الكبير واطفالا عربا يعيشون مع ذويهم في المهجر .

لقد بدأت الازمة كما قلنا أثر الاجتياح الذي قام به جيش العراق للكويت . وطبيعي أن يثير هذا الحدث **تساؤلا حادا** عند الطفل العربي حول جواز استخدام القوة في حل خلافات تنشب بين قطرين عربيين . وتتصل بهذا التساؤل **تساؤلات** حول الاجراءات التي تم اتخاذها بعد ذلك **وتساؤلات** حول واقع الحال في الدول العربية من وحي مايسمعه في دعايات إعلام الأزمات **وتساؤلات** حول نظرة الآخر لنا وموقفه منا .

يمكننا أن نلاحظ أيضا أن رؤية الطفل العربي لما جرى إبان الازمة والحرب ، تكونت من خلال تفاعل عدة أمور **أولها** : معاناتة المباشرة ، **وثانيها** : مايسمعه من أسرته ومجتمعه ، **وثالثها** : مايتلقاه في المدرسة ، **ورابعها** : مايترامى الى مسامعه من دعايات إعلام الازمات . ونضرب **مثلا** على المعاناة المباشرة ماتعرض له أطفال الكويت الذين كانوا خارج بلادهم اثناء الاجتياح فحرموا من العودة وعانوا من اللجوء وما تعرض له اخوانهم الذين اضطروا للخروج بعد الاجتياح وما تعرض له اخوانهم الذين بقوا في الكويت التي أصبحت ساحة حرب . ونضرب **مثلا آخر** ماتعرض له أطفال العراق اثر فرض المقاطعة الاقتصادية عليه من قبل مجلس الأمن ، وأثناء الغارات الجوية التي شنتها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا على العراق . ونضرب **مثلا ثالثا** ماتعرض له أطفال القسم الشرقي من المملكة العربية السعودية أثناء الأزمة من نزوح ثم اثناء الحرب من قصف بصواريخ سكود . ونضرب **مثلا رابعا** ماتعرض له الأطفال العرب الذين اضطر ذويهم لمغادرة الكويت أو أقطار عربية اخرى كانوا يعملون فيها .

اختلفت أسباب المعاناة المباشرة للأطفال العرب البعيدين عن خطوط

المواجهة اثناء الأزمة والحرب . فقد تعرض هؤلاء في كل قطر عربي الى حالات من المعاناة النفسية الشديدة بفعل مايشاهدونه ويسمعونه في وسائل إعلام الازمات من الدعايات المتضاربة التي تحيرهم وتستثيرهم . وتعرض الأطفال العرب في المهجر لحملات كراهية في مدارسهم واحيائهم بفعل إعلام الازمات الذي استهدف العرب بمجموعهم راسماً لهم صورة مشوهة فعلت فعلها في سلوك أطفال دول التحالف الأجنبية تجاه زملائهم العرب والذين هم من أصل عربي . أما في الأراضي الفلسطينية والعربية الرازخة تحت الاحتلال الصهيوني ، فقد تعرض أطفالنا العرب في الضفة والقطاع والجولان وجنوب لبنان لأفظع صور القمع ابان الأزمة الذي استهدف جيلهم النامي الفتى بخاصة للقضاء على انتفاضة اهلنا ، بينما الأنظار منصرفة عنهم الى مايجري في الخليج ، ثم تعرضوا منذ اندلاع الحرب الى ما نجم عن منع تجول مستمر فرضته سلطات الاحتلال عليهم وعلى ذويهم .

تفاعلت هذه المعاناة المباشرة عند الأطفال بالأمور الثلاثة الأخرى . وكان أشدها تأثيرا هو دعايات إعلام الازمة حيث فعل فعله في ما يسمعه الطفل من أسرته ومجتمعه وفي مايتلقاه في مدرسته . وقد كانت وطأة هذه الدعايات ثقيلة على الراشدين فكيف بوطأتها على جيل النماء والحداثة ! ويلفت النظر أن هذه الدعايات اتسمت **بعدة سمات** . **فجلتها** كان مصدره خارجيا ينطلق من نظرة الآخر ومفاهيمه وقيمه وسياساته وتوجهاته نحو منطقتنا وحضارتنا . **والسمة الثانية** هي الإثارة المسببة للتوتر . **والسمة الثالثة** هي المباشرة المؤدية أو السطحية . **والسمة الرابعة** هي الانتقائية المحكومة بالنظرة الجزئية . **والحق أن دعايات إعلام الأزمة لم تترك عنصرا من عناصر الهوية العربية ولا دائرة من دوائر الانتماء العربي ولا هدفا من أهداف الأمة ألا ومسته بصورة غير مباشرة احيانا وبصورة مباشرة في غالب الاحيان .**

يلفت النظر أيضا أن استمرار الأزمة شهورا وتزامنها مع بداية سنة دراسية ، جعل موضوعها مطروحا في المدارس . وقد تأثر طرحه بمجريات الأحداث ودعايات إعلام الأزمة فتضاءل البعد التربوي فيه ، الأمر الذي سبب مزيدا من التشويش على الثوابت في أذهان الأطفال .

لعل أخطر ما نجم عن الأزمة والحرب على صعيد الانتماء العربي للطفل هو تباين الرؤية لما جرى بين جهة وأخرى في وطننا الكبير بفعل عوامل عدة . فهذا التباين ان لم يعالج يؤدي الى القضاء على وحدة الرؤية بين أطفالنا . ومن أهم العوامل التي أدت الى هذا التباين التعامل مع الأزمة والحرب في أحد مستوياتها فقط أو التركيز على مستوى بعينه والاختلاف في اختيار هذا المستوى ، فهناك من ركز على المستوى المحلي للأزمة وحصر حديثه فيه فجاء مقصورا على العراق والكويت ، ومحاولا تبني موقفا منهما . وهناك من ركز على المستوى الاقليمي للأزمة وحصر حديثه في الصراع القائم داخل الوطر الكبير بين دول عربية . وهناك من ركز على المستوى العالمي للأزمة وحصر حديثه في الوجود الأجنبي الذي نجم عنها . وهكذا حدث تشويش على الأمة أيضا فضلا عن ذلك الذي حدث على صعيد الفرد . والحق ان دعايات إعلام الأزمات عملت على استغلال هذا التشويش الى آخر مدى لتوجد فرقة بين شعوب الأمة وتعمق الخلاف القائم على صعيد الدول وتزرع بذور كراهيته في نفوس أطفالها بخاصة ، لبعضهم بعضا . وقد رأينا كيف تردد في هذه الدعايات كيل الاتهامات لهذا الشعب العربي أو ذاك ، بحيث تتحدد الكراهية على أساس الجنسية القطرية ، الأمر الذي يهدد بخطر يذكرنا بما حدث في إحدى مراحل الازمة اللبنانية حين كان التمييز يجري على أساس خانة المذهب في الهوية أو البطاقة .

واضح مما سبق أن آثار الازمة والحرب على الانتماء العربي للطفل كانت في كثير منها سلبية . فاللجوء الى القوة في معالجة خلاف سياسي حدث بين العراق والكويت يثير تساؤلا حول هدف وكيفية تحقيقها ، وتساؤلا آخر حول العلاقات بين الأقطار العربية بعامة . كما يلقى ظلالا على هدف التحرير الذي كان مدلوله منصرفا الى تحرير أراضينا العربية من الاستعمار الأجنبي . وقد استخدمت دعايات إعلام الأزمة اصطلاح « الاستعمار العربي » من جهة و« التبعية للأجنبي » من جهة أخرى الأمر الذي أحدث تشويشا قويا في أذهان الأطفال حول تصادم انتمائهم الوطني مع الانتماء الوطني لأخوة لهم ، وأحدث خلطا بين العدو الأجنبي المتربص بنا جميعا والأخ العربي المختلف مع أخيه ، وأوجد تناقضا بين الانتماء الوطني والانتماء القومي للوطن العربي الكبير والانتماء الحضاري العربي الاسلامي .

ان غلبة الآثار السلبية للأزمة والحرب على الانتماء العربي للطفل لايعني أنه لاتوجد آثار ايجابية محدودة يمكن البناء عليها لمحو الآثار السلبية . وهنا يصدق القول « ومن السموم الناقعات دواء » . والحق أن الاحساس باخطار غياب الشورى في المجتمعات والدولٰ أصبح بالغ القوة في مختلف الأوساط العربية . وترسخ اقتناع بضرورة مقاومة الانفراد والاستبداد وما يقترن بهما من انتهاك لحقوق الانسان . وسيكون هذا مما يعزز الانتماء العربي للطفل وينشئه على العمل من أجل سيادة الشورى والديموقراطية في مجتمعاتنا العربية . كذلك فان ماظهر من مواقف تعبر عن قيم حضارتنا العربية الاسلامية وتعاليم ديننا الحنيف فيما يتعلق بأدب الاختلاف والسلوك الانساني اثناءه . امر يمكن ابرازه والبناء فوقه . وقد حفلت فترة الأزمة والحرب بأمثلة على قدرات الانسان العربي في الجانبين المتخاصمين على مختلف الصعد وبخاصة على صعيد استيعاب العلم التقني ، وبأمثلة على شجاعته وصبره . وستكون هذه الأمثلة ملهمة

لأطفالنا اذا نحن أحسنا عرضها . وشهدت هذه الفترة ما اثبت ان الانسان العربي متطلع الى ان يتحمل مسؤولياته في صنع مستقبله . كما شهدت ماأكدته الانتفاضة من قبل من امكانية مواجهة العدوان الصهيوني . وهذان امران يعززان الانتماء العربي للطفل . وشهدت الفترة أيضا إحساسا قويا بالحاجة الى العدل والتصدى للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون ، والعمل من اجل ان تقوم الشرعية الدولية على العدل . وهذا أيضا مما يعزز الانتماء العربي للطفل ويشده لحضارته العربية الاسلامية التي تتمسك بالعدل .

أسس مواجهة أثر الحرب على الانتماء العربي للطفل :

أصل الى كتابة هذا الجزء من ورقة العمل فجر الخميس ١٩٩١/٢/٢٨ وقد أعلن العراق قبوله بجميع قرارات مجلس الأمن بعد أن أكمل الجيش العراقي انسحابه من الكويت ، وأعلن الرئيس الأمريكي وقف اطلاق النار بعد أن سيطرت قوات التحالف الدولي على أجزاء من الأرض العراقية . وهكذا بدأت مرحلة مابعد حرب الخليج .

كثيرة هي الجراح التي ينبغي تضميدها بعد الحروب ، وأعمق هذه الجراح وأشدها إيلاما جرح الكرامة الانسانية الذي يخلفه فرض « الاستسلام بلا قيد ولا شرط » على أحد المتحاربين . وقد حذر ويليام فولبرايت عضو مجلس الشيوخ الأمريكي ورئيس لجنة العلاقات الخارجية فيه لفترة طويلة ، في كتابه « غطرسة القوة » من انسياق المنتصر الى الوقوع في شَرَك هذه العبارة التي « تخرج من أعماق روح التعصب » وتؤدي الى اعتماد مبدأ غير حكيم . وأصبح واضحا الآن عند تقويم ماجرى في حروب العصر أن فكرة « الصلح القرطاجي » الذي يجسد صيحة « الويل للمغلوب » التي اطلقتها روما في

الحرب البونية هي فكرة تغذي الاحقاد وتزرع بذور حرب جديدة . **وواضح أن جرح الكرامة الانسانية يصيب اعماق النفس ويمس الانتماء في الصميم .**

ان علينا ونحن نواجه أثر الحرب على الانتماء العربي للطفل أن ننطلق من النظرة الى الدائرة العربية ككل في تعاملنا ، وأن نحرص على تحقيق التكامل بين الانتماء للوطن والقوم والانتماء للوطن الكبير والأمة والانتماء الى الحضارة العربية الاسلامية ، وأن يكون توجهنا نحو التعارف والتعاون على البر والتقوى مع الأمم الأخرى . وهذا يعني أن نتصدى لكل تصادم يصطنع بين دوائر الانتماء هذه ، وأن نعاون بخاصة اخوتنا الواقعين في أسر النظرة الضيقة على التحرر منها .

لابد لنا أن نعني بداية بتضميد الجراح النفسية التي خلفتها الأزمة والحرب عند أطفالنا العرب في الكويت والعراق بخاصة . وان لنا أن نستفيد من عبر تاريخنا وتجارب الأمم الأخرى في هذا المجال . وتاريخنا حافل بالأمثلة على نجاح امتنا في تضميد هذه الجراح النفسية التي خلفتها الفتن والحروب الأهلية . وقد حفظت لنا معلقة زهير بن ابى سلمى مثلا رائعا . وحفظ لنا مؤرخو الفتنة الكبرى كيف صلى الخليفة الراشد الرابع على بن أبي طالب رضى الله عنه على قتلى موقعة الجمل من الجانبين وسأل الله أن يحتسبهم شهداء عنده بحسب نياتهم ، ثم كيف دخل على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وقال « غفر الله لك ولى » فردت عليه « غفر الله لك ولى » . وقد اشتهرت في تراثنا الأدبي قصائد « المنصفات » التي قيلت أثناء الحروب بين القبائل وأبرزت القيم العلا التي تمسك بها المتحاربون وهم يخوضون الغمار . وواضح أن الوضع في حرب الخليج له بعد آخر حيث لم يقتصر على القتال بين عرب . وهذا يقتضى منا جهدا مضاعفا .

علينا أن ندعو اذن الى ايقاف دعايات إعلام الأزمة في أوساطنا العربية

التي تمس الانتماء العربي ، وأن نتصدى لتلك التي ينفثها العدو الصهيوني بخاصة .

علينا أيضا أن ندعو الى تخليص التربية المدرسية من آثار دعايات إعلام الأزمة ووضع المنهاج التربوي العربي الذي يساعد على تضميد الجراح النفسية ويسعى الى محو آثار الحرب السلبية على الانتماء العربي للطفل والى البناء فوق أي أثر ايجابي . ومن الضروري أن يستلهم هذا المنهاج روح عقيدتنا المؤمنة بالله سبحانه وأن يؤكد من ثم أنه لايغلب عسر يسرين كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن نزلت عليه سورة الشرح ، وأنه لابد من بذل الجهد والتوجه به الى الله ، « فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب » .

ان لنا أن ننطلق من هذه الندوة التي هي تعبير صادق أصيل عن الانتماء العربي لعمل متصل يقوم به مجلسنا يسهم في وضع المنهاج التربوي لأطفالنا العرب حيثما كانوا في مرحلة مابعد حرب الخليج ويتابع تنفيذه . وان دعوة خبراء عرب في التربية للقيام بخطوة أولى أمر ملح . والله نسأل أن يوفقنا الى القيام بواجباتنا والنهوض بمسؤولياتنا تِجاه فلذات أكبادنا جيل النماء والحداثة الذي سيتحمل أمانة متابعة العمل من أجل تحقيق أهداف أمتنا .

حديث عن غذاء النفس في أعقاب حرب

اكتب هذا الحديث في بداية الأسبوع الثاني لمرحلة مابعد حرب الخليج . وأخصصه لتلك القراءات المختارة التي وجدت نفسي وأنا أدخل هذه المرحلة مقبلاً عليها . وهدفي منه هو النظر في أثر الثقافة في تحقيق التوازن النفسي عند الانسان حين يحزنه أمر ، والتأمل فيما تتطلبه النفس من غذاء وفي كيفية حصولها عليه ، من خلال عرض تجربة شخصية ، لعل ذلك يساعد من يستشعرون الحاجة الى غذاء النفس في هذه المرحلة على أن يتلمسوا طريقهم للحصول عليه . وليس خافياً أن الكثيرين منا تعرضوا أثناء الأزمة والحرب لما يزلزل النفوس ويهزها هزاً ، وإن تباينت الأسباب التي دعت لذلك عند كل منهم .

أبدأ بوصف ظاهرة حاجة الانسان الى غذاء النفس حاجته الى غذاء الجسم . فأنا ألاحظ على نفسي أنني اتجه كل يوم الى طلب كتب معينة لقراءاتي الاختيارية التي لاتدخل في صميم أعمالي الكتابية ، والى سماع أحاديث وألحانٍ معينة استشعر الحاجة لسماعها . وهذا يذكرني بما لاحظته على نفسي منذ تفتحي أنني اختار طعامي وشرابي كل يوم وفقاً لما يوجهني اليه جسمي . وقد تعودت أن أقول إن جسمي يطالبني بأن آكل كذا اليوم . وهذا « الكذا » قد يكون حلواً في يوم ومالحاً في يوم آخر ودسماً تارةً وجافاً تارةً أخرى . والأمر

نفسه يحدث مع كتب القراءات الاختيارية التي أقبل عليها بعد الفراغ من القراءات التي يتطلبها العمل ، فمرة أجد نفسي متجهاً الى رفّ كتب الدين وأخرى الى رفّ كتب الفن التشكيلي وثالثة الى رفّ كتب الشعر ورابعة الى رفّ كتب السير الشعبية وهكذا . وقد يكون الكتاب الشعري الذي اختاره في يوم ديوان أبي الطيب وفي يوم آخر مختارات من الشعر الجاهلي وفي يوم ثالث ديوان عمر أبي ريشة وهكذا .

★ ★ ★

وجدت نفسي في الأيام الأخيرة لحرب الخليج مقبلاً على قراءة سور بعينها في القرآن الكريم . وقد ألّح عليَّ وأنا واقع تحت وطأة الأحداث تتجاذبني تساؤلات وتوقعات أثناء الساعات الأخيرة أن أقرأ سورة الصافات ؛ وحين بحثت عن سبب ذلك استوقفني أن هذه السورة يتكرر فيها قول الله تعالى « ونجيناه ..» في معرض الحديث عن رسله واحداً تلو الآخر ، وأن النجاة كانت لهؤلاء الرسل والمؤمنين بهم من عند الله من « الكرب العظيم » فهذا نوح ، « ونجيناه واهله من الكرب العظيم . وهذا ابراهيم يتعرض للبلاء المبين فيجزيه ربه خير جزاء . وهذا موسى وهارون « ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم » . وتتتالى القصص في السورة مسلطة الأضواء على عباد الله المخلصين . وقد لاحظت أيضاً أن سورة الصافات هي التي تتضمن قوله تعالى « وقفوهم إنهم مسؤولون » . وبدا واضحاً لي أن توجهي لقراءتها جاء تلبية لرجاء أن ينجيّنا الله من الكرب ولإحساس عارم بضرورة محاسبة النفس وتحمل المسؤولية . وقد ألح علي أيضاً أن أقرأ سورة ص ، وحين بحثت عن سبب ذلك وجدت أنها السورة التي تؤكد على معنى الرجوع الى الحق من خلال « الأوابة » و« الإنابة » وفيها قصة داود مع الخصمين اللذين بغى بعضهما على بعض . ولاحظت أنني في صلاتي تلوت سورتي « الفجر » و« البلد »

من بين سور عدة قصيرة . وكم توقفت عند التوصية بالصبر والمرحمة التي هي من شيم أهل الميمنة ، وتوقفت أمام صور الذين طغوا في البلاد . فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم رب العالمين سوط عذاب ، « ان ربك لبالمرصاد » .

★ ★ ★

قصائد شعرية معينة دعتني بإلحاح الى أن أعاود قراءتها ونحن ندخل مرحلة ما بعد الحرب ، « وإن من الشعر لحكمة » كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعض هذه القصائد كنت اسمع والدي رحمه الله ينشدها فأغبطه على حفظها وآسى لأن مناهجنا الدراسية لم تتضمنها . وقد حرصت حين تفتح أبنائي على أن يتعرفوا عليها . وبعضها الآخر هو من بين ماتعرفت عليه بنفسي .

ألحت عليّ الأبيات الأولى من قصيدة « المقري » صاحب « نفح الطيب في غصن اندلس الرطيب » التي اثبتها بعد فاتحة كتابه ، فعدت الى ركن البطاقات في مكتبتي واستخرجت البطاقة التي كتبتها فيها لأنني لم اقتن بعد هذا الكتاب القيم ، وقرأت الأبيات فأدركت لماذا كان إلحاح القصيدة عليّ . فأولها هو / سبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة / أعمى وأعشى ثم ذو بصر وزرقاء اليمامة . فأنا في أعماقي متشوق لمن له بُعد نظر زرقاء اليمامة . وأنا في أعماقي ضائق من أؤلئك الذين لايرون أبعد من أرانب أنوفهم .. ومن هده الأبيات ايضاً / وأخو الحجا في سائر الأنفاس مرتقب حِمامه / وكما مضى من قبله يمضي ولم يقضِ التزامه / والجاهل المغتر من لم يجعل التقوى اغتنامه / فليرفض العصيان من يخشى من الله انتقامه / وليعتبر بسواه مَن لصلاحه صرف اهتمامه . وواضح أن الانسان حين تزلزل نفسه يستذكر حقيقة الموت ، وماسيقابله يوم الحساب الأكبر .

والانسان المؤمن تبرز أمامه كلمة « التقوى » .. وتذكرت أن مما شدني الى هذه القصيدة اسلوب صاحبها في ابراز حقيقة أن الأيام دول ، فبعد أن يقرر حقيقة محدودية الحياة الدنيا ، ويُنبه الى متاع الغرور فيها ، يتتالى سؤاله أين السابقون ؟ فالعيش في الدنيا الدنية غير مرجو الإدامة / مَن أرضعته ثدّيها في سرعة تبدي فطامه / من عزّ جانبه بها تنوى على الفور اهتضامه / واذا نظرت فأين من منعته أو منحتْ مرامه / كم واحد عزّته إذ سرته مُخفية الدمامة / قعدت به من حيث لم يعلم فلم يملك قيامه / اين الذين تفيئوا ظل السيادة والزعامة / اين الملوك ذوو الرياسة والسياسة والصرامة . وترحمتُ على المقري التلمساني الذي ارتحل الى فاس عام ١٠٠٩ هـ . وزار بيت المقدس عام ١٠٢٩ هـ . ودمشق عام ١٠٣٧ هـ . وتوفي في القاهرة عام ١٠٤١ هـ .

وجدت نفسي أيضاً أمدّ يدي الى كتاب الكشكول للعاملي وأبحث عن قصيدة الشيخ عمر بن الوردي التي مطلعها / اعتزل ذكر الأغاني والغزل ــ وقل الفصل وجانب من هزل . وعاودت قراءتها فأدركت لماذا تداعت الى خاطري وأنا أعيش في حضّم أحداث الحرب . فالقصيده في أبياتها الأولى تؤكد على تقوى الله / واتق الله فتقوى الله ما ــ جاورت قلب امرىءٍ إلاّ وصل / ليس من يقطعُ طرقاً بطلاً ــ إنما من يتقي الله البطل / صدِّق الشرع ولا تركن الى ــ رجل يرصد في الليل زُحل . والقصيدة تؤكد بعد ذلك حقيقة الموت وتستخلص عبرته وتسير على نهج قصيدة المقرى / حارت الأفكارُ في قدرة من ــ قد هدانا سبلنا عزّ وجل / كتب الموتَ على الخلق فكم ــ فلّ من جيش وأفنى من دول / اين نمرود وكنعان ومَن ــ ملك الأرض وولى وعزم / أين عاد أين فرعون ومن ــ رفع الأهرام من يسمع يخل / أين من سادوا وشادوا وبنوا ــ هلك الكل ولم تغنِ الحيل / أين أرباب الحجلى أهلُ التقى ــ أين أهل العلم والقول الأول / سيعيد اللهُ كلاً منهم ــ وسيجزي فاعلاً ما قد فعل . وتمضي

القصيدة في سرد الوصايا التي بالتزامها يرتقي الانسان ويعلو وتنهض الأمم وأولها / أطلب العلم ولاتكسل فما ــ أبعد الخير على أهل الكسل . ومن هذه الوصايا / لاتقل أصلي وفصلي أبداً ــ إنما أصل الفتى ما قد حصل . وتذكرتُ أنني حين قرأت القصيدة كاملة أول مرة أعجبت بالكثير فيها ، وإن وجدت أيضاً ما لاأتفق مع قائلها حوله .

كان واضحاً لي أن فكرة « تداول الأيام » وتحولاتها تلفتني اليها بقوة . وقد رددت مراراً قوله تعالى « وتلك الأيام نداولها بين الناس » . ووجدت نفسي أراجع أبياتاً من قصيدة أبي البقاء الرُّندي التي مطلعها / لكل شيء اذا ماتم نقصان ــ فلا يُغَر بطيب العيش إنسان / هي الأمور كما شاهدتها دِوَل ــ من سرّه زمن ساءته أزمان / وهذه الدارُ لا تُبقي على أحدٍ ــ ولايدوم على حالٍ لها شان . ووقفت أمام قوله / يامن لذلة قوم بعد عزهم ــ أحال حالهم جور وطغيان / بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم ــ واليوم هم في بلاد الضد عبدان / لمثل هذا يذوب القلب من كمد ــ إن كان في القلب اسلام وايمان . وقد دعاني هذا الحديث عن الجور والطغيان إلى أن اتلو فاتحة سورة الرحمن ومنها قوله « ألاّ تطغوا في الميزان » .

★ ★ ★

تتالت عملية مدّ يدي الى هذا الكتاب وذاك لمراجعة هذه القصيدة أو تلك من قديم الشعر العربي وحديثه . ووجدت نفسي كلما مضيت في القراءة كلما تجاوزت حالة الاهتزاز الى حالة من الرسوخ . وألفيت أيضاً أنني كنت في الفترة نفسها مقبلاً على استرجاع ألحان بعينها تبعث على التأمل مثل لحن « أيها الفلك » لمحمد القصبجي الذي غنته أم كلثوم في الثلاثينات ، وبخاصة الجزء الذي وَصف فيه الشاعر أحمد رامي مغيب الشمس ولهف النفس / غابت

الشمس وراء الأفق ـــ ثم ذابت في مسيل الشفق / لهف نفسي كاد يخبو رمقي ـــ حين .... ثم وصفه لساعة الضحى / .. والضحى يغمر وجه المشرق . والمعنى هنا أيضاً يبرز دورة الزمن . وحين استرجعت لحناً مستقراً في ذاكرتي ولم أفلح في استرجاع أبياته كاملة سارعت الى المكتبة من مشوار المشي الذي هو ضرورة يومية لازمة ، وركزّت لاستذكر قائل تلك الأبيات ، وحصرت البحث في دواوين ثلاثة من شعراء بلاد المحدثين هم الأخطل الصغير بشاره الخوري وايليا ابو ماضي وعمر ابو ريشة . وكم كانت فرحتي بعثوري في ديوان الأخير على قصيدة « عروس المجد » التي قالها عام ١٩٤٧ ابتهاجاً بجلاء الفرنسيين عن سوريا عام ١٩٤٥ ، وغنتها المطربة حنان أوائل الخمسينات ، ولا اذكر الآن اسم مُلّحنها . واشتركت مع أسرتي في قراءة القصيدة التي مطلعها / ياعروس المجد ، تيهي واسحبي ـــ في مغانينا ذيول الشهب / لن ترى حفنة رمل فوقها ـــ لم تعطرّ بدما حرٍّ أبي / درج البغي عليها حقبةً ـــ وهوى دون بلوغ الأرب / وارتمى كبر الليالي دونها ـــ لينّ الناب ، كليل المخلب / لايموت الحق مهما لطمتْ ـــ عارضيه ، قضبةُ المغتصب . وبدا لي أنني كنت أبحث عن أبيات بعينها مازال صدى لحنها يتردد في أذني . وهذه الأبيات هي / كم لنا من ميسلون نفضت ـــ عن جناحيها غبار التعب / كم نبت أسيافنا في ملعب ـــ وكَبَت افراسُنا في ملعب / من نضال عاثر مصطخبٍ ـــ لنضال عاثرٍ مصطخب / شرف الوثبة أن تُرضي العُلى ـــ غَلب الواثب أم لم يَغلب / ضلت الأمةُ إن أرخت على ـــ جرح ماضيها كثيفَ الحجب .

* * *

تأملتُ في هذا الانسان الذي هو جسم وعقل ونفس وروح ، فبدت لي حاجته الى الغذاء الجيد لهذه الأمور الأربعة فيه . ورأيتُ أنه حين يتعرض لما يزلزل نفسه فإن بإمكانه أن يحقق التوازن والتماسك اذا هو أغترف من معين

ثقافته ونهل . كما رأيت أن المناخ السائد من حوله يحدد حاجته ويوجهه الى مايحتاج . وأحمد الله سبحانه الذي ينزل السكينة على عباده . وهذه السكينة ضرورية ليقوم العقل بدوره ويستجيب الفكر لتحديات المرحلة الجديدة والاستجابة الصحيحة المطلوبة .

نهوض الفكر العربي بمسؤوليته بعد الحرب

بدأتْ منذ أربعة اسابيع مرحلة مابعد حرب الخليج ، وبدأ معها الحوار حول القضايا المطروحة فيها . وقد وجدت نفسي خلال هذه الفترة أشارك في عدد من الحوارات حول ما كان وما سيكون ، وأقبل على قراءات مختارة ، وأطيل التأمل فيما اسمع وأقرأ وفيما نحن فيه . وبدا لي أن الفكر العربي مدعو في هذه المرحلة للنهوض بمسؤوليته وإنارة الطريق أمام الأمة .

★ ★ ★

واضح أن المناخ السائد من حولنا وفي أجوائنا مُلّبد بغيوم تحجب الرؤية ، وهناك إحساس غالب بالتشتت والتوزع والتشوش . وهذا أمر نعرفه عن مراحل مابعد الحروب عموماً . وقد سجل تاريخ القرن العشرين وصف المناخ الذي ساد في أوروبا في أعقاب كل من الحربين الأولى والثانية وماحدث على صعيد الثقافة من بروز مذاهب مختلفة . ونذكر كيف مرت الولايات المتحدة الأميركية بمثل هذا المناخ في اعقاب حرب فيتنام . ويلفت النظر فيما نراه اليوم من هذا الاحساس الغالب أن ردود الأفعال التي تظهر فيه تختلف بين مستويات ثلاثة في الأمة ، مستوى قياداتها السياسية ومستوى مثقفيها ومستوى عامتها . فبينما يجنح المستوى الأول الى التسليم لواقعية باردة في الغالب نجد في المستوى الثاني ردود أفعال متضاربة ، ونجد أن المستوى الثالث يأنس لغيبيات

كي يوازن نفسه . ويمكننا أن نرى في مستوى المثقفين مجموعة تتجه الى تجاوز نقد الذات لإصدار أحكام على الأمة تدمغها في جبلّتها وعقلها ودمائها وتدين حاضرها وماضيها وتصادر مستقبلها ، بينما تجعل الآخر مثلها الأعلى ومعبودها من دون الله . كل ذلك ضمن رد فعل على ماحدث . وهذه المجموعة تضم عادة « منغمسين » نشأوا في عالم الآخر وانقطعت صلاتهم بعالم أمتهم وتسرب اليهم شيء من ثقافة الآخر العنصرية ففعل فعله فيهم سلبياً بمعنى أنه دعاهم للتسليم بمقولة الدونية العنصرية لغير أممه وشعوبه .

إن السبيل للخروج بالأمة من هذا الحال وتغيير المناخ السائد والخلاص من هذا الاحساس الغالب بالتشتت والتوزع والتشوش هو **بأن يقدم الفكر العربي قراءته لما حدث ورؤيته لما ينبغي عمله . وطبيعي أن تتضمن هذه القراءة نقداً موضوعياً للذات وتشخيصاً للخلل الموجود من جذوره . وطبيعي أيضاً أن تنطلق الرؤية لما ينبغي عمله من التمسك بهويتنا ودوائر انتمائنا ، وتتناول كيفية معالجة الخلل محددة الاطار الشامل للعمل وخطواته مرتبة بحسب أولوياتها .**

مهمة أخرى على فكرنا العربي أن ينجزها في هذه المرحلة **هي أن يقوم بقراءة للعالم المحيط بنا بعد حرب الخليج** . فآثار هذه الحرب لن تقتصر كما هو واضح على منطقتنا وعلى الأطراف الذين شاركوا فيها ، بل تشمل جميع دول العالم بدرجات متفاوتة والعلاقات بين هذه الدول بخاصة . وأحد الملامح الرئيسية لهذه الآثار **نزوع الولايات المتحدة للتفرد بقيادة العالم** . وملمح رئيسي آخر **هو وجود توجه غربي إزاءنا في الدائرة العربية الاسلامية تميز فيه تيارين يحاول الأول أن يفهم ويتفاهم بينما يسيطر على الآخر عداء تختلط فيه العقدة التاريخية بالأفكار العنصرية بالخوف من الصحوة .**

يتداعى الى خاطري هنا ماسمعته من زائرتي الأستاذة الجامعية المخضرمة الكهلة القادمة من أقصى الشمال الأوروبي حين سألتها قبل أن أجيب عن أسئلتها « كيف بدت آثار الأزمة والحرب في مجتمعكم البعيد خلال الشهور الستة الماضية منذ زيارتك الماضية لنا ؟ » وكان جوابها يتضمن عدة نقاط هي سيطرة الإعلام الامريكي فجلّ المعلومات التي تقدم للناس هو مصدرها ، وتنامي التحسبات الأمنية وتجاوز القائمين على الأمن حدود ما كان متفقاً عليه في مجتمع « حرٍّ ديموقراطي » ومثّل على ذلك قيامهم بتصوير جميع المظاهرات التي جرت على اشرطة فيديو ، **وغلبة الثقافة العنصرية التي طفت على السطح واستهدفت كل ماهو ليس أوروبيا مسيحياً الى درجة منع أي عربي مسلم أو مسيحي أو أي مسلم غير عربي من العمل في المؤسسات ودخول مقارها خشية القيام بأعمال « تخريبية »** .

إن على فكرنا العربي وهو يقوم بهاتين المهمتين أن يتصدى لمعالجة قضايا ملحة برزت بفعل الحرب في العراق والكويت وفلسطين بخاصة .

واضح أن معاناة أهلنا في العراق لم تنته بانتهاء الحرب بل دخلت طوراً جديداً بلغت فيه المدى . وقد نقلت وكالات الأنباء الكثير من صور هذه المعاناة التي تحدث عنها تقرير المبعوث الأممي ؛ **وواضح أن عملية التجويع التي نجمت عن استمرار فرض العقوبات الاقتصادية بعد ايقاف القتال أصابت ملايين من أهلنا العراقيين** ، **والمفارقة انها تمت تحت مظلة الأمم المتحدة** ولم تهتز ضمائر البعض وهم يدعون الى الاستمرار فيها بحجة أنهم يريدون منع وصول امداد الى القوات العسكرية . وما اشد معاناتنا نحن الذين نتابع يومياً أخبار مآسي اخوتنا في العراق .

لقد صدر قرار أممي أخيراً يسمح بإرسال الامداد لسد رمق الجائعين ،

ولكن من الواضح أن مشروع القرار الذي تحضره الولايات المتحدة لتقديمه لمجلس الأمن لإنهاء الحرب يتضمن شروطاً تجعل **سيادة العراق حبراً على ورق ، وثروته مرهونة سنوات طوال ، وتخل بميزان القوى في المنطقة لصالح الكيان الصهيوني** . وقد ذكرتني هذه الشروط بتلك التي فرضت على المانيا بعد الحرب الأولى عام ١٩١٩ ، حين نظمت معاهدة فرساي نظام احتلال عسكري لقسم من المانيا خلال خمسة عشر عاماً ، واضطرت المعاهدة الألمان للعمل نصف قرن لوفاء ديونهم لتعويض خسائر الحرب . ولم يكن من شأن الاحتلال العسكري كما يقول المؤرخون سوى تحريض العاطفة القومية الألمانية ، أما التعويضات فأدت الى حدوث تضخم نقدي أمثلة عامي ١٩٢٢ و١٩٢٣ يدعو الى الدوار كما وصفه رونوفن . فبعد أن كان الدولار يعادل ثمانية ماركات آخر عام ١٩١٨ أصبح يعادل ٤٨,٥ ماركاً ثم ٧٣٥٠ ماركاً ثم وصل الى ملايين الماركات .

واضح أن هذا المسار لهذه السياسة التي يسمونها اليوم في الغرب السياسة الواقعية وسماها فولبرايت غطرسة القوة ، **لايمكن أن يوصل الى استقرار** . وهو حتماً ينتهي كما يقول ستافريانوس « **على شكل واقعية خرقاء** » . **وتبقى المشكلة أمام منتهجي هذه السياسة هي في « كيفية ايجاد الاستقرار** » كما يقول العالم السياسي « هانز مودغان تاو » .

واضح أيضاً أن تحركاً سياسياً بدأ بشأن قضية فلسطين . وفكرنا العربي مدعو لطرح تقويمه لهذا التحرك وتقديم النصح حول كيفية التعامل معه . وقد واجهني سؤال عن توقعاتي بشأن قضية فلسطين في هذه المرحلة ، فأجبت بما يلي :

● نبدأ بما نتوقعهُ على صعيد الادارة الامريكية لأن بيدها مفتاحاً رئيسياً

لبوابة الطريق الموصلة للحل . فنجد أن هذه الادارة بدأت تحركاً في اعقاب وقف القتال في حرب الخليج وجدت نفسها ملزمة بالقيام به أمام ما أدت اليه الازمة والحرب من تسليط للأضواء على قضية فلسطين والصراع العربي الصهيوني ومن الحاح للمطالبة بتطبيق الشرعية الدولية بشأنها . ونلاحظ أن هذا التحرك كما بدا في الأسابيع الثلاثة اتسم « بالميوعة » وسارت فيه الادارة على « نهجها السابق » الذي اعتمدته جميع الادارات الامريكية منذ عام ١٩٦٧ ولم يوصل الا لتمكين الاحتلال الاسرائيلي للأراضي العربية والفلسطينية ودعم التوسع الصهيوني . ولقد نشطت الصهيونية الاميركية بقوة لتوجيه هذا التحرك مستغلة « ميوعته » ونهجه فشرعت في طرح أفكار تقترح أن تبدأ الدول العربية بالاعتراف باسرائيل وتُطبِّع علاقاتها بها وتنهي المقاطعة العربية لها توطئة لمعالجة مايسمونه « أوضاع الفلسطينيين » معها واعطائها وصايةً عليهم بعيداً عن أي دور لمنظمة التحرير الفلسطينية .

• إن لنا أن نتوقع اذا لم يتخذ موقف عربي فاعل أن تنساق الادارة الاميريكية لمثل هذه الأفكار ، وتحاول وهي سكرى بما حققته في حرب الخليج أن تضغط على الدول العربية للسير في هذه الطريق مستهدفة الوصول الى نظام أمني أقليمي يكون لاسرائيل فيه دور متميز .

• ما نتوقعه على الصعيد الاسرائيلي هو **أولاً اعطاء الأولوية لايجاد حقائق العدوان على الأرض ، بمتابعة تهجير اليهود السوفييت من أوطانهم وتوطينهم في فلسطين سواء في ذلك الجزء المحتل عام ١٩٤٨ أو الجزء المحتل عام ١٩٦٧ بأموال امريكية ، والاستمرار في الوقت نفسه في تصعيد الارهاب الاسرائيلي الرسمي وغير الرسمي للقضاء على الانتفاضة الفلسطينية وفرض نزوح اعداد متزايدة من الفلسطينيين عن وطنهم . وثانياً القيام**

بتحرك سياسي ، بدأت مباشرته فعلاً ، الهدف منه تحويل قضية فلسطين من قضية احتلال للأراضي العربية وانكار لحقوق شعب فلسطين الثابتة الى قضية أمن اسرائيل ؛ ووسائله الحديث عن مبادرات اسرائيلية يتبادل طرحها ليكود والعمل كل بدوره قاسمها المشترك هو الاحتفاظ بالسيطرة على القدس وجل الأراضي الفلسطينية المحتلة وجنوب لبنان ومصادر المياه فيه وفي الجولان والنفاذ الى الدول العربية والمطالبة بنصيب من ثروات المنطقة بعد أن يأخذ الكيان الصهيوني مكانه في نظامها الاقليمي .

● حين نصل الى صعيدنا العربي فحديث المستقبل لايجوز أن يقتصر على التوقع بل ينبغي أن يعني بما يجب عمله . ومايجب عمله هو أن نطرح نهجاً آخر موصلاً ونأبى الاشتغال بما هو ليس بموصل ، وفي اعتبارنا أن مرحلة مابعد الحرب مناسبة لهذا الطرح وأن مجمل ماحدث في الأزمة والحرب على صعيد حديث الشرعية الدولية يهيىء مناخاً صالحاً له . وهذا النهج الآخر ينطلق من تحديد قضية فلسطين على أنها قضية تحرير أراضٍ فلسطينية وعربية محتلة ، ولابد من احترام جميع قرارات الأمم المتحدة الخاصة بها ، ومباشرة العمل على تنفيذها بأسرع مايمكن . والخطوة الرئيسية في هذا النهج هي الوصول بالولايات المتحدة الامريكية الى الاقتناع بهذه المبادىء الثلاثة أولاً ، واعلانها التزامها الصريح بها . وهذا يعني تحديداً أن تعلن الادارة الامريكية أنها ستعمل مع الأسرة الدولية على تحرير الأراضي الفلسطينية والعربية التي تحتلها اسرائيل ، وهذه الأراضي هي القدس وفقاً لقرار مجلس الأمن ٢٥٢ و الضفة الغربية والقطاع وفقاً لقرار ٢٤٢ والجولان وفقاً للقرار نفسه وجنوب لبنان وفقاً للقرار ٤٢٥ . وأنها ستعمل أيضاً مع الأسرة الدولية لتنفيذ قرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤ بشأن حق العودة لكل فلسطيني الى وطنه ، ولتنفيذ جميع قرارات الأمم المتحدة الخاصة بمنع توطين اليهود المهجرين في

الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة . وواضح أن مصر وسوريا وضمن الجامعة العربية بشأن بقية الأراضي وحقوق شعب فلسطين . وتأتي بعد ذلك الخطوة التالية وهي العمل من خلال الأمم المتحدة لتنفيذ هذه القرارات . ويكون طرح هذا النهج الموصل بينما نعطي الأولوية في عملنا نحن العرب لتصعيد الانتفاضة ومواجهة العدوان الصهيوني بعامة وايجاد حقائق لصالحنا على أرض الصراع تفرض على العدو الصهيوني أن يسلم بها ولها موطنين أنفسنا على تحمل متطلبات ذلك .

إعلام الكلمة الطيبة ومايجري في الكويت

اكتب هذا الحديث وقد صدر قرار مجلس الأمن الخاص بوقف اطلاق النار نهائياً في منطقة الخليج يوم ١٩٩١/٤/٤ بعد خمسة أسابيع من وقف العمليات القتالية . وخلال هذه الأسابيع الخمسة بدا واضحاً أنّ علينا أن نواجه مشكلات عاجلة برزت بفعل الأزمة والحرب تسببّ لنا استمرار المعاناة التي عانيناها منذ الصيف الماضي . وقد جعل بروز هذه المشكلات البعض يقول إن الحرب لم تنتهِ بعد ، ويعترض على الحديث عن « مرحلة مابعد حرب الخليج » . واذكر أنني حين سمعت هذا الاعتراض على التسمية من أحد الشباب عزوته الى مايتميز به الشباب من حدس يدعوهم الى طرح الجديد . ولكنني وقفت متأملاً حين سمعت الاعتراض نفسه من أحد شيوخنا المخضرمين الذين ترأس الدبلوماسية في قطر عربي كبير فترة من الزمن . وتذكرت ما قاله لي صاحبي الذي حاورته يومياً طيلة أيام الحرب حين أُعلن عن وقف العمليات القتالية « .. واليوم تبدأ أزمات عدة جديدة » . ويبدو أن البعض يعتبر هذه الازمات الجديدة امتداداً للأزمة والحرب .

دخلت هذه المشكلات في قائمة القضايا المطروحة علينا . وقد لاحظت في لقاءات شاركت فيها خلال هذا الأسبوع أنها فرضت نفسها . فالحديث ذو شجون عما يجري في العراق وعما يجري في الكويت . وهو يتناول مايجري في

القطرين العربيين على عدة مستويات سياسية واقتصادية واجتماعية وروحية وثقافية جماعها حقوق الانسان وكرامته .

لقد رغبت اليَّ مجلة عربية أن أعلق على مايتردد بشأن معاملة أبناء فلسطين في الكويت ، فحددت بداية منطلقي في النظر الى الموضوع فأنا انظر اليه كفلسطيني عربي مسلم يحرص على قيم حضارته العربية الاسلامية . وأتعامل معه في اطار « حقوق الانسان » فلسطينياً كان هذا الانسان أو من أية جنسية أخرى عربية وغير عربية أيضاً . وهذا هو الاطار الذي تحدد بعد نظر وتأمل لعمل « المنظمة العربية لحقوق الانسان » . وقد ابرزه الاسم الذي حملته وكان البعض قد اقترح اسم « منظمة حقوق الانسان العربي » فبيّن الحوار أنه لايحدد الاطار الشامل ويخرج منه قطاعاً مهماً هو الانسان غير العربي الموجود بين ظهرانينا في أقطارنا العربية .

أوضحت أني اعتبر هذا الموضوع من اخطر الموضوعات التي تواجهنا بعد ايقاف العمليات القتالية يوم ٩١/٢/٢٨ والحاجة ملحة لمعالجة سريعة له . وذلك لاتصاله بقيم حضارتنا . واستحضرت كيف يبدو لي هذا الموضوع من خلال متابعتي له من موقعي في المنظمة العربية لحقوق الانسان وفي الساحة الفلسطينية والعربية بعامة ، وضعاً مقلقاً للغاية . فالتقارير الواردة حول الموضوع من الكويت تتحدث عن قيام جماعات مسلحة بملاحقات بدأت منذ يوم ٢/٢٦ واقامة حواجز يتم أخذ الناس فيها بحسب الجنسية ولمجرد الشبهة . وتورد هذه التقارير أرقاماً كبيرة لاعداد المعتقلين من عدة جنسيات عربية . كما تتحدث أيضاً عن محاصرة أجهزة أمنية لأحياء يسكن فيها كثير من ابناء فلسطين هي حولي والنقرة والفروانية . وقد أوجزت نشرة المنظمة العربية لحقوق الانسان في عدد مارس / آذار ١٩٩١ ماجاء في هذه التقارير فتحدثت عن

مواجهة الكويت مشكلات مابعد الحرب وعن منطق العقاب الجماعي الذي تحكم في البعض عند تعاملهم مع أبناء فلسطين .

حددت مكمن الخطر في هذا الوضع المقلق للغاية في أن انتهاكات حقوق الانسان فيه تتم في اطار « رد فعل » غذّاه « إعلام الأزمة » بدعاياته الباطلة التي استهدفت حدوث تمييز على أساس الجنسية بين أبناء أمتنا العربية الواحدة . وهذا التمييز على اساس الجنسية هو استمرار وتطوير للتمييز على أساس الطائفية الذي شهده لبنان الغالي عام ١٩٧٥ واقشعرت أبداننا لحصاده المرّ من تعذيب وقتل وطرد بلغ حداً مسّ قيمنا في الصميم .

وجدت وأنا أتأمل في هذا الحصاد المر أن قلقنا ينصرف أولاً الى ضحايا الانتهاكات ، وهو يشمل ايضاً ما تخلفّه هذه الانتهاكات من جروح غائرة وماتسببه من ردود افعال تزيد من استفحال الظاهرة التي يجري فيها التمييز على اساس الجنسية ويؤخذ فيها الانسان بجريرة اقترفها آخر . كما يشمل القلق أيضاً ما ينجم عن الانتهاكات من تفشي « الفاشية » التي لاتترك أحداً من شرورها في المجتمع الذي يبتلى بها . وقد تداعى الى خاطري عند هذا الحد ماتضمنته صفحات تاريخ عالمنا في القرن العشرين من مآسي بسبب هذا التفشي شملت المجتمع المبتلى كله .

كان عليّ بعد تحليل الظاهرة أن اطرح ماتبلور من أفكار حول كيفية معالجتها بسرعة ، والموضوع اليوم هو محل اهتمام عربي ودولي . وقد وجدت ان هذه المعالجة تتطلب عدة أمور في وقت واحد .

طبيعي أن تتجه الأنظار الى الحكومة الكويتية متطلعة الى قيامها باتخاذ اجراءات فورية لكف ايدي الجماعات المسلحة ، وتبني سياسة أمنية تتحرر من

أسر أي ردّ فعل وتتميز ببعد النظر وتحرص على القيم . وضروري جداً إعلان هذه السياسة والإعلام عنها كي توجد مناخاً صحياً . والحق أن الذين يتوجهون الى حكومة الكويت ليسوا غافلين عن الظروف الصعبة التي تواجهها . وهذا مادعاني الى القول « ونحن ندرك مدى صعوبة الفترة الراهنة في الكويت بعد سبعة شهور من الأزمة والحرب ، وعظم ماتتحمله الحكومة من مسؤوليات » . ولكننا نجد أن هذا مما يجعلنا ندعوها الى التحرك وتبني هذه السياسة الأمنية بغية استهلال صحيح للمرحلة الجديدة ، لأن الاستهلال يحدد عادة الاتجاه . وهذا يعني اننا لسنا من رأي أولئك الذين يعتبرون صعوبة الفترة مبرراً لحدوث رد فعل حافل بأخطاء تقترف .

تتجه الأنظار في الوقت نفسه الى جميع المسؤولين عن الإعلام في وطننا العربي والمشاركين فيه متطلعة الى أن يبدأوا إعلام مرحلة مابعد الحرب طاوين صفحة دعايات إعلام الأزمة الباطلة وفاتحين صفحة « إعلام الكلمة الطيبة » التي هي كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . وهذا يعني أنه قد آن الأوان أن يكفّ عن اطلاق التهم جزافاً واستخدام لغة التعميم وأن يُحدَّد المسؤول عن أية اساءة وتلصق به الاساءة وحده ويتحمل جريرتها وحده فلا تزر وازرة وزر أخرى . وآن الآوان أن يبرز هذا الإعلام أيضاً الوجه المشرق الذي بدا وسط فظاعة ما كان يجري من انتهاكات لحقوق الانسان إبان الأزمة ، مجسداً قيم حضارتنا الأصيلة وشيمها التي تربينا عليها . واستطيع أن اقول بكل الثقة أن هناك أمثلة كثيرة رائعة على ماحدث من أعمال مشرفة من كثيرين بقوا في الكويت بعد الاجتياح تجسدت فيها أخوتهم العربية الاسلامية . وقد حرصت على متابعة ماكان يجري هناك متابعة علمية . وآن الأوان أن يتضمن هذا الإعلام تصريحات تجسد الكلمة الطيبة . وقد سمعنا بعضاً منها صدر عن مسؤولين فشرح الصدور . وأسفنا

حين سمعنا من مسؤولين آخرين تصريحات غير مسؤولة صادرة من أسر رد الفعل واقعة في اخطاء التعميم غافلة عن ماتسببه . وآن الأوان أن يتنبه هذا الإعلام الى ضرورة تقديم التفسير الصحيح للمواقف التي برزت في مختلف اقطار وطننا العربي أثناء الأزمة والحرب ، وبدا اختلافها وتصادمها . فهذا الاختلاف والتصادم كان ناجماً من تغليب مستوى معين للأزمة على مستويين آخرين من مستوياتها الثلاثة ، واعتبار أن له أولوية . ولو أننا أخذنا المستوى المحلي للأزمة بين القطرين العربيين العراق والكويت لانجد أحداً لم يقلق لاستخدام العراق القوة في حل نزاعها مع شقيقتها ، أو لم يهلع من انتهاكات حقوق الانسان التي تلت الاجتياح والتي شملت مواطنين عرباً من مختلف الجنسيات واخوة اسيويين غير عرب ، وستبقى صور خروجهم وحشرهم في مخيمات ماثلة تحز في النفس . واذا أخذنا المستوى العربي للأزمة لانجد احداً لم يرتع لانقسام الدول العربية وحدوث الشلل في العمل العربي المشترك . ولانجد أحداً لم يتحسب من بروز مستوى دولي للأزمة ولم يأس لتداعياتها التي فرضت قدوم قوات أجنبية وحدوث مواجهة على أرض عربية تشمل العراق والكويت معاً .

أمر آخر استشعرت الحاجة اليه هو أن نتولى نحن العرب من خلال مؤسساتنا العربية موافاة قومنا بالأخبار الصحيحة عما يجري في وطننا بدل أن نعتمد على تقارير جهات أجنبية . وعلى هذا الصعيد تبرز فكرة إيفاد لجان تقصي حقائق عربية أهلية الى مواقع التوتر ترحب بها السلطات وتساعدها على أداء مهامها . ذلك أن منظور المؤسسات الأجنبية الحكومية وغير الحكومية مخالف لمنظورنا وهو لايتنزه عن ارتباطه بأهداف لايتفق بعضها مع أهدافنا . وقد بادرت المنظمة العربية لحقوق الانسان الى الاتصال مع حكومات عربية معينة لتسهم في القيام بهذا الواجب

لقد أسعدني كثيراً ان اسمع عن مبادرات كويتية أهلية للاسهام في معالجة هذا الموضوع . ومنها تشكيل لجنة للدفاع عن ضحايا الحرب تقوم بما قام به رجالات من قومنا في مختلف العصور من تجسيد قيمنا عملياً . ولم أفاجأ بما سمعت لأني عرفت عن أهلنا في الكويت تنافسهم في العمل الطوعي الأهلي وتعلقهم بقضايا أمتهم وتوجههم للمبادرة . والثقة قوية في أنهم سيخرجون من التجربة الصعبة المرة التي مروا بها أصفى وأنقى شأن المعدن الثمين اذا أدخل الكور ، وأن الأمور ستستتب حالما تعود المؤسسات الشورية الديموقراطية الى العمل .

بقي ان اقول إن من بين مضاعفات دعايات إعلام الأزمة بروز مشاعر لاتجسد قيمنا تنطلق من اساس الجنسية لتميز على أساس المنطقة . وقد اقلقني أن ألاحظ بدايات رد فعل غير صحي على تصريحات تحدثت عن الخليج وكأنه خارج وطنه . وعلينا أن نتكاتف جميعاً لمحاصرة هذه البدايات ، واقلقني ايضاً انسياق البعض في الإعلام في أكثر من قطر عربي وراء النغمة الغربية التي ظهرت في امريكا وبريطانيا بشأن نصيب شركاتهما في تعمير ماخربته الحرب ، ووصولهم الى إثارة المشاعر العدائية تجاه أقطار عربية شقيقة . ولابد من محاصرة هذه أيضاً .

لا أكاد انتهي من الحديث عن الكويت حتى يُلح علي موضوع مايجري في العراق اليوم وماينجم عنه من معاناة لأهلنا هناك . وهو موضوع يستحق عناية خاصة سواء على مستوى حقوق الانسان أو على مستوى من يتحمل مسؤولية مايجري أو على مستوى قرار الأمم المتحدة الذي أدان قمع العراق لجزء من شعبه مما يعتبر سابقة في عمل المنظمة الأممية . وما اكثر ماعلينا عمله في هذه المرحلة .

عن الأهل في العراق

اكتب هذا الحديث وقد أعلن رئيس مجلس الأمن بدء سريان وقف اطلاق النار في الخليج اعتباراً من يوم الخميس ١٩٩١/٤/١١ ، وأتابع فيه مايجري في العراق على صعيد معاناة أهلنا هناك ، استمراراً لحديث « إعلام الكلمة الطيبة ومايجري في الكويت » .

الانسان هو الأصل في تعاملنا مع كل الأمور أثناء الحياة الدنيا . فهو الذي جعله الله خليفة ، وكرّمه ، بعد أن خلقه في أحسن تقويم ، وألهمه الفجور والتقوى . ومعاناة هذا الإنسان هي زاوية النظر الى الأمور التي تحدث من حولنا ، لنُصدر أحكامنا عليها ونتعامل معها بحيث نخفف هذه المعاناة ونحاول إسعاد الانسان .

أمامي تقريران صدرا في شهر آذار / مارس يعرضان لأحوال الانسان في العراق في أعقاب الحرب الطاحنة التي استمرت ستة أسابيع ودارت رحاها على أرض العراق والكويت بخاصة . وقد استوقفني في التقرير الأول الذي أعدته المنظمة العربية لحقوق الانسان عنوانه واستهلاله . « الشعب العراقي بين شقي الرحى . تعكس التقارير الواردة للمنظمة صورة ضبابية للأوضاع السياسية والعسكرية في العراق . لكن الأمر يبدو بخلاف ذلك فيما يتعلق بحالة حقوق

الانسان . فالصورة المأساوية التي تعكسها هذه التقارير تبدو شديدة الوضوح وشديدة التعقيد كذلك وتنطوي على عدة أبعاد » .

لقد وُفّق التقرير في تحديده أبعاداً أربعة لهذه الصورة المأساوية . فالبعد الأول يظهر حالة المدنيين في ظل الحصار المفروض على بلدهم منذ شهر أغسطس / آب الماضي ، وبفعل الدمار الذي نجم عن قصف لم يعرف التاريخ الانساني مثيلاً له ، ونتيجة الاضطراب السياسي والعسكري الذي ساد في أعقاب الهزيمة العسكرية . والبعد الثاني يظهر حالة المدنيين في خضم الاقتتال الذي جرى في الجنوب والوسط والشمال ، وماااقترن به من مآسٍ ومعاناةٍ مادية ومعنوية . والبعد الثالث يظهر حالة الانسان الأسير الذي وجد نفسه من أسرى الحرب في ظروف بالغة القسوة . والبعد الرابع يظهر حالة الانسان الواقع تحت الاحتلال في جنوب العراق ، حيث قوات الاحتلال تمارس « دوراً يتسم بالغموض » ــ على حد وصف تقرير المنظمة العربية لحقوق الانسان ــ فيما يجري على الأبعاد الثلاثة الأولى ، ولهذا الدور أثره السلبي الفعال .

لم تتوقف وسائل الإعلام عن نشر أخبار معاناة أهلنا في العراق على صعد الابعاد الأربعة ، منذ يوم ١٩٩١/٢/٢٨ الذي أعلن فيه الرئيس الأميركي وقف العمليات القتالية . ولكنني انتظرت بفارغ الصبر أن يصدر تقرير بعثة الأمم المتحدة برئاسة مارتي اهتساري وكيل الأمين العام التي سافرت الى العراق . وقد حرصت على أن اقرأه بعناية . وواضح أن هذا التقرير سيكون مصدراً أولياً لكل من سيؤرخ لحصاد حرب الخليج في العراق .

لقد حرص التقرير على أن يشرح كيف عملت البعثة . وهذا مايجعل قارئة يطمئن الى ماورد فيه . وليس خافياً أن نسبة اطمئناننا الى ماتنشره وسائل إعلام الازمة من أخبار ليست عالية ، لأن إعلام الأزمة يعاني دوماً من

« الهوى » . وأبرز ما في طريقة العمل انها اعتمدت « العمل الميداني » على مدى ستة أيام بين ١١ و٩١/٣/١٦ في أماكن متنوعة في بغداد وماحولها ثم في الموصل ، وتضمنت لقاءات مع المعنيين من أهليين في منظمات حكومية ورسميين في الحكومة . ولم تستطع البعثة زيارة الجنوب والشمال حيث الاضطرابات لأن تردي الأوضاع هناك كان شديداً والأمنُ غير متوافر .

استطاع مارتي اهتساري في بداية ملاحظاته العامة التي سجلها عما رآه أن يوجز لنا عظم الكارثة وفداحة الخسائر وهول مايجري . فقد أشار الى أنه كان على علم مع اعضاء بعثته بتقارير وسائل الاعلام عن الحالة في العراق ، شأننا جميعاً ، ليقول بعد ذلك « بيد أنه يجب أن يذكر فوراً ان ما من شيء سبق أن رأيناه أو سمعنا عنه قد أعدّنا تماماً لرؤية هذا الشكل الخاص من الدمار الذي أصاب هذا البلد الآن . فقد جلب الصراع الذي حدث مؤخراً نتائج تشبه أحداث يوم القيامة على الهياكل الأساسية الاقتصادية لما كان حتى ١٩٩١/١/١٧ مجتمعاً حضرياً يعتمد على الآلات الى حد بعيد . أما الآن فإن معظم الوسائل الداعمة للحياة الحديثة قد دمرت أو أصبحت هزيلة . لقد أعيد العراق الى عصر ماقبل الثورة الصناعية وسيظل كذلك فترة من الزمن ، لكن مع كل أوجه العجز التي يتسم بها الاعتماد على الاستخدام الكثيف للطاقة والتقنية في عصر مابعد الثورة الصناعية » .

إن جماع احتياجات الانسان « الإطعام من جوع والأمان من خوف » وقد منّ الله على قريش أنه « أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . وتتضمن هذه الاحتياجات تفصيلاً بعد حماية حق الحياة ، فهناك المأوى والمياه النقية الصالحة للشرب والمرافق الصحية والخدمات الصحية الأساسية والدعم الطبي والأغذية ووسائل النقل والإمداد . وهي تتضمن أيضاً حق العمل . فما هو حال تلبية هذه الاحتياجات ؟

الاضطراب السياسي الموجود حالياً في العراق يفقد الانسان الأمن ويهدد حق الحياة . وهو يجعل الكثيرين محرومين من حق العمل . وقد سجل التقرير أن « السلطات والنقابات العمالية تقدر أن نحو ٩٠٪ من عمال الصناعة أصبحوا عاطلين ، وسيحرمون من الدخل تبعاً لذلك . ولايداوم للعمل في ادارات الحكومة إلا عدد ضئيل جداً من الموظفين . والمشكلة الرئيسية التي نجمت عن التدمير بسبب القصف « الافتقار الى الطاقة » اللازمة لتسيير مختلف نشاطات الحياة الحديثة .

الصورة التي رسمها التقرير لأوضاع « الأغذية والزراعة » قاتمة جداً تجعل الكبد يحترق وصاحبه يتصور معاناة الناس . وقد سجّل التقرير « أن الجزاءات التي قررها مجلس الأمن أثرت تأثيراً ضاراً بالفعْل على قدرة البلد على توفير الغذاء لشعبه » . فالعراق ظل يعتمد اعتماداً قوياً على الواردات من الأغذية التي تغطي ٧٠٪ من احتياجاته الاستهلاكية . وهو يستورد البذور أيضاً . وهكذا نجد الآن أن « الطحين بلغ مستوى حرجاً من الانخفاض ، والامدادات من السكر والارز والشاي والزيت النباتي والحليب المجفف والبقول بلغت هي الأخرى مستويات منخفضة أو أنها نفدت الى درجة أن توزيع الحليب المجفف على الأطفال يصرف كدواء بوصفه طبية » . كما نجد الآن أن الجوع اصاب المواشي أيضاً لأن الكثير من الاعلاف كانت تستورد . وقد تم اثناء الحرب تدمير المعمل الوحيد الذي ينتج لقاحات بيطرية / كما عاينت ذلك البعثة / وأتلف جميع المخزون من اللقاحات بفعل سلسلة من الغارات المتعاقبة استهدفت هذا المركز الذي كان مشروعاً اقليمياً لمنظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة « الفاو » . وواضح أن جوع المواشي يعني نقصاً في الثروة الحيوانية يسهم في جوع الانسان ، والحياة دورة .

لقد وجد هذا الانسان نفسه محروماً من الدعم الذي كانت تقدمه

الحكومة لكبار السن والمعوقين والأمهات والأطفال والمرضى نزلاء المستشفيات واليتامى واللاجئين . ووجد أن مخصصات الاعاشة لأسرته في الشهر هي ٥ كغ طحين أو ٣ أرغفة يومياً و١٠ كغ من غاز الطهي وصابونة واحدة للشخص في الشهر . ويقول التقرير أن البعثة أجرت دراسة استقصائية مستقلة في عدة مناطق من بغداد « فتبين لها ان الكثير من الأسر لاتتمكن من الحصول على حصص اعاشتها بالكامل » . كما وجد هذا الانسان نفسه أمام ارتفاع مذهل للأسعار يواجه غول الغلاء بعد أن تدهور دخله . وقد أوصت البعثة بإلغاء الجزاءات فيما يتعلق بامدادات الأغذية فوراً ، وكذلك فيما يتعلق باستيراد المعدات والامدادات الزراعية ، وتوفير السلع الاساسية لحماية الفئات المستضعفة ، وكميات كبيرة للسكان من المواد الغذائية الأساسية ، ومايلزم لتلبية احتياجات عامة دنيا من اسمدة ومبيدات للآفات وقطع غيار . كما لاحظت البعثة أنه بدون إعادة امدادات الطاقة الى قطاعي الانتاج والتوزيع في المجال الزراعي ، فلن يكون لتنفيذ التوصيات المذكورة اعلاه في اكثرها أثر يذكر . وواضح أن اعلان بدء سريان وقف اطلاق النار يعني ان هذه الجزاءات قد تم رفعها والغاؤها بعد حوالي شهر من زيارة البعثة .

تضمن تقرير بعثة الأمم المتحدة جزءاً خاصاً عن « المياه والمرافق الصحية والصحة » . ويكفي لتصور المعاناة أن نعرف أن الانسان الذي كان يستهلك ٤٥٠ لتراً من المياه في اليوم في بغداد انخفض نصيبه الى ١٠ لترات في اليوم وبصعوبة ارتفع الى مابين ٣٠ و٤٠ لتراً في اليوم . وتضمن التقرير جزءاً آخر خاصاً باللاجئين وغيره من الفئات المستضعفة . وقدرت البعثة ان نحو ٩٠٠٠ منزل قد هدمت أو أتلفت أثناء القصف في بغداد والبصرة فشردت ٧٢ ألف شخص يضاف اليهم ثلاثة أرباع مليون من العمال العرب والأجانب أوضاعهم غير مستقرة ويوضح الجزء الخاص « بالسوقيات والنقل والمواصلات والطاقة »

« أن قدرة البلد فيما يتعلق بالنقل تقوضت » . وقد دمرّ القصف ٨٣ جسراً برياً وعطل ميناءي البصرة وأم قصر ، بل أن جسراً في تركيا على طريق الاسكندرون مرسين العراق تم تدميره . ودمرت جميع الشبكات الهاتفية الداخلية والخارجية . ويفصل التقرير شرح مدى شحّ الزيوت والنفط حتى انه لم توجد تقريباً أية مبيعات رسمية من البنزين . وختم حديثه بأنه بدون معالجة الاحتياجات الاساسية المتعلقة بالطاقة سيكون من الصعب ان لم يكن من المستحيل تلبية الاحتياجات الانسانية الفورية وحذّر من أن أهلنا في العراق قد يواجهون في القريب العاجل بكارثة محدقة أخرى يمكن أن تشمل الأوبئة والمجاعة ولم تبق سوى أسابيع قليلة على حلول الصيف الطويل . وهكذا فإن الوقت المتاح قصير .

تداعى الى خاطري وأنا اقرأ التقريرين حديث الحرب والسلم الذي كتبته في الأسبوع الأول من هذا العام . والحت علي تساؤلات حول ما جرى في العراق منذ ايقاف العمليات القتالية . وماجرى فظيع فظيع في الجنوب والشمال وفي الوسط حيث النجف وكربلاء . وسابق لأوانه تقديم اجابات عن هذه التساؤلات ولكن يقيناً سوف يأتي يوم تتضح فيه الصورة . واشتدت عليّ وطأة المناخ النفسي الذي يحيط بالمرء وهو يتابع مايجري في الكويت والعراق في أعقاب حرب مدمرة ، وهو « مناخ تسوده حالة من الشك والبُعد عن اليقين وتلح فيه اسئلة كثيرة حول ماحدث ومدى معقوليته وانسانيته » . كما كتبتُ في دراسة سأقدمها بعد أيام لندوة تعقدها اكاديمية المملكة المغربية في الدار البيضاء حول الأمم المتحدة بعد حرب الخليج . « ويقتضي الخروج من وطأة هذا المناخ النفسي جهداً فكرياً وروحياً يبلور رؤية نافذة تفتح ابواب الأمل وتعيد الثقة بالعقل والانسان ، وانجازاً ايجابياً ملموساً يحول الأمل الى واقع ، ويعطي ماجاء في ديباجة ميثاق الأمم المتحدة معنى حين تحدث عن « انقاذ

الأجيال المقبلة من ويلات الحرب » وأكد « الايمان بالحقوق الاساسية للانسان وبكرامة الفرد » و« العزم على تحقيق العدالة والقانون الدولي ودفع الرقي الاجتماعي » .

أختتم هذا الحديث ونحن نودع الشهر المبارك الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وعيد الفطر على الأبواب ، وقد احتفل اخوتنا النصارى بعيد الفصح . فنتفاءل خيراً ونذكر أن الأيام دول ونسأل الله اللطف بعباده وقلوبنا مع اهلنا في العراق والكويت في محنتهم الأخيرة ، وعيوننا على الأقصى وكنيسة المهد والحرم الابراهيمي وكنيسة القيامة وعزمنا مع أهلنا هناك على أن تنتصر الصحوة من خلال انتصار الانتفاضة .

توجه الكيان الصهيوني بعد حرب الخليج(*)

كيف يبدو توجُه الكيان الصهيوني بعد حرب الخليج ؟

في صباح الخميس ١٤ شعبان ١٤١١ الموافق ١٩٩١/٢/٢٨ بدأت مرحلة « مابعد حرب الخليج » عقب سبعة شهور من أزمة نشبت يوم ١٩٩٠/٨/٢ إثر الاجتياح العراقي للكويت واستمرت خمسة شهور ونصف الشهر حملت طابع العالمية ، ثم تفجرت حرباً يوم ١ رجب ١٤١١ الموافق ١٩٩١/١/١٧ دارت رحاها على الأرض العربية في العراق والكويت بخاصة ، وكانت المواجهة فيها بين قوات تحالف دولي بقيادة الولايات المتحدة الامريكية مشاركة عدد من الدول العربية وبين قوات العراق ، وقد انتهت هذه الحرب بانتصار قوات التحالف الدولي. وواضح أنه ستكون لهذه الحرب آثار بعيدة المدى على قضايا كثيرة في عالمنا الذي يشهد تحولات . وقد بدأت هذه الآثار في الظهور بسرعة في مرحلة مابعد الحرب على قضية فلسطين والصراع العربي الصهيوني . وكان الكيان الصهيوني قد عاش على مدى الأزمة والحرب وضعاً خاصاً حيث تعرض للقصف بصواريخ « سكود الحسين » العراقية ، ولم تسمح له الولايات المتحدة الامريكية بأن يشارك مباشرة في أية عمليات

(*) كتبت هذه الدراسة لمجلة المستقبل الاسلامي لتنشر في عدد ١٩٩١/٤/١

عسكرية ضد العراق ، وتولت بنفسها أمر توفير الحماية له .

طبيعي أن يواجه الكيان الصهيوني في مرحلة مابعد حرب الخليج آثار الحرب التي ظهرت على قضية فلسطين وعليه مباشرة وهي تتفاعل مع خصائص هذه المرحلة التي لابد أن تشهد إعادة ترتيب :

● كتبت هذه الدراسة لمجلة المستقبل الاسلامي لتنشر في عدد ١٩٩١/٤/١ للأوضاع في المنطقة شأن مايحدث في أعقاب الحروب . ومن هنا يبرز السؤال حول توجُه الكيان الصهيوني . وسنحاول الاجابة عنه بالتعرف بداية على احوال الكيان الصهيوني أثناء الأزمة والحرب لنأخذ فكرة عن وضعه الداخلي ، ثم نقف أمام حقائق استراتيجية كشفت عنها الأزمة والحرب .

* * *

تصرف الكيان الصهيوني عند نشوب أزمة الخليج باعتباره قاعدة استعمارية استيطانية أقامها الاستعمار الغربي للتحكم في الدائرة العربية الاسلامية وهجرٌ اليها يهوداً من انحاء مختلفة تحت راية الحركة الصهيونية ، فحرِّض على تصعيد الأزمة وعمل على تشجيع الاتجاهات المنادية بخوض حرب في الغرب ضد العراق والتشويش على المساعي السلمية لإنهاء الأزمة قبل أن تتفجر حرباً ، تماماً كما فعل في صيف عام ١٩٥٦ حين نشبت أزمة السويس . وتتجلى هذه الحقيقة من خلال تتبع الإعلام الصهيوني في الغرب بعامة والولايات المتحدة بخاصة ومراجعة التحركات الاسرائيلية مع الدول الغربية . ويذكرنا هذا السلوك الصهيوني في أزمتين نشبتا في منطقتنا ، بسلوك القواعد الاستعمارية الاستيطانية الأوروبية الأخرى إبان أزمات مماثلة كما حدث مع المستعمرين المستوطنين الفرنسيين في الجزائر والمستعمرين المستوطنين الايطاليين في ليبيا إبان ازمة عام ١٩٣٩ التي تفجرت حرباً عالمية ثانية . ويبدو من خلال

استذكار أدوار هذه القواعد في أزمات القرن العشرين أن الاستعماريين المستوطنين كانوا دائماً عاملاً قوياً في غلبة الاتجاهات الفاشية العنصرية في الأوطان التي جاءوا منها . وقد أيدّ المستعمرون المستوطنون الفرنسيون في الجزائر الماريشال بيّان ، تماما كما أيد الايطاليون في ليبيا موسوليني إبان الحرب العالمية الثانية .

كان من الملفت للنظر بعد أن تفاقمت أزمة الخليج وأمسك بزمامها أطرافها الأصليون ، أن ذلك الصوت الاسرائيلي الزاعق الذي كان يملأ الإعلام الغربي حول الدور الاسرائيلي في المنطقة قد خفت الى أدنى مستوى . وهكذا لم يعد العالم يسمع تلك « الجعجعة » الاسرائيلية ، الأمر الذي أكد أن الدور الذي تقوم به القاعدة الاستعمارية الاستيطانية يقع ضمن استراتيجية شاملة للمستعمر الأصلي الذي أقام تلك القاعدة ووفر لها مقومات الاستمرار ، وأن هذا الدور يتحدد طبقاً لمتطلبات هذه الاستراتيجية .

لقد كان أول ماعكف عليه الاستراتيجيون الاسرائيليون الصهاينة النظر في الدور الذي يمكن « لاسرائيل » أن تقوم به اثناء الأزمة . ولم يلبث هؤلاء أن تحدثوا عن « مقدرة اسرائيل على الردع في الظروف الجديدة ، وأهمية تحالفها مع الولايات المتحدة » كما جاء في صحيفة بوست يوم ١٩٩٠/٨/٨ . ولكن ما اسرع أن فوجئوا بحقيقة أنه « ليس لدى واشنطن رغبة في أن تعمل مع اسرائيل على صعيد أزمة الخليج الآن ، والأرجح هو العكس » . وفق ما نقل جيمس دورسي في واشنطن تايمز يوم ١٩٩٠/٨/٧ عن مسؤول في الادارة الاميركية في رده على سؤال عن الجانب العسكري من الدور الاسرائيلي في الأزمة . بل إن الأخبار تتالت من واشنطن موضحة « أن اسرائيل تقدم نفسها على أنها جاهزة لتحارب ، بينما تحذرها الولايات المتحدة من الانتهازية » ، وتم

ارجاء زيارة وزير الخارجية الاسرائيلي التي كان موعدها مقرراً من قبل . وهال هؤلاء الاستراتيجيون الاسرائيليون مالمسوه من حساسية بالغة لدى واشنطن تجاه أي دور اسرائيلي في الأزمة .

جعل الكيان الصهيوني همّه حين نشبت الأزمة أن يحول بين أي ربط لها بقضية فلسطين والصراع العربي الصهيوني . وحين رأى قادته أن حدوث الأزمة تسلط أضواء على الصراع من زاوية جديدة حاول اسحق شامير في تصريح يوم ١٩٩٠/٨/٨ التغطية على ذلك قائلاً « ان مشكلة الخليج تضع جانباً جميع مشاكل المنطقة بما في ذلك نزاعنا مع الفلسطينيين » . وهال هؤلاء القادة أن تأتي تصريحات مسؤولين غربيين وسوفييت لتؤكد عكس ماصرح به شامير . وقد تحدث وزير خارجية فرنسا رومان دوما في الأسبوع الأول من الأزمة موضحاً أن الصراع العربي الصهيوني والموقف العربي منه هو أحد أسباب ثلاثة تجعل الأزمة الراهنة مؤهلة لتفجر كبير ، والسببان الآخران الموقف الغربي من الحضارة العربية الاسلامية وغنى الشمال وفقر الجنوب . وتحدثت موسكو عن ضرورة معالجة قضية فلسطين وازمة لبنان اذا اريد استئصال جذور أزمة الخليج . وكانت الخارجية الاسرائيلية تتبنى منذ نشوب الازمة سياسة دعائية نصح بها العرب « يتجلى فيها الحرص على عدم الظهور بمظهر المستفيد من الأزمة ، ويتجنب فيها الاعلان عن أن القضية الفلسطينية أصبحت في الآونة الحالية قضية فرعية » كما لاحظت صحيفة دافار يوم ٩٠/٨/٩ وجاءت مبادرة العراق يوم ٩٠/٨/١٢ متضمنة ربط الأزمة بالصراع العربي الصهيوني لتصبح قضية الربط هذه محل اهتمام عالمي ولتجعل الصراع العربي الصهيوني في بؤرة الشعور سواء عند من رفض المبدأ أو من قبله .

عرف الكيان الصهيوني بفعل الأزمة وتداعياتها مناخاً جديداً عم مختلف أوساط التجمع الاسرائيلي الذي برز فيه شعور بالهلع من احتمال اندلاع حرب

لايكون بمنجاة منها . وقد أخذ الاسرائيليون « مأخذ الجد ماتردد عن امكانية استخدام اسلحة كيماوية في هذه الحرب وتدمير نصف اسرائيل » . وبرز أيضاً في أوساط التجمع شعور بالقلق من استمرار الانتفاضة أثناء الأزمة على غيرّ ما توقعه استراتيجيوه . وقد عبّر عن هذا الشعور يؤال ماركوس في هاراتس يوم ٩٠/٨/٩ إثر مقتل مجنّدين اسرائيليين بقوله « جاءت هذه الحادثة كي تذكرنا بأن الانتفاضة لاتزال مستمرة كما كان عليه الوضع دائماً ، وأن القضية التي تواجهنا هنا هي قضيتنا وحدنا ، وليست قضية امريكا ، وانها تحرق اقدامنا نحن ، وأن جنوننا وفقدان أعصابنا واندفاعنا كالعاصفة الجامحة المدمرة في الرد على الانتفاضة والانتقام منها يجعل الفلسطينيين يردون على العنف بعنف . اننا نواجه مشكلة شديدة التعقيد ، وهي تتطلب منا اتزاناً وهدوءاً وروية واعصاباً ثابتة وطول نفس ، والا فسوف يكون الانهيار نهايتنا » .

تطلع قادة الكيان الصهيوني وسط هذا المناخ الجديد الثقيل الى الغرب الذي أوجده ووفر له الدعم والحماية ، والترقب القلق يستولي عليهم في انتظار ماستقرره قيادة التحالف الدولي بشأن « دورهم » وحمايتهم ونشطت الحركة الصهيونية العالمية في الولايات المتحدة بخاصة لتذكير واشنطن بالتزاماتها تجاه قاعدتها الاستعمارية الاستيطانية . واستقبلت الادارة الامريكية دافيد ليفي وزير الخارجية الاسرائيلي يوم ١٩٩٠/٩/٥ بعد اكثر من شهر على نشوب الأزمة . وتردد الحديث بعد لقائه بجيمس بيكر عن وعد امريكي بتزويد اسرائيل بصواريخ ضمانة لأمنها ، وعن تقديم مساعدات مالية لها ، وعن طلب اسرائيل شطب ديون مستحقة للولايات المتحدة عليها . وبدا واضحاً أن الكيان الصهيوني يمثل عبئاً على موجديه الذين استشعروا نقل هذا العبء على اكتافهم في ظرف كانت مصلحتهم فيه تقتضي تعطيل دوره التقليدي .

حين ننظر في التوجهات والممارسات الاسرائيلية إبان أزمة الخليج نميز

بوضوح نزوعها الى التشدد المتزايد . فقد استمرت عملية تهجير اليهود السوفييت ، وضاعفت الأجهزة الاسرائيلية المختصة جهودها لاستيعابهم وتوطينهم في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ وفي الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة عام ١٩٦٧ . وأقدمت الحكومة الاسرائيلية يوم ١٩٩٠/١٠/٨ على تنفيذ مذبحة جديدة في القدس إثر أحداث الحرم القدسي التي سببها قيام بعض الصهاينة بإرساء حجر أساس لتنفيذ مخططات بناء الهيكل في موقع المسجد الأقصى ، بينما تصاعدت الممارسات الاسرائيلية لقمع الانتفاضة وأطلق اسحق شامير يوم ١٩٩٠/١١/١٨ تصريحاً في اجتماع مؤسسي حركة ليكود قال فيه « إن قادة حزبنا السابقين تركوا لنا رسالة واضحة أن نسيطر على « أرض اسرائيل » من البحر المتوسط الى نهر الأردن ، من أجل الهجرة الجماعية والشعب اليهودي الذي سيتجمع معظمه في هذه البلاد » . وكشفت مناقشات الكنيست يوم ١٩٩٠/١٢/١٢ عن اعتماد اسلوب اسرائيلي جديد لقمع الانتفاضة يقوم على « نشر الجيش الاسرائيلي قناصة من افراده على مسافات بعيدة من رماة الحجارة واطلاق النار على سيقان الفلسطينيين ، وتسليح اربعين ألف مستعمر مستوطن صهيوني في اطار ما اسماه يعقوب تيريز مفتش البوليس الاسرائيلي حرساً مدنياً للمساعدة في قمع الانتفاضة » . وجاء اغلاق سلطات الاحتلال الاسرائيلي مدينة القدس أمام ابناء فلسطين يوم ١٩٩٠/١٢/١٦ لإتاحة الفرصة للمستوطنين الصهاينة كي يقوموا باحتفال عدواني ، دليلاً آخر على التشدد المتزايد في التوجهات والممارسات .

اندلعت حرب الخليج وحفلت بأحداث كثيرة كان من بينها فيما يتعلق بالكيان الصهيوني تعرضه لصواريخ « الحسين ـــ سكود » التي اطلقها العراق عليه رداً على القصف الجوي الذي قامت به قوات التحالف الدولي الامريكية البريطانية والفرنسية في المواقع العراقية . وقد بلغ عدد هذه الصواريخ حوالي

أربعين ، ويبدو أنها أصابت جميعها أهدافاً اسرائيلية حيوية في العمق وبدقة تلفت النظر ، ولاتزال المعلومات حول ماسببته غير متوافرة بسبب الحظر الشديد الذي فرضته الحكومة الاسرائيلية . وقد سارعت الولايات المتحدة الى تزويد الكيان الصهيوني بصواريخ « باتريوت » المضادة للصواريخ وبالطواقم اللازمة لتشغيلها من ضباط الجيش الامريكي وجنوده . ولم تفلح هذه الصواريخ في توفير الحماية اللازمة للاسرائيليين من القصف الصاروخي العراقي الذي بقي منتظماً حتى توقفت الحرب .

كان تعرض الكيان الصهيوني في أعماقه لهذا القصف الصاروخي حدثاً جديداً على الاسرائيليين وقد أصابهم بالهلع الذي تخوفوا منه أثناء الازمة . وبقي شبح أن تحمل هذه الصواريخ اسلحة غير تقليدية ــ كيماوية أو جرثومية أو بيولوجية ــ ماثلاً أمامهم . ونأخذ فكرة عن هذا الهلع مما جاء عنه في الصحف الاسرائيلية . فهذه جريدة بوست تحدثت يوم ٩٠/١/٢٣ واصفة صاروخ الحسين بأنه « سلاح مرعب ويحطم نفسيات المواطنين » ، ومتحسبة من أن يكون لدى العراق المقدرة على تسليحه برؤوس كيمياوية . وهذه صحيفة يديعوت أوردت وصفاً في اليوم نفسه لما جرى في أحد أحياء تل أبيب بعد « أن تناهى الى سمع سكانه صوت صفير خافت قادم من السماء آخذ في التزايد . فقد انطلقت صفارات الانذار ،.. بيد أن اصداءها أخذت تخفت حتى تلاشت ولم يبق سوى صوت الصفير الغريب على الآذان الاسرائيلية ، ثم فجأة دوى صوت انفجار رهيب . وكان المنظر الذي خلفه انفجار الصاروخ مفزعاً حقاً وحافلاً بالدمار والاشلاء والحطام المتناثر في كل مكان ..» وتابعت الصحيفة وصف ما اذاعه الناطق باسم الجيش الاسرائيلي وتحرك طواقم الدفاع المدني والذعر الكبير الذي ساد في أوساط الاسرائيليين وقيام الرقابة العسكرية الاسرائيلية بفرض حظر على مراسل محطة

(سي إن إن) مواصلة تزويد محطته بالمعلومات وحال رجال الشرطة الذين وصلوا الى المنطقة حائرين ومرتبكين لايدرون ما الذي يتوجب عليهم عمله .. « وقد أوضحت صحيفة دافار يوم ١٩٩١/١/٢٤ » أن الجماهير الاسرائيلية لاهمَّ لها وهي ترى الصواريخ تنصب على رؤوسها سوى المطالبة بإسكات مصادر هذه الصواريخ بأي ثمن كان الى الحد الذي جعل مسألة حسم الحرب تبدو ثانوية جداً الى جوار المطلب آنف الذكر » . وطالبت الصحيفة « بضبط النفس » ، وأشارت الى أصوات تعالت هنا وهناك مشيرة الى « الخزي » الذي لحق باسرائيل جراء تعرضها للضرب الصاروخي دون أن تكيل الصاع صاعين كما جرت عليه عادتها .

* * *

لقد كشفت أزمة الخليج منذ أيامها الأولى ــ كما يتضح من هذا العرض ــ عن حقيقتين استراتيجتين تتعلقان بالكيان الصهيوني كقاعدة استعمارية استيطانية لتأمين المصالح الغربية . وهاتان الحقيقتان وفق ماتحدث عنهما كاتب هذه السطور في الأسبوع السادس للأزمة **هما أولاً أن القيمة الاستراتيجية « لاسرائيل » في تأمين المصالح الغربية النفطية بدت « معدومة » وتبَدّد وهم كبيرٌ أوحت به دراسات صهيونية امريكية . وثانياً أن « اسرائيل » على العكس من ذلك مثلت عبئاً ثقيلاً على الولايات المتحدة اثناء الأزمة عملت واشنطن على ضبطه كي لايخل بإدارتها للأزمة** ، وسط مشاغل اميركية كثيرة وشواغل . وكانت هاتان الحقيقتان وراء حرص الادارة الامريكية على إرجاء زيارة وزير الخارجية الاسرائيلي التي كانت مقررة في الأسبوع الأول للأزمة ، « كي لايبدو لأحد أن ماتعتزم واشنطن القيام به في الخليج هو نتاج مؤامرة تمت حياكة خيوطها مع الاسرائيليين » كما نقلت جريدة معاريف يوم ٩٠/٨/١٠ عن زعيم يهودي امريكي في حديث له مع ابا إيبان . وقد لاحظ

القادة الصهاينة بأسى حساسية الادارة الامريكية البالغة من التعامل معهم ، وتجنب الرئيس الامريكي بوش التشاور مع اسحق شامير حول الأزمة في وقت كان يتشاور فيه مع قيادات دول كثيرة أخرى في المنطقة العربية . وبدا أن العبء المعنوي للكيان الصهيوني على الولايات المتحدة اثقل بكثير مما كان متصوراً ، حيث كشفت الأزمة أن السياسة الامريكية في تعطيل تطبيق الشرعية الدولية لإنهاء الاحتلال الاسرائيلي للقدس والأراضي العربية الفلسطينية على مدى ثلاثة وعشرين عاماً منذ يونيو ١٩٦٧ اصابت النظام الدولي بخلل في الصميم واظهرت أنه يعتمد مقياسين ومن ثم زعزعت الثقة في قدرته على تحقيق الأمن الجماعي لبعض أطرافه .

تجلت هاتان الحقيقتان الاستراتيجيتان بصورة أوضح اثناء أسابيع الحرب الستة . وكان على الادارة الامريكية كي تحول دون أي تصرف يقوم به الكيان الصهيوني من ذاته خارج مارسمته هي له أن ترسل مبعوثاً عالياً منها هو « لورنس ايجلبرجر » ليضبط الأمور فيه . وقد تساءل الاستراتيجيون الاسرائيليون « كيف تبدو الاستراتيجية الاسرائيلية بعد الحرب » ، وتوقع بعضهم « أن اسرائيل لن تفلح في اقناع أمريكا بأنها مازالت ذخراً استراتيجياً لها » . وكان مما كتبه دان ترجليت في هاآرتس يوم ١٩٩١/١/٢٣ حول هذا الموضوع قوله « كانت أهمية اسرائيل الاستراتيجية منذ حرب ١٩٦٧ وحتى الحرب اللبنانية تشكل حجر الزاوية في علاقة اسرائيل بالولايات المتحدة . وقد تراوحت هذه الأهمية منذ ذلك الحين بين مد وجزر حتى تمت بلورتها في مذكرة التفاهم الشهيرة بين الدولتين التي صمدفحواهاأمام جميع الأزمات التي انتابت العلاقات الأمريكية الاسرائيلية . ولقد أصبحت أهمية اسرائيل الاستراتيجية في الآونة الحالية في حاجة الى دراسة من جديد في أعقاب ماطلبته من الولايات المتحدة من تعويضات وماصرح به رئيس الحكومة من أن الجيش

الامريكي يفصل بين الجيش العراقي والاسرائيلي تعبيراً عن الركون الى الحليفة الكبرى وخفض الرأس لها .. وستجد اسرائيل نفسها حال انتهاء الحرب أمام حقيقتين . الأولى أنها لم تسهم في حرب الخليج بقوتها العسكرية . والأخرى أن وجودها على هامش الحرب شكل عبئاً على الولايات المتحدة . « وتوقع الكاتب الاسرائيلي » أن يصبح دمج اسرائيل في النظام الاقليمي الجديد في الشرق الأوسط اكثر تعقيداً مما كان عليه في السابق ويتطلب تفكيراً استراتيجياً عميقاً » .

حقيقتان استراتيجيتان أخريان كشفت عنهما حرب الخليج تتعلقان بالكيان الصهيوني ، فضلاً عن سابقتيهما .

الحقيقة الأولى هي أن هذا الكيان الصهيوني قابل للاصابة في أعماقه بضربات موجعة تهزه هزاً فهو لاينفرد بالقدرة على أن تطول ضرباته الأعماق العربية ، لأن هناك قدرة عربية يمكن أن تطول ضرباتها أعماقه ، وهذه القدرة في تنامٍ مستمر . ولايعني كونه نجا منها على مدى أربعة عقود ، كما لايعني كون اصابته هذه المرة جاءت محدودة ، **أنه يمكن أن ينجو في مرة قادمة اذا استمر في نهجه العدواني . وقد أكدت هذه الحقيقة ما أثبتته الانتفاضة قبل ذلك من امكانية التصدي للآلة العسكرية لهذا الكيان ، وكذلك ما أثبتته العمليات الفدائية على خطوط التماس وبخاصة في جنوب لبنان .**

الحقيقة الأخرى هي أن الصورة التي يرسمها هذا الكيان الصهيوني لقوته مبالغ فيها وهناك فارق ليس بالقليل بينها وبين واقعها القائم . وقد ظهر أثناء الحرب وجود ضعف واضح في العناصر المكونة لهذه القوة ، تحدثت عنه جريدة بوست يوم ١٩٩١/٢/١٢ . قائلة « .. أمكن اكتشاف هذا الضعف

في أربعة مجالات هي الاستخبارات ، والجبهة الداخلية ، والعلاقات مع الولايات المتحدة ، والردع الاسرائيلي .. فمع أول هجوم صاروخي عراقي أبدى الاسرائيليون وهناً وادركوا انهم يواجهون نوعاً جديداً من الحروب حيث أصبحت الجبهة الاسرائيلية الداخلية خط المواجهة الرئيسي . ورغم قلة الخسائر المادية والبشرية الا أن الاسرائيليين لم يواجهوا الوضع الناشيء على وجه حسن ، حيث أشار استطلاع الى رغبة ٤٤٪ من سكان تل أبيب مغادرتها . والأكثر اذهالاً هو فشل جهاز الاستخبارات الاسرائيلي في تحليل التهديدات العراقية وتقدير النوايا الاسرائيلية وفي مجال جمع المعلومات الاستخبارية . واجبر هذا الافتقار الى المعلومات الدقيقة اسرائيل الى التخلي عن خياراتها العسكرية ، وربطها بالمصالح الاستراتيجية الامريكية فأثبتت مرة أخرى أنها لاتستطيع اتخاذ قرارات مستقلة . ونتيجة لذلك كله تضررت قدرة الردع الاسرائيلي بشدة ، علماً بأن استراتيجية اسرائيل منذ تأسيسها اعتمدت على الافتراض القائل إن تفوق الأسلحة والتكنولوجيا التي تستخدمها مقرونة بتفوق طاقتها البشرية سيكون رادعاً جيداً للعدو . وقد جاءت الهجمات الصاروخية العراقية لتثبت فشل الردع الاسرائيلي » .

لقد كشفت الأزمة والحرب حقيقتين استراتيجيتين أخريين تتعلقان بالطرف العربي في الصراع العربي الصهيوني ، وتتضمنان من ثم تأثيراً مباشراً على الكيان الصهيوني .

الحقيقة الأولى هي الحاجة الى وجود نظام في المنطقة نابع منها . فافتقاد هذا النظام لم يكن في صالح استقرار النظام الدولي . ووجوده هو الكفيل بتأمين استقرار دائرة الحضارة العربية الاسلامية ، وحماية مصالحها المشتركة مع كل الأطراف الدولية ، وضمان تدفق النفط منها باعتباره سلعة استراتيجية الأمر الذي يؤكد وقوع السياسة الاميركية في عدد من الأخطاء الفادحة حين

استهدفت انهاء دور مصر في دائرتها وعملت على عزلها وحاولت فرض نظام آقليمي تكون لاسرائيل فيه اليد العليا ، وتابعت تبني الاستراتيجية البريطانية التي اصطفت تناقضاً بين الدول العربية وشقيقاتها في العالم الاسلامي .

الحقيقة الأخرى هي وجود صحوة في أوساط الدائرة العربية الاسلامية جرى التعبير عنها بصور مختلفة . فالانتفاضة الفلسطينية استمرت وتصاعدت مؤكدة ان الجذوة التي اشعلت نورها منذ اكثر من ثلاث سنوات وقدرتها على الانارة في تزايد . والتحركات الشعبية هنا وهناك في الدول العربية والاسلامية تعبر بقوة عن روح الانتفاض ، ولاتزيدها النكسات الا تصميماً واصراراً وقد حفلت فترة الأزمة والحرب بصور منها .

تأكدت هاتان الحقيقتان للغرب بقيادة الولايات المتحدة الاميركية ، فأصبح لابد من أخذهما بعين الاعتبار في التعامل الغربي مع المنطقة وقضاياها وفي مقدمتها قضية فلسطين والصراع العربي الصهيوني . وقد وضح هذا الأمر **في التحركات الغربية والامريكية بخاصة في أعقاب الحرب ، وإن جاء محدوداً للغاية ومخيباً لآمال من تمنوا أن يكون الغرب قد استوعب عبر الأزمة والحرب ودروسهما . ومع ذلك فهو يشير الى تحول محدود قابل لأن ينمو مع زيادة فاعلية المنطقة .**

★ ★ ★

السؤال الذي يبرز أمامنا في ضوء ماسبق هو « هل طرأ تغير على التوجهات الاسرائيلية بفعل تكشف هذه الحقائق الاستراتيجية ؟ » وهل من المتوقع أن يطرأ مثل هذا التغير في مدى قريب ؟ »

لقد حفل الأسبوعان الأولان في مرحلة مابعد حرب الخليج بأحداث

كثيرة تشير الى أن التوجهات الاسرائيلية لم يطرأ عليها أي تغيرّ بل قوي نزوعها الى التشدد المتزايد . الأمر الذي جعل الممارسات الاسرائيلية تستمر كما كانت على مختلف الصعد ، بحدة أقوى . فالارهاب الاسرائيلي الرسمي وغير الرسمي لشعب فلسطين العربي استمر ، وبلغ به الأمر أن يتابع فرض حظر التجول العام الذي بدأه إثر تفجر حرب الخليج ، واطلاق الرصاص على المُنتفضين استمر ، وكذلك القصف الجوي لقواعد فلسطينية في جنوب لبنان . والحكومة الاسرائيلية استقبلت جيمس بيكر ببيان اصدرته تؤكد فيه على أنها ترفض ماتسميه « تنازلات اقليمية » ، واستقبلته ايضاً بمجموعة تصرفات متغطرسة ، وضمنّت برنامج زيارته رحلة بالطائرة المروحية فوق جميع الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة لتقنعه بمطالبها الأمنية ، وزيارة إلى مستوطنة للمهجرين السوفييت ترمز الى عزمها على المضي قدماً في تهجير اليهود من أوطانهم ضمن حملة استعمارية استيطانية جديدة تستهدف المنطقة العربية . والقيادات الصهيونية تابعت تصريحاتها عن السلام بالمفهوم الصهيوني وطرحها الأفكار القديمة اياها التي لاتستأهل تبديد المداد الذي سيصرف في مجرد تسجيلها كتابة .

إن حقيقة نزوع التوجهات الاسرائيلية في مرحلة مابعد حرب الخليج الى التشدد المتزايد ، لا ينبغي أن تمثل مفاجأة لنا ، بل هي تعبير صادق عن طبيعة القاعدة الاستعمارية الاستيطانية عموماً . وقد أوضح كاتب هذه السطور في كتابة « ماذا بعد حرب رمضان » ان هذه الطبيعة لاتعرف الا العدوان وهي تجعل القاعدة الاستعمارية الاستيطانية عاجزة عن مواجهة الحقائق عقلانيا ، فتعمد الى مواجهتها بالقوة الغاشمة وتجعل مراهنتها على اخراج موطنها الاستعماري الذي أوجدها كي يحميها من آثار ذلك . وتشير جميع تجارب الاستعمار الاستيطاني التي عرفها عالمنا الى أن إخراجهم من الأراضي

التي يحتلونها تمت قسراً وبالفرض بعد أن وصل المستعمر الذي كان يحميها الى اقتناع بذلك . وقد يتضمن الأمر احياناً تفجر صراع محدود بين القوة المستعمرة وقاعدتها الاستعمارية تكون الغلبة فيه طبعاً للقوة المستعمرة ، كما حدث بين ديجول والمستعمرين المستوطنين الفرنسيين في الجزائر الذين دعوه أول الأمر آملين أن ينجح في قمع ثورة الجزائريين ثم ناصبوه العداء حين توجه لانهاء الاستعمار الفرنسي للجزائر والتفاهم مع الثوار في بداية الستينيات .

سؤال آخر يبرز أمامنا هنا عند هذا الحد هو « هل وصل الغرب بقيادة الولايات المتحدة في ضوء الحقائق الاستراتيجية التي كشفت عنها الأزمة والحرب الى اقتناع بأن الوقت حان ليفرضوا على الكيان الصهيوني الانسحاب من الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة عام ١٩٦٧ ؟ »

لقد حفل الأسبوعان الأولان في مرحلة مابعد حرب الخليج بما يجعلنا نجيب عن هذا السؤال بالنفي . فما طرحه الرئيس بوش في خطابه الى الأمة هو تكرار للموقف الامريكي قبل الأزمة والحرب سواء في الحديث عن قراري ٢٤٢ و٣٣٨ أو في الحديث عن « مبادلة الأرض بالسلام » التي تضمنتها من قبل مبادرة سلفه الرئيس ريجان يوم ١٩٨٢/٩/١ إثر الاحتلال الاسرائيلي لجنوب لبنان ومعركة بيروت الكبرى . **والاشارة الجديدة الى أن الأمن لايتحقق عن طريق الجغرافيا فحسب لاتكفي للدلالة على وجود تحول في هذا الموقف الامريكي الذي مكّن الكيان الصهيوني من الاستمرار في احتلال الأراضي الفلسطينية والعربية منذ ١٩٦٧** واحتلال اراضٍ عربية أخرى في جنوب لبنان . وقد جاء حديث الرئيس بوش لأربعة صحفيين عرب في معرض اجابته عن اسئلتهم يوم ١٩٩١/٣/١٠ بعد القائه ذلك الخطاب ليؤكد بدون لبس **أن الولايات المتحدة تستخدم في قضية فلسطين مقياساً آخر غير ذلك الذي استخدمته مع العراق ، وأن الادارة الامريكية لم تصل بعد الى الاقتناع**

بفرض الانسحاب على الكيان الصهيوني ومن ثم لم تحزم ارادتها . وهكذا تحدث الرئيس بوش عن رغبة بلاده أن تكون « قوة محركة للسلام » وأن « الأمر يتطلب توفيقاً بين الطرفين » و« نحن مرنون تماماً فيما يتصل باسلوب الحل » و« قرارات الأمم المتحدة تخضع تفسيرها لمشكلات عديدة » و« موقفنا نحن لانحبذ الدولة الفلسطينية » و« دور منظمة التحرير في الوقت الحالي على الأقل قد تقلص في نظري » .. **ولو أن الاقتناع حدث والارادة حزمت لسمعنا لغة أخرى ولرأينا اجراءات تتخذ لفرض الشرعية الدولية و« تحرير » الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة بدون تأخير . الأمر الذي يشير بأسى الى أن الولايات المتحدة لم تستطع أن تتحرر هي من « غطرسة القوة » واعتماد مقياسين والكيل بكيلين .**

طبيعي إذاً أن يشجع هذا الموقف الامريكي الكيان الصهيوني على أن يمضي في توجهه النزّاع الى التشدد المتزايد .

وبعد .. فواضح أن هذا التوجه النزّاع الى التشدد المتزايد في الكيان الصهيوني يتزامن مع الصحوة التي تشهدها الدائرة العربية الاسلامية في مواجهة الغزوة الصهيونية . وقد بدأت هذه الصحوة منذ سنوات كما أوضح كاتب هذه السطور في كتابه « بداية الصحوة العربية في مواجهة الحركة الصهيونية » وقامت بفعل عوامل معينة ، وجاءت الانتفاضة الفلسطينية أقوى تعبير عنها . وهاهي هذه الانتفاضة دخلت عامها الرابع رافعة شعار الاستمرار والتصعيد والشمول ، وهاهي الصحوة بعامة تدخل مرحلة مابعد الحرب وقد اكتسبت خبرة جديدة . **الأمر الذي سيحدث تحولاً في مواجهتها للعدوان الصهيوني تكون للعقيدة فيه دور كبير** . والدلائل تترى واحداً تلو الآخر — كما كتب كاتب هذه السطور في دراسته عن الصراع بمناسبة دخول الانتفاضة عامها الرابع — « لتشير الى أن الصراع العربي الصهيوني يتحول تدريجياً ليكون

صراعاً عقائدياً . فعلى الصعيد الصهيوني أصبحت الهيمنة لمقولة شعب الله المختار ، ومقولة اليهود والأمميين ، ومقولة أرض التوراة من النيل الى الفرات ، ومقولة بناء الهيكل على انقاض المسجد الاقصى ، ومقولة طرد الفلسطينيين » .

وسيكون على الصحوة المؤمنة أن تواجه عدوانية الكيان الصهيوني بإفقاده أمنه وزعزعته اقتصادياً وخلخلته اجتماعياً ومحاصرته سياسياً ، والوصول بالمستعمر الأصل الذي اوجده كقاعدة استعمار استيطاني له الى تغيير استراتيجيته في المنطقة العربية الاسلامية اذا اراد لمصالحه المشروعة أن تحترم . ولابديل لنا عن تحرير وطننا ومقدساتنا .

(١) الأمم المتحدة والاختبار الصعب

الوعد الدولي بتطبيق الشرعية الدولية في قضية فلسطين

أكتب هذا الحديث وقد بدأت جولة جيمس بيكر وزير الخارجية الامريكي الثالثة للمنطقة في غضون سبعة أسابيع مضت على ايقاف العمليات القتالية يوم ٩١/٢/٢٨ ، وأنا أهيىء نفسي للسفر الى تونس للمشاركة في اجتماع المجلس المركزي ومنها الى الدار البيضاء للمشاركة في ندوة تقيمها أكاديمية المملكة المغربية حول الأمم المتحدة بعد حرب الخليج .

أصفو لنفسي بعد أن فرغت من أعمال كتابية عدة شغلتني الى حد ليس بالقليل إبان الشهر الكريم وأيام عيد الفطر . وجميعها متصلة بمرحلة مابعد حرب الخليج في مستوياتها المحلية والعربية والدولية . وقد كان من بين هذه الأعمال النظر في حال الأمم المتحدة اليوم .

★ ★ ★

لقد دخلت المنظمة الأممية بعد ايقاف العمليات القتالية في حرب الخليج ومع بداية عقد التسعينيات مرحلة جديدة من تاريخها تواجه فيها اختباراً صعباً سيكون نجاحها فيه عاملاً قوياً في الوصول الى سلام عادل راسخ في عالمنا يحقق استقراره وأمنه . وبالمقابل سيؤدي فشلها فيه الى تفاقم الخلل الذي يعاني منه النظام الدولي القائم .

هذا الاختبار الصعب هو التمسك باعتماد معيار واحد في النظر الى الأمور عند إقرار الشرعية الدولية ، والقدرة على تنفيذ أحكام هذه الشرعية الدولية وإقامتها على القوي والضعيف سواء بسواء .

لقد جاءت هذه المرحلة الجديدة بعد ثمانية عشر شهراً حافلة بالأحداث الكبيرة التي فعلت فعلها في النظام الدولي وغيرت صورة التوازن القائم فيه ، منذ بداية خريف عام ١٩٨٩ وحتى بداية ربيع عام ١٩٩١ . فالتحولات التي حدثت في أوروبا الشرقية طيلة ذلك الخريف أدت الى تغير معادلة التوازن بين ما يعرف بالعالمين الأول والثاني وبدء صفحة جديدة في العلاقات القائمة بينهما . وقد أوصلت بعد عام الى توقيع معاهدة باريس وإعلان نهاية الحرب الباردة التي استمرت منذ عام ١٩٤٥ إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية . وجاء اجتياح العراق للكويت فجر يوم الخميس ١٩٩٠/٨/٢ في أعقاب فترة شهدت توتراً بين الجارتين العربيتين تداخلت في صنعه عوامل اقليمية ودولية ، ليكون سبباً مباشراً في نشوب أزمة سرعان ماغدت أزمةً عالمية ، ولتجد الأمم المتحدة نفسها مركز نشاط دولي مكثف على عدة صعد لم تعرف له مثيلاً من قبل تصدر عنها القرارات التي تمثل الشرعية الدولية ويتم باسمها تنفيذ هذه القرارات . ولم تلبث المنظمة الدولية أن ألفت نفسها بعد ستة وأربعين عاماً من تأسيسها تواجه حصاد حرب طاحنة اندلعت فجر يوم الخميس ١٩٩١/١/١٧ بين قوى تحالف دولي بقيادة الولايات المتحدة الامريكية والعراق انتهت في ستة اسابيع بانتصار التحالف مخلفةً آثاراً ضخمة على النظام الدولي والمناخ السائد فيه .

إن دخول الأمم المتحدة هذه المرحلة الجديدة في ظل الأوضاع الدولية الراهنة جعل دول العالم وشعوبه تتطلع اليها وفي نظراتها هذا التساؤل الذي طرحه علينا راعي أكاديميَّة المملكة المغربية « عما اذا كانت المنظمة الأممية

ستصبح هي صاحبة القرار الحاسم في فض النزاعات بين الدول ؟ » وواضح أن هذا التساؤل الحيوي يشير ضمناً الى أن الأمم المتحدة لم تكن في أغلب الأحيان صاحبة قرار حاسم في فض النزاعات التي حدثت منذ تأسيسها. والأمثلة كثيرة على هذه الحقيقة ، ومنها هذا الصراع المحتدم بسبب قضية فلسطين التي تصدت الأمم المتحدة حال قيامها لايجاد حل لها واصدرت مئات القرارات بشأنها بقي معظمها حبراً على ورق . وواضح أيضاً أن هذا التساؤل الحيوي يتضمن في الوقت نفسه أملاً في أن تصبح الأمم المتحدة قادرة على اعتماد معيار واحد في اصدار قراراتها وتطبيق الشرعية الدولية في فض النزاعات القائمة المزمنة بعد أن أصدرت قراراتها بشأن أزمة الخليج وتم تنفيذ هذه القرارات باسمها .

يتعلق كثيرون من شعوب العالم المختلفة ودولة بهذا الأمل ، وهم يستذكرون بأسى النزاعات التي شهدها عالمنا في ظل المنظمة الأممية والحروب الطاحنة المحلية والاقليمية التي اندلعت بفعلها والمعاناة التي نجمت عنها . كما أنهم يستحضرون ماناءت به كواهلهم إبان الأزمة والحرب وهم يتابعون أولاً الاجتياح العراقي للكويت وماقترن به ونجم عنه من انتهاكات لحقوق الانسان مست ملايين البشر ، ثم يتابعون التدمير الذي لحق اثناء الحرب بالعراق والكويت بخاصة وما نجم عنه من ضحايا وتخريب وتلويث للبيئة . وواضح أن هؤلاء يعيشون اليوم في ظل مناخ نفسي تسوده حالة من الشك والبعد عن اليقين ، وتلح فيه أسئلة كثيرة حول ماحدث ومدى معقوليته وإنسانيته . ويقتضي الخروج من وطأة هذا المناخ النفسي جهداً فكرياً وروحياً يبلور رؤية نافذة تفتح أبواب الأمل وتعيد الثقة بالعقل والإنسان ، وإنجازاً إيجابياً ملموساً يحول الأمل الى واقع ويعطي ما جاء في ديباجة ميثاق الأمم المتحدة معنى حين تحدث « عن انقاذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب » وأكد « الايمان

بالحقوق الاساسية للانسان وبكرامة الفرد وقدره » « والعزم على تحقيق العدالة والقانون الدولي ودفع الرقي الاجتماعي » .

تتجه الأنظار اليوم الى الأمم المتحدة لتحقيق انجاز ايجابي بمعالجتها القضايا المطروحة في عالمنا على مختلف الصعد . وقد تضافرت عدة عوامل أثناء الأزمة والحرب جعلت قضية فلسطين والصراع العربيُ الصهيوني أكثر هذه القضايا إلحاحاً . فالتحرك الذي قادته الولايات المتحدة في مجلس الأمن للتصدي للاجتياح العراقي للكويت ، وصدور قرار المجلس رقم ٦٦٠ يوم ١٩٩٠/٨/٦ الذي أقر فرض عقوبات اقتصادية على العراق ، والمباشرة في تنفيذ هذا القرار فوراً ، أثار موضوع قرارات مجلس الأمن التي صدرت بشأن قضية فلسطين والصراع العربي الصهيوني ولم تنفذ. وكذلك مشاريع القرارات التي حال استخدام الولايات المتحدة حق النقض دون اقرارها عند التصويت عليها . وقد جاءت المبادرة العراقية يوم ١٩٩٠/٨/١٢ لتجعل هذا الموضوع على مائدة البحث مطالبة « أن تحل كل قضايا الاحتلال أو القضايا التي صورت بأنها احتلال في المنطقة كلها وفق اسس ومبادىء واحدة ومنطلقات يضعها مجلس الأمن » . وهذا يعني « إعداد ترتيبات انسحاب وفق مبادىء واحدة لانسحاب اسرائيل فوراً وبلا شروط من الأراضي العربية المحتلة في فلسطين وسوريا ولبنان . وانسحاب سوريا من لبنان . والانسحاب بين العراق وايران . ووضع ترتيبات لحالة الكويت .. وان تنسحب فوراً من السعودية القوات الامريكية .. وأصبح هذا الموضوع محل تناول في عدد من التصريحات الرسمية على الصعيد الدولي فيما عرف « بالربط » ، الأمر الذي حدا بالرئيسين بوش وجورباتشيف أن يتناولاه في البيان المشترك لقمة هلسنكي يوم ٩/١١ ويعربا عن رفضهما « للربط » كي لايبدو وكأنه « جزاءً على عدوان » مع الوعد بالعمل بهمة بعد الفراغ من أزمة الخليج لحل جميع النزاعات المتبقية .

وهكذا اختتم الرئيسان بيانهما بالقول « وبمجرد أن تتحقق الأهداف التي قررتها قرارات مجلس الأمن للأمم المتحدة ..، ودللنا على أن العدوان لا يُجزى فسيوجه الرئيسان وزيري خارجيتيهما للعمل مع دول المنطقة وخارجها لتطوير بنيات أمن اقليمي واجراءات لإحلال السلام والاستقرار ، ومن الضروري أن نعمل بهمة لحل جميع النزاعات المتبقية في الشرق الأوسط والخليج . وسيواصل كل من الجانبين التشاور مع الآخر والمبادرة باجراءات لمتابعة هذه الأهداف الأوسع في الوقت الملائم » .

لقد بدأت أزمة الخليج محلية وسرعان ما أصبحت عربية ، ثم لم تلبث أن أضحت عالمية . واذا كانت على صعيدها المحلي فتحت ملف « العلاقات العراقية الكويتية » ، وفتحت على صعيدها العربي ملف « العلاقات العربية العربية » وملف « الأوضاع العربية الداخلية » ، فإنها على الصعيد الدولي فتحت ملف « التحالف الغربي مع الصهيونية ضد العرب » وملف « الغرب والدائرة العربية الاسلامية » وملف « الشمال الغني والجنوب الفقير » تماماً كما توقع وزير الخارجية الفرنسي أن يحدث منذ الأسبوع الأول للأزمة . واذا كانت هذه الأزمة قد أثارت في بعديها المحلي والعربي تعاطفاً مع شعب الكويت العربي واستنكاراً لانتهاكات حقوق الانسان التي سببها الاجتياح العراقي ، فإنها في بعدها الدولي أثارت قلقاً شديداً في أوساط الدائرة العربية الاسلامية من طريقة تعامل الغرب معها ، وتحسباً من اندلاع حرب مدمرة على الأرض العربية ، وشجوناً من واقع النظام الدولي القائم الذي أوجده الغرب وتسيطر عليه القوة العظمى الامريكية . وقد تردد الحديث بقوة في الأقطار العربية والاسلامية والعالم الثالث بعامة عن افتقار هذا النظام الى العدل واعتماد الغرب معيارين فيه .

أدت تفاعلات أزمة الخليج في بعدها الدولي أيضاً الى تنبيه الذاكرة التاريخية عند هؤلاء جميعاً والبحث في الجذور التاريخية لقضايا المنطقة . وهكذا

استحضرت هذه الذاكرة كيف انفردت الدائرة الغربية ـــ بغربها وشرقها ـــ في اقامة النظام الدولي واغفلت عام ١٩٤٥ مصالح الشعوب الآسيوية والأفريقية التي قاومت الاستعمار الغربي وتحررت وأصبحت تحمل اسم العالم الثالث ، وكيف خاضت بريطانيا وفرنسا حرب السويس عام ١٩٥٦ لمجرد أن مصر استخدمت حقها في تأميم قناة السويس موظفتين « القاعدة الاستعمارية الصهيونية التي أقامها الغرب عام ١٩٤٨ » ، وكيف عملت الولايات المتحدة لتمكين « اسرائيل » من ضرب مصر عام ١٩٦٧ . واستحضرت الذاكرة التاريخية وهي توغل في تتبع الجذور التاريخية إنفراد الغرب في إقامة النظام الدولي عام ١٩١٩ وقيام الدول الكبرى الغربية « بتقطيع أوصال الدائرة العربية الاسلامية وتجزئة أراضيها وفرض الاستعمار الغربي عليها تحت اسماء الضم والحماية والانتداب والوصاية » ، ثم كيف أقرت عصبة الأمم عام ١٩٢٢ صك الانتداب البريطاني على فلسطين الذي تبنى جهراً وبدون مواربة تنفيذ تصريح بلفور الذي أصدرته بريطانيا يوم ١٩١٧/١١/٢ بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، وكيف أنهى الغرب الدولة العثمانية وفرض على تركيا الغاء نظام الخلافة عام ١٩٢٤ ، وكيف أقام بين الأقطار العربية والاسلامية حدوداً سياسية لم تعرفها المنطقة من قبل انطلاقاً من رؤية نظام الخلافة لدار الاسلام ، وكيف تحكمت مصالح الغرب في رسم هذه الحدود على حساب مصالح شعوب المنطقة .

أثار هذا البحث في الجذور التاريخية لقضايا المنطقة الحديث مرة أخرى عن الصلة الوثيقة بين إقامة الغرب « وطناً قومياً لليهود في فلسطين » والمخططات الغربية للتحكم في الدائرة العربية الاسلامية لما لها من أهمية استراتيجية وسياسية وحضارية تجعل الغرب يخشى قوتها ويعمل لاضعافها والتسلط عليها والتحكم بثرواتها . كما أثار الحديث عن الصلة الوثيقة بين

الحدود السياسية التي أقامها الغرب في المنطقة ومخططاته للتحكم في ثروة النفط التي تختزنها أراضيها . وهكذا أكدت الأزمة حقيقة أن قضية فلسطين هي جوهر الصراع في المنطقة .

حدث إبان الأزمة أيضاً أن ناقش مجلس الأمن عدة مرات أوضاع الفلسطينيين في الأراضي المحتلة وممارسات الاحتلال الاسرائيلي عليهم ، وبخاصة في اعقاب مذبحة استهدفهم بها في القدس يوم ١٩٩٠/١٠/٨ . وبدا خلال ذلك الفارق الكبير بين موقف الولايات المتحدة إزاء العدوان الاسرائيلي وموقفها إزاء الاجتياح العراقي للكويت . كما ظهر فارق كبير بين رد فعل مجلس الأمن على الرفض الاسرائيلي لقرارات اتخذها حملت ارقام ٦٧٢ و٦٧٣ و٦٨١ وجميعها متعلقة بتصرفات قوات الاحتلال الاسرائيلي في القدس والأراضي العربية المحتلة عموماً ، ورد فعله على الرفض العراقي للقرارات الاثني عشر المتعلقة بتصرفات العراق في الكويت ، حيث لم يتخذ المجلس أي اجراء عملي فعال تجاه اسرائيل على غير ما فعل تجاه العراق . وقد تناقلت وكالات الانباء يوم ١٩٩٠/١١/٢٧ خبر الخلاف الذي نشب في مجلس الأمن حول الاجراءات المتبعة حين حاول رئيسه الامريكي تأجيل النظر في مشروع قرار خاص بالأراضي العربية التي تحتلها اسرائيل وتعيين مندوب أممي لمتابعة الأوضاع فيها الى حين الانتهاء من مشروع قرار خاص بالكويت . وهكذا تعمق الشعور في أوساط كثيرة في عالمنا بأن مجلس الأمن ، بفعل حق النقض الذي تمارسه الولايات المتحدة في كل مرة يقترب منها لتطبيق الشرعية الدولية في قضية فلسطين ، لايستطيع عمل شيء مُخَالِف للإرادة الامريكية التي تعتمد معيارين في تعاملها .

لقد تنبه عدد من المسؤولين الى خطورة هذا الشعور على ثقة الشعوب

بالمنظمة الأممية ، وبخاصة بعد أن جرى التعبير عنه في الدائرة العربية الاسلامية بصور مختلفة . كما استشعر بعضهم الحاجة الى تقديم « وعد » بإعطاء قضية فلسطين حقها من الاهتمام ، إذا أرادوا لتحركهم في أزمة الخليج أن ينجح تحت المظلة الأممية . وهكذا تتالت التصريحات الرسمية بعد بيان هلسنكي التي ترفض « الربط » ولكنها تقدم « الوعد » بحل عادل لقضية فلسطين بعد الفراغ من أزمة الخليج . وقد التزمت جميع الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن بهذا الوعد وعبرت عنه في مناسبات مختلفة وبدرجات متفاوتة . فالرئيس الفرنسي طرح مبادرة في خطابه امام الجمعية العامة يوم ١٩٩٠/٩/٢٤ تضمن بندها الثالث « تسوية النزاعات الأخرى في الشرق الأوسط وخاصة مشكلة لبنان والقضية الفلسطينية وضمان حق اسرائيل في العيش داخل حدود آمنة » . وقد أبدى رئيس الوزراء الفرنسي يوم ١٩٩٠/٩/٢٧ أسفه لأن الجماعة الدولية لم تبذل نفس الحماس في تطبيق قرارات مجلس الأمن على القضية الفلسطينية كما هو الحال بالنسبة للكويت . وتضمنت الأفكار السوفيتية بشأن الأزمة انسحاب العراق من الكويت ، وانسحاب القوات الأجنبية من الخليج ، وعقد مؤتمر دولي لبحث قضايا الشرق الأوسط الأخرى خلال ثلاثة شهور . وبقي موقف الصين أكثر وضوحاً على هذا الصعيد . وقد صرح الرئيس بوش أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة يوم ١٩٩٠/١٠/١ بأن بلاده تبحث عن تسوية سلمية لأزمة الخليج ، وأن انسحاباً عراقياً من الكويت سوف يفتح الطريق أمام تسوية شاملة لأزمة الشرق الأوسط . وصدرت عن بريطانيا تصريحات مماثلة لما صدر عن الولايات المتحدة . وهكذا جرى تأكيد هذا « الوعد » في بيانات مشتركة مثل البيان السوفييتي الأمريكي يوم ١٩٩٠/١٠/٣ الذي جاء فيه « وان سعينا متواصل لايجاد حل عملي للنزاع وعدم الاستقرار في الخليج الفارسي والشرق الأوسط

وأفغانستان وسلفادور » ، وقرار الاتحاد البرلماني الدولي يوم ١٩٩٠/١٠/٢٠ الذي « أعرب عن قناعته القوية بأنه ما أن يتم تطبيق أحكام قرارات الأمم المتحدة ذات العلاقة تطبيقاً كاملاً إلا وينبغي عقد مؤتمر دولي باشراف الأمم المتحدة واشراك جميع الأطراف المعنية ليمهد السبيل أمام حل نهائي وشامل لجميع مشاكل المنطقة بما في ذلك المشكلة اللبنانية والنزاع العربي الاسرائيلي وحق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير مقترناً بحق دولة اسرائيل في التمتع بحدود مضمونة وآمنة ، ويسهم في نظام جديد وسلمي لجميع دول المنطقة وشعوبها » .

واضح أن صدور هذا « الوعد » عبرّ عن تعمق الاحساس لدى الأسرة الدولية أثناء الأزمة والحرب بمدى إلحاح معالجة قضية فلسطين . وهو إحساس كان للانتفاضة الفلسطينية المستمرة منذ أربعين شهراً فضل خاص في تقويته بعد أن تكوّن بفعل متابعة نضال شعب فلسطين العربي ومعاناته منذ استهدافه بالاستعمار الاستيطاني الصهيوني وصدور تصريح بلفور عام ١٩١٧ بإنشاء وطن قومي لليهود في بلاده فلسطين .

(٢) الأمم المتحدة والاختبار الصعب

سبر أغوار « المنظمة الأممية »

أنظار الكثيرين متجهة الى الأمم المتحدة في مرحلة مابعد حرب الخليج لترى كيف ستتعامل المنظمة الأممية مع قضايا عالمنا بعامة وقضية فلسطين بخاصة . وقد أمضيتُ يومين في رحاب اكاديمية المملكة المغربية وأنا أتابع عروض الندوة المتعلقة بهذا الموضوع ، بعد أن قدمت عرضي . وتبادلتُ مع الزملاء أحاديث غنية على هامش الندوة تستحق حديثاً خاصاً . وكنتُ قد غيرتُ مخطط رحلتي في آخر لحظة لأشارك في اجتماع المجلس المركزي الفلسطيني بتونس يومي ٢١ و٩١/٤/٢٢ ولأطرح رأيي . وقد حفل اليومان بالكثير الذي يستحق حديثاً خاصاً آخر . وها أنا متجه الى ندوة ثالثة في غضون اسبوع واحد . وكنت قبل هذا الأسبوع منغمساً في اجتماع مجلس أمناء المنظمة العربية لحقوق الانسان الذي بدأ آخر أيام عيد الفطر . وكم رحبتُ بساعات من العزلة في نهاية الأسبوع أمضيتها وحدي في انتظار موعد الطائرة ، لأرتب أحاديثي هذه .

* * *

قضية فلسطين هي اليوم موضوع الاختبار الصعب الذي تواجهه الأمم المتحدة . فهل ستكون المنظمة الأممية صاحبة قرار حاسم في الصراع العربي الاسرائيلي ، ويكون في استطاعتها تطبيق أحكام الشرعية الدولية الخاصة بقضية

فلسطين وإنجاز هذا الوعد الدولي ؟

الاجابة عن هذا السؤال تقتضي أن نلقى نظرة تحليلية على الأمم المتحدة اليوم في مطلع التسعينيات ، وفي أذهاننا تنظيمها وفلسفتها وحصيلة تجربتها في فض النزاعات بعامة ومع قضية فلسطين بخاصة على مدى أربعة عقود ونصف العقد من السنين .

نركز النظر أولاً على الجمعية العامة التي تتكون من جميع الدول الاعضاء في المنظمة الأممية وعددها اليوم مائة وخمسون عضواً . فنجد أنها تمثل جهاز الأمم المتحدة المركزي ، ولها أن تناقش أية مشكلة تؤثر على السلم والأمن والعدل في العالم عدا المشاكل التي ينظرها مجلس الأمن ، والمسائل التي هي من صميم شؤون الدول الأعضاء الداخلية ، ويكون لها إذا ماصوّت مجلس الأمن على مشكلة ثم تعطل قراره بحق النقض أن تتولى هذه المشكلة . وهي تتخذ قرارات بشأن مايعرض عليها بالتصويت ولكل دولة عضوٍ صوتٌ واحدٌ في الاقتراع وليس لأي منها حق النقض ، وقراراتها بمثابة توصيات لها تأثيرها « الأدبي الاستشاري » على أعضائها وعلى مجلس الأمن .

لقد أصدرت الجمعية العامة مئات القرارات بشأن قضية فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي . وتتضمن هذه القرارات في مجملها ما يحفظ الحقوق الوطنية الثابتة غير القابلة للتصرف لشعب فلسطين العربي ومايوصل لو تم تطبيقه الى حل مقبول للصراع ، ومايتصدى لانتهاكات الاحتلال الاسرائيلي في الأراضي العربية لحقوق الانسان والقانون الدولي . ويمكن القول بأن الجمعية العامة مكنّت الأمم المتحدة من التعرف على الرأي العام العالمي بشأن هذه القضية ، وأسهمت في بلورة ضمير دولي . وقد نما هذا الضمير الدولي مع اتساع دائرة العضوية في المنظمة الأممية ودخول الدول التي استقلت حديثاً في

آسيا وافريقيا . ولاتزال الملاحظة التي أبداها مالك بن نبي في كتابه فكرة الأفريقية الآسيوية عام ١٩٥٥ واردة اليوم نستعيدها بكلماته « ونحن مضطرون الى ان نلاحظ في ضوء عشر سنوات من النقاش داخل الأمم المتحدة أن التقدم الأخلاقي الذي يحقق صلاحية هذه المنظمة ليس في رصيد الكبار ، فإن الدرجة الكلية للحضارة الانسانية لا يدل عليها رصيد اسلحة الدمار المختزنة في قلاعهم ، وإنما يكون هذا التقدم في نمو دولي في العالم » . وقد تطلع يومها الى أن يصبح هذا الضمير الدولي هو القوة التي تقر توازناً اجتماعياً وسياسياً يحكمه منطق البقاء وليس منطق القوة الغاشمة .

إن مراجعة ماحدث لهذه القرارات الأممية الصادرة عن الجمعية العامة بشأن قضية فلسطين تبين لنا أن جلّها بقي مجرد توصيات لم يؤخذ بها ، وأن مضمونها يتكرر تضمينه قرارات جديدة تصدر سنوياً دورة إثر دورة . ويكفي أن نشير الى مثل واحد هو قرار ١٩٤ لعام ١٩٤٩ الذي يقضي بحق العودة أو التعويض لمن لايرغب العودة لكل فلسطيني ، والمضمون كما هو واضح من الحقوق التي نص عليها الإعلان العالمي لحقوق الانسان . ولكن يمكن القول مع ذلك إن مجمل هذه القرارات ساعد على تكوين « اقتناع دولي » محدد بشأن قضية فلسطين وأسهم في صنع « مناخ دولي » مناسب لمعالجتها .

ننتقل بنظرنا الى الأمانة العامة للمنظمة الأممية وعلى رأسها الأمين العام الذي تعينّه الجمعية العامة بناء على توصية مجلس الأمن . فنجد أن له دوراً مهماً من خلال حقه في التقدم لمجلس الأمن لعرض أية مسألة يرى أنها قد تهدد السلام ، وإعداده التقرير السنوي بأعمال المنظمة الذي يقدمه للجمعية العامة ، وكونه ضابط اتصال بين مختلف هيئات الأمم المتحدة . وحين نراجع اداء من شغلوا هذا المنصب في قضية فلسطين والصراع العربي الصهيوني ، نجد أنه لم

يكن على مستوى واحد وتفاوت بتفاوت قدراتهم . الأمر الذي يجعلنا نتطلع الى أن يحتل هذا المنصب شخصيات من الرجال العظام يكون ولاؤهم لميثاق الأمم المتحدة وللأسرة الدولية بمجموعها ويستعصي على أية دولة عظمى احتواءهم ويتميزون بالحكمة ونفاذ البصيرة .

نصل الى مجلس الأمن الذي يتألف من أربعة عشر عضواً خمسة منهم أعضاء دائمون وهم الدول العظمى الخمس كما كانت عام ١٩٤٥ الصين وفرنسا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، والتسعة الآخرون تنتخبهم الجمعية العامة لمدة سنتين . فنجد أن الميثاق نص على أن أعضاء الأمم المتحدة يعهدون الى هذا المجلس بالتبعات الرئيسية في أمر حفظ السلم والأمن الدولي ويوافقون على أن يعمل نائباً عنهم في قيامه بواجباته التي تفرضها عليه هذه التبعات (بند ١ من المادة ٢٤) . وقد بيّنت الفصول ٦ و٧ و٨ و١٢ من الميثاق هذه الواجبات وتتعلق بحل المنازعات حلاً سلمياً ، وبالاجراءات التي تتخذ في حالات تهديد السلم والإخلال به ووقوع العدوان ، وبالتنظيمات الاقليمية ، وبنظام الوصاية الدولي . وقد أعطى الميثاق كلاً من الدول الخمس دائمة العضوية حق النفض بأن يمتنع عن الاقتراع فلا يصدر القرار . ومكنّ هذه الدول مجتمعين القيام باسمه وباسم المنظمة الأممية من اخضاع الدول الأخرى للنظام والرد على أي منها اذا رفضت قرارات المجلس . وهكذا فإن سلطة المجلس فيما يتعلق بالاجراءات لايمكن استخدامها بطريقة تحرج إحدى الدول العظمى . وكانت الولايات المتحدة هي التي أصرت على وضع مبدأ « حق النقض » عند صياغة الميثاق بحجة أن الأمم المتحدة لاتستطيع استخدام القوة ضد أي دولة كبيرة ، ومحاولتها ذلك يمكن أن ينسف المنظمة الأممية . وانضمت الى هذا الرأي الدول الأربع الأخرى في المطالبة به شرطاً لتوقيع الميثاق .

لقد نظر مجلس الأمن في مشروعات قرارات كثيرة تتعلق بقضية فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي منذ عام ١٩٦٧ بخاصة ، لم تصدر بسبب استخدام الولايات المتحدة الامريكية . حق النقض بامتناعها عن التصويت . وكانت جميع هذه المشروعات تنحي باللائمة على انتهاكات اسرائيلية للقانون الدولي ورفض تطبيق الشرعية الدولية . ومن المفارقات التي لفتت الأنظار أن الحديث الذي كان يتردد عن إسراف الاتحاد السوفييتي في استخدام حق النقض إبان السنوات الأولى من انشاء المنظمة الأممية ، أصبح يصدق على الولايات المتحدة . وقد بدا مع كل مرة استخدم فيها هذا الحق وكأن هزة تصيب الثقة بإمكان المنظمة الأممية اقرار الشرعية الدولية القائمة على العدل ، وليس على مجرد المصالح .

استطاع مجلس الأمن أن يصدر عدداً من القرارات المتعلقة بقضية فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي دعت الى إنهاء الاحتلال الاسرائيلي للأراضي الفلسطينية والعربية منذ عام ١٩٦٧ . ومن أشهرها قرار ٢٤٢ وقرار ٢٥٢ الخاص بالقدس وقرار ٣٣٨ . ولم يقدّر لهذه القرارات أن تنفذ لأن مجلس الأمن لم يمضِ قدماً في تطبيق مواد الميثاق الواردة في الفصل السابع والخاصة بالاجراءات . وهذا يدعونا الى البحث عن السبب الذي حال دون التنفيذ .

إن تنفيذ قرارات مجلس الأمن في حال رفض العضو المعني القبول بها والخضوع لاحكامها ، يقتضي تطبيق اجراءات الفصل السابع . وهذا يتطلب أولاً توافر مناخ صالح للتطبيق يتجلى في صدور قرارات عن الجمعية العامة تعبر عن الضمير الدولي والارادة الدولية وتحث على أن يتخذ مجلس الأمن القرارات اللازمة للتطبيق ويمضي في تنفيذها ، ويتطلب ثانياً أن تتوصل محصلة سياسات الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن الى بلورة إرادة التنفيذ . ولقد جعلت معادلة التوازن الدولي القائم منذ عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٨٩ بلورة

هذه الارادة مرهونة الى حد كبير بتفاهم الدولتين اللتين مثلتّا قطبي المعادلة وبرزتا كقوتين عظميين وهما الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتي .

يمكننا حين نستحضر قرارات المنظمة الأممية بشأن قضية فلسطين وما جرى بشأنها أن نجد أمثلة كثيرة على ما أوردناه . فقد تفاهمت الدولتان عام ١٩٤٧ على إقامة اسرائيل فكان صدور قرار تقسيم فلسطين عن الجمعية العامة . وحين تقاطعت إرادتاهما أواخر عام ١٩٥٦ إبان حرب السويس استطاعت المنظمة الأممية أن تقوم بدور فعال في فرض الانسحاب على اسرائيل من سيناء ثم من قطاع غزة .وقد أوصل تفاهمهما المحدود بعد حرب رمضان في خريف عام ١٩٧٣ الى انعقاد مؤتمر جنيف برئاستيهما وتحقيق تقدم محدود في عملية تسوية الصراع تجسدّ في فض اشتباك على الجبهتين المصرية والسورية . وفي جميع هذه الأمثلة كان المناخ صالحاً للتطبيق يجسُّده توجه غالب في الجمعية العامة . ويلفت النظر ان اتفاقهما على خطوط تسوية الصراع الذي تضمنه البيان السوفييتي الاميركي الصادر يوم ٧٧/١٠/١ لم يصمد اكثر من ثلاثة أيام ظهر بعدها بوضوح اتجاه الولايات المتحدة للتحرك منفردة وسيرها في طريق إبرام اتفاقات كامب دافيد بين مصر واسرائيل باشرافها . وقد برز حرص الولايات المتحدة على هذا الانفراد قوياً بين عامي ١٩٧٧ و١٩٨٥ الى درجة امتناعها عن الحوار مع الاتحاد السوفييتي حول الصراع العربي الاسرائيلي . وحين استأنفت هذا الحوار منذ عام ١٩٨٥ وظفتْهُ لاقناع الاتحاد السوفييتي بوجهة نظرها وتلبية مطالبها بشأنه مقابل تلبية مطالبه بشأن أمور أخرى .

(٣) الأمم المتحدة والاختبار الصعب

الولايات المتحدة والأمم المتحدة

إن المتابع لموقف الولايات المتحدة من المنظمة الأممية خلال النصف الأول من الثمانينيات يرى بوضوح ضيقها ذرعاً بقرارات الجمعية العامة والمنظمات الدولية المتخصصة المتعلقة بقضية فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي والمعبرة عن الضمير الدولي . وقد بلغ هذا الضيق حدّ الامتناع عن المشاركة في نشاط المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم ـــ اليونسكو ، والتهديد بعدم تسديد التزاماتها المالية تجاه الأمم المتحدة ، واستخدام لغة دبلوماسية تتميز بالحدة في وصف المنظمة الأممية . ووصل الأمر الى بروز تيار قوي في الأوساط الامريكية السياسية ينادي باتخاذ موقف شديد من الأمم المتحدة والتصرف بمعزل عنها .

حين نبحث عن تفسير لهذا التوجه الامريكي للعمل المنفرد فيما يتعلق بقضية فلسطين خارج المنظمة الأممية إبان الثمانينيات ، نجد أن بداياته تعود الى النصف الثاني من عام ١٩٦٧ في أعقاب الحرب ، وأنه متصل بالطور الذي دخله التوازن الدولي آنذاك وهو طور الانفراج وبمتطلبات الاستراتيجية الامريكية الكونية . وقد تبلورت قناعة امريكية بأن هذه المتطلبات تقتضي اسناد دور خاص لاسرائيل في حماية المصالح الامريكية النفطية في المنطقة العربية على الصعيد الاقليمي ، وفي الترتيبات الامريكية الأمنية تجاه الاتحاد السوفييتي

على الصعيد العالمي . وهكذا نبتت فكرة التحالف الاستراتيجي الامريكي الاسرائيلي الذي استكمل صورته الرسمية في الفترة الأولى من عهد ريجان ، وتحددت السياسة الامريكية بتمكين اسرائيل من الاستمرار في احتلال الأراضي العربية التي استولت عليها عام ١٩٦٧ والسكوت عملياً على القرارات الاسرائيلية بضم القدس ثم الجولان ورهن الانسحاب الاسرائيلي من سيناء بشروط تلبي المصالح الامريكية الاستراتيجية الأمنية عند إبرام معاهدة ١٩٧٩ بين اسرائيل ومصر باشراف الولايات المتحدة . وكان متوقعاً وهذا هو الحال أن تخضع السياسة الامريكية نشاطها في المنظمة الأممية لتنسجم مع هذه الخطوط ويخدمها ، الأمر الذي أدى بها الى عدم الالتفات لحقوق الشعب الفلسطيني غير القابلة للتصرف ومحاولة الالتفاف عليها .

تصل بنا هذه النظرة التحليلية التي القيناها على المنظمة الأممية الى استخلاص نتيجتين تتعلقان بالتساؤل المطروح

الأولى أن مواقف الولايات المتحدة الامريكية من قضية فلسطين في المنظمة الأممية خضعت في غالب الأحيان لاعتبارات المصالح ولم تعطِ الأولوية للاعتبارات الاخلاقية وكانت محكومة بمنطق القوة .

الأخرى أن قيام المنظمة الأممية بتطبيق أحكام الشرعية الدولية في قضية فلسطين كان متعذراً لأن قوة عظمى هي الولايات المتحدة أصبحت طرفاً مباشراً فيها بحكم تحالفها الابستراتيجي مع اسرائيل . ولايمكن للأمم المتحدة أن تفرض تطبيق الشرعية الدولية اذا عارضتها قوة عظمى وذلك بحكم تنظيمها .

يجدر بنا أن نقف هنا لنتأمل في اسلوب التعامل مع القرارات الأممية الصادرة حين لاتتفق مع مصالح دولة كبرى . فالدولة الكبرى تعمد الى تقديم تفسيرها الخاص لمضمون القرار الصادر . وهذا التفسير يفرغ القرار من

مضمونه ويدخل المعنيين به في حوار لا طائل من ورائه . ومثل على ذلك ماحدث مع القرار الأممي ٢٤٢ الصادر عن مجلس الأمن الذي لايزال الحوار مستمراً بشأنه فيما يتعلق بكلمة « الأراضي » أهي معرفة كما في النص الفرنسي أم نكرة كما في النص الانجليزي . وقد اعتمدت الولايات المتحدة الصيغة النكرة وتركت تحديد نسبة مايتم الانسحاب من الأراضي للتفاوض وأعلنت في الوقت نفسه أنها مع القدس الموحدة وأنها لاتعتبر المستوطنات التي أقامتها سلطات الاحتلال « ليست غير شرعية ولكنها عقبة في طريق التفاوض » . وهكذا لايبقى من جوهر القرار شيء . والأمر نفسه نجده عند الحديث عن « حقوق شعب » فهي أحياناً « آمال » أو « طموحات » وتلبيتها تتجسد في « ادارة ذاتية » أو « حكم ذاتي » أو « حكومة ذاتية » ويجري تجنب لفظ « شعب » وتعبير « حق تقرير المصير » . وإن لنا أن نتصور أثر هذه اللغة المستخدمة في التعامل على نظرة الشعوب للقرارات الأممية وهي تتوق الى العدل وتنتظر تطبيق أحكام قرارات الشرعية الدولية !! وبخاصة نظرة أولئك الذين يكتوون بنار الاحتلال وممارساته مُستَدّفين بعدوان مستمر ، حيث الاحتلالُ حسب الشرعية الدولية عدوان مستمر .

واضح مماسبق أن المنظمة الأممية لم تكن صاحبة قرار حاسم في القضايا التي لم تشأ القوى العظمى لها أن تحل في اطار الأمم المتحدة . وهذه الحقيقة لاتمثل مفاجأة لأنها متفقة مع تكوين المنظمة الأممية . ويلفت النظر أن هناك من يرى مع دافيد كوشمان كويل صاحب كتاب « الأمم المتحدة وكيف تعمل » « أن هذا الوضع هو وضع سليم » لأن سلطة مجلس الأمن البوليسية لايمكن استخدامها بطريقة تحرج إحدى الدول العظمى وتكرهها على القتال . والفيتو نطاق وقاية ضد أي عمل تأتيه الأمم المتحدة قد يؤدي إلى نشوب حرب عالمية جديدة . وقد اعتبر كويل الذي اصدر كتابه عام ١٩٥٥ أن « الفيتو اعتراف

بالحقيقة ، وهي أن انهاء حدود سلطة الأمم المتحدة في استعمال قوتها البوليسية الخاصة ، اجراء لايعدوه إلا حرب عالمية » . كما اعتبر « أن الفيتو حارس أمين ضد آراء خطيرة تلقى في الأمم المتحدة نفسها تحث على استخدام القوة في موقف تعجز أية منظمة بشرية عن فرضه فيه ». بينما رأى عدد من المفكرين أن حلم الانسانية الذي تبلور إبان معاناتها وويلات الحرب العالمية الثانية بولادة عالم جديد مطابق لحاجاتها ومطامحها لم يتجسد في المولود الذي خرج عام ١٩٤٥ . ففي ذلك العام الذي كان يتوقع فيه هذا الحادث السعيد ــ كما يقول مالك بن نبي ــ « أخرج التاريخ سقطاً مشوهاً ، حين أُجهض على يد « قوابل » من الاشرار . لقد ساقوا البشارة بمولود جديد اصطنعوه من لفائف منتفخة رغبة في تغيير معالم الجريمة ، وفي تضليل الشعوب التي كانت تنتظر ميلاده ، كان هذا المولود الجديد هو عالم الأربعة الكبار . ولم يكن للمزورين حيلة تنجيهم من ان يسيئوا الظن بأنفسهم ويقلقوا على مستقبل الوليد الجديد المصنوع ..! ونحن نجد انعكاسات لهذا القلق البالغ في دراسات حديثة ظهرت في الغرب عن المشاكل الجغرافية السياسية . ومثل عليها ذلك القول الذي أراد صاحبه أن يعبر عن قلقه ويصفيه في الوقت نفسه حين لفت النظر الى « أن تصفية التأثير الغربي لم تتم في الأعوام العشرة التي مضت على قيام الأمم المتحدة كما قدر ذلك عام ١٩٤٥ » . فها هو القابل الشرير وقد استعاد ثقته في العالم القديم أو على الأقل في انقاض العالم القديم » .

إن هاتين النظرتين للأمم المتحدة تعبران عن مدرستين سياسيتين هما « الواقعية والمثالية » كما يصطلح على تسميتهما . والفجوة بينهما كما هو واضح واسعة . وبينما يحكم الأولى « منطق القوة » الذي يصل بها الى اعتماد « توازن القوى » بغض النظر عن الاعتبارات الاخلاقية ، يحكم الأخرى « منطق البقاء » الذي يدعوها الى اعتماد « العدل » وأخذ الاعتبارات الأخلاقية بعين الاعتبار .

والآن بعد أن دخلت المنظمة الأممية مرحلة جديدة في اعقاب حرب الخليج ، هل حدّ جديد يدعو الولايات المتحدة الى أن تغير سياستها في الأمم المتحدة تجاه قضية فلسطين بحيث تجعل المنظمة الأممية قادرة على تطبيق أحكام الشرعية الدولية بشأنها ، ويغرينا من ثم أن نتوقع تحولاً ؟

إن التحرك الذي قامت به الولايات المتحدة في الأسابيع الستة التالية لايقاف العمليات القتالية وحتى كتابة هذه السطور لايقدم علامات على تغير اساسي في سياستها تلك . فقد تحدث الرئيس الأمريكي عن عزم بلاده على التحرك ، وأوضح أن الاساس المعتمد للحل هو قرار مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ ومبدأ مبادلة الأرض بالسلام ، واشار الى أن ضمان الأمن لايتحقق بالضرورة عن طريق الجغرافيا كما ظهر أثناء حرب الخليج . ولكن لم يلبث تحرك وزير الخارجية الامريكي أن اتبع النهج القديم الذي لم يوصل الى حل على مدى الأربعة والعشرين عاماً الماضية . وصارح الرئيس الامريكي من خلال حديث مع أربعة صحفيين عرباً يوم ٩١/٣/٩ بأن القرارات الاممية المعتمدة « يخضع تفسيرها لمشكلات عديدة » ، وأن « أمن الخليج بما فيه ايران والعراق هو فيما يبدو لي مسألة اسهل من مسألة لبنان ومسألة فلسطين حيث أن كلاً منهما تتصل باسرائيل » .

لاينبغي أن يثبط همتنا عن سبر أغوار وضع المنظمة الأممية مايبدو على السطح في هذا التحرك فزلزال الخليج ومن قبله زلزال أوروبا الشرقية لابد أنهما جاءوا بجديد يدعو الولايات المتحدة الى أخذه في الاعتبار . والحق أننا نقف أمام عدة أمور ضمن هذا الجديد .

● ان الولايات المتحدة تجد نفسها اليوم وقد انفردت عملياً بصفة « القوة الأعظم » بين دول العالم . وذلك بعد أن قادت تحالفاً دولياً تحت علم

الأمم المتحدة ومظلة الشرعية الدولية في حرب منتصرة ضد العراق . كما تجد نفسها وقد رتبت علاقاتها بالاتحاد السوفييتي بشكل أدى الى انهاء الحرب الباردة ، ووقعت معه ومع بقية دول أوروبا وكندا معاهدة باريس التي نظمت العلاقات في دائرة الغرب الحضارية . وهاهو الرئيس السوفييتي يخاطب نواب الشعب في بلاده شارحاً رؤيته للمرحلة الجديدة في العلاقات السوفييتية الامريكية « ان الاختراق الجذري في العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي أرسى بداية لكل الأمور الايجابية التي حدثت من ثم وجعلت من الممكن عقد المؤتمر نفسه . ولكن من ذلك ينبع ايضاً أن تطبيق قراراته سوف يستند ايضاً على هيئة هاتين الدولتين الكبيرتين . ان لقاءاتي في باريس مع الرئيس جورج بوش قد اكدت استقرار الحوار السوفييتي الامريكي ونوعيته الجديدة ، وعززت بقدر اكبر الثقة والاستعداد للتعاون في صالح السلام والأمن في اطر الأمم المتحدة والمسيرة الأوروبية » .

● لقد وجدت الولايات المتحدة أن تحركها في المنظمة الأممية اثناء ادارتها أزمة الخليج واثناء الحرب ثم بعد الحرب كان ناجحاً للغاية . وقد وفرّ لها غطاء الشرعية الدولية وكشف بمجمله عن صمود العلاقات الجديدة مع الاتحاد السوفييتي . وأوصل الى صدور قراري مجلس الأمن رقمي ٦٨٧ و٦٨٨ وكل منهما مثّل سابقه في مجاله ، وأولهما متعلق بشروط وقف اطلاق النار الدائم على العراق والآخر متعلق بأوضاع الأكراد داخل العراق . ولاشك أن هذا النجاح يغري الولايات المتحدة باعتماد المنظمة الأممية ساحة رئيسية للتحرك في اطار تنفيذ السياسات الخارجية الامريكية على الصعيد الدولي . وهذا يعني أن تقوى الأصوات الاميركية التي تزيد التحرك الامريكي الايجابي في الأمم المتحدة ، وأن تضعف الأصوات الأخرى المخالفة . وطبيعي أن التوجه سوف يدعو الادارة الامريكية الى الحفاظ على حد أدنى من هيبة المنظمة الأممية لتكون لها

مصداقيتها ، وأن تلتفت بخاصة الى دفع شبهة الكيل بمكيالين عنها .

● تجد الولايات المتحدة نفسها اليوم أيضاً أمام مجموعة حقائق استراتيجية كشفت عنها الأزمة والحرب تدعوها الى مراجعة سياساتها في منطقة الوطن العربي وإعادة النظر في الدور الذي اسندته لاسرائيل في استراتيجيتها لفترة ماقبل الحرب . ومن هذه الحقائق أن هذا الدور الاسرائيلي المفترض في حماية مصالحها النفطية لم يثبت جدواه . تماماً كما أن الدور الاسرائيلي في ترتيباتها الأمنية تجاه الاتحاد السوفييتي قد تضاءل بعد انتهاء الحرب الباردة ، وأن دعم العدوان الاسرائيلي المستمر في المنظمة الأممية يمثل عبئاً ثقيلاً معنوياً على السياسة الامريكية ، وأن الحاجة ماسة الى نظام عربي يسهم في متطلبات أمن المنطقة تكون مصر فيه الأمر الذي يستوجب تغيير السياسة الامريكية التي دأبت على عزل مصر عن محيطها واستبدال نظام اقليمي بالنظام العربي يكون لاسرائيل فيه دور خاص ويد عليا ، وأن الانتفاضة الفلسطينية استمرت في أشد ظروف الازمة صعوبة مؤكدة قوة روح الانتفاض التي عبرت عن نفسها بصور عدة في المنطقة ككل ، وأن العمق الاسرائيلي يمكن أن يصل اليه عربيٌ وليس الأمر حكراً على اسرائيل أن تضرب العمق العربي ، وان التجمع الاسرائيلي يعاني من ضغوطات في داخله ظهرت آثارها في جبهته الداخلية وعلى أجهزته الأمنية ، وأن عدداً من الدول العربية دخل معها التحالف الدولي الذي أقامته .

● تجد الولايات المتحدة نفسها أمام هذا الوعد الذي أجمعت عليه الأسرة الدولية والتزمت به بالسعي لايجاد حل عادل لقضية فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي . وهي مدعّوة للوفاء به .

(٤) الأمم المتحدة والاختبار الصعب

سبر أغوار « الولايات المتحدة » ومابنبغي عمله

السؤال الذي يبرز عند هذا الحد هو كيف سيكون تصرف الولايات المتحدة في ضوء هذا الجديد ؟ والاجابة عنه تقتضي أن نركز النظر على أوضاع هذه القوة الأعظم التي لها دور خاص في قيادة النظام العالمي القائم وتمكين المنظمة الأممية من النهوض بمسؤولياتها والنجاح في الاختبار الصعب الذي تواجهه . وتشهد هذه الأوضاع حدوث تفاعلات قوية في داخلها رأينا أمثلة كثيرة عليها إبان الأزمة والحرب مؤخراً .

الولايات المتحدة في اعتبار بُعد الزمان دولةحديثة فعمرها كدولة يزيد عن القرنين قليلاً . وقد علمنا شيخنا ابن خلدون « ان الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص » ، وتحدث علماء الجغرافيا السياسية ومنهم فان فالكنبرج وجمال حمدان عن أربع مراحل في تطور الدولة هي الطفولة أو النشأة والشباب أو التوسع والنضج أو الاستقرار وأخيراً الشيخوخة أو الانكماش . والولايات المتحدة عبرت الطور الأول مع انتهاء القرن التاسع عشر الذي مثّل طفولتها » وظلت منهكة أثناءه في صراعاتها الداخلية البحتة وحروبها الأهلية وعمليات الضم الاقليمية أو تعميق الاتحاد محلياً كما يقول جمال حمدان . ودخلت الطور الثاني مع دخول القرن العشرين وبدت بوضوح « عناصر قوتها » ثم لم تلبث أن بدت في منتصف القرن بوضوح اكثر مظاهر اعتزازها بهذه القوة الى حد

الغرور الذي اشتد في العقد السابع حتى اعتبره البعض نوعاً من « جنون القوة » . ثم جاءت محنتها في فيتنام في فترة كانت تحتكر فيها القوة فعانت في حرب فيتنام معاناة قوية وعاشت « أزمة القوة » وأصبحت على حد تعبير بالدوين « مارداً يواجه ضغوطاً » ودخلت بعد هذه الأزمة الطور الثالث « النضج أو الاستقرار » بفعل عقدة فيتنام وصدمة الانفراج ولكنها لم تلبث أن انعطفت أثناء « أزمة الانفراج » في الثمانينيات الى تظاهرات القوة تقوم بها في مناطق مختلفة من العالم ومنها فلسطين ولبنان عام ١٩٨٣ ، وتميزت هذه الحقبة فيها بسيطرة المحافظين ومجاهرتهم باعتماد القوة وتأييد العدوان .

والولايات المتحدة في اعتبار بُعد المكان دولة كبرى . وهي عند جمال حمدان مع الاتحاد السوفييتي من القوى « الماموث أو المحمود » الحيوان التاريخي الضخم . وأسماهما البعض قوة دينوصورية . وتتميز بمساحة ضخمة وبعدد من السكان يجاوز مائتين وخمسين مليوناً جاءوا من مجتمعات مختلفة واختلطوا في بوتقتها . وقد تبنت عقيدة تقوم على الرأسمالية ، وتتمسك بالقومية الذاتية ، وتقول بهرمية الطبقات ، وترى تطور التاريخ والمجتمع في تطور العلم والتقنية . والحق أنها حققت تفوقاً علمياً وتقنياً متميزاً . وكان من سماتها وهي في دور الشباب أن نُضج قوتها المادية يسبق نُضج خبرتها وحنكتها السياسية الى الحد الذي يضع الفصل فوق العضل في السياسة الدولية ، بحيث أصبحت « الألة فوق كل شيء » كما يقول بالدوين . وقد نجم عن هذا الوضع بروز ماأسماه وليم فولبرايت « غطرسة القوة » في السياسة الامريكية ، والاتجاه الى القيام بدور « رجل الشرطة العالمي » .

إن صفة « القوة الأعظم » في العالم ستضع الولايات المتحدة أمام اختبار محدد ، واجهته جميع الدول التي تتابعت في حمل هذه الصفة عبر مراحل التاريخ . وهذا الاختبار هو في استخدام القوة . هل تستخدم لاقرار العدل أم

للتجبر والطغيان ؟ أتكون قوة غاشمة تنكر القيم العلا الانسانية أم تكون قوة راشدة تزود عن هذه القيم العلا الانسانية بعد أن تستلهمها ؟ والتاريخ يُعلمنا أن الدول التي حملت صفة « القوة الأعظم » تعرضت دوماً للوقوع في غواية « غطرسة القوة » ، وأن عواقب هذا الوقوع كانت وخيمة جداً . وقد عرّف فولبرايت « غطرسة القوة » في كتابه الذي أصدره بهذا الاسم عام ١٩٦٨ بأنها « حالة نفسية تعتري الأمم تبدو أثناءها الأمة في حاجة نفسية الى اثبات أنها اكبر من الأمم الأخرى وأفضل وأقوى » . وأوضح « أن هذه الحالة لابد أن تصل بمن تعتريه الى خوض الحرب التي تعزى أسبابها الى الأرض والأسواق والمصادر الطبيعية والى الدفاع عن المبادىء أو التمكين الخالد لها ، وهذه جميعها لاتعدو أن تكون إيضاحات أو معاذير لقوى محركة في الطبيعة البشرية تتجسد في غطرسة القوة » .

لقد تحدث الرئيس الامريكي جورج بوش يوم ١٩٩١/١/١٦ وهو يعلن بدء العمليات القتالية ضد العراق عن « نظام عالمي جديد » تبدو الفرصة سانحة لإقامته . ووصف هذا النظام بقوله « حيث يكون حكم القانون .. يحكم تصرفات الأمم . وحيث تستطيع أمم متحدة تتوافر لها المصداقية استخدام دورها كصانعة سلام لإنجاز وعد موجديها وتحقيق رؤاهم » . وقد جاء الحديث في وقت تشهد فيه الولايات المتحدة حواراً محتدماً بين المدرستين الواقعية والمثالية في العلوم السياسية بلغ ذروته إبان أزمة الخليج . وبرز في هذا الحوار تساؤل البعض « هل الحديث عن القانون الدولي يرد فقط حين يكون ذلك مناسباً لنا ! « واستذكراهم بمناسبة إعلان الرئيس بوش « أن امريكا والعالم يجب أن يدعموا حكم القانون » ، أن مبدأ ريجان كان رفضاً محدداً للقانون الدولي ، وأن فكرة « النظام » كقيمة عليا تمثل مساحة من الفكر في قلب القانون الدولي ولكن الولايات المتحدة لم تولِها عناية طوال عقد

الثمانينات ، وأنّ إدارتا ريجان وبوش أولتا إنتباها ضئيلاً في جرينادا ونيكاراجوا وبنما لاعتبارات « السيادة » . واستشهد مايكل كينزلي وهو يطرح هذه الآراء في مقالة بواشنطن بوست يوم ٩٠/٩/٣ بماكتبه دانييل مونيهان في كتابه الجديد « حول قانون الأمم » من « أن لاشيء يمكن أن يقارن بتلاشي فكرة قانون الأمم من العقل الامريكي » . « وأن الدول الحليفة لامريكا وغير الحليفة على السواء تستطيع دعم السياسات الامريكية أو قبولها على الأقل اذا كانت تصرفاتنا مرئية على أنها تستند الى قانون يلزمنا كما يلزمهم » .

يحذر « الواقعيون » الرئيس بوش من « أنه سيندم على سيره في طريق القانون الدولي والالتزام بالنظام الدولي الجديد الذي تحدث عنه » ، على حد قول جورج ويل وهذا الالتزام سيعني « ان نسلم بالتخلي عن حرياتنا في العمل في مناسبات ونسمح لتقويماتنا القيمية لكل حالة بمفردها أن تحدد بقواعد يمكن أن تجابهنا كمخطئين». وسيعني «احترام سيادة حكومات نحن لانرغب فيها . وسيعني السماح لأحكام أمم أخرى أن تمسك بأيدينا احياناً عن الحركة حتى حين نظن أن تلك الأحكام خاطئة . ذلك ان القانون الذي لايطاع اذا لم تتفق معه ليس بقانون . والمناداة بالقانون الدولي حين يتلاءم ذلك مع مصالحنا عني أن نحترمه حتى حين لانريد ذلك » . كما اختتم مايكل كينزلي حديثه . ويصف هؤلاء أحلام النظام العالمي الجديد بأنها زائفة مجادلين بأن الوضع الذي برز في مجلس الأمن ليس مستقراً ، وأن النجاح الامريكي في إقامة التحالف الدولي ليس من الممكن تكراره . وهم يرون أن على الولايات المتحدة أن تكون منتقية وتعيد اختبار سياسة تحالفاتها وتعتمد توازن القوى أساساً . ويذكرون بأن هذا الأساس جعلها تكسب الحرب الباردة : ويدعون الامريكيين الى إعادة النظر في اعتراضهم على توازن القوى بسبب حياده القيمي الظاهر ، لأنه الاساس العملي المناسب .

بالمقابل نجد المثاليين يحذون حذو فولبرايت ، ويذكرون بقول العالم السياسي هانز مورجانتو « ان المعضلة الاساسية التي تواجه السياسة الخارجية الامريكية لاتكمن في كيفية الحفاظ على الاستقرار في وجه الثورة ، وانما في كيفية ايجاد الاستقرار » . وقد حذّر ستافريانوس بعد استشهاده بهذا القول من « أن عالم أواخر القرن العشرين يمكنه أن يكون المسرح الأثيم الذي تمارس فيه قوة عظمى تلك السياسة الواقعية التي تنتهي على صورة واقعية خرقاء . فالحاجة تقتضي ادراك تلكما المشكلتين المترابطتين ـــ مشكلة الإفراط في التقدم ومشكلة الاغراق في التخلف ـــ والانكباب على معالجتهما . الأمر الذي يستدعي قيام رؤية مشتركة تدور حول مايواجه البشرية جمعاء من وعيد لامثيل له ووعد لامثيل له » . ويلاحظ المثاليون أن الفلسفة الواقعية التي تعتبر السياسات الدولية صراعاً على السلطة لابد أن تتصادم فيه مصالح الدول الكبرى ، سيطرت على السياسة الخارجية الامريكية خلال عصر مابعد الحرب ، وأنها تتعرض الآن للتحدى . وهم يوجهون تحديهم الى وجهة نظر الجغرافيا السياسية التي عبرّ عنها ماكيندر ، الى وجهة نظر مفهوم المصلحة الذي يتحدد بمقياس القوة وقد شرحه هانزمورجانتو واعتبره « المعلم الاساسي الذي ييسر للواقعية السياسية أن تجد طريقها على مسرح السياسات الدولية » . ويرى هؤلاء المثاليون أنه لابد من الاعتراف بأن « العقائد » هامة ، وأن السياسة الخارجية للدولة ما هي نتاج للقيم المتجسدة في مؤسساتها . وهم يستشهدون برؤية عمانويل كانت في كتابه « السلام الابدي » أن هذا السلام ليس نتاجاً لتوازن القوة بل للحكم الجمهوري » . وقد انتهى ستانلي كوبر من دراسته عن السياسة المثالية الى القول « إن الهدف الأخير للسياسة الخارجية الامريكية ينبغي ألا يتمثل في تحقيق التوازن بل في نشر الحرية » . واستشهد بما جاء في خطاب واشنطن الوداعي « لنحافظ على حسن النية والعدالة تجاه الأمم . لنرعى

السلم والتناغم مع الجميع . ان الدين والأخلاق يفرضان هذا السلوك . وهل يمكن الا أن نفرض السياسة الجيدة هي أيضاً ؟ »

تبرز عند هذا الحد ، ونحن ننظر في أوضاع « القوة الأعظم » التي لها دور خاص في تمكين المنظمة الأممية من النهوض بمسؤولياتها ، قضية الأخلاق والسياسة وموقف التيارين والمدرستين منها . فهل ينتهي الحوار المحتدم الى انتصار النزعة الانسانية على النزعة الأنانية ؟ وهل ستُحكم من ثم هذه النزعة الانسانية والأخلاق التي توجدها السياسة الامريكية تجاه قضية فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي فتصبح قيمة العدل أساسية فيها ؟ إن الظروف المحيطة اليوم بالجديد الذي جاءت به بعد حرب الخليج تجعلنا نقول بإمكانية ذلك . ولكن التحرك الامريكي الذي تم حتى كتابة هذه السطور لا يشير الى حدوث التغيير المطلوب . الأمر الذي يدل على أن التيار الآخر الذي يعتمد منطق « القوة الغاشمة العمياء » ويختفي وراء صفة « الواقعية » يبذل جهوداً جبارة للوقوف في وجه التيار الأول . ويمكن للمتابع أن يلاحظ محاولات رموزه استباق الأحداث وطرح أفكارهم القديمة بشأن القضية والصراع في قوالب جديدة . وقد عادت هذه الأفكار لتدعو الى الانطلاق من مزاعم أمن أحد طرفي الصراع في وضع خطوط الحل بحيث يتم إنكار حقوق الطرف الآخر . وهكذا قاومت طرح القضية على أساس انها قضية « تحرير » وحاولت جاهدة محو هذه الكلمة التي رددتها بقوة وجعلتها شعاراً في أزمة الخليج . وانكرت الحقوق الأساسية لشعب في وطنه من حق تقرير مصيره الى حق عودته الى حق اقامة دولته ومن ثم تحقيق توجهاته الوحدوية . ويحفل أحد المشاريع التي جرى التقدم بها بأمثلة على ذلك . فالانسحاب فيه يكون من المناطق الكثيفة بالسكان وهذه المناطق توضع تحت الوصاية ويكون للمحتل استبقاء الأراضي اللازمة لأمنه الى أخر هذا الحديث القديم الذي لم يسمع أحدٌ

من طارحيه مثيلاً له في حالة أزمة الخليج . وواضح أن نجاح هؤلاء سيعني استمرار الصراع واحتدامه وزيادة المعاناة التي يسببها الاحتلال وتفاقم انتهاكات حقوق الانسان والقانون الدولي التي تقوم بها سلطاته .

لابد إذاً من العمل لانتصار النزعة الانسانية . والظروف المحيطة مواتية لذلك . وهذا العمل هو السبيل لتحقيق الأمل الذي يتعلق به الكثيرون أن تصبح الأمم المتحدة قادرة على اعتماد معيار واحد في اصدار قراراتها وتطبيق الشرعية الدولية ونصب عينها تحقيق العدل .

لابد أن يشارك في هذا العمل العالم كله بمفكريه ، بحيث تسهم جميع الحضارات الانسانية في معالجة أزمة القيم التي يعاني منها النظام الدولي . ومطلوب أن يوجه هؤلاء عناية خاصة من اجل انتصار النزعة الانسانية في القوة الأعظم والقوى الأخرى الكبرى في مجلس الأمن .

إن مما يبشر بإمكانية نجاح هذا العمل المراجعة الجارية في أوساط الحضارة الغربية لقضية الأخلاق والسياسة . وهي مراجعة مستمرة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية التي اكتوى الانسان بويلاتها ، ولكنها بلغت ذروتها إثر الزلزال الذي شهدته أوروبا الشرقية ، ومن المتوقع أن تتكثف الجهود فيها إثر زلزال الخليج . وأهم ما في هذه المراجعة أنها كما يوضح ريمون بولان في كتابه « الأخلاق والسياسة » تحرص على الربط بين النظرية والممارسة وتنطلق من مبادىء واضحة ، وتهدف الى حل التناقض الذي قام في الفكر الغربي بين الأخلاق والسياسة ، وتعتبر العدل قيمة سياسية ، وتنظر الى الشرعية كثمرة له لاتنمو إلا « في حضور قيمي » .

لقد عنيت حضارتنا العربية الاسلامية عناية خاصة بقضية الأخلاق والسياسة وبلورت رؤية واضحة بشأنها أثبتت على محك التطبيق والممارسة

نفاذها . وهذا يفرض علينا في الدائرة العربية الاسلامية أن ننهض بنصيب وافر من العمل على الصعيد الفكري . كما أن نضالنا المتصل في قضية فلسطين الذي تُقدم الانتفاضة أروعَ تعبير عنه يقرن الفكر بالممارسة . وقد رأت حضارتنا السياسة على أنها اصلاح معاملة عامة الناس فيما بينهم ، بإرشادهم الى الطريق المنجي في العاجل والآجل على الخاصة والعامة في ظواهرهم وبواطنهم . فمفهوم السياسة هنا مفهوم اخلاقي يربط بين الدنيا العاجلة والآخرة الآجلة ، وبين ظاهر الانسان وباطنه . وهو مفهوم عملي منطلق من حقيقة أن الله يزع بالسلطان مالايزع بالقرآن . وهو مفهوم عقلي يفرق بين السياسة العادلة والسياسة الظالمة .

إن العالم يجب أن ينقذ من أخطار القوة الغاشمة وغطرستها . وهذا يتطلب سبيلاً يجنبه الغوص في أوحال السيطرة ، كما قال مالك بن بني في أعقاب مؤتمر باندونج . وقد وضع الاسلام علامتين واضحتين على هذا السبيل ، حيث أرسى القرآن أولاً في ضمير المسلم تحديداً جوهراً لارادة القوة بقوله تعالى « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين . وحصّن هذا الضمير ضد الاستبداد الروحي بعد أن أمنّه من السيطرة الزمنية « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » . وهكذا حددت الثقافة الاسلامية خطر السيطرة زمنياً وروحياً . وجرى اختبار هذا التحديد بنجاح مرات لعل من اشهرها تحدي الشيخ جمالي شيخ الاسلام في عهد السلطان سليم الأول لتوجه السلطان فرض اعتناق الاسلام على رعاياه المسيحيين أو قتلهم الذي كان من اسبابه إقدام السلطات الاسبانية على فرض اعتناق المسيحية على المسلمين أو قتلهم ، حيث أصدر شيخ الاسلام فتوى تقرر عدم جواز ذلك وتلزم السلطان باحترام حرية رعاياه في الاعتقاد وحمايتهم لأن الشريعة الاسلامية تأمر بذلك . وقد وقف المؤرخ الامريكي ليبير أمام هذا

الحادث مناقشاً آثاره من الناحيتين الأخلاقية والسياسية وفاصلا بينهما فصلاً لايمكن قبوله من وجهة نظر الحضارة العربية الاسلامية ، ومسجلاً إعجابه في نهاية الأمر بموقف شيخ الاسلام وديوان العلماء .

وبعد .. فهل ستنجح الأمم المتحدة في الاختبار الصعب الذي تواجهه في هذه المرحلة الجديدة وتعتمد معياراً واحداً في النظر الى الأمور وتطبق هذا المعيار الذي أساسه العدل على قضية فلسطين ؟ إن لم تنجح فسيكون مصيرها كمصير سابقتها عصبة الأمم التي اخفقت في توفير الأمن الجماعي للأسرة الأممية بسبب تنافس المتحكمين فيها وانسياقهم وراء القوة الغاشمة وغطرستها. وكذلك سيكون مصير القوى الأعظم التي تتحمل مسؤولية النظام الدولي كمصير قوى سبقتهم اتبعت الهوى فزالت ، وتلك الأيام نداولها بين الناس . وهناك فرصة سانحة اليوم للمراجعة « والأوب » الى الحق . وقد دعانا الله سبحانه أن نذكر عبده داودَ ذا الايد إنه أوَّاب ، وحدثنا عن تسخير الجبال معه وتشديد ملكه وإتيناه الحكمة وفصل الخطاب ، وعن قصته مع الخصمين اللذين بغي بعضهما على بعض وطلبا اليه أن يحكم بينهما بالحق وقد تطلع احدهما الى نصيب الآخر الضئيل ليصبح مستأثراً بكل شيء وهو مالك ٩٩ بالمائة . ويبقى نداء الله لداود مُردداً ليسمعه كل قوي « ياداود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » . وقد أجمل الحديث الشريف واحدة من سنن الكون « انما هلك من كان قبلكم انهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع ويتركون الشريف » محذراً من عواقب اعتماد المعيارين . فلنغتنم الفرصة السانحة ولنعمل لانتصار النزعة الانسانية .

شعار المراجعة والأوابة والإنابة .. والعمل الفلسطيني

أحد الشعارات التي تبلورت لمرحلة مابعد حرب الخليج من خلال معاناة أهوال الأزمة والحرب على مدى سبعة شهور ، هو شعار « المراجعة والأوابة والإنابة » ، على الصعيدين الفردي والمؤسسي .

العمل بهذا الشعار على الصعيد الفردي ضرورة لازمة لاستعادة التوازن النفسي الذي هزّه الزلزال ، ولمباشرة عملية الخروج من التشوش الفكري الذي حدث أثناء الزلزال . ولكن تحقيق الوضوح الفكري وتوفير السكينة النفسية والانطلاق لبذل الجهد وفاءً بمتطلبات المرحلة لابد له من العمل بهذا الشعار على الصعيد المؤسسي . ومن هنا تأتي أهمية دعوة المؤسسات في وطننا للانعقاد تحت لواء هذا الشعار والعمل به مراجعةً وأوابةً وإنابة .

أسعدني أن أجد عدداً من مؤسساتنا المعنية بالفكر تبادر للعمل بهذا الشعار ، وأنا أتلقى دعوات متتالية للقاءات وندوات منذ توقف الاعمال القتالية يوم ١٩٩١/٢/٢٨ لمناقشة ماحدث وما ينبغي عمله . والزمت نفسي بتلبيتها ومضاعفة عدد ساعات العمل الفكري للتحضير لها وكتابة ماتتطلبه من أوراق وبحوث . واستشعرت مع عدد من الاخوة الحاجة الماسة لانعقاد المجلس المركزي الفلسطيني ، فتحدثت بهذا الشأن ووجدت أن الشعور بهذه الحاجة

المأساة عام وأن الدعوة للانعقاد على وشك الصدور .

لم ألبث حين وصلتني الدعوة أن فوجئت بأن الموعد المحدد لانعقاد المجلس المركزي لايناسب ما التزمتُ به من مواعيد أخرى . وهكذا ألفيت نفسي أمرّ بتجربة صعبة للتوفيق بين عدة التزامات علمتني جديداً أحب أن أشرك القارىء الكريم فيه لاستشعاري فائدته . وكان هذا الموعد هو يوم ١٩٩١/٤/٢١ .

لقد أسرعت بعد النظر في المواعيد الى الإبراق لرئيس المجلس المركزي لوضعه في صورتها والاعتذار عن الحضور اذا لم أنجح في التوفيق بينها . وبذلت اكثر من محاولة لترتيب هذه المواعيد التي ستنعقد في القاهرة وتونس والدار البيضاء ثم القاهرة خلال أسبوع واحد ، فلم أوفق . وقلت لنفسي « لامناص من الاعتذار عن تونس » ، وبخاصة وأن المواعيد الأخرى سابقة وقد أكدتها ، « ولايكلف الله نفساً إلا وسعها » . واسترحت لهذا القرار الأولي ولكني شعرت بأني سأفتقد هذا الاجتماع بخاصة ، لأني تواق الى الاستماع ولدَي ماأطرحه ايضاً . وخطر على بالي أمام إلحاح هذا الشعور بأن باستطاعتي أن اكتب رسالة الى رئاسة المجلس المركزي أضمنها افكاري وما أريد طرحه . وهكذا اعتكفت ثلاثة أيام للكتابة ، ولكني قبل أن أختتم رسالتي وموعد الانعقاد قد اقترب أُلفيتُ عدداً من اخوتي في الساحة الفلسطينية يراجعونني في أمر الاعتذار عن السفر الى تونس . وكم تأثرت حين قصدني أحدهم ثاني أيام عيد الفطر ليقول لي رأيه بإعطاء الأولوية للمشاركة في المجلس المركزي . وقد وعدته بأن أحاول دون أن التزم خوفاً من تعذّر ذلك ، وبخاصة وأنني اكتشفت مدى ضعف خطوط الاتصال الجوي بين أقطارنا العربية هذه الأيام . ثم لم ألبث أن أُلفيتُ عدداً من اخوتي في الساحة العربية من الحكماء الذين اعتز برأي كل

منهم يراجعونني هم أيضاً . وحين أعلمت أحدهم بأني سأوجه رسالة تتضمن أفكاري وأطلعته على ماكتبته منها قال لي بعد أن قدّر ما بذلته من جهد في كتابتها « نحن ياأخي أمة شفهية ، تقدّر ما يطرح عليها قولاً . وشتان بين الأثر الذي يحدثه الطرح الشفهي في الاجتماعات وأثر الطرح المكتوب الذي يقرأ بالنيابة أو يوزع للقراءة فتمر العيون على سطوره سريعاً » .

كان عليّ عند هذا الحد أن أراجع نفسي ، ففعلت ، وأن آخذ في الاعتبار رؤى الآخرين وآراءهم ، فأخذت . وما أسرع ما اتخذت قراري بإجراء تعديلات على برنامجي مكنتني من المشاركة في اجتماع المجلس وعدم الاخلال بالتزامي التالي ، وإن اضطررت لسلوك طريق طويل قد يكون أورثني تعباً جسدياً ولكنه أراحني نفسياً . وقد خرجت من هذه التجربة بالتأكد من أهمية المشاورة وضرورة المراجعة في ضوء ما يشار به علينا ، وبتمثل أهمية المشاركة المادية والطرح الشفهي في العمل العام . وكم حمدت لأخوتي ، بعد حضوري المجلس وطرح مالدّي فيه ، ما قاموا به من مراجعتي . وسأبقى أذكر هذا الجديد الذي تعلمته وفضلهم .

استرجعت وأنا أغادر تونس الى المغرب ماجرى في الساعات التي أمضيتها في رحاب المجلس ، ونظرت في حصيلة أعماله ، فوجدت أن الغرض من هذه الدورة قد تحقق الى حد ليس بالقليل . ووقفت أمام أربع أفكار بدا واضحاً أن مناقشات المجلس بلورتها ، تدور أولاها حول العمل الداخلي في الساحة الفلسطينية ، وثانيتها حول الانتفاضة ، وثالثتها حول العمل العربي ، ورابعتها حول الصعيد الدولي والتحرك السياسي . كما وقفت فيما مايتعلق بالفكرة الأولى أمام مابدا من إجماع في المناقشات على ضرورة إيلاء أوضاعنا الداخلية في الساحة الفلسطينية عناية خاصة . وكذلك ما بدا من تجاوب مع

شعار « المراجعة والأوابة والإنابة » حين جرى طرحه . وتذكرت ماكنت كتبته حول عملنا الداخلي في رسالتي ، وماحرصت على طرحه بنفسي حين تحدثت في بداية الاجتماع حول مشروع جدول الأعمال وكيفية مقاربته .

* * *

« الحاجة ملحة اليوم اكثر من أي يوم مضى لحوار مسؤول يصل بنا الى وضوح الرؤية والنجاة من كرب عظيم وانشراح الصدر للمضي في مسيرة جهاد شعبنا لتبلغ غايتها بالتحرير . ذلك أن من طبيعة المرحلة التي بدأت مع وقف العمليات القتالية يوم ١٩٩١/٢/٢٨ أن تشهد تشوشاً في الفكر يعم في أوساط أمتنا وخلطاً في المفاهيم وتساؤلات تنتظر إجابات وردود أفعال وفقدان مناعة تجاه أفكار معادية يستهدفنا بها أعداؤنا ، الأمر الذي يسبب للبعض الضياع ويصل بهم الى التسليم والاستسلام . كما أن من طبيعة هذه المرحلة أن تشهد مناخاً نفسياً ثقيلاً ضاغطاً تكاد القلوب بفعله تبلغ الحناجر يخيم على الكثيرين ، فيظنون بأنفسهم وبالله الظنونا . وقد حفظت لنا السيرة النبوية مثلاً على هذا الحوار المسؤول دار في أعقاب موقعة أحد في العالم الثالث للهجرة ، أنزل الله بمناسبته آيات بينات في سورة آل عمران تنبّه الى « سنن خلت من قبل » و« تداول الأيام بين الناس » و« التمحيص » ، وتخرج المؤمنين من المناخ النفسي الثقيل بعيداً عن الوهن وتحثهم على الجهاد والصبر ، بعد أن يقوموا بمحاسبة ومراجعة . ويلفت النظر في هذه الآيات أنها استحضرت الأحداث وقومّت ماجرى ووضعت النقاط على الحروف بشأنه ، لتحفظ لنا مثلاً باقياً يكون نموذجاً للحوار المسؤول . وإني أرجو أن يعطي المجلس الحوار حقه ، ويحرص على الارتفاع بمستواه ومستوى أداء المجلس من خلال تحديد نقاط البحث والوفاء بمتطلبات البحث وبلورة النتائج وتصور آلية التنفيذ ، وأسأل الله أن يعينه على ذلك ، ملاحظاً أن شعوراً قوياً استولى عليّ وربما على

عدد من الزملاء خلال اجتماعات مجلسنا في العامين الماضيين بأن مستوى أداء المجلس يمكن أن يكون أفضل بكثير . ولنتذكر أن مهمة المجلس في كل دورة انعقاد هي تقويم ماتم من تحرك في فترة مابين الدورتين وبلورة خطوط سياسية استراتيجية للتحرك في الأيام القادمة » .

لقد حرصت بعد هذا المدخل أن أخصص جانباً من الحديث للطريقة المثلى للعمل داخل المجلس ، وسرني أن عدداً من الزملاء أولوا هذا الموضوع حقه وطالبوا بوضع المجلس في صورة عدد من التقارير . ثم حرصت عندما بدأت مناقشة التقارير المقدمة على أن استذكر بداية المقياس الذي نقيس به أعمالنا وهو جماع « الوحدة الوطنية » و« التعبئة القومية » أي حماية أبناء شعبنا وتوطيد ترابطهم والالتحام بابناء أمتنا العربية ، وهذان معاً يتكاملان مع « التحرير » وقد تضمن شعار المنظمة هذه الثلاثة . وحرصت على ان اطرح انطباعي العام عن التحرك مضموناً وأسلوباً واقترح تشكيل لجنة لتقويمه تقدم تقريرها للمجلس في اجتماعه القادم . ووصلت عند هذا الحد الى الحديث عن الخطوط الاستراتيجية في هذه المرحلة فقلت ...

إن بلورة الخطوط الأساسية الاستراتيجية للتحرك والعمل في الفترة القادمة تقتضي استحضار حقائق المرحلة الراهنة والوقوف أمامها . واسمحوا لي أن أوجز الحديث عنها في نقاط .

ــ واضح أن مضاعفات الأزمة والحرب وتداعياتهما لاتزال تتتالى . وهانحن نجد أنفسنا في وطننا العربي وعالمنا الاسلامي بعد « إعلان ايقاف العمليات القتالية » يوم ١٩٩١/٢/٢٨ أمام احتلال أجنبي لجزء من أرض العراق له دوره في تفجير الأوضاع الداخلية هناك ، وأمام ممارسات في الكويت يثير بعضها الإحن وتفاعلات حادة تجري هناك ، وأمام « تحولات » بدت

بوادرها الأولى في الظهور في عدد من الأقطار العربية ، وأمام دور جديد تسنده الولايات المتحدة الأمريكية الى « الأمم المتحدة » ، وأمام تفاعلات حادة أخرى تجري داخل دائرة الغرب وأوساط التحالف الدولي الذي خاض الحرب ضد العراق .

ـــ لعل من أخطر ما يقترن بهذه المضاعفات والتداعيات المتتالية دخول المنطقة مرحلة جديدة من مراحل سباق التسلح الذي يخطط له صانعو السلاح في عالمنا . وذلك بعد أن « وافقت الادارة الامريكية على تصدير ماقيمته ثمانية عشر بليون دولار لعدد من الدول العربية بخاصة وللكيان الصهيوني وتركيا » . والموافقة هنا تعني الدفع ولا تخلو من الإملاء ، وقد اقترنت « بدعوة واشنطن بكين أن تخفض مبيعات السلاح الصيني للمنطقة » ، فبرزت المفارقة صارخة . وواضح أن سباق التسلح هذا سيفرض مناخاً خاصاً يحيط بالفترة القادمة يشتد فيه التوتر ، وستسبب تكاليفه الباهظة مشكلات متفاقمة .

ـــ لقد برزت الولايات المتحدة الامريكية كقوة أعظم ، بمقاييس القوة المادية ، في عالمنا . وهي واقعة اليوم اكثر من أي وقت مضى تحت اغراء القيام بدور « قيادة العالم » ومعرضة لغواية « غطرسة القوة » ويحتدم في داخلها اش حاد بين اكثرية سكرت بالقوة الغاشمة وأقلية تحذر من أخطارها .

ـــ كشفت التحولات التي حدثت منذ خريف ١٩٨٩ في أوروبا رقية ثم منذ صيف ١٩٩٠ بفعل أزمة الخليج وحربه عن مجموعة حقائق استراتيجية تتعلق بقضية فلسطين والصراع العربي الصهيوني تجد الولايات المتحدة نفسها في مواجهتها . فقد تأكد أن قضيتنا هي جوهر الصراع في المنطقة ، وأن جذور الأزمة وثيقة الصلة بها . وأتضح أن « دور » القاعدة

الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية في الاستراتيجية الامريكية تجاه الاتحاد السوفييتي قد بدأ يضعف مع انتهاء الحرب الباردة وتوقيع معاهدة باريس أواخر ١٩٩٠ ، كما أتضح أن دور القاعدة في الاستراتيجية الامريكية تجاه النفط في منطقتنا لم يثبت جدواه إبان الازمة والحرب . واثبتت مجريات الحرب أن هذه القاعدة قابلة لأن تصاب في أعماقها ، ولاتحتكر وحدها ضرب أعماق الوطن العربي . كما كشفت مجريات الحرب أيضاً أن تماسك الكيان الصهيوني الداخلي ضعيف اذا ماتعرض للاختبار وأن الثغرات في بنيانه وفي علاقته بموجديه موجودة وقابلة للاتساع . وتجلى أثناء الازمة مدى ثقل العبء الذي تحمله الولايات المتحدة في الأمم المتحدة بفعل دعمها العدوان الصهيوني على صعيد انكشاف اعتمادها معيارين بحيث أصبح كل « نقض » لقرارات مجلس الأمن يمثل ضربة معول في مصداقية الحديث الامريكي عن الشرعية الدولية . ووضحت أثناء الازمة ايضاً الحاجة إلى نظام عربي قوي . وكان أبرز هذه الحقائق استمرار انتفاضة شعبنا رغم اشتداد صعوبة الظروف المحيطة بها وتصاعدها الأمر الذي اكد مدى قوة روح الانتفاض التي عبرت عن نفسها ايضاً بصور مختلفة في أقطار عربية واسلامية أخرى . وواضح أن الولايات المتحدة وهي تجد نفسها في مواجهة هذه الحقائق مضطرة الى اخذها في الاعتبار ، وإن احتاج تمثلها لها بعض وقت .

ــ يتجه الكيان الصهيوني بفعل الأزمة والحرب الى مزيد من العدوانية تتجسد في متابعة تهجير اليهود من أوطانهم وتوطينهم في فلسطين وتصعيد الارهاب الاسرائيلي الرسمي وغير الرسمي للانتفاضة والمجاهرة بانتهاج سياسة التوسع . ولايمثل ذلك مفاجأة لأنه من طبيعة القاعدة الاستعمارية الاستيطانية . ويستوي في هذه العدوانية « التكتل » و« التجمع » ، كما تؤكد ذلك الخطوط الرئيسية لبرنامج العمل الجديد الذي تمت صياغة مشروعه .

يمكننا أن نخلص من استحضار هذه الحقائق واستذكار أحداث الشهور الثمانية الماضية الى الوقوف أمام امرين يتعلقان بقضيتنا لابد أن نأخذهما في الاعتبار ونحن نحدد مسارنا في الفترة القادمة .

الأمر الأول هو صدور « وعد دولي » يتضمن « التزاماً دولياً » بالتحرك الفوري في اعقاب انتهاء حرب الخليج لمعالجة قضية فلسطين والصراع العربي الصهيوني على أساس « الشرعية الدولية » التي تم رفع لوائها في حرب الخليج . وقد جاء صدور هذا الوعد للرد على مقولة الربط وما أكدته الأزمة من أن قضية فلسطين هي جوهر الصراع ، وفي اطار ادارة الأزمة والحرب . والحق أن نضالنا لفرض قضيتنا على العالم الذي تتابع في حلقات متصلة وبلغ ذروة بفضل انتفاضة شعبنا منذ أربعين شهراً ، أوصل خلال الازمة الى طرحها بقوة لم يحدث لها مثيل خلال ستة وأربعين عاماً . ونحن مدعوون الى توثيق هذا الوعد ومايتضمنه من إلتزام . وحبذا لو أصى مستوى المجلس اللجنة التنفيذية بإنجاز هذا التوثيق على المستوى الدولي بعامة وعلى مستوى الدول فرادى ، كي نحسن الاستفادة منه في تحركنا السياسي . ولكن تجدر الاشارة هنا الى أن صياغة هذا الوعد تراوحت في درجة وضوحها الأمر الذي يقضي أن نعمل لإزالة أي التباس فيه وجعله واضحاً كالشمس . كما لايغيب عن بالنا أن من اضطر لاعطائه اضطراراً سيحاول الحنث به ،

الأمر الآخر هو أن الصهيونية العالمية والامريكية بخاصة تحركت بسرعة لإبطال هذا الوعد وماتضمنه من التزام بالعمل للقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية مستغلة المشاعر الغربية التي سادت أثناء الازمة والحرب وموظفة « الثقافة العنصرية » التي طفت على السطح في الغرب ؛ وبالعمل للتفرد بدول عربية لفرض تسويات استسلام عليها واحدة بعد أخرى مستغلة الصدع القائم

في الصف العربي ومااعتور علاقات هذه الدول بالمنظمة من توتر إبان الازمة والحرب . وقد تجسد هذا التحرك الصهيوني في فكرة الطريق المزدوج التي جرى طرحها مؤخراً .

لقد جاء التحرك الامريكي المكثف خلال الأسابيع السبعة الماضية متأثراً بهذين الأمرين مع غلبة تأثير الثاني منهما عليه . وهكذا بقي أسير النهج الذي سار في التحرك الامريكي طوال السنوات الأربعة والعشرين الماضية ، مردداً المقولات إياها . وواضح أن هذا النهج لايوصل الى احقاق الحقوق الوطنية الثابتة لشعب فلسطين ، وواضح أن التحرك فيه هو سهدف التحرك الذي « يملء الفراغ » على حد تعبير المصطلح الامريكي . وقد تتالت الأمثلة الدالة على ذلك منذ عام ١٩٦٧ التي شاركت فيها عدة أطراف عربية ، وكان آخرها التجربة التي خاضتها منظمة التحرير الفلسطينية منذ أواخر عام ١٩٨٨ . وواضح أخيراً أن الأخطار التي يتضمنها هذا التحرك علينا كبيرة هذه المرة لأنها تتصل بالهدفين الصهيونيين اللذين يوصل اليهما السير في الطريق المزدوج . والسؤال الذي يبرز أمامنا هو كيف نواجه هذا التحرك بحيث نفشل الجهود الصهيونية لبلوغ الهدفين ، ونصل بالولايات المتحدة الى اعتماد نهج آخر ؟

من وحي زيارة الى مركز عربي للبحوث والدراسات

متابعة التفاعلات الفكرية الجارية في أوساطنا العلمية أمر أحرص عليه، في خضم متابعة الأحداث الجارية، وأخصص له جانباً من وقتي. ونصب عيني في هذه المتابعة التعرف على مدى حيوية الفكر في الأمة وتلاقح الأفكار بين أبنائها. وحديثي هذا الأسبوع هو من وحي زيارة قمت بها لإحدى عواصمنا العربية شاركت خلالها في « محاضرة جماعية » عن « الدراسات المستقبلية » والتقيت على مدى أربعة أيام مع عدد من الزملاء المعنيين بالتاريخ والتربية في جامعتين ومع عدد من المثقفين الذين يعيشون قضايا أمتنا في مرحلة مابعد حرب الخليج.

جاء تفرغي لهذه الزيارة في الأسبوع الثاني من شهر أيار — مايو ١٩٩١، بعد شهرين حافلين من النشاط الفكري بين عدة عواصم عربية عنيتُ فيه بما يجري على الصعيد الدولي في ندوة أكاديمية المملكة المغربية عن « المنظمة الأممية »، وبما يجري على الصعيد العربي في اجتماع مجلس أمناء المنظمة العربية لحقوق الانسان وفي اكثر من ندوة حول « التحرك السياسي الجاري وتضميد الجراح العربية »، وبما يجري على الصعيد الفلسطيني في اجتماع المجلس المركزي. وقد وجدت نفسي حين بدأ وزير الخارجية الامريكي جيمس بيكر جولته الرابعة للمنطقة افتقد الحماس لمتابعتها وأتوقع نهايتها التي

لاتختلف عن نهايات عشرات الزيارات الامريكية الرسمية السابقة منذ عام ١٩٦٧ ، مادام النهج لم يتغير . وهكذا أعطيت نفسي كليةً لهذا النشاط الفكري .

جاءتني الدعوة الكريمة للقيام بهذه الزيارة والمشاركة في المحاضرة الجماعية من « مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية » قبل أكثر من عام ونصف لموعد تحدد قبل عام وحدث ما أجلّه عاماً بطولِه . وقد تحمست لتلبية الدعوة لعدة أسباب منها عنايتي بالدراسات المستقبلية على مدى أكثر من عقدين من السنين ، وماتضمنته الدعوة من نقاط اقترحتها في معالجة الموضوع وجدتها باعثة على التأمل وبخاصة تلك التي تتعلق بمنهج الدراسة المستقبلية ورؤيتنا الاسلامية لها ، وتطلعي للتفاعل مع أهل القلم والمثقفين من اخوتي في الرياض التي لم أزرها زيارات علمية من قبل .

أتأمل الآن في حصيلة الأيام الأربعة فأحمد الله سبحانه أن طرح البركة فيها ، بما أغتنيت به من معرفة للنشاط الفكري لبعض مراكز البحث في المملكة العربية السعودية ، وبما دار من حوار مع من حظيت بلقائهم في المحاضرة واللقاءات .

كنت قد لقيت بعض هؤلاء من قبل في ندوات علمية عربية جمعتنا ، عرفت عنهم الجدية والعلم والحديث المحسوب . وتأثرتُ حين وجدت كثيرين اخرين قد التقوا بي من خلال متابعتهم قراءة مقالي الأسبوعي الذي تنشره عدة صحف عربية كان من بينها صحيفة عكاظ التي تصدر في جدة ، وما اكتبه من بحوث في بعض الدوريات العربية .

بدا لي من خلال الحوار الذي دار مدى عناية هؤلاء بقضايا أمتهم

وإقبالهم على قراءة ما يصلهم من كتابات عنها . وأقول « يصلهم » ولا أقول « مايصدُر » لأن مشكلة توزيع الكتاب العربي في وطننا الكبير مشكلة حادة ، ولها أسبابها ، وقد وجدت أن جُلّ كتبي المطبوعة لم تصل الى محلات بيع الكتب ، وإن وصلت كتب كثيرة أخرى . وكم أسعدني حين زرت واحداً من هذه المحلات في جدة أن أجده حافلاً بكتب قيّمة .

لم أفاجأ حين وجدت قضية الصراع العربي الصهيوني تحتل مكانة خاصة بين قضايا الأمة التي تستولي على اهتمام الكثيرين ممن لقيتهم . فهؤلاء جميعاً من الذين تابعوا دراساتهم العليا في الغرب بعامة والولايات المتحدة بخاصة ، وتعمق فهمهم لموقع قضية فلسطين من الصراع الحضاري الذي خاضه الغرب ضد الحضارة العربية الاسلامية . وقد وجدت متابعة دقيقة للأحداث الجارية ، وبدا لي أن هناك قلقاً متزايداً من محاولات الصهيونية العالمية النفاذ الى بعض أطراف الجزيرة والضغط على دول الخليج مستغلة ما أحدثه زلزال الحرب والمناخ النفسي الثقيل والتشوش الفكري اللذين حدثا بسببها . وكان واضحاً أن مقاربة هذه القضية تتم في الغالب على أساس عقيدي تتحقق اللحمة فيه بين العروبة والاسلام ركني الهوية الحضارية لهذه الأمة اللذين يتكاملان مع ركن التراث فيها .

الانطباع الذي خرجت به من مجمل الحوار الذي دار ، أن لأمتنا أن تستبشر بنهضة التعليم العالي في جزيرتنا العربية ، وأن هذه النهضة بدأت تمدّ حياتنا الثقافية والفكرية بدماء جديدة يتميز أصحابها بصفاء صمد أمام ماتعرضوا له من تحولات حياتية . وقد بدا لي أن الحاجة ماسة لإتاحة الفرصة أمام اكبر قدر من التفاعل الفكري بين المثقفين العرب في جميع أقطارنا العربية ، ولايجاد الآلية المطلوبة لتحقيقه وتوظيف طاقات النهضة لتحقيق أهداف الأمة .

★ ★ ★

لاشك في أن لمراكز البحوث والدراسات دوراً متميزاً في تحقيق التفاعل الفكري واقتراح الآلية المناسبة لتوظيف ماتملكه أمتنا من أوراق في خدمة قضاياها . وهذا مايجعلنا نحن أهل القلم فرحين مستبشرين كلما سمعنا عن تأسيس مركز جديد في وطننا الكبير . وهو مايجعلني اسعد كلما زرت احد هذه المراكز لأول مرة . وقد سعدت حقاً بالساعات الأربع التي أمضيتها في رحاب مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية ، أتجول في جنباته متعرفاً عليه .

فضلّت أن أؤجل قراءة مجموعة النشرات التي تعرف بالمركز ونشاطه الى مابعد قيامي بالزيارة . وسرني أن يبدأ مرافقي جولتنا بالمكتبة . وقد وجدت قاعة الموسوعات فيها حافلة ، وكان الجديد عليّ وأنا اتعرف على ماتحتويه نسخة بالانجليزية للموسوعة الروسية السوفيتية . أما أكثر ما لفت انتباهي فكان النظام المتبع في طلب الكتب الذي يقوم موظف مختص بدور خاص فيه ، مسجلاً الطلب على الحاسب الآلي ، ليصل من المخازن خلال دقائق معدودة الى الطالب . وحين وصلنا في جولتنا الى المخازن طاب لي أن اتعرف على كيفية سير العملية ، وطلبت كتابين من تأليفي ومعرفة ما في المكتبة من كتب أخرى لي أو بحوث منشورة . ولم تمضِ دقائق حتى جاءت القائمة تضم سبعة عشر كتاباً وكثيراً من البحوث . وقد فاجأني العدد بكثرته النسبية لأني لم أتوقع وجود بعض هذه الكتب . ورأيت كيف يفتح المخزن الذي فيه الكتاب المطلوب وتظهر اشارة ضوئية على الرف الذي فيه الكتاب . وهكذا وجدت نفسي أمام نظام جديد في عمل المكتبة يختلف عما عهدناه ، ذكرني بالنظام المتبع في مكتبة الكونجرس التي حرص ابني حين زرته في جامعته بواشنطن عند تخرجه على ان يرافقني لزيارتها والتعرف على نظامها .

اتضح لي بعد أن زرت مختلف أقسام المركز ، ورأيت عملية تكشيف ما في المراجع تسهيلاً للباحث ، ان جهداً كبيراً يبذل من أجل أن يجد الباحث مايريد . وتعرفتُ على قواعد المعلومات المتخصصة في عدة موضوعات التي أنشأها المركز . وتتالت اسئلتي لمرافقي عن عدد المستفيدين من هذا الجهد ومستوياتهم العلمية ونسبة الذكور فيهم والإناث . وقد اسعدني أن أسمع ارقاماً جيدة تدل على إقبال جيل الشباب الباحث بخاصة ، وعرفت أن المركز يتلقى طلبات مكتوبة وهاتفية من كثير من بناتنا الدارسات فيلبيها ويوصلها اليهن حيث لاتزال التقاليد لاتحبذ قدومهن بأنفسهن . وتعرفت على كيفية قيام المركز بتحقيق عشرة أهداف ومهام حددها لنفسه . وسعدت بزيارة مكتبة المخطوطات التي تضم اكثر من ثلاثة عشر ألف مخطوطة أصلية واكثر من ستة آلاف وستمائة مخطوطة مصورة ، وقسماً لفهارس المخطوطات الموجودة في العالم مصنفة بحسب الدول . وكم كانت غنية الأحاديث التي تبادلتها في نهاية الجولة مع مدير عام المركز الأخ د. زيد عبد المحسن الحسين حول عمل المركز وأوضاع البحوث والدراسات في وطننا .

لقد مضى على تأسيس هذا المركز ثمانية أعوام . وواضح أنه في تصميمه متمثل أهم انجازات ثورة التقنية وهو تدفق المعلومات التي يجري توظيفها لخدمة البحوث والدراسات والتراث والثقافة . ويضم المركز إدارتين إحداهما للبحوث والدراسات والأخرى للتراث والثقافة ومركزاً للمعلومات قوامه أربع مكتبات وقسم للحاسب الآلي . وطموح المكتبة الرئيسية هو استيعاب مليون كتاب في مجال الحضارة والدراسات الاسلامية . وقد سعدت أيضاً بزيارة مكتبة الأطفال والمكتبة السمعية البصرية . وزرت ايضاً بقية اجهزة المؤسسة التي ينتمي إليها ، وعرفت أن « مؤسسة الملك فيصل الخيرية » لها نشاط خيري تنفق عليه من أموال تستثمرها وهي تقدم جائزتها عالمية تحمل اسم الملك الراحل ، وقد اقترح

أبناؤه انشاءها . وسرني أن يستهل كتاب التعريف بها حديثه بالاشارة الى الدور الرئيسي الذي قام به الأفراد والجماعات في تقدم أمتهم حين تطوعوا وبادروا . فالعمل الأهلي الطوعي هو من أبرز سمات حضارتنا العربية الاسلامية .

كان عنوان « المحاضرة الجماعية » التي ينظمها المركز هو « الدراسات المستقبلية وواقع العالم الاسلامي » . وقد حدد مداها الزمني بساعتين ونصف على الأكثر . وهذا أمر محمود نجحنا مؤخراً في اقناع بعض مؤسساتنا الثقافية باتباعه والكف عن ارهاق الحضور بالبقاء ثلاث ساعات أو أربع . وتنقسم المحاضرة الى قسمين قسم عرض البحوث التي أعدها المحاضرون على مدى ساعة، وقسم الحوار الذي يمتد أكثر من ساعة . وقد سعدت بمشاركة زميلين كريمين في القائها هما د. اسماعيل الشطي من الكويت ود. محمود سفر من المملكة العربية السعودية. وطاب لى أن أتابع مسارها وكم أسعدني الحوار الذي دار على مدى ساعة . ولم يكن سهلاً ضبط زمن القسم الأول فتجاوز وقته المحدد بحوالي نصف الساعة . وتداعت الى خاطري المحاضرات والندوات التي القيتها وشاركت فيها في مختلف أنحاء وطننا العربي الكبير .

لقد سبق لي أن شاركتُ في عدة ندوات حول بحوث مسقبلية جرى أعدادها ، ومن أهمها تلك التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ، ومنتدى العالم الثالث . ولكنها كانت المرة الأولى التي اشترك فيها بمحاضرة جماعية تركز همها على « الدراسة المستقبلية » . وقد دعاني هذا الأمر الى أن انصرف ساعات طوال على مدى سنة ونصف لمراجعة عدد من الكتب وإعادة النظر فيما كتبته ضمن دراسات المستقبل والتأمل في الموضوع . الأمر الذي أوصلني الى الحسم في الاجابة عن اسئلة كانت أمامي على مدى عقدين من السنين . وقد اخترت هذه المناسبة لاطرح اجاباتي حولها . وهكذا أجبت عن

سؤال هل الدراسة المستقبلية علم ؟ وسؤال ما مفهومنا لها ؟ وسؤال ماهو المنهج الذي نعتمده ؟ وسؤال كيف نقاربها ؟ وسؤال ماهي أصولها في تراثنا ؟ والاجابات لها حديث آخر .

وانظر في حصيلة هذه الزيارة التي طرح الله فيها البركة فأجد أن الأهداف التي وضعتها نصب عيني منها تحققت وأهمها هذا التفاعل مع أخوتي في جزء غالٍ من وطننا العربي لم يسبق لي أن زرته زيارة علمية . وما أروع أن تتضمن هذه الحصيلة أداء العمرة مرتين مع أم البنين وبرفقة أحد أبنائنا .

رؤية عربية لحال الأمة

إنطباعات عن لقاء عربي فكري بعد الزلزال

ما أروع أن يتم الوصول من خلال الحوار المسؤول الى الصفاء الذي ينهي التمزق النفسي ، والى وضوح الرؤية الذي ينهي التشوش الفكري ، والى شحذ ارادة الفعل الذي ينهي الإحجام عن الفعل .

كنت مستشعراً حاجة أمتنا بعد زلزال الخليج الى هذا الحوار المسؤول حين اقبلت على المشاركة في اجتماع المؤتمر العربي الثاني بعمان وتفرغت له على مدى الأيام الخمسة الأخيرة من شهر آيار / مايو ١٩٩١ . وكنتُ مقتنعاً بضرورة أن يتضمن الحوار المسؤول الذي يجب أن يدور في مختلف أوساط الأمة ومستوياتها حواراً على الصعيد الفكري بين مثقفين ممارسين عرباً من أنحاء وطننا العربي الكبير يتمسكون بانتمائهم الى الأمة ككل ، فلم اتردد أن أعطي الأولوية لهذا الاجتماع حين توافق موعده مع اجتماع آخر رسمي . وكان قد رجح عندي قبل ذلك انعقاد المؤتمر من حيث المبدأ حين برز آخر يقول بتأجيله خشيةً عليه من الانقسام الحادث في أوساط الأمة بسبب اختلاف الرؤية لما جرى في الأزمة والحرب ، لاعتقادي أن الحاجة للتواصل إبان الأزمات تزداد إلحاحاً ، وأن هذا التواصل هو السبيل للتفاهم الذي يوصل الى الخروج منها ، وأن الشكوك التي تحيط بهذا التواصل في بدايته أمر متوقع سرعان ماتتبدد بفعل

الحوار المسؤول ، وعلينا أن نصبر عليها ، ولنا أن نتوقع بعد ذلك أطيب الثمار لهذا التواصل .

أنظر الآن وقد انتهى الاجتماع في حصيلته فأجدها ولله الحمد مباركة على عدة صعد ، وأهمها هذا البيان الموجه للأمة ككل متضمناً رؤية فكرية سياسية تحاول الاجابة عن تساؤلات مطروحة وتسبر أغوار الواقع القائم وتطرح أفكاراً حول ماينبغي عمله . واستذكر المراحل التي كان لابد من المرور بها للوصول الى هذه الرؤية ، فأجد مرحلة الاعداد الأولى التي انتهت بتقرير عن حال الأمة ودراستين عن الأمن العربي وحقوق الانسان وضعت جميعها أمام المؤتمرين . ثم أجد مرحلة مناقشات المؤتمر التي امتدت يومين . وأجد أخيراً مرحلة صياغة البيان التي استمر العمل فيها ثلاثة أيام .

★ ★ ★

استحضر انطباعاتي عن سير العمل في هذا المؤتمر العربي الفكري غير الرسمي فأجدها كثيرة ، وأقف أمام ثلاثة منها يتعلق الأول بالمناخ المحيط بالانعقاد ، ويتعلق الثاني بسير المناقشات ، ويتعلق الثالث بصياغة الأفكار .

● لقد كان المناخ المحيط بالانعقاد متقلباً ، ولم يخلُ الجو المخيم عليه من غيوم . وهذا أمر متوقع ونحن نعيش في أعقاب زلزال لم يتوقف بعد تماماً ، وعوامل متناقضة تفعل فعلها . ولاشك في أن مثل هذا المناخ يساعد على ولادة شكوك في جدوى الانعقاد وفي دوافعه وحول المشاركين ومواقفهم وفي امكانية خروجهم بشيء . وقد طاب لي أن أتابع كيف تتبدد الشكوك من خلال التواصل ، وأقف أمام آلية هذه العملية . والحق أنه ما أن استمع المؤتمر الى كلمة الأمانة العامة التي القاها الأخ الدكتور خير الدين حسيب باسمها ، حتى أضحى المشاركون في صورة تفاصيل الجهود التي بذلت في الاعداد للانعقاد ،

ومنها الجهد الذي بذل لتغطية النفقات . وقد لفت انتباه الكثيرين أن جلّ هذه النفقات جاءت كتبرعات من اعضاء مشاركين فيه جاء ذكرهم في الكلمة ، وأن غالبية المشاركينَ تحملوا نفقات سفرهم ، وأن مؤسسة طوعية أهلية ثقافية اسهمت بنصيب ووفرت نفقات كثيرة بما قدمته من خدمات وتسهيلات وهي مؤسسة شومان . والحق أيضاً أنه ما أن استمع المشاركون في جلسة الصباح الأولى لمناقشات بعضهم بعضاً حتى تبددت شكوك حملها بعضهم في مواقف البعض إبان الأزمة والحرب وحول الدوافع التي أدت الى هذه المواقف . ولقد تساءل كثيرون خارج المؤتمر وهم يقرأون اسماء المشاركين الثلاثة والستين عن المعيار الذي تم اعتماده في اختيارهم ، وعبرّ بعضهم عن ضيق لأن كثيرين آخرين لم تتم دعوتهم . وأجابت كلمةُ الأمانة العامة عن سؤال المعيار ، فأوضحت أن الدعوة توجه لأولئك الذين يعملون من أجل وحدة الوطن والأمة خارج التنظيمات السياسية بعيداً عن المواقع الرسمية ، وأن ربع الأعضاء يتجدد كل عام ، وأن الحرص شديد على التفاعل مع كثيرين لم تتم دعوتهم بسبب محدودية العدد . والحق أن الفكرة التي ألحت عليّ قبيل الانعقاد واثناءه هي العمل لعقد مؤتمرات موازية تضم الفعاليات من جيل الشباب الممارس ، لأن هذا المؤتمر مقتصر على المعنيين بالفكر السياسي . وكم أسعدني أن الاحظ الفارق بين الجو المخيم أول المؤتمر والجوّ المخيم آخره حين تبددت الغيوم وأشرقت شمس الفكر .

● تتبعت بنظر المولع بمراقبة تلاقح الأفكار عملية سير المناقشات ، ولم أفاجأ حين رأيت هذه العملية تعاني من صعوبات في الجلسة الأولى وتتضمن وجهات نظر متباينة . فقد علمتني الخبرة بالمؤتمرات أن هذا هو الوضع الطبيعي ، وتفسيره مرتبط بحقيقة لقاء أناس يحمل كل منهم تصوره للأمور وتحكم كلاً منهم قناعات بلورها من خلال ماتلقاه من معلومات وما أحاط به

من ظروف . وأسعدني أن أجد النقاش في الجلسة الثانية يتحول الى حوار غني بنّاء شامل لكل النقاط المتعلقة بحال الأمة . كما أسعدني أن يتناول هذا الحوار بعد ذلك بالتحليل العميق ماجرى في مراجعة دقيقة ، وحقائق المرحلة الراهنة في نظرة سابرة للأعماق ، ليصل الى محاولة الاجابة عن سؤال ما العمل بطرح أفكار محددة . وقد تميزت المراجعة بانطلاقها من الانتماء للأمة ككل ، وحرصها على محاسبة النفس، ووقوفها بخاصة أمام حقوق الانسان. واذكر عدداً من اللحظات الممتدة التي شهدت تعبيراً عن قيم امتنا وشيمها الأصيلة التي حاولت دعايات إعلام الأزمة حجبها بتعميم «الفاحشة» ونشرها. ومن هذه اللحظات تلك التي وصف فيها أخ عربي من العراق معاناة أهلنا هناك لما حدث إبان الازمة من انتهاكات لحقوق الانسان ولما حلّ بأهلنا في الكويت بخاصة وهم الأخوة والجيران . والأمر نفسه حدث في اللحظة التي وصف فيها أخ عربي من الخليج معاناة أهلنا هناك لما حدث إبان الحرب وبعدها للأهل في العراق . وقد تميز تحليل الواقع القائم بشموله وعمقه فانتهى الى عدد من الحقائق التي تستحق منا كأمة أن نتمثلها ، ومنها أن الأمر لم يستقر بعدُ بل تفاقم وأن هناك محاولة خارجية لفرض سباق تسلح في المنطقة لاستنزاف مزيد من ثرواتها ، وأن العدو الصهيوني يعتمد الهجوم لتحقيق أهداف محددة ، وأن ... ، وأن ... وجاءت الأفكار حول ماينبغي عمله ناضجة عملية .

● لاشك في أن عملية صياغة الأفكار في المؤتمرات الفكرية هي أصعب العمليات جميعاً . فالمؤتمر مدعو لإصدار بيان الى الأمة يتضمن حصيلة رؤيته ، وهذا البيان كما قال أحد المشاركين المخضرمين هو قناته الرئيسية للتواصل مع الناس . ولايمكن البدء بصياغته النهائية الا بعد انتهاء المناقشات . ويجب أن تنتهي هذه الصياغة في وقت محدد قصير لتعرض على المشاركين ويناقشوها

ويعدلوا فيها لتخرج معبرة عن الاقتناع الجماعي . ولابد من مشاركة عدد في الصياغة الأولية لتحديد النغمة المناسبة مع أن الصياغة النهائية تقتضي قلماً واحداً أو قلمين على الأكثر اذا أمكن تقسيم البيان الى جزئين ولم يكن غريباً والأمر كذلك أن أشعر مع آخرين بصعوبة هذه العملية وأوجس خيفة من نتائجها اذا لم نحسن مقاربتها . وقد تذكرت ثلاثة عقود شاركت خلالها في مئات المؤتمرات وكابُدت عملية الصياغة واتصال النهار بالليل في العمل المستمر . كما تذكرت توجهي بعد ان بلغت الخمسين الى تحديد دوري فيها ضمن حدود المناقشة داخل لجنة الصياغة مع الاصرار على عدم دخول الصياغة النهائية . ووجدت نفسي مضطراً هذه المرة الى غير ذلك ، لاستشعار المؤتمر الحاجة الى تضافر كل الخبرات للتعبير عن أفكاره بدقة ، والى اختيار المصطلحات التي تستخدم ، والى استخدام لغة فكرية واضحة تنطق بلسان الأمة ككل في صياغة الأفكار التي بلورها . واستحضر الآن كيف أمكن الوصول الى صياغة البيان عبر عدة خطوات حرصت لجنة الصياغة على شرحها للمشاركين ، وكيف أمكن التوافق على رؤية مشتركة أسهم الجميع في صنعها .

★ ★ ★

وانظر في هذا البيان الذي صدر ، فأجد أنه في شكله ومضمونه يمثل نقلة كبيرة في « البيان الفكري السياسي » العربي . فمن حيث الشكل طال حتى غطى أربع عشرة صفحة من القطع الكبير ، وحمل عناوين داخلية ثلاثة « مراجعة » و« الواقع » و« ماالعمل ؟» . ومن حيث المضمون حفل بأفكار كثيرة عبرّ عنها بايجاز شديد وفق لغة « المتون » في كتاب التراث التي كانت تتتالي عليها الشروح ، واستخدم لغة واحدة محددة بعيدة عن لغة الإدانة والمبالغة تصلح نموذجاً لإعلام الكلمة الطيبة الذي نواجه به دعايات إعلام الأزمة .

وأقرأ عصارة ماتوصل اليه المؤتمر التي تضمنّها البيان في مدخله فأجد رسالته الى الأمة واضحة .. « وقف المؤتمر بداية أمام مايعانيه كثيرون من أبناء الأمة في هذه المرحلة بفعل الأزمة والحرب من تمزق نفسي وتشوش فكري (يسبب خلطاً غير صحي في المفاهيم في ظل غياب النقاش الديموقراطي المطلوب على قاعدة من المسلمات القومية الثابتة التي مستها الأزمة في المصادرة الفردية للقرار السياسي وفي كسر بداهات الاستقلال القومي) واستشعر المؤتمر مسؤولية في الاسهام في تلبية الحاجة الملحة لحوار مسؤول يصل بالأمة الى الصفاء النفسي ووضوح الرؤية والعمل لتحقيق أهدافها واقامة مشروعها الحضاري . ويؤكد المؤتمر ان هذا الحوار المسؤول يقتضي القيام بمراجعة تعتمد فيها النظرة الشاملة للأزمة بأبعادها المحلية والعربية والدولية ، ويتم من خلالها التوصل الى الاحاطة بصورة ماحدث وفهم اسبابه وتحديد نتائجه واستخلاص عبره ونصب العين محاسبة النفس . ولايستطيع المؤتمر الا أن يكون متفائلاً بل واثقاً وهو يستحضر تاريخنا الطويل الحافل أن امتنا التي خبرت المواجهات مع اعدائها ووطنت نفسها على صراع النفس الطويل ستكون قادرة على الاستجابة الصحيحة لجميع التحديات التي تواجهها في هذه المرحلة » .

يبقى ان نتأمل فيما تضمنه البيان حول المراجعة والواقع وما العمل . وهذه لها حديث آخر .

أفكار من وحي المراجعة والنظر في الواقع

ماهي رؤية المؤتمر العربي الثاني الفكرية لحال أمتنا العربية اليوم ؟ وماهي الأفكار التي خرج بها من مراجعة ماحدث إبان الأزمة والحرب ، ومس النظر في الواقع القائم اليوم ، ومن محاولة الاجابة عن سؤال ما العمل ؟

نبدأ بحصيلة المراجعة التي أكد المشاركون على أن يكون نصب العين فيها محاسبة النفس ، وأن تتم من منطلق الانتماء للأمة ككل ، وأن تعتمد النظرة الشاملة للأزمة السابرة لأغوارها ، وأن تكون بنية « الأوب » أي « الرجوع الى الحق » كما قلت في حديثي للمؤتمر . فنجد الأفكار التالية نوردها بلغة البيان الموجه الى الأمة من المؤتمر .

● « إن أزمة الخليج التي بدت وكأنها محلية اثر اجتياح العراق للكويت يوم الثاني من أب / اغسطس ١٩٩٠ هي في جوهرها أزمة اقليمية وعالمية .. واذا كانت هذه الازمة في بعدها المحلي سلطت الأضواء على ملف « العلاقات العراقية الكويتية » ومايعتورها من خلل ، وفتحت على الصعيد الاقليمي ملف « العلاقات العربية الرسمية » وملف « الأوضاع العربية القطرية » ، فإنها على الصعيد الدولي سلطت الأضواء على انتقال العالم الى عهد الهيمنة الامريكية على النظام العالمي ، وفتحت ملف « عداء الغرب المستعمر للأمة العربية » وملف

« التحالف الصهيوني الغربي للتحكم في الوطن العربي » وملف « استنزاف الشمال الغني لثروات الجنوب » .

الأزمة إذن لها ثلاثة أبعاد محلي واقليمي وعالمي ، والنظرة الشاملة تحيط بها جميعاً وتلاحظ تبادل التأثير بينها . وهي تتأمل في الملفات التي فتحت جميعها .

● « توصل المؤتمر الى أن الولايات المتحدة الامريكية بخاصة والغرب بعامة استهدفوا تدمير قوة العراق العسكرية ونهب ثروات الخليج النفطية ، وقاموا بذلك عن سبق إصرار وترصد » . هذه حقيقة أولى وثيقة الصلة بحقيقة ثانية هي « كما توصل المؤتمر الى أن غياب الديموقراطية في الوطن العربي بعامة قد ساهم بقسط وافر في التمكين من بلوغ الولايات المتحدة الامريكية والصهيونية العالمية وبريطانيا وفرنسا أهدافها من هذه الحرب في الوطن العربي ، والى أنه ماكانت الحكومات العربية لتصل الى الحال التي وصلت اليها إبان الأزمة والحرب لولا ابتعادها عن الخط القومي واستراتيجية العمل العربي المشترك النابع من وحدة المصالح والمصير » . وهناك أيضاً حقيقة ثالثة لاحظها المؤتمر وهي « كيف عملت الولايات المتحدة الامريكية على تسخير الأمم المتحدة ، بعد أن تفردت بقيادتها إثر التحولات التي شهدها الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية ، لخدمة سياساتها وتحركت باسم « الشرعية الدولية » معتمدة معيارين في نظام دولي يفتقر الى العدل » . وقد انتهى المؤتمر من تمثله ذه الحقائق الى التأكيد على « ضرورة محاسبة كل الأطراف التي تسببت في أزمة وفيما انتهت اليه من نتائج .. والى أنه لامجال للتغاضي أو السكوت أمام أي واقع يحصر القرار السياسي بيد حكم مطلق . ولهذا يولي المؤتمر أهمية خاصة لتركيز فكرة المراجعة والمناقشة والمحاسبة في الحياة السياسية العربية ، سيما

حيال القرارات المصيرية التي تلقي بنتائجها على الأمة بأسرها ، وشاهدها الأخير في الخليج » .

لقد جاء توصل المؤتمر الى الحقيقة الأولى من خلال حوار غني اعتمد على دراسات كثيرة تمثلها المتحاورون . وأذكر أنني تتبعت في احدى الدراسات التي قمت بها قرار القمة الصناعية عام ١٩٨٨ بشأن القوى العسكرية في العالم الثالث وما كتبته الصحافة الامريكية والصحافة الاسرائيلية على مدى عامين عن القوة العسكرية في العراق وايران وسوريا ، فتجسد امامي معنى سبق الاصرار والترصد في المقاربة الامريكية للأزمة . كما اذكر بشأن الحقيقة الثانية كيف بلغ قلق أهل الرأي العرب مداه وهم يتابعون غياب الشورى في العراق والكويت بينما تتدهور العلاقات العراقية الكويتية ، وكم من مرة جرى الحديث في أوساطهم عن افتقاذ الحكمة في التعامل بسبب هذا الغياب .

● « كان من بين ما أولاه المؤتمر عناية في معرض بحثه عن أسباب الأزمة والحرب ، تتبع الجذور التاريخية لمشكلاتنا في المنطقة . وقد لاحظ المؤتمر أن أزمة الخليج في بعدها الدولي نبهت الذاكرة التاريخية لشعوب الدائرتين العربية والاسلامية . فاستحضرت هذه الذاكرة كيف قامت الدائرة الغربية بتقطيع أوصال هاتين الدائرتين وتجزئة أراضيهما وفرض الاستعمار عليهما تحت اسم الانتداب والوصاية وكيف اقرت عصبة الأمم عام ١٩٢٢ صك الانتداب البريطاني على فلسطين الذي تبنى جهراً النص على تنفيذ تصريح بلفور .. وانفراد الدائرة الغربية في اقامة نظام دولي عام ١٩٤٥ اغفلت فيه مصالح شعوب آسيا وافريقيا التي كانت تناضل ضد الاستعمار ، وكيف خاضت بريطانيا وفرنسا حرب السويس عام ١٩٥٦ بالتعاون مع القاعدة الصهيونية التي اقامها الغرب عام ١٩٤٨ لمجرد أن مصر استخدمت حقها في تأميم قناة

السويس . وكيف عملت الولايات المتحدة لتمكين « اسرائيل » من ضرب مصر وسوريا والأردن في عام ١٩٦٧ » .

لقد تردد الحديث عن هذه الجذور التاريخية مرات في مناقشات المؤتمر ، ولكنه بلغ ذروة حين تناولته الفنانة محسنة توفيق وطرحت رؤيتها للمشاعر الشعبية إبان الأزمة وكيفية تكون هذه المشاعر . وانتهى هذا الحديث بجمله الى اثبات ماكشفت عنه هذه الجذور من صلة وثيقة بين اقامة الغرب « وطناً قومياً لليهود في فلسطين » وما للوطن العربي من أهمية استراتيجية وسياسيه واقتصادية وحضارية ، وكذلك الصلة الوثيقة بين الحدود السياسية التي أقامها الغرب بين الأقطار العربية ومخططاته للتحكم في ثروة النفط التي تختزنها أراضي الوطن العربي الكبير .

● « ولقد توقف المؤتمر أمام جميع الانتهاكات التي حدثت لحقوق الانسان في هذه الأزمة والحرب . وأولها تلك التي اقترنت بالاجتياح العراقي للكويت وآخرها تلك التي يقوم بها التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة ضد شعب العراق كله باسم « الشرعية الدولية » .

والحق أن الحديث عن حقوق الانسان في المؤتمر كان أحد المحاور الرئيسية في عملية المراجعة ، تعبيراً عن اقتناع راسخ بأن كرامة الانسان الفرد ضمن المجموع يجب أن تصان وحقوقه يجب أن تحترم . وقد سجّل المؤتمرون ملاحظتهم « أن معاناة ابناء الأمة لما حل باخوتهم شعب الكويت ابان الازمة كانت بالغة في أنحاء الوطن العربي بما في ذلك العراق » . وكان المؤتمر قد عاش لحظة ممتدة وهو يستمع الى وصف أخ عراقي لمشاعر الأهل هناك وهم يتابعون هذه المعاناة بمرارة وحزن وأسى ويستذكرون مايقوم بينهم وبين اخوانهم في الكويت من وشائج الأخوة والجوار . « كما لاحظ المؤتمر معاناة الأمة ازاء ما

حل بأهلنا في العراق ابان الحرب وفي اعقابها » . وأنا اذكر كيف جاءتني تعليقات على مقال كتبته « عن الأهل في العراق » قدمتُ فيه تقرير مبعوث الأمم المتحدة اهتياري ، وكان كثير من هذه التعليقات من أهلنا في الخليج .

تطرق هذا الحديث عن حقوق الانسان الى الاجراءات التي اتخذتها بعض الحكومات العربية اثناء الازمة والحرب ولاتزال سارية « بحجة الأمن استهدفت الإضرار ببعض ابناء الأمة على اساس جنسياتهم للضغط على حكوماتهم . كما تطرق الحديث الى « دعايات إعلام الازمة » وماقامت به من « شن حملات دعائية » مست كل المقدسات في الروابط بين شعوب الأمة . « ولاحظ المؤتمر في الوقت نفسه انسياق البعض الى الوقوع في اسر هذه الدعايات والتصرف من وحيها » .

وتوقف المؤتمر أمام ماأصاب شعب فلسطين العربي من انتهاكات الاحتلال الصهيوني لحقوقه ابان الازمة والحرب ، جعلت معاناته تبلغ حداً لم يعرفه التاريخ من قبل حين « فرض عليه بأكمله حظر تجول مستمر طيلة أسابيع الحرب السبعة » . وهذا يعني فيما يعني تجويع الناس والحيوان والنبات . « وسجل المؤتمر باعتزاز استمرار الانتفاضة المباركة ابان الأزمة والحرب ودخولها عامها الرابع وسط ظروف بالغة الصعوبة » . كما سجل باعتزاز جميع صور التحرك الشعبي التي عبرت عن « روح الانتفاض » في الأمة في مختلف أرجاء الوطن العربي والعالم الاسلامي ابان الازمة والحرب » .

إن المتأمِل في هذه الأفكار يستطيع الخروج بعصارة المراجعة ، وإخاله كلما أمعن في تأمله كلما تعمق فهم ماحدث ولماذا حدث واستخلص عبره ، وأصبح قادراً على أن يحاسب نفسه ومؤهلاً لأن يقرأ الواقع القائم اليوم في وطنه

وعالمه قراءة صحيحة .

* * *

كان حديث الواقع القائم في مناقشات المؤتمر ذا شجون . وقد تميز في اجزاء منه بالتركيز على « الاستراتيجية » . ومازلت اذكر كيف أكد عدد من المتحدثين على ضرورة البدء بتحديد العدو ، واستحضار الصورة الدولية ، وملاحظة التداعيات والمضاعفات ، وتمثل ما جَدَّ على أرض الواقع من حقائق استراتيجية .

يلاحظ « بيان الى الأمة » بداية « أن مضاعفات الأزمة والحرب لاتزال تتالى » . وهو يقف أولاً أمام العدو الصهيوني الذي يتجه بفعل الازمة والحرب الى تصعيد عدوانيته ، فيتابع تهجير اليهود من أوطانهم وموطنهم في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧ على السواء ، ويمارس الارهاب الرسمي وغير الرسمي على الانتفاضة ، ويجاهر بأنتهاج سياسة توسع مستهدفاً فرض الأمر الواقع على كل الدول العربية ونصب عينيه المشاركة في نهب ثروة الخليج بخاصة مع دول الغرب وتفجير الأوضاع الداخلية هناك .

يقف البيان أيضاً « أمام تدخل أجنبي باسم الأمم المتحدة في شؤون العراق الداخلية ، وامام تفاعلات حادة في الكويت وممارسات تنتهك حقوق الانسان وتثير الاحن » . وقد عبر في ذلك عن مدى اهتمامه بالعراق والكويت اللذين تحملا النصيب الأعظم من اضرار الحرب .

ويقف البيان « أمام الولايات المتحدة وهي تفرض على الأمم المتحدة دوراً جديداً ، وقد برزت كقوة متفردة ، ووقعت تحت اغراء القيام بدور « قيادة العالم » واغواء « غطرسة القوة » بينما تحتدم في داخلها تفاعلات » . والجزء الأخير من الجملة بالغ الأهمية وهو يتضمن في طياته لفت الأنظار الى

التفاعلات الداخلية الجارية في الساحة الامريكية والتي ستشتد بفعل أعباء هذا الدور وتحكم إغواء غطرسة القوة . كما يقف البيان أمام تفاعلات حادة في عالمنا ككل تشهدها قواه « داخل كل منها وفيما بينها » ، وتململاً يعم هذه القوى « مِن سعي الولايات المتحدة إلى فرض نظام دولي جديد على هواها خادم لمصالحها » .

لقد لاحظ المؤتمر ضمن متابعته للتداعيات والمضاعفات الجارية المتتالية « دخول المنطقة شوطاً آخر في سباق التسلح خطط له صانعو السلاح في عالمنا وتجارُه. وذلك بعد أن قررت الولايات المتحدة تصدير ماقيمته ثمانية عشر مليار دولار للمنطقة . ومن الواضح أن سباق التسلح هذا سيستنزف مزيداً من ثرواتنا العربية بغير عائد قومي واضح » .

نبه المؤتمر في اطار رؤيته للواقع الراهن الى « ان الصهيونية العالمية تتحرك بدعم من الولايات المتحدة الامريكية بسرعة في هذه المرحلة لإبطال مانالته قضية فلسطين من اهتمام بفعل الانتفاضة بلغ ذروته ابان الازمة والحرب ، للعمل على الغاء قرار « الصهيونية العنصرية الأممي » لعام ١٩٧٥ ، ومحاولة تصفية منظمة التحرير الفلسطينية ، والغاء مقاطعة الدول العربية للكيان الصهيوني ، وإقحام أقطار الخليج العربي في مؤامرة تصفية القضية الفلسطينية » .

سجلّ المؤتمر ايضاً ماجدّ على أرض الواقع من حقائق استراتيجية بفعل تحولات أوروبا واحداث أزمة الخليج . « وفي مقدمة هذه الحقائق ماتأكد من ان قضية فلسطين هي جوهر الصراع في المنطقة ، وان روح الانتفاض في فلسطين والوطن العربي والعالم الاسلامي تزداد قوة » . و« أن دور القاعدة الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية في الاستراتيجية الامريكية تجاه النفط لم

يثبت جدواه ، وأن هذه القاعدة قابلة لأن تصاب في أعماقها ، وان تماسك كيانها الداخلي اذا ماتعرض للاختبار ضعيف وهناك ثغرات في بنيانه وفي علاقاته بموجديه قابلة للاتساع ، وان الدعم الامريكي له ولعدوانه المستمر يفقد المنظمة الدولية الثقة بها ويمثل عبئاً اخلاقياً على اعضائها » .

اعطى المؤتمر الوضع العسكري الأمني والوضع الاقتصادي أهمية خاصة في هذه الدورة . وجاء البيان متضمناً عصارة النظر فيهما . ويستحق هذا الجزء حديثاً خاصاً يشمل اجابة المؤتمر عن سؤال ما العمل ؟

الاجابة عن سؤال ما العمل ؟

كان طبيعياً أن يولي المؤتمر العربي الثاني عناية خاصة للميزان العسكري في المنطقة العربية وللوضع الاقتصادي العربي الراهن ، بحكم أن حرب الخليج تركت أثاراً كبيرة على الصعيدين العسكري والاقتصادي بخاصة . وكان على المؤتمر أن يقدمّ إجابته عن السؤال المطروح على الأمة بالحاح هذه الأيام « ما العمل ؟ »

لقد لاحظ المؤتمر بقلق شديد « ماحدث ويحدث من خلل في الميزان العسكري في المنطقة العربية بما يحقق ويضمن التفوق العسكري الاسرائيلي على القوى العربية » ، بفعل « تدمير القوة العسكرية العراقية وفرض قيود غير متوازنة على نمو القوى العسكرية العربية وتهديد الدول العربية التي تسعى لتنمية قوتها العسكرية » . وناقش المؤتمر مايجري طرحه دولياً بشأن الحد من التسلح في المنطقة، وتوصل الى أن أي نظام من هذا النوع « لابد وأن يكون جزءاً من نظام عالمي ، وأن يوفر توازناً يحقق الاستقرار ويكفل المطالب العادلة للأمة العربية » . كما رأى أن التعاون بين أقطار عربية لانشاء سوق مشتركة أو اتحادات جمركية يمكن أن يكون نقطة تحول في الميزان الاستراتيجي وخطوة نحو تحقيق متطلبات الأمن القومي الشامل . وراقب المؤتمر بقلق المحاولات الرامية لحرمان الأمة العربية من مجاراة التطور التقني للقوات المسلحة في العالم ، ورأى

أن التقدم التقني والصناعي بشقيه المدني والعسكري ضرورة لمواجهة المخاطر المقبلة ، وذكرّ بالاستفادة مما حققته الصناعة العسكرية العراقية وتحديث القوات العربية الأخرى .

الانطباع العام عن وضعنا الاقتصادي في السنوات الأخيرة أنه عانى من ضعف في الأداء التنموي ، تجلى في الانكشاف الغذائي وضعف بنية الصناعة التحويلية والتوسع في الاستدانة الخارجية . وهذا ما دعا المؤتمر الى أن ينبه الأمة في بيانه اليها ، الى أن ابناءها العرب يدخلون حقبة التسعينيات في ظل عالم يتشكل من حولهم » ، تنتهي فيه سيادة « الزمن النفطي » من حيث سيطرة الأقطار المنتجة للنفط الذي ساد خلال الخمسة عشر عاماً المنصرفة . ولعل أهم التحديات في هذه الحقبة هي « تفاقم مشكلة ندرة المياه في المشرق العربي » في ظل مطامع صهيونية واسرائيلية تسعى الى نهب مياه انهار الأردن والليطاني واليرموك . وقد عبرّ المؤتمر عن يقينه « أن ثلاثية (النفط والمياه والغذاء) تعتبر بمثابة الاضلاع الاساسية لمثلث الحياة العربية في التسعينيات ، في معركة البقاء والحياة المتجددة والانماء » . ولذا نجده يؤكد الدعوة الى القيام بمجهودات عربية مشتركة في هذه المجالات الثلاثة ويطالب « برصد حجم هائل من التمويل لمشروعات الأمن الغذائي العربي من تحويل لمسارات المياه ، وبناء السدود ، ومشروعات لتخزين المياه ونقلها » .

العمل الاقتصادي العربي المشترك مطلوب ايضاً بالحاح على صعيد اقامة علاقات عربية اقتصادية صحيحة مع الكتل الاقتصادية الكبرى في العالم وهي الجماعة الأوروبية والولايات المتحدة الامريكية وكندا « واليابان والباسفيك » و« الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية » . فمستقبل هذه العلاقات يتوقف على مدى درجة تبلور « قدرات للتفاوض الجماعي في مجال العلاقات الاقتصادية

الدولية » ، وكذا مدى القدرة على توظيف التناقضات القائمة بين الكتل الاقتصادية الكبرى لصالح « الجماعة العربية » إذ أن النظام الدولي الجديد على الصعيد الاقتصادي مازال في طور التشكيل ، وهناك تناقضات كبرى في المصالح بين الكتل الاقتصادية الكبرى يجب رصدها وفهمها والتعامل معها ايجابياً عن طريق التكيف السلبي والتبعي » . وأهم ما في هذا الحديث فضلاً عن كونه عصارة دراسات متعمقة ، أنه محكوم بمنطق الفعل مطبوع بطابع الثقة بالقدرة على الفعل القائمة على المعرفة الدقيقة .

ثلاثة تحديات حرص البيان الصادر عن المؤتمر على لفت انتباه الأمة اليها . فهناك تحدي الغرب الرأسمالي لبلادنا العربية على صعيد محاولته احتكار التقنية الحديثة وتوظيفها للسيطرة المدنية والعسكرية ، والاستجابة لهذا التحدي تكون بالعمل على فك هذا الحصار واعتبار ذلك مهمة قومية والبدء بتطوير أطر تعاون عربي جماعي وفتح قنوات جديدة للتعاون التقني بين بلدان الجنوب . والتحدي الثاني هو هذا الحصار الاقتصادي المضروب حتى الآن حول العراق تعسفاً وتعنتاً بعد قبوله بقرارات مجلس الأمن . وقد طالب المؤتمر « العمل العربي » أن يركز على فك الحصار ، « وأن يقع الضغط عربياً ودولياً للتخفيف من وطأة التعويضات الاقتصادية المفروضة على العراق ، ان لم يكن الغاؤها تماماً ، وحل هذا الموضوع في اطار عربي » . والتحدي الثالث تحدي اعادة الإعمار والإنماء في لبنان والكويت والعراق بخاصة . وقد طالب المؤتمر بانشاء « مؤسسة عربية » لهذا الغرض « على غرار البنك الأوروبي الجديد لاعادة بناء أوروبا الشرقية ، يمثل آلية مؤسسية لتقنين عمليات التدفقات المالية من بلدان الفائض العربية الى بلدان العجز العربية على أسس موضوعية ثابتة بعيداً عن حساسيات العلاقات الثنائية » . وحذر المؤتمر في ختام معالجته للأوضاع الاقتصادية العربية من أننا كأمة أمام مخطط عدواني « اذا سار كما

رسم له فإن الأمر لن ينتهي الى إحكام السيطرة على الامدادات النفطية العربية بأبخس الاثمان فقط ، بل الى رهن تلك الموارد لآجال طويلة قادمة ، تحت مسميات مختلفة . والنتيجة ستكون خسارة جماعية لكل العرب بما في ذلك شعبنا العربي في الخليج ، مهما كانت المكاسب الجزئية والمحدودة التي تبدو للبعض في الأجل القصير » .

إن هذا الحديث عن الوضعين العسكري والاقتصادي في وطننا العربي بالغ الأهمية ، ويستحق قراءة متأنية لاستيعابه ، كما يستحق تمثل مايطرحه من أفكار واقتراحات عملية لما ينبغي عمله على هذين الصعيدين . ولاشك في أن وروده في بيان فكري سياسي موجه الى الأمة يمثل نقطة تحول في الخطاب الفكري السياسي العربي على مدى قرن من الزمان ، بحيث يمكن التمييز بين ماقبل هذا البيان ومابعده في تناوله موضوعي الأمن العسكري والأمن الاقتصادي .

لقد مثّل بيان الى الأمة نقطة تحول أخرى في الخطاب الفكري السياسي العربي من حيث تركيزه على ماينبغي عمله . فالجزء الخاص في الاجابة عن سؤال ما العمل ، منه احتل أكثر من نصفه وتميز هذا الجزء بعمقه النظري وتحديداته العملية .

كان المؤتمر قد شهد في مناقشاته حواراً نظرياً حول العلاقة بين الوحدة والديموقراطية ، وحول أساليب تحقيق الوحدة ، وحول أولويات العمل . وأجمل البيان حصيلة ماتم التوصل اليه بشأن ذلك كله .

● الأولوية لكل مايتعلق بالانسان العربي ، والمؤتمر « ينطلق من أن هذا الانسان هو الغاية وهو المرتجي ، ولذلك فإن حريته تصبح بدورها غاية في حد

ذاتها ، كما أنها تصبح أيضاً وسيلة لتفجير الطاقات الخلاقة المبدعة لكل الشعوب العربية » . وهذا يعني « أن الديموقراطية تحتل الآن موقعاً أساسياً ضمن أولويات المشروع الحضاري العربي ، فلا ينبغي التضحية بها من أجل تحقيق قيمة أخرى » . وقد أبرزت خبرات النضال العربي « أن مثل هذه التضحية لم يؤد لا الى تحقيق هذه القيمة ولا تلك المصلحة . وحتى في بعض الحالات التي شهدت تحقيق انجازات مهمة فقد امكن تصفية الكثير منها فيما بعد » .

● لابد إذاً من تكثيف العمل لسيادة الشورى وتحقيق التحول الديموقراطي . والبدء في هذا العمل يكون « بالانسان العربي والاعتراف بحقوق وحرياته الأساسية وفي مقدمتها حقه في المعرفة وحقه في التعبير عن آرائه ومعتقداته بمختلف الوسائل وبوجوب رفع جميع اشكال الرقابة عليها وحقه في تشكيل الاحزاب والمنظمات والجمعيات وحقه في المشاركة السياسية الكاملة والفاعلة في اختيار من يتولون مقاليد السلطة .. ، ومن ثم حقه الأصيل في المحاسبة على الأداء وعلى النتائج » . وقد أوضح البيان أن هذه الحقوق تشمل الذكر والأنثى على السواء ، وانها لابد أن تتأسس على قاعدة من العدالة الاجتماعية والتنمية المستقلة ، وانها يجب ان تقوم على الانتاج . كما أوضح البيان أن ذلك مرهون بكفالة تداول السلطة وأنه يجنب الأمة دورات العنف والقوضى .

● إن هذا العمل العربي الذي ينطلق من أن الانسان هو الغاية ، ينطلق من « قيم الحضارة العربية الاسلامية » « التي ساهم في بنائها ابناء امتنا مسلمين ومسيحيين » . « ويقف ضد كل اشكال التعصب القومي » .

لعل من أهم ماسجله المؤتمر في بيانه الى الأمة على صعيد التنظير الفكري تأكيده « التلازم العضوي بين العروبة والاسلام » ورفضه « أي ادعاء بوجود

تناقض بينهما » . « فالاسلام هو المحتوى الثقافي والحضاري للعروبة . والعرب هم حملة رسالة الاسلام الى العالم قاطبة » . والنتيجة العملية الهامة التي تترتب على ذلك هي استشعار حيوية « العلاقات بين الوطن العربي ودول الجوار والتعاون فيما بينها لانتمائها جميعاً الى دائرة الحضارة العربية الاسلامية » . وقد اشار البيان وهو يسجل ذلك كله الى أن أزمة الخليج أكدته . والحق أن هذا المؤتمر حسم في مسألة العلاقة بدول الجوار على أن الأصل فيها هو التعاون لأنها ووطننا العربي تنتمي لدائرتنا الحضارية العربية الاسلامية . وكانت بعض الدراسات التي ظهرت في العقد الماضي تضع دول الجوار والكيان الصهيوني على قدم المساواة في الخطر الذي يهدد الوطن متأثرة احياناً بالحرب العراقية الايرانية وأحياناً أخرى بمعاهدة السلام المصرية الاسرائيلية . وكان التنبيه يصدر إثر التنبيه على كاتبيها . ان الفارق شاسع بين دول الجوار التي هي جزء من دائرتنا الحضارية وتربطنا بشعوبها اخوة الدين والانتماء للحضارة العربية لاسلامية وبين قاعدة استعمارية استيطانية أُقيمت في قلب وطننا العربي وعالمنا لاسلامي . كذلك فإن هذا المؤتمر أكد ماسجله في السنة الماضية بشأن احترام « تنوع الأقوام في الوطن العربي والاعتناء بثقافاتهم » حين وقف « ضد كل اشكال التعصب القومي » وتحدث عن العناية الخاصة التي أولاها لمسألة مايسمى بالأقليات في الوطن ، وهو مانسميه « الأقوام » ورأى أن هذه المسألة تحل في الاطار الديموقراطي واحترام حقوق الانسان وحماية الوحدة الوطنية ومقاومة النفوذ الاستعماري .

لقد أوضح البيان دعم المؤتمر لكل اشكال التقارب العربي العربي . واكد على ايجاد الحقائق الوحدوية على الأرض العربية ، وعلى تقنين مبدأ المواطنة العربية بخاصة ، وعلى أن التنمية المستقلة لايمكن تحقيقها في كل قطر عربي على انفراد وانما من خلال تنمية عربية مشتركة . وأولى البيان عناية خاصة

للجزيرة العربية بحكم التطورات الجارية في منطقة الخليج فسجل أن الجزيرة العربية هي نبع العروبة والاسلام معاً ، وانه اذا كانت منطقة الخليج تعرضت لمحنة قاسية ، فإن الأمم العظيمة تخلقها المحن العظيمة ، وان تنمية الخليج مرتبطة بهويته القومية ، وأن أمنه لن تحميه الا الترتيبات الأمنية العربية ، وأن هناك خطراً على التركيب السكاني والاجتماعي لمجتمعات الخليج في السنوات القادمة يجب أن نواجهه بسياسات فعّالة بعيدة النظر . وأولى البيان عناية خاصة للتعبير عن تعاطفه التام مع العراق والكويت في جهودهما لإعادة الإعمار .

كان متوقعاً أن يعطي البيان الانتفاضة الفلسطينية حقها من عنايته ، وكذلك التطورات الجارية في الكيان الصهيوني وعملية تهجير اليهود من أوطانهم الى فلسطين والتحركات الامريكية الاسرائيلية الأخيرة . ويستحق هذا الجزء قراءة متعمقة لتمثل ماتضمنه من عصارات . وقد عرض البيان للتطورات العربية في عدة انحاء من الوطن العربي من اليمن الى لبنان الى الصومال واريتريا .

حرص المؤتمر أخيراً على أن يتناول بالحديث النظام الدولي الجديد في بيانه الى الأمة . وقد عبّر عن ايمانه بوجوب قيام نظام عالمي جديد يقوم على العدل . فالعدل يصنع الأمن ، وبالأمن يسود السلام الدائم .

ان حديث المؤتمر العربي القومي الثاني ذو شجون . ومرة أخرى نقول ما أروع ان يتم الوصول من خلال الحوار المسؤول الى الصفاء الذي ينهي التمزق النفسي ، والى وضوح الرؤية الذي ينهي التشوش الفكري ، والى شحذ ارادة الفعل الذي ينهي الإحجام عن الفعل ، فيحدث الانطلاق الى العمل الصالح .

تضميد الجراح العربية

ثلاثة أمور مطلوبة

« العمل على تضميد الجراح العربية التي حدثت إبان الأزمة والحرب له أولوية ، ونحن اليوم في الشهر الخامس من مرحلة مابعد حرب الخليج . وهو يستحق منا أن نكثف جهودنا فيه بعد أن نُعمِل عقولنا وأذهاننا وآراءنا في كيفية علاج هذه الجراح » .

ألحت عليّ هذه الفكرة مرة أخرى بعد أن انغمست على مدى اسبوعين في لقاءات مكثفة على عدة صعد ، كان منها المشاركة في المؤتمر الثامن لمجمع بحوث الحضارة الاسلامية الذي بحث في مشاركة الشعوب في بناء هذه الحضارة والحوار مع زملاء من مختلف أنحاء عالمنا الاسلامي على هامش هذا المؤتمر . وكان منها لقاء أخوي فكري مع عدد من السفراء العرب في رحاب سفير عربي نذر نفسه لتضميد الجراح . وكان منها محاضرتان عامتان استمعت في كل منهما لحوالي العشرين تعقيباً وسؤالاً . وكان منها جلسات عمل على الصعيد الفلسطيني وأخرى على الصعيد العربي مع مخضرمين خبروا العمل العام سنوات طوالاً ، وجلسات اجتماعية ضمت أناساً من أجيال مختلفة ومهن واهتمامات شتى .

بدا لي وأنا أتأمل فيما خرجت به من هذه اللقاءات أن الجراح عميقة ،

وعلى الرغم من مضي أربعة شهور على انتهاء الازمة والحرب فإن بعضها مُتقِّرح وبحاجة الى عناية فائقة . وتذكرت أن موضوع كيفية معالجتها ألحّ على فكرنا العربي حال وقف العمليات القتالية يوم ١٩٩١/٢/٢٨ ، وانني على الصعيد الشخصي شاركت في عدة ندوات ولقاءات رفعت شعار « تضميد الجراح العربية » في اكثر من قطر عربي . وقد كان عليّ منذ البداية أن أجيب عن سؤال برز أمامي هو كيف نضمد هذه الجراح ؟

المنهج الذي اخترته بعد إعمال الفكر في هذا السؤال هو استلهام دلالة اللفظ باديء ذي بدء والتعرف على مسببات الجراح وأنواعها ومستوياتها ومصادرها ، ثم البحث في التضميد ومتطلباته .

● الجرح في لسان العرب يُصيب الجسم والنفس والمال . وجرحه أي أثر فيه بالسلاح في جسمه ، وجرحه بلسانه شتمه وأثر في نفسه ، وجرح له ماله أي قطع منه قطعه . وجرّح (بتشديد الراء) اكثر ذلك فيه كما في بيت الشعر الذي قاله الحطيئة « تلّوا قراه ، وهرته كلابهم / وجرّحوه بأنياب واضراس » . وجمع الجرح جراح وجروح وأجراح . والجراحة اسم الضربة والطعنة وجمعها جراحات وجراح وقد قال شوقي يوم نكبة دمشق « ولي مما رمتك به الليالي / جراحات لها في القلب عمق ». وقد أورد صاحب « لسان العرب » أن الجرح باللسان يقال له أيضاً المضح واستشهد بأبيات بكر بن زيد القشيري « لاتمضحنْ عرضي ، فإني ماضحُ / عِرضكَ ، ان شاتمتني وقادحُ / في ساق من شاتمني ، وجارحُ » والمضح للعرض الشتم والعيب . والاستجراح النقصان والعيب والفساد . والاجتراح الاكتساب . والجوارح أي اللواتي يكسبن لأهلهن . وجرح له ماله أي قطع منه قطعة . واضح مدى غنى مايمكن استلهامه من دلالة لفظ الجرح . وقد أغراني أن أراجع دلالة لفظ « القرح » فوجدته عض السلاح ونحوه مما يجرح الجسد

ومايخرج بالبدن . وهو الآثار والألم ، فالجراحات بأعيانها وكأن القرح ألمها . وفي حديث غزوة أحد « بعدما أصابهم القرح » أراد مانالهم من القتل والهزيمة يومئذ . والقريح هو الجريح من قوم قرحى وقراحى » . ووجدت ايضاً أن من اشتقاقات القرح « الاقتراح » وهو ارتجال الكلام وابتداع الشيء . وقريحة الانسان طبيعته التي جبل عليها . وقريحة الشباب أوله . واستوقفني وأنا أتأمل في دلالات اللفظتين أن مقلوب لفظ الجرح هو الحرج أي الاثم والضيق وأضيق الضيق . وأحرجه أي آثمة . والتحريج التضييق . والمتحرج الكاف عن الإثم . وحرج صدره ضاق فلم ينشرح لخير . ومقلوب لفظ القرح هو الحرق ومعناه واضح .

● وننظر في جراحنا العربية التي نريد تضميدها فنجد أن بعضها مادي في الجسم والمال يؤدي الى ألم معنوي . كما أن بعضها الآخر معنوي في النفس والفكر يؤدي الى ألم مادي . وقد تعددت اسباب هذه الجراح فمنها **أولاً** ماوقع بين دولتين جارتين عربيتين من خلافات تصاعدت الى حد قيام اكبرهما العراق باجتياح الكويت . ومنها **ثانيا** ما اقترن بهذا الاجتياح من انتهاكات لحقوق الانسان على صعد كثيرة . ومنها **ثالثاً** دعايات إعلام الأزمة التي حفلت بالشتم والقدح والمضح ، ولم تترك مقدساً من شيمنا وتقاليدنا الا مسته ومنها **رابعاً** اجراءات رسمية جرى اتخاذها في عدة اقطار عربية أصابت ملايين العرب باضرار . ومنها **خامساً** قتال اثناء الحرب الطاحنة التي استمرت ستة أسابيع وكلفت العراق والكويت خسائر فادحة . ومنها **سادساً** اقتتال بعد الحرب في العراق نجمت عنه آلام حادة ونتائج وخيمة وتفاعلت عدة ظروف في حدوثه . ومنها **سابعاً** تصفيات بعد الحرب في الكويت تتخذ عدة اشكال . ونجد أيضاً أن هذه الجراح وقعت على المستويين الرسمي والشعبي ، وأن بعضاً منها مصدره أجنبي والبعض الآخر مصدره الدائرتان العربية والاسلامية للأسف الشديد .

نبحث في تضميد هذه الجراح ، فنقف أولاً عند دلالة اللفظ لنستلهمها . فضمد الجرح شدّة بالضماد وهي العصابة . والتضميد يتطلب الصبر ، وقد قال طلحة « ضمد عينيه بالصبر » . والضمد (بسكون الميم) الظلم والحقد اللازق بالقلب ، وقد نهى عنه الخلق الحميد . ويقول النابغة « ومن عصاك فعاقبه معاقبة / تنهى الظلوم ، ولاتقعد على الضمد » .

واضح أن التضميد يتطلب تحركاً سريعاً لعصب الجراح . وعملية العصب هذه تتطلب من المجروح صبراً على ألم الشد وتمالك النفس . ولابد عند القيام بالتضميد من استحضار الخبرة التاريخية . وتعلمنا هذه الخبرة أن الجراح الناجمة من ظلم ذوي القربى تكون شديدة الوقع على النفس « وظلم ذوي القربى أشد مضاضة / على النفس من وقع الحسام المهند » ، وأن الجراح الناجمة من عدوان أجنبي تبقى غائرة في النفس وماأسرع ماتنكأ وقد اختتم عمر ابو ريشة قصيدته عروس المجد بقوله « ضلت الأمة إن أرخت على / جرح ماضيها كثيف الحجب » . كما تعلمنا هذه الخبرة التاريخية أيضاً أن مما يساعد على شفاء الجراح الخروج من وطأة التمزق النفسي ومن وطأة التشوش الفكري .

ثلاثة أمور يجب القيام بها في تحركنا لتضميد جراحنا العربية ، بدا لي أن الحوار الغني في الندوات واللقاءات بلورها . **أولها** على صعيد الإعلام وهو إيقاف دعايات إعلام الأزمة التي تفرق بين شعوب الأمة على اساس جنسياتهم ، وتنشر « الفاحشة » ، وتبث روح الشقاق ، وتوالي العدو الأجنبي ، وتؤدي الى الانهزام ، وتتصف بالاثارة المسببة للتوتر وبالمباشرة المؤدية للسطحية وبالانتقائية المحكومة بالنظرة الجزئية ، وبأنها تابعة تردد مايبثه مصدر خارجي . واستبدال هذا الإعلام الشرير باعلام « الكلمة الطيبة » التي مثلها كمثل شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي اكلها كل حين بإذن ربها ، وهو إعلام يستهدف البناء ، ويعبر عن روح

الانصاف ، ويحاول شرح الظروف المحيطة بمنطق التفسير لامنطق التبرير ، ويتطلع الى المستقبل ، ويواجه الخطر المحدق بالأمة كلها .

الأمر الثاني هو تحقيق تواصل واسع بين أهل الحل والعقد بخاصة وابناء الأمة بعامة من خلال اللقاء المباشر الذي يشهد احتدام الجدل والنقاش والحوار . فهذا اللقاء هو الذي سيخرج ماكمن في النفوس على السطح ويتيح للمشاركين فيه أن يروا الصورة من جميع جوانبها ويستكمل كل منهم معلوماته عن نفسه وعن أخيه ويصل الى نقاط لقاء يكون الانطلاق منها الى كتابة صفحة جديدة . ومن هنا تشتد الحاجة الى تكثيف اللقاءات العربية على مختلف الصعد في شتى المجالات رسمياً وشعبياً . وما أعظم خطأ اؤلئك الذين يخشون هذه اللقاءات تحسباً من حدوث تفجرات فيها . وقد رأيت بعيني من خلال عدة أمثلة كيف كانت تنتهي بالتوافق على أمور محددة .

الأمر الثالث هو اعادة النظر في الاجراءات الاستثنائية التي اتخذت حكوماتنا العربية على الصعيد القطري إبان الأزمة والحرب بشأن المواطنين العرب فيما يخص العمل والاقامة والتنقل ، لمتطلبات أمنية . وايقاف العمل بهذه الاجراءات صيانة للأمن وإنهاءً للخسائر المادية والمعنوية الباهظة التي حدثت بسببها .

هذه الأمور الثلاثة مطلوبة بالحاح من أجل تضميد الجراح العربية وهي تستحق منا متابعة في حديث آخر .

كيف السبيل ؟

أتابع الحديث عما ينبغي عمله لتضميد جراحنا العربية التي أحدثها زلزال الخليج ، فأتأمل في الأمور الثلاثة التي يجب أن نقوم بها على صعيد الإعلام وعلى صعيد التواصل بين أهل الحل والعقد وعلى صعيد الاجراءات الاستثنائية التي تم اتخاذها .

★ ★ ★

المطلوب على صعيد الإعلام ــ كما سبق أن أوضحنا ــ هو ايقاف دعايات إعلام الأزمة وتكثيف إعلام الكلمة الطيبة . والتأملُ في هذا الامر يبرز ثلاثة اسئلة تصل بنا الاجابات عنها الى هذا المطلوب .

مامدى الأثر السلبي لدعايات إعلام الأزمة علينا كأمة ؟

يستطيع المتابع أن يقطع بأنه « واسع وخطير » على الصعيدين الشعبي والرسمي . وقد تفكرت في هذا المدى اثناء زيارتي لعاصمة عربية مؤخراً وأصادف واقعتين متتاليتين لم تلبث أن تكررت مثيلات لهما . ففي زيارة لصديق دبلوماسي نذر حياته لخدمة أمته ووحدتها ، وجدته مهموماً بعد أن عاد من زيارة لسفير كان الغرض منها تضميد الجراح العربية فإذا بالسفير يخرج له ورقة فيها نسخة مصورة لمقال في جريدة وجده حين مرَّ بعينيه على سطوره حافلاً

بكلام غير مسؤول تناول بلد السفير وأهله وتاريخه وماضيه وحاضره ومستقبله . ومدّ لي صديقي الدبلوماسي الورقة فنظرت فيها ورأيت نموذجاً لما أسميه « دعايات إعلام الأزمة » بلغ في هبوطه درجة دنيا ودركا أسفلاً . وقرأت اسم الجريدة التي نشرت هذا المقال فوجدت اسماً لم اسمع بمن من قبل . وعرف صديقي ما أود أن أعلق به فأسرع بالقول « أنا أيضاً لم اسمع به الجريدة الا اليوم . ليست المشكلة هنا وانما في وقع هذا المقال على نفس السفير ، وماحمله من دلالات على الموقف الرسمي للبلد وقيادته ، الأمر الذي جعل الحديث عن تضميد الجراح بالغ الصعوبة » . وفي طريق عودتي من الزيارة ركبت سيارة أجرة وتبادلت مع سائقها حواراً فإذا بي أجد هذا السائق متأثراً من دعايات إعلام الأزمة يصدر احكاماً على هذا الشعب العربي وذاك تنعكس بشكل واضح على تعامله مع اخوته من ابناء هذه الشعوب العربية حين يلتقي بهم . وكم تأثرت وأنا أتابع دراسة هذا الأثر السلبي في عدد من الدول العربية حين بلغني أن المدى الواسع والخطير له وصل الى حد أن طلاباً في مدرسة ابتدائية في قطر عربي لم يقبلوا الاستماع الى دروس يلقيها مدرسون من قطر عربي آخر كان لحكومته موقف في الحرب مخالف لموقف حكومتهم .

لماذا يبلغ الأثر السلبي لدعايات الأزمة هذا المدى الواسع الخطير ؟

يتراءى للمتابع أن الحساسية في أوساطنا العربية على الصعيدين الرسمي والشعبي تجاه الكلمة حساسية مرتفعة سواء أكانت هذه الكلمة مسموعة أو مقروءة . وقد حدث أثناء مصادفتي الواقعتين أنني كنت اقرأ في اليوم نفسه في مجلة أجنبية واسعة الانتشار تقريراً عن الحملات الإعلامية المتبادلة بين صحف فرنسية وبريطانية بمناسبة نشر تصريحات لرئيسة الوزراء الفرنسية عن رجال بريطانيا . وكان مما لفت نظري أنه على الرغم من حدة هذه الحملات فإنها لم تؤثر على الثوابت السياسية في العلاقات الفرنسية البريطانية ، وبدا لي أن

حساسية القراء ازاءها كانت محدودة . والأمر نفسه حدث على المستوى الرسمي الياباني مؤخراً حين صدر عن رئيسة الوزراء الفرنسية تصريحاً وصفت فيه اليابانيين بأنهم نمل ومستّ فيه مشاعرهم ، ولم يتعد التصريح الياباني الذي تولى الرد اشارة من بعيد للموضوع . وشتان بين هذا الحد من الحساسية وحساسية ذلك السفير العربي الذي اعتبر تلك المقالة في تلك الجريدة وكأنها قاصمة للعلاقات . واذا نحن نظرنا في أسباب هذه الحساسية المرتفعة فإننا نقف أمام تراث عربي يحرص على تجنب جرح اللسان ، كما نقف أمام حداثة مفهوم الدولة عند عدد من الكيانات العربية الصغيرة .

كيف السبيل إذاً لايقاف إعلام الازمات وتكثيف إعلام الكلمة الطيبة !

يبدو للمتابع أن الحاجة ماسة في اقطارنا العربية الى توجيه على مستوى القيادات الفكرية والسياسية . والحاجة ماسة ايضاً الى محاسبة معنوية لأوّلئك الذين يمسُّون المقدسات القائمة بين ابناء الأمة الواحدة . والحق أننا نفتقد في كثير من أقطارنا الرؤية القيادية التي تحيط بابعاد هذا الأمر ، وتقدم نموذجاً لكيفية التعامل الصحيح مع دعايات إعلام الأزمة وإعلام الكلمة الطيبة . كما أننا نفتقد القيام بالمحاسبة المعنوية لأولئك الذين يسيئون للكلمة في كثير من الاحيان . وقد آن الأوان ان نقلل من حساسيتنا إزاء ما يقال ويكتب ونتشبث بالثوابت ونصب أعيننا أن الكلمة الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار .

* * *

المطلوب على صعيد التواصل بين أهل الحل والعقد هو تكثيف اللقاءات وانهاء القطيعة . والتأمل في هذا الأمر يبرز ثلاثة اسئلة تصل بنا الاجابات عنها الى المطلوب .

ما مدى الأثر السلبي للقطيعة القائمة بين أهل الحل والعقد في الدول العربية التي نشب الخلاف بينها ؟

يستطيع المتابع أن يقطع في اجابته بأنه « اثر سلبي واسع وخطير » . فالقطيعة تجعل التهاب الجراح مزمناً . وتبقي كل طرف أسير عالمه وافكاره ومعلوماته والصورة التي يحملها لأخيه . والمتأمل في الصور التي تتكون عبر القطيعة يرى كم هي بعيدة عن الواقع ألوانها داكنة وخطوطها حادة .

لماذا تستمر القطيعة بالنسبة لكثيرين ؟

يتراءى للمتابع أن مرارات الخلاف كانت شديدة ، وأن البعض يخشى من التواصل أن يثير هذه المرارات ، وأن دعايات إعلام الأزمة تفعل فعلها في تصوير عدم جدوى التواصل . واذكر كيف كان البعض يتحسب من فكرة عقد أي اجتماع لبعض مؤسساتنا العربية ابان الأزمة والحرب خشية ان يتفجر الاجتماع ، أو أن يتعرض المشاركون لما يسيئهم اذا سافروا هنا أو هناك .

كيف السبيل لتحقيق التواصل وإنهاء القطيعة ؟

يبدو للمتابع أن الحاجة هنا ايضاً ماسة للتوجيه القيادي . ولابد أن تبادر جميع المؤسسات العربية الى دعوة اعضائها من مختلف الأقطار ، وكذلك أن تبادر المؤسسات القُطرية للقاء بنظيرتها في مختلف المجالات . والحق أن ماتحقق في فترة مابعد الحرب من خلال التئام شمل بعض مؤسساتنا العربية كان عظيماً على صعيد إزالة ماعلق بالنفوس واستكمال الرؤية الشاملة . ومثل على ذلك ماحققه المؤتمر العربي الثاني وماحققه اجتماع مجلس أمناء المنظمة العربية لحقوق الانسان . وقد رأينا كيف انعقد مجلس الجامعة العربية بجميع أعضائه بعد الحرب وكذلك اجتماع وزراء الثقافة العرب واجتماع البرلمانات العربية على

مستوى رئاساتها فأثمر ذلك تحسناً في تطهير الجراح .

★ ★ ★

المطلوب على صعيد الاجراءات الاستثنائية هو إعادة النظر فيها ومن ثم ايقاف العمل بها صيانة للأمن ووقفاً للخسائر المادية والمعنوية الباهظة التي تنجم عنها .

لقد رأينا من هذه الاجراءات الاستثنائية على مدى عام بطوله العجب العجاب . وما اكثر ما يلّح على المتابع وهو يستذكرها بأنواعها المختلفة واشكالها سؤال لماذا ؟ لماذا اتخذت تلك الاجراءات التي تنتهك حقوق الانسان في الكويت لأهلها والمقيمين فيها بأبشع صورة إثر اجتياح العراق لها ؟ لماذا اتخذت تلك الاجراءات التي تنتهك حقوق الانسان في عدد من الدول العربية ، الأمر الذي أدى في الحالين الى تشريد خمسة ملايين من الناس ؟

لاتزال بعض هذه الاجراءات الاستثنائية مستمرة بعد خمسة شهور من انتهاء الازمة والحرب تفعل فعلها في تخريب الجهود لتضميد الجراح العربية . وقد وصل الأمر الى ماسمي بحرب المطارات التي تستهدف أبناء الأمة للتعبير عن الاستياء من مواقف حكومية ولتصفية حسابات . ويلاحظ المتابع أثر هذه الاجراءات الاستثنائية على تردي الأوضاع الاقتصادية في الدول التي غالت في اتخاذها ، وذلك بسبب توقف السياحة العربية فيها . كما يلاحظ ماتهيجه من مشاعر عدائية تعرقل شفاء الجراح .

لعل أخطر ماينجم عن هذه الاجراءات الاستثنائية التي اتخذت بحجة متطلبات الأمن ، هو مرض فقدان المناعة الأمنية وسيادة مناخ أمني ثقيل الوطأة على المواطن والمكلف بحماية الأمن على السواء . وقد كشفت الحادثة الأليمة التي وقعت في إحدى العواصم العربية حين اطلق حارس أمن النار على عاملين في

ساعة الظهيرة ــ لأنهما لم يقفا بدراجتهما ــ عن مدى التوتر الذي يحدث في هذا المناخ الأمني .

ان اعادة النظر في الاجراءات الاستثنائية تتطلب رؤية قيادية تمتد ببصيرتها الى الآفاق الرحبة وتنفذ ببصرها الى جوهر الأمور ، ولاتقع أسيرة «المكتبية الأمنية». وهي تتطلب ايضاً جمع المسؤولين الأمنيين في ندوة فكرية غير رسمية مع عدد من المفكرين للبحث في جوهر الأمن والنظر في جدوى الاجراءات الاستثنائية . واذكر انني قدمت هذا الاقتراح لمؤسسة عربية اهلية طوعية لعلها تعمل على تنفيذه .

واضح أن منطقتنا تشهد هذه الأيام تحركاً سياسياً يحرك سطح البركة الهادىء ويتطلب منا جهوداً كبيرة لدفع مايمكن أن يقترن به من مخاطر وجلب مايمكن أن يثمره من منافع . وهذا يقتضي تكثيف الجهد لتضميد الجراح العربية التي حدثت ابان الازمة والحرب ، لنكون قادرين على ان نحشد كل أوراقنا العربية بعد حصرها كي نوظفها لصالح أمتنا وقضيتها الأولى فلسطين وقدسها .

في ذكرى عام على نشوب الازمة

تحليل إعلام الرأي

اكتب هذا الحديث في الأسبوع الأخير من شهر تموز / يوليو ١٩٩١ ، وقد أوشك أن يمضي حول كامل على يوم الثاني من آب / أغسطس ١٩٩٠ الذي شهد اجتياح العراق للكويت وبدء ما اصطلح على تسميته « أزمة الخليج » .

يُلح علي أن أتأمل في « إعلام عصرنا » الذي نعيش فيه « ثورة اتصال » لم تعرف البشرية لها مثيلاً من قبل . وذلك بعد أن استذكرت أحداث عام بطوله وأنا أراجع ما كتبتُ فيه توطئة لإصدار كتابي عن « الانتفاضة وزلزال الخليج » .

أجد نفسي أمام سؤال برز من خلال هذا التأمل هو « هل كان باستطاعة من تابع الاعلام الغربي قبل نشوب الازمة أن يتوقعها فيعمل على الدعوة لتجنب حدوثها ، أو لتهيئة نفسه لمتطلباتها ؟ »

هذا السؤال وثيق الصلة بعملية التقويم التي سيجد مؤرخ زلزال الخليج نفسه مدعواً للقيام بها وهو يتعرف على اتجاهات الأحداث التي أوصلت الى نشوب الأزمة ، من أجل أن يصدر أحكامه على كل تصرف .

لقد خطر على بالي في محاولة الاجابة عن السؤال أن اختار نموذجاً معيناً من الاعلام الغربي ، واتتبع تناوله لأمور الخليج على مدى فترة معينة ، لأرى ماهي الرسالة التي بعث بها لجميع الأطراف المعنية بهذه الأمور . وقد اخترت أن يكون هذا النموذج متضمناً مايكتب في كبريات الصحف الاميركية « نيويورك تايمز » و« واشنطن بوست » و« ول ستريت جورنال » و« كريستيان سانيس مونوتور » . وحددت الفترة بين صيف عام ١٩٨٨ وصيف عام ١٩٩٠ ، آخذاً بعين الاعتبار حدث انتهاء الحرب العراقية الايرانية الذي يصلح اتخاذه بداية مرحلة جديدة . وتذكرت انني قرأت منذ اعوام كثيرة ، ربما في بداية السبعينات ، حصيلة دراسة صدرت في الولايات المتحدة عن نسبة مايذيعه الاعلام الامريكي مما يمكن اعتباره اسرار السياسة الامريكية والعسكرية الامريكية . وقد أوضحت هذه الحصيلة أن النسبة عالية تصل الى حوالي ٧٠٪ . وتذكرتُ أنني اختبرت هذه الدراسة عملياً في متابعتي للسياسة الامريكية تجاه قضية فلسطين وماتقوم به من تحركات سياسية فوجدت أنني كنت استطيع معرفة الكثير مما كان معتبراً من الاسرار التي يتداولها افراد الدائرة الضيقة الأولى من المشتغلين ، ومثل واحد يقفز الى خاطري هو مبادرة وزير الخارجية الامريكي بيكر المعروفة بالنقاط الخمس في صيف عام ١٩٨٩ وماسبقها من اتصالات لصياغتها . واستقر رأيي بعد تفكر على أن اختار من أمور الخليج لِلمتابعة في هذه الفترة المعينة النفط والقوة العسكرية والتعبئة الاعلامية والكيان الصهيوني .

* * *

أخذ النفط قسطاً وافراً من الاهتمام في مقالات الرأي في هذه الصحف . وتحدثت مقالات كثيرة عن اسعاره العالمية وثروات « البترو دولار » « الشرق الأوسطية » والسياسات النفطية لبعض دول المنطقة وكيفية تأمين

تدفق النفط الى الولايات المتحدة . وقد جاء في نيويورك تايمز يوم ١٩٨٨/١٢/٤ « ان الولايات المتحدة اعلنت منذ عهد الرئيس جيمي كارتر في عام ١٩٧٩ عن الحاجة الى تقوية الوجود الجوي الامريكي حول منابع النفط في الخليج العربي . وهو اعلان تجدد في عهد الرئيس ريجان . وقد أعطت الحرب العراقية الايرانية فرصة لزيادة القوة البحرية الامريكية في الخليج للتصدي لأية محاولات سوفيتية أو ايرانية للمساس بالمصالح الامريكية هناك » . وتردد الحديث في مقالات الرأي هذه مرات عن نفط العراق ، ومن امثلته ماجاء في واشنطن بوست يوم ١٩٨٩/٥/٧ من أن « المصادر الامريكية تشير الى امتلاك العراق اكبر احتياطي نفطي في المنطقة يفوق مالدى السعودية » . وركزت هذه المقالات على أن هذه الثروة النفطية تمكن العراق من أن يمتلك « قوة اكبر من ان تكون اقليمية » على حد تعبير وول ستريت جورنال في ١٩٩٠/٥/٢٤ .

كان موضوع القوة العسكرية لدول المنطقة محل اهتمام مقالات الرأي في الصحافة الامريكية بين عامي ٨٨ و٩٠ . وقد تحدث مقال في نيويورك تايمز يوم ٨٨/١٢/٢٧ عن « تزايد المخاوف الامريكية من انتشار الصواريخ الباليستية في الشرق الأوسط ، ومن مشاريع لتطوير هذه الصواريخ تقوم بها مصر والعراق وسوريا واسرائيل والعربية السعودية » . وأوضح المقال أن الحاجة ماسة لوضع اجراءات لمنع انتشار هذه الصواريخ ، والحيلولة دون امكانية قيام أحد الأطراف بتوجيه ضربة أولى ، خاصة وأن هذه الصواريخ قادرة على حمل رؤوس كيمياوية أو نووية ». ويلفت النظر أن التركيز أصبح على القوة العسكرية العراقية في هذه المقالات على مدى عام ١٩٨٩ . وقد كرر حديثها القول إن تغيراً استراتيجياً خطيراً يحدث في المنطقة . ومثل على ذلك ماجاء في واشنطن بوست يوم ١٩٨٩/٣/٢١ من أن « محللاً عسكرياً امريكياً يرى أنه لم يعد من

السهل على اسرائيل توجيه ضربة للمنشآت النووية العراقية كتلك التي حدثت عام ١٩٨١ ، وذلك بسبب تطوير العراق قدرات صاروخية يمكنها الوصول لاسرائيل وتوجيه ضربة مضادة ، وبسبب حرص العراق على اخفاء منشآته . وتؤكد مصادر البنتاجون أن الرسميين العراقيين يشيرون بالفعل الى امكانية الرد على اسرائيل في حال اقدامها على مهاجمة منشآتهم . وهذا تطور خطير في الأوضاع الاستراتيجية بمنطقة الشرق الأوسط والصراع العربي الاسرائيلي . ويعتقد الاسرائيليون أنه ستمضي خمس سنوات قبل أن تكتمل قدرة العراق على تجهيز رؤوس نووية » . وقد تحدث هذا المقال عن ان لدى العراق برنامجين احدهما لتطوير القدرات الكيماوية اكتمل تنفيذه بالفعل وآخر لتطوير القدرات النووية . وتتالت مقالات واشنطن بوست حول هذا الموضوع خلال ربيع عام ١٩٨٩ ، ومنها ذلك الذي بعث به مراسلها في القدس ونشرته يوم ٨٩/٣/٣١ ، وذلك الذي تحدث يوم ٨٩/٥/٧ عن « العراق قوة عربية جديدة » موضحاً أنه « يأتي بعد اسرائيل ، ولديه ١,٦ مليون جندي مدرب ومجرب ، وقد ابرم عقوداً لتطوير قدراته بثمانية بلايين دولار يوفرها احتياطي النفط الذي لديه ، واذا كانت ديونه بلغت ٦٥ بليون دولار لدول عربية والاتحاد السوفيتي فإن هذه الدول العربية لن تطالبه بها بسبب عرفانها لوقوفه في وجه التهديد الايراني » .

تكشف مقالات الرأي في الصحافة الامريكية في ربيع ١٩٨٩ عن وجود حيرة بين رأيين انعكست على الادارة الامريكية . « فالرسميون الامريكيون » ــ كما قالت واشنطن بوست يوم ٨٩/٥/٧ ــ « لايدرون مايفعلون .. هل يرحبون بالقوة العراقية المتنامية أم يخشون من نتائجها » . ولكن ما أسرع مايظهر تغلب الرأي الذي يخشى من نتائج هذه القوة . وقد حفلت المقالات بترديد اسانيده . « فالعراق القوي عدو كبير لاسرائيل » ..

« والعلاقات الامريكية العراقية لم تستأنف منذ عام ١٩٦٧ الا في عام ١٩٨٥ » .. وقد « ضرب العراق إحدى السفن الامريكية وقتل ٣٧ بحارا » .. « والعداء الاعلامي للولايات المتحدة يتزايد في العراق بعد الاستنكار الامريكي لضرب الاكراد ، وهو عداء قديم ويظهر في تعامل رجال مطار بغداد مع الامريكيين » .. ولم تخل المقالات من طرح اسانيد الرأي الآخر « فعراق اليوم يبدو أقل ايدلوجية واكثر براجماتية . ويتجلى هذا بوضوح في مساندته للتحرك الذي تقوم به قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وفي تقويته الروابط مع الغرب » .. « والعراق بملايينه السبعة عشر هو ثاني دولة عربية شرقية في عدد السكان ولديه قطاع زراعي وآخر صناعي متقدم . ولايصح أن تتجاهل الولايات المتحدة دوره وتعتبره « كمنبوذ سياسي » .. « ويمكن أن يكون العراق ذا أهمية سياسية في حماية المصالح الامريكية في المنطقة وفي اعالي البحار مستقبلاً . وهاهي ادارة بوش تطور علاقاتها بالصين التي عليها تحفظات كثيرة » .

لقد شهد النصف الثاني من عام ١٩٨٩ ارتفاع صوت الرأي الذي يحذر من تزايد قوة العراق العسكرية في الاعلام الامريكي . وقام عدد من الكتاب الصحفيين الامريكيين اليهود بدور خاص في التعبئة الاعلامية المعادية وشنوا حملات دعائية اشتدت مع ردود الفعل التي صدرت عن العراق أوائل عام ١٩٩٠ . وبرزت في هذه الحملات مقولة الخطر الذي يتعرض له الكيان الصهيوني . والأمثلة على ذلك كله كثيرة يضيق عن ايرادها هذا المقام .

إن مما يلفت النظر في هذه المتابعة لاعلام الرأي الامريكي بشأن أمور الخليج أنه ما أن حلّ ربيع عام ١٩٩٠ حتى باشر هذا الاعلام طرح الخيارات الامريكية . وقد أوردت جريدة « كريستان سينس مونوتر » يوم

١٩٩٠/٤/٢٤ « أن لدى الولايات المتحدة الخيارات التالية : اعادة العفريت الى داخل القنينة بواسطة الدبلوماسية الخاصة والعامة ولمنعه من القيام بهجوم مفاجىء بأسلحته الفتاكة . أو التنسيق مع موسكو لعزل العراق اقتصادياً ، وهو خيار قد يفشل بسبب جبن كثير من حلفاء واشنطن ، أو القيام بعمل عسكري محدود ضد اسلحة العراق ، وهو خيار صعب بسبب امكانية القبض على الكوماندوز وتعذيبهم أو قتلهم وردود الفعل الداخلية السلبية التي قد تحدث في الولايات المتحدة . أو القيام بحركة عسكرية مفتوحة تستخدم فيها أسلحة شتى بما في ذلك صواريخ كروز لضرب أماكن الأسلحة العراقية . وهذا خيار سيقلل من الخسائر المادية لكنه مصحوب بمخاطرة سياسية بالنسبة للولايات المتحدة حيث أنه قد يضعف مصداقيتها في المنطقة كصانع سلام . أو أن تدع امريكا اسرائيل لتقوم بالعمل القذر » .

★ ★ ★

هل يصل بنا هذا الحديث الى أن نجيب بالايجاب عن السؤال الذي برز أمامنا في أوله ، ونقول « نعم كان باستطاعة من تابع الاعلام الامريكي قبل نشوب الازمة أن يتوقع ماسيحدث اذا نشبت » . وهنا يبرز سؤال آخر « لماذا إذن لم تتنبه بعض الأطراف الى ماكان سيحدث ؟ » والجواب الذي يتراءى لنا هو « لوجود نقص في المتابعة **أولاً** يمكن تلافيه بانشاء مزيد من مراكز البحث في وطننا ، ولوجود نقص حاد في التشاور **ثانياً** لايمكن تلافيه الا باعتماد الشورى التي تستطيع وحدها أن تحلل المعلومات التي توفرها المتابعة وتستخرج منها ماهو حسن » .

قراءة القرارات الأممية
بشأن « أزمة الخليج » والتدخل

مدخل :

أدى الاجتياح العراقي للكويت فجر يوم الخميس ١٩٩٠/٨/٢ إلى إعلان الأمم المتحدة عزمها على ممارسة « مبدأ التدخل » وتطبيق مواد الفصل السابع من ميثاقها . وأصدرت المنظمة الأممية عدداً من القرارات التى مهدت الطريق لقيام تحالف دولي بقيادة دولة عظمى هي الولايات المتحدة الأمريكية خاض حرباً ضد العراق وفرض عليه الخروج من الكويت بالقوة العسكرية وأخضعه لوضع جديد رسمت خطوطه قرارات أصدرتها الأمم المتحدة . وكان عالمنا المعاصر قد شهد قبل ذلك تعرض دول فيه لتدخلات دول أخرى بحجج مختلفة وتحت رايات منظمات إقليمية أو باسم الأمم المتحدة والشرعية الدولية .

أسئلة كثيرة حول الأمن الجماعي في عالمنا مطروحة علينا اليوم بفعل هذه التدخلات بعامة وما حدث في زلزال الخليج بخاصة أثناء الأزمة والحرب ، وفي أعقابهما . وبروز هذه الأسئلة يشير إلى قلق موجود من أساليب التعامل مع الأزمات بمنطق الحرب ، كما يشير الى وجود رغبة في استخلاص عبرة ماحدث .

إن السؤال الذي طرحه علينا راعي أكاديميتنا الملك الحسن الثاني ليكون

موضوع هذه الندوة يحمل في طياته رغبة أصيلة في استخلاص العبرة وقلقاً مشروعاً من احتمال حدوث شطط في تطبيق مبدأ التدخل يمكن أن يؤدى إلى إعطاء شرعية جديدة للاستعمار ، وهو يدعونا إلى وقفة تأمل ومراجعة . وسنحاول في هذه الورقة القيام بذلك من خلال قراءة القرارات الأممية التي صدرت بشأن الاجتياح العراقي للكويت ، نمهد لها بالنظر في مفاهيم عن التدخل والشرعية والاستعمار ، ونراجع من خلالها ما حدث ونقوّمه وصولاً إلى رؤية بشأن مستقبل الأمن الجماعي في عالمنا .

□

مفاهيم : تحدّث ميثاق الأمم المتحدة عن « مبدأ التدخل » في شؤون الدول الداخلية ، ولم يستخدم مصطلح « حق التدخل » وكاستثناء يبرز « **مبدأ التدخل** » استنادا الى قواعد القانون الدولي العام حسب تطوره المعاصر ، **في حالات لم تعد تعتبر من المسائل الداخلية البحتة** . وهذه الحالات هي **الالتزام بحل المنازعات الدولية بطرق سلمية ، والقيود الخاصة باستعمال القوة بين الدول ، والمحافظة على الأمن والسلام الدوليين ، وإدارة المستعمرات والأخذ بشعوبها الى الاستقلال ، والأمور الخاصة بنظام الوصاية الدولي ، والتزامات الدول في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وما يتفرع عنها من حماية حقوق الانسان وفقاً لمضمون المادتين ٥٥ و ٥٦ من ميثاق الأمم المتحدة .**

وقد تضمن هذا الميثاق في فصله السابع اثنتي عشرة مادة « فيما يتخذ من الأعمال في حالات تهديد السلم والإخلال به ووقوع العدوان » ، وأوضح في الفصل الأول الخاص بمقاصد هيئة الأمم ومبادئها في الفقرة السابعة من المادة الثانية أن تطبيق تدابير القمع الواردة في الفصل السابع لا يخل بها مبدأ عدم

التدخل في الشؤون الداخلية للدول « فليس في هذا الميثاق ما يسوغ للأمم المتحدة أن تتدخل في الشؤون التي تكون من صميم السلطات الداخلية لدولة ما ، وليس فيه ما يقتضي الأعضاء أن يعرضوا مثل هذه المسائل لأن تحل بحكم هذا الميثاق ، على أن هذا المبدأ لا يخل بتطبيق تدابير القمع الواردة في الفصل السابع » . ولعل القاعدة العامة التي تستخلص من فتاوى محكمة العدل الدولية وقضائها **أن الأمر لا يعد من قبيل الإختصاص الداخلي المطلق إلا إذا كانت يد الدولة بصدده حُرة من كل قيد مصدره العرف أو الاتفاق الدولي** . كما يلاحظ أن الجمعية العامة للأمم المتحدة كثيراً ما استندت الى المادتين الخامسة والخمسين والسادسة والخمسين في الفصل التاسع من الميثاق الخاص « بالتعاون الدولي الاقتصادي والاجتماعي » لإقرار حقها في مناقشة المشاكل المتعلقة بحقوق الإنسان في المناطق والأقاليم التي كانت تحت السيطرة الاستعمارية ، كما أسست عليها حقها في الاعتراف باختصاصها في النظر في كثير من مشاكل تصفية الإستعمار .

إن إضفاء صفة « الشرعية » على ممارسة « مبدأ التدخل » هو في عالمنا المعاصر من اختصاص هيئة الأمم المتحدة . فالشرعية هنا هي « شرعية دولية » . وقد بلور القانون الدولي هذا الأمر عبر مسار شهد أشكالاً من التدخل مارسته دول قوية في العصر الحديث أعطت لنفسها حق إسباغ الشرعية عليه . ويمكن التمييز بين عدة مراحل في هذا المسار آخرها مرحلتا عصبة الأمم (١٩٢٠-١٩٣٩) والأمم المتحدة (منذ عام ١٩٤٥) اللتان اكتست فيهما « الشرعية » رداءً دولياً وإن تحكمت في تحديدها الدول الكبرى . وقد برزت في مرحلة عصبة الأمم صورة « **الانتداب** » لتضفي شرعية على « الاستعمار » القائم ، كما برزت صورة « **الوصاية** » للهدف نفسه في مرحلة الأمم المتحدة ، مع الالتزام في كلتى الحالتين بأن يكون

« الاستقلال » مصير هذه الأقاليم التي عانت من « الاستعمار » ووضعت تحت « الانتداب » و « الوصاية » .

لقد برز مصطلح « الاستعمار » في تاريخ العالم الحديث ليدل على حركة توسع وتسلط قامت بها دول قوية للسيطرة على أقاليم أخرى بعد أن أعطت نفسها « حق التدخل » . وتجلى الاستعمار كظاهرة في عصر الكشوفات الجغرافية الأوروبية والخروج الأوروبي الى القارات الأخرى . ولم يلبث أن استوى على سوقه في القرن التاسع عشر الميلادي الذي شهد ذروة السيطرة الأوروبية على العالم . **ثم بدا أن صورته التقليدية الى زوال منذ منتصف القرن العشرين بفعل تفجر ثورة التحرير في عالمنا وتدفق موجاتها ، وأنه يحاول إتخاذ صورة جديدة** . وقد تعددت التعريفات المقترحة لمصطلح الاستعمار واختلفت بحسب زوايا النظر الى الظاهرة وتبعاً للأهواء . وقد اقتُرح تعريف لهذا المصطلح بأن « الاستعمار هو العمل ، أو مجموعة الأعمال ، التي من شأنها السيطرة أو بسط النفوذ ، بواسطة دولة ، أو جماعة منظمة من الناس ؛ على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم ، أو على سكان تلك الأرض ؛ أو على الأرض والسكان في آن واحد » . والغالب أن هذه الأعمال المشار اليها تلجأ إلى القوة الحربية تلويحاً أو استخداماً لفرض السيطرة وبسط النفوذ . ويرى د . محمد عوض محمد في كتابه « الاستعمار والمذاهب الاستعمارية » أن المشروعات الاقتصادية والثقافية لا تدخل في هذه الأعمال « وليست من الاستعمار في شيء ، مالم تكن سبباً أو نتيجة لنفوذ سياسي . **فالتدخل في شؤون القطر والتسلط على حكومته هو العمل الاستعماري** » . **ويجري التفريق بين ظاهرة الاستعمار والذرائع التي يتذرع بها للقيام بعمل استعماري** . وقد دأبت دول الاستعمار على إيجاد هذه الذرائع والمجاهرة بها وبالأسباب التي دعتها « لتستعمر » . ولم يتردد غلاة الاستعماريين إبان

انتشائهم بما حققوه من مكاسب في القرن الماضي ، في أن يجاهروا بأن دافعهم هو الاستجابة لشهوة السيطرة ومجد الدولة . ورأينا بعضهم يتحول الى الحديث عن « رسالة عالمية مقدسة » يقوم بها « لتمدين شعوب أخرى وتحضيرها » منطلقاً من استعلاء واستكبار تغذيهما فكرة خاطئة عن « وحدانية الحضارة الغربية » ، وساقطاً بها في مهاوي عنصرية « الجنس الأبيض » . كما رأينا منهم من يتحدث عن توجهه إلى التوسع في أراضي الشعوب الأخرى لأن وطنه ضاق عليه ، ومن يتحدث عن أن متطلبات أمنه وحاجاته الدفاعية تقتضي منه استعمار أراضٍ بعينها ، ومن يتحدث عن ضرورة قيامه بالاستعمار حفاظاً على مصالحه الاقتصادية . ويلفت النظر الى ان تغيراً مستمراً طرأ على لغة التعبير عن دوافع التدخل عند هؤلاء ، مع احتدام نضال الشعوب للتحرر واضمحلال صورة الاستعمار التقليدية وبروز مااصطلح على تسميته « بالاستعمار الجديد » فأصبحت هذه اللغة تحرص على تبرير التدخل بالدفاع عن أهداف انسانية نبيلة مشتركة مثل « المحافظة على الأمن والسلم العالميين ومواجهة انتهاكات حقوق الإنسان وتحطيم أسلحة الدمار الشامل !! » . وبالمقابل بحثت الشعوب المستهدفة بتدخل القوى العظمى والكبرى عن مصطلحات أكثر دقة من مصطلح « الاستعمار الجديد » . وهكذا رأينا مَنْ يستخدم مصطلحات « الهيمنة » والقوى المهيمِنة وقوى الهيمَنة (بفتح الميم) ورأينا مَنْ يستخدم مصطلح « الطاغوت » للدلالة على القوة العظمى التي تتدخل بغير حق ومصطلح « الطغيان » للدلالة على ما تقو به من تجاوز الحد .

واضح أن هذا النوع من التدخل الذي تقوم به هذه القوى توسعاً وتسلطاً وقهراً وهيمنة هو « طغيان » حسب المصطلح القرآني ، وهو أيضا « بغي بغير حق » . والطغيان في اللسان العربي « مجاوزة القدر وتجاوز

الحد » . وأصل البغي « مجاوزة الحد » ، فإذا كان بغير حق فهو مذموم لأنه يظلمُ ويُفسد ويدعو صاحبه الى التكبر . وأحد رموز البغي بغير حق والطغيان هو قارون ، وكان من قوم موسى فبغى عليهم .

□□□

مراجعة ممارسة التدخل وفق القرارات الأممية في أزمة الخليج :

استثار **اجتياح العراق للكويت ، وإعلانه ضمها اليه رداً سريعاً من مجلس الأمن الدولي** وصفه أمين عام الأمم المتحدة بأنه « **تاريخي** » وقال « إن المجلس في سلسلة غير مسبوقة من القرارات قد أثبت أن مثل تلك الأعمال التي تتناقض بشكل مباشر مع مبادىء الميثاق والقانون الدولي ، لا يمكن أن ترتكب بمنأى عن العقاب .. وإنه على الرغم من أن الفصل السابع من الميثاق ، الذي يوفر الولاية للتذرع بالجزاءات ، كان يعتبر في الأصل أكثر إبداعات الميثاق — أسنان الميثاق ، فإنه لم يطبق بالمرة بمثل هذا الشكل الشامل ، أو بمثل هذه المساندة الكاملة من الدول الأعضاء » .

كيف استطاع مجلس الأمن أن يصوغ هذا الرد ؟

الإجابة عن هذا السؤال الذي يبرز أمامنا تتطلب منا أن نستحضر ممارسات الأمم المتحدة على مدى خمسة وأربعين عاماً ، لنقف على **عاملين رئيسيين يحكمان فعاليتها** . وهذان العاملان هما **أولاً** الموقف الدولي بصفة عامة وشكل العلاقات الدولية وبين الوحدات المؤثرة بخاصة . **وثانياً** الطريقة التي ترغب حكومات الدول الأعضاء في إتباعها للاستفادة من الامكانيات التي تتيحها الأمم المتحدة .

لم يتوافر العامل الأول طوال حقب الحرب الباردةحيث اختلفت

الدولتان العظميان حول كثير من القضايا التي ناقشها مجلس الأمن ، ولم يتحقق من ثم إجماع الأعضاء الخمس الدائمين فيه . وعجز مجلس الأمن منذ صدور قرار « الاتحاد من أجل السلام » في ١٩٥٠/١١/٣ بشأن قضية كوريا ، عن النهوض بمسؤوليته في حفظ السلام والأمن الدوليين في غالب الأحيان . وترتب على عدم توافر العامل الأول اتخاذ بعض الحكومات مواقف سلبية من التعامل مع الأمم التحدة .

لقد جاء الاجتياح العراقي للكويت في وقت يشهد وفاقاً دولياً وتفاهماً بين الدولتين ، في ظل مناخ دولي منفرج تبددت من أجوائه سحب الحرب الباردة السوداء وهبّت فيها رياح تعاون . الأمر الذى وفر لمجلس الأمن إمكانية ممارسة دور جديد . وتزامن ذلك مع توجه الولايات المتحدة الى الاستفادة من الامكانيات التي تتيحها الأمم المتحدة بعد أن نجحت في ترتيب علاقاتها مع الاتحاد السوفييتي على أساس جديد في أعقاب تحولات أوروبا الشرقية . الأمر الذي مكّن مجلس الأمن من ممارسة هذا الدور الجديد بقوة دفع تحالف دولي تقوده الولايات المتحدة . وهكذا عمل مجلس الأمن منذ بداية الأزمة بتماسك واتساق ، وقرر في ١٩٩٠/٨/٢ أنه « يوجد خرق للسلم والأمن الدوليين فيما يتعلق بالغزو العراقي للكويت » ، وأكد أنه يتصرف بموجب المادتين ٣٩ و ٤٠ من الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة الذي يعالج الأعمال المتعلقة بحالات « تهديد السلم والإخلال به ووقوع العدوان » . وقد أصدر الأمين العام بياناً بعد هذا الاجتماع رحب فيه بالانعقاد الفوري للمجلس ، وبالقرار الهام الذي اتخذه بشأن المشكلة القائمة بين العراق والكويت ، وقال إن أحداث الساعات الأخيرة الماضية لها « أوخم العواقب » على الأمم المتحدة والدول الأعضاء ، واستشهد بالمادتين ٣/٢ و ٤/٢ من الميثاق اللتين تقضيان بأن « يفض جميع أعضاء الهيئة منازعاتهم

الدولية بالوسائل السلمية على وجه لا يجعل السلم والأمن والعدل الدوليين عرضة للخطر » و « يمتنع أعضاء الهيئة جميعاً في علاقاتهم الدولية عن التهديد باستخدام القوة واستعمالها ضد سلامة أراضي أية دولة أو استقلالها السياسي ، أو على أي وجه آخر لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة » .

كان واضحاً منذ أن اتخذ مجلس الأمن قراره الأول هذا الذي يحمل رقم ٦٦٠ **أن أعضاءه توافقوا على إدارة الأزمة بمنهج نظام الأمن الجماعي وتدابيره لمواجهة « الغزو » وفقاً لأحكام الفصل السابع** . ويعطي هذا النظام سلطاتٍ فعالةً للمجلس لكفالة حماية « النظام الدولي » القائم ومنع أية محاولة للإخلال به . وقد تابع مجلس الأمن مع تفاقم الأزمة إصدار قرارات أخرى تتعلق بها وبمجريات أحداثها بلغت في مجموعها اثني عشر قراراً في الفترة مابين ٨/٢ و١١/٢٩ من عام ١٩٩٠ . كما اتخذ ثلاثة قرارات بعد الحرب مابين ٣/٢ و٤/٩ من عام ١٩٩١ تتعلق بإنهاء الحرب والتسوية .

ننظر في مضمون القرارات الإثنى عشر الأولى الخاصة بالأزمة ، **فنجد أنها تضمنت بداية إدانة كاملة « للنظام العراقي »** جاءت عبارتها قوية في صياغتها . فقد اعتبرت « الغزو العراقي للكويت خرقاً للسلم والأمن الدوليين » ، وتحدثت عن اغتصاب العراق سلطة الحكومة الشرعية في الكويت ، وعبرّت عن شعور مجلس الأمن بالسخط للانتهاكات الخطيرة من جانب العراق ، ووصفت اجراءات العراق في الكويت بأنها تشكل أعمالاً عدوانية وانتهاكاً صارخاً لالتزاماته الدولية . **كما نجد أن هذه القرارات تضمنت جميع أنواع التدابير التي نص عليها الفصل السابع من الميثاق ، من تدابير وقتيه الى أخرى غير عسكرية الى تهديد بالتدابير العسكرية . فعلى صعيد التدابير الوقتية التي تتحدث عنها المادة ٤٠** وتستهدف منع تفاقم

الموقف طالب القرار ٦٦٠ العراق « بسحب جميع قواته فوراً ودون قيد أو شرط الى المواقع التي كانت فيها يوم ٩٠/٨/١ » . وأكد المجلس هذا الطلب في قراره ٦٦١ يوم ٩٠/٨/٦ وفي قراره ٦٦٢ يوم ٩٠/٨/٩ في أعقاب إعلان بغداد قرارها بضم الكويت . وطالب المجلس العراق أن يبدأ فوراً فى مفاوضات مكثفة مع الكويت لحل خلافاتهما وذلك في قرار ٦٦٠ ، ثم فرض جزاءات على العراق بدءاً من القرار رقم ٦٦١ لعدم امتثاله استهلت بالحظر التجاري والمالي ثم بالحصار البحري والجوي والبري وتم تشكيل لجنة لمباشرة العقوبات المفروضة . وقصد المجلس أن يأتي ذكر مسؤولية المفاوضات تالياً لمسؤولية الانسحاب حتى يكون واضحاً أنه « لا مفاوضات الا بعد الانسحاب العراقي الكامل » . وطالب المجلس أن يلغي إجراءاته بشأن ضم الكويت في القرار ٦٦٢ معتبراً هذا الضم « لاغياً وباطلاً » وداعياً جميع الدول والمنظمات الدولية والوكالات المتخصصة إلى عدم الاعتراف به والامتناع عن اتخاذ إي إجراء أو الإقدام على أية معاملات قد تفسر على أنها اعتراف غير مباشر بالضم . كما طالب المجلس العراق أن يسمح بخروج رعايا الدول الأخرى من الكويت والعراق على الفور ، وذلك في القرار ٦٦٤ ، وأن يسهل هذا الخروج ويسمح للموظفين القنصليين بأن يقابلوهم ، وأن لايتخذ أي اجراء يكون من شأنه تعريض سلامتهم أو أمنهم أو صحتهم للخطر . وقد حَمّل القرار ٦٦٦ الصادر فى ٩٠/٩/١٤ العراق المسؤولية الكاملة في هذا الشأن بموجب القانون الانساني الدولي بما فيه اتفاقية جنيف الرابعة حيثما انطبق ذلك . وأكد المجلس ذلك في القرار ٦٦٧ الصادر في ٩٠/٩/١٦ ، وطالب العراق في القرار ٦٧٤ الصادر في ٩٠/١٠/٢٩ أن يقوم فوراً بالتزاماته تجاه رعايا الدول الأخرى بالكويت والعراق . وكان خامس هذه التدابير الوقتية وآخرها مطالبة المجلس العراق في هذه القرارات أن يلغي أوامره بإغلاق البعثات الدبلوماسية والقنصلية في الكويت ، ويوفر الحماية لها ، ولا يتخذ أي أجراء من شأنه عرقلة عملها

تضمنت قرارات المجلس أيضاً مجموعة تدابير غير عسكرية نصت عليها المادة ٤١ من الميثاق التى أعطت لمجلس الأمن « أن يقرر مايجب اتخاذه من التدابير التي لاتتطلب استخدام القوات المسلحة لتنفيذ قراراته ، وله أن يطلب الى أعضاء الأمم المتحدة تطبيق هذه التدابير » . وأوضحت هذه المادة أنه يجوز أن يكون من بين هذه التدابير « وقف الصلات الاقتصادية والمواصلات الحديدية والبحرية والجوية والبريدية والبرقية واللاسلكية وغيرها من وسائل المواصلات وقفاً جزئياً أو كلياً وقطع العلاقات الدبلوماسية » ، **وقد دعا القرار رقم ٦٦١ الى الحظر التجاري ، والى الحظر المالي ، والى الحظر العسكري ، وشمل الإجراء الواردات من النفط العراقي والكويتي** . ودعا القرار رقم ٦٦٢ الى عدم الإعتراف السياسي . ثم دعا القرار رقم ٦٦٥ الى **الحصار البحري** « لإيقاف جميع عمليات الشحن البحري القادمة والمغادرة .. لضمان التنفيذ الصادر للأحكام المتعلقة بهذا الشأن » . ودعا القرار رقم ٦٦٩ الى **تسجيل التعويضات** بدعوة جميع الدول التي تضررت الى جمع المعلومات المتعلقة بمطالباتها وعهد الى لجنة الجزاءات المنشأة بموجب القرار ٦٦١ بمهمة دراسة طلبات المساعدة . كما دعا القرار **رقم ٦٧٠ الى الحظر الجوي مؤكداً** أن الجزاءات تنطبق على جميع وسائل النقل ، بما فيها الطائرات ، وطالب جميع الدول أن تقوم باحتجاز أية سفن أو طائرات عراقية تدخل موانيها أو مطاراتها . **ودعا القرار رقم ٦٧٤ الى تجميد الأصول العراقية وحماية الأصول الكويتية** .

لم يستبعد مجلس الأمن منذ بداية تعامله مع أزمة الخليج تطبيق المادة ٤٢ من الميثاق التى تجيز له « أن يتخذ بطريق القوات الجوية والبحرية والبرية من الأعمال مايلزم لحفظ السلم والأمن الدوليين أو لإعادتهما الى نصابيهما . ويجوز أن تتناول هذه الأعمال المظاهرات والحصر والعمليات الأخرى بطريق

القوات الجوية أو البحرية أو البرية التابعة لأعضاء الأمم المتحدة » . وقد تضمن قرار المجلس رقم ٦٦٥ مايفيد جواز استخدام القوة في إطار إحكام حلقات الحصار البحري حول العراق ، حيث دعا الدول الأعضاء التي تتعاون مع حكومة الكويت ولها قوات بحرية في المنطقة أن تتخذ من التدابير مايتناسب مع الظروف المحددة في إطار سلطة مجلس الأمن لإيقاف جميع عمليات الشحن البحري ، وأباح هذا القرار للدول المعنية أن تنسق أعمالها لتنفيذه وتستخدم بالشكل المناسب آليات لجنة الأركان العسكرية التابعة للمجلس ، ولكنه لم يعط تخويلاً مطلقاً لاستخدام القوة بدون تمييز حيث حددت فقراته استخدام الحظر للتأكد من حمولات السفن والحد الأدنى لاستخدام القوة اذا مادعت الضرورة لذلك . ثم لم يلبث مجلس الأمن أمام تداعي الأحداث أن أصدر بعد ثلاثة شهور وأربعة أيام **القرار رقم ٦٧٨ في ١٩٩٠/١١/٢٩ واضعاً الأساس السياسي لإمكانية استخدام القوة في** حالة عدم التوصل الى حل سلمى للأزمة قبل ١٩٩١/١/١٥ ، حيث طالب العراق « أن يمتثل امتثالاً تاماً للقرار ٦٦٠ وجميع القرارات اللاحقة ذات الصلة » .. **وأذن للدول الاعضاء المتعاونة مع حكومة الكويت باستخدام جميع الوسائل اللازمة لدعم القرار وجميع القرارات اللاحقة وتنفيذها وإعادة السلام والأمن الدوليين الى نصابهما في المنطقة مالم ينفذ العراق هذه القرارات في ٩١/١/١٥ أو قبله تنفيذاً كاملاً »** .

واضح أن هذه القرارات الاثني عشر **أدخلت العالم تجربة لم يمر بها من قبل هي تجربة انفاذ جميع أحكام الفصل السابع من الميثاق** . وقد أشار الأمين العام الى هذه الحقيقة قائلاً « وإذ تستخدم هذه الأحكام فعلياً الآن ، فإن الأمم المتحدة تَمُرُّ بتجربة غير مسبوقة » . ولم تلبث دول التحالف بقيادة الولايات المتحدة أن شنّت الهجوم على العراق فجر يوم ٩١/١/١٧ طبقاً للقرار ٦٧٨

حين أخفقت المساعي الدبلوماسية .

○ ○ ○

ننظر في القرارات الثلاثة التي أصدرها مجلس الأمن في أعقاب الحرب ، فنجد أن القرار رقم ٦٨٦ الذي صدر يوم ١٩٩١/٣/٢ يؤكد استمرار سريان القرارات الاثني عشر السابقة ويطالب بتنفيذ مضامينها ، كما يطالب بوقف الأعمال العدوانية ، وتعيين قادة عسكريين لترتيب وقف إطلاق النار مع التحالف ، والإفراج عن الأسرى ، فضلاً عن أمور تتعلق بالكويت . **وقد صدر القرار رقم ٦٨٧ يوم ٩١/٤/٣ متضمناً شروط مجلس الأمن التفصيلية على العراق لوقف العمليات القتالية وإنهاء حالة الحرب ويمثل هذا القرار سابقة في تاريخ الأمم المتحدة . وهو يتألف من مقدمة طويلة وثمانية أقسام تتضمن أربعة وثلاثين بنداً** . ويؤكد أول هذه البنود جميع القرارات الثلاثة عشر السابقة عدا مايجري تغييره صراحة تحقيقاً لأهداف هذا القرار بما في ذلك تحقيق وقف رسمي لإطلاق النار . وتتناول الأقسام **الحدود ، والرقابة الدولية ، وتدمير أسلحة العراق غير التقليدية ، وإعادة ممتلكات الكويت والتعويضات والمقاطعة ، والإرهاب ، والقبول** . وينص البندان الأخيران في القسم الأخير على أن المجلس يعلق سريان وقف لإطلاق النار بين العراق والكويت والدول الاعضاء المتعاونة مع الكويت وفقاً للقرار ٦٧٨ بعد تقديم العراق إخطاراً رسمياً الى الأمين العام والى مجلس الأمن بقبوله الأحكام الواردة أعلاه . ويقرر المجلس أن يُبقي المسألة قيد النظر وأن يتخذ ما قد يلزم من خطوات أخرى لتنفيذ هذا القرار وضمان السلم والأمن في المنطقة . **وصدر القرار رقم ٦٨٨ يوم ١٩٩١/٤/٥** بشأن تطورات الأحداث في جنوب العراق وشماله متضمناً بعد « إعادة تأكيد التزام جميع الدول الأعضاء تجاه سيادة العراق وجميع دول المنطقة وسلامتها الإقليمية واستقلالها السياسي » ،

إدانة القمع الذي يتعرض له السكان المدنيون العراقيون ، ومطالبة العراق بوقف هذا القمع فوراً وإقامة حوار مفتوح لكفالة احترام حقوق الانسان والحقوق السياسية لجميع المواطنين العراقيين ، والإصرار على أن يسمح العراق بوصول المنظمات الانسانية الدولية على الفور ، والطلب الى الأمين العام أن يواصل بذل جهوده الإنسانية في العراق ويستخدم جميع الموارد الموجودة تحت تصرفه ، ومناشدة جميع الدول الأعضاء الإسهام ، ومطالبة العراق التعاون ، وإبقاء هذه المسألة قيد النظر .

مجموعة نتائج نستخلصها من هذه المراجعة لممارسة التدخل في أزمة الخليج وفق القرارات الأممية . فهذا التدخل **أولاً** جاء في أعقاب قيام دولة بعمل عسكري ضد دولة أخرى بصورة مفاجئة غير مألوفة وبشكل مسَّ مصالح حيوية لدولة عظمى ودولٍ كبرى . وهذا التدخل **ثانياً** قامت به هذه الدولة العظمى ومعها هذه الدول الكبرى ودول أخرى انضمت الى تحالف دولي بقيادتها . وهذا التدخل **ثالثاً** تم بإسم الشرعية الدولية ممثلة في هيئة الأمم المتحدة إستناداً لقرارات اتخذها مجلس الأمن الدولي . وقد **استند في الوقت نفسه الى « شرعية إقليمية » ممثلة في جامعة الدول العربية**التي اجتمع مجلسها على مستوى وزارة الخارجية في دورة غير عادية يوم ٢/٨/٩٠ وطلب عقد قمة عربية طارئة لمناقشة « العدوان العراقي » **لم تلبث أن انعقدت يوم ١٠/٨/٩٠ وأدانت الاجتياح** . وهذا التدخل **رابعاً** استهدف أهدافاً محددة تتعلق بالنظام الدولي القائم والدولة التي استهدفها العمل العسكري وجيرانها ومصالح الدولة العظمى والدول الكبرى . وهذا التدخل **خامساً** مرَّ بثلاث مراحل شهدت الأولى مساعي الوصول الى حل سلمي وشهدت الثانية نشوب حرب وشهدت الثالثة ترتيبات تسوية مابعد الحرب ومعالجة أوضاع جدّت . وهذا التدخل **سادساً** أدى الى بروز مجموعة مشكلات جديدة في الدولتين والمنطقة بعامة .

○ ○ ○

تقويم

حين ننظر في الآثار المترتبة على ممارسة « مبدأ التدخل » ، **فإن أول مايستوقفنا هو أن هذا التدخل اذا انتهى به الأمر الى اللجوء للقوة العسكرية وتحقيق أهدافه عن طريق الحرب فإن التسوية التي يجري إبرامها تجنح الى أن تكون من نوع « الصلح القرطاجي » الذي شعاره « الويل للمغلوب » . وقد قدم قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٧ مثلاً على هذه الحقيقة ، حيث أصبح « المغلوب » بموجبه تحت « وصاية » فعلية يفتقد الكثير من مقومات السيادة .** ويغري هذا النوع من التسويات **بمزيد من التدخل** نقلت وكالات الأنباء عند كتابة هذه السطور مثلاً عليه هو قرار جديد اتخذه مجلس الأمن يوم **١١/١٠/١٩٩١ يحمل رقم (٧١٥) وصف بأنه « الأعنف والأكثر صراحة في تاريخه** يفرض رقابة محكمة على العراق في مجال التسليح ويقضي بإعطاء فرق تفتيش الأمم المتحدة تفويضاً مفتوحاً وحرية كاملة للتحليق بطائراتهم فوق أي مكان وفي أي وقت فوق أراضي العراق وتفتيش أي مصنع أو منشأة أو معمل أبحاث . وقد وصفته وكالة رويتر بأنه « يصادر العديد من مظاهر سيادة العراق بسبب هزيمته خلال حرب الخليج » . **ويتضمن هذا التدخل إنزال عقوبات شديدة بالنظام المغلوب يكون ضحيتها عامة الناس بنسائهم وأطفالهم وشيوخهم .**

يلفتُ النظر أيضاً **أن هذا التدخل يفعل فعله في الدولتين اللتين بدأت** الأزمة على صعيدهما محلياً ، بحيث يتأثر مستقبلهما لفترة قادمة به ، ويجعلهما خاضعتين له . كما يلفت النظر **أن الدول التي تتولى كبره تصبح هي الأخرى أسيرة لمتطلباته** ، الأمر الذي يفرض عليها **تبعاتٍ ويثقل كاهلها بمسؤوليات ومشكلات ، لانجعل مردوده المادي بلا ثمن باهظ تدفعه .**

إن دراسة التدخل في تجارب « الاستعمار القديم » تؤكد لنا أن تكاليفه بالنسبة للقائمين به كانت دوماً باهظة على الصعيدين المعنوي والمادي ، فضلاً عن معاناة المستهدفين به الشديدة . وقد أشار محمد عوض محمد الى دراسات نورمان إنجل حول هذا الموضوع ، ولنا أن نشير الى دراسة ستافريانوس الشاملة « الصدع العالمي » . وتجمع هذه الدراسات على أن التدخل أوصل في غالب الأحيان الى الاستعمار ، وأن الاستعمار أفسد الحياة الدولية وأوصل الى احتدام التنافس بين القائمين به . وقد أدى التنافس بين الدول الاستعمارية في الغرب الى نشوب حربين « عالميتين » في النصف الأول من هذا القرن العشرين .

لم يكن هذا الأمر غائباً عن كثيرين عند نشوب أزمة الخليج رأيناهم يقفون طويلاً أمام حدوث تطبيق « مبدأ التدخل » وأهدافه ووسائله وضوابطه ؛ ويتحرزون من أن يصل التدخل الى استخدام القوة العسكرية وشن الحرب مركزين على محاولة حل الأزمة بالمساعي السلمية . وقد أثّرت رؤية هؤلاء على سياسات بعض الأطراف إبان الأزمة وكادت تثمر في الحيلولة دون نشوب الحرب . ونذكر كيف برز هذا الاتجاه في أوروبا الغربية التي كانت تعيش في ظل مناخ « مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا » وتوقيع وثيقة باريس في ١٩٩٠/١١/١٩ : فاستحضار مجمل الآراء التي سادت هذا المؤتمر تبين أن الرأي الغالب لدى أغلبية الدول الأوروبية باستثناء بريطانيا كان تفضيل الحل السلمي للأزمة تمشيا مع روح الوفاق الدولي والحوار والتعاون واتفاقاً مع روح الوثيقة التي تم توقيعها . وقد قدمت لنا دراسة د. ثناء فؤاد عبد الله في مجلة السياسة الدولية (أكتوبر ١٩٩١) عرضاً دقيقاً لمواقف بريطانيا وفرنسا والمانيا إبان الأزمة يوضح وجهات النظر حول هذا الأمر ، وكيف حدث التحول الى تغليب الحل العسكري . ويلفت النظر أن كثيراً من

المحللين السياسيين يتساءلون اليوم وهم يتأملون في آثار زلزال الخليج العميقة على كثير من المفاهيم المستقرة بشأن الوحدة الأوروبية « هل يمكن أن تتأخر الوحدة السياسية بفعل ما حدث ؟ » .

واضح أن هناك حواراً محتدماً اليوم في عالمنا على صعيد المشتغلين بالفكر السياسى حول موضوع التدخل والأمن الجماعى العالمي . وقد اختصت الساحة الأمريكية بنصيب وافر من هذا الحوار بحكم الدور الذي قامت به الولايات المتحدة في قيادة القائلين بالتدخل . وكان من بين الأسئلة التي طرحت في أوساط المتحاورين هل هي حرب ضرورية ؟ وماهي الدوافع وراء مضي الولايات المتحدة الى الحرب ؟ وهل أي من هذه الدوافع أو كلها مجتمعة تبرر الحرب ؟ وماذا عن المستقبل على صعيد الأمن الجماعي ؟

إن نفراً ليس بالقليل من أعلام الفكر السياسي الامريكيين قلقون من توغل بلادهم في التدخل . وهم يذكرون بأن تكاليف التدخل لاتنتهي مع النجاح في عملية الحرب بل تستمر ما بقيت الدولة المتدخلة منغمسة في المنطقة . كما يُذكِّرون بأن الحرب مقامرة ، وأنه حتى اذا كانت إصابات المتدخل فيها قليلة فإنه يتعين على المؤرخين ان يتساءلوا عما اذا كانت هذه المقامرة حذرة أم لا ؟ وقد أورد تشارلز ويليام ماينز الذي عبّر عن هذا القلق في مقاله بمجلة السياسة الخارجية (العدد ٨٢ ربيع ١٩٩١) أربعة اسباب دفعت الولايات المتحدة للحرب هي « النفط ، والنظام الدولي ، وأمن الولايات المتحدة وأمن اسرائيل » . وتوصل بعد مناقشته هذه الأسباب واحداً بعد الآخر الى أنه كان يمكن الحفاظ على المصالح الامريكية فيها بدون اللجوء الى الحرب .

رؤية

ما يعنينا اليوم في المقام الأول هو المستقبل الذي يجب أن نُجنِّب عالمنا فيه الكوارث . **وهذا يقتضي أن نحدد مفهوماً دقيقاً للأمن الجماعي لايجعله بديلاً عن الأمن الاقليمي ، ويعهد إليه بأدوار محددة في منع انتشار الأسلحة الفتاكة أو في عمليات حفظ السلام ومساعدة أطراف النزاع على فض الاشتباك دون فقد ماء الوجه ، وفي وضع القواعد الدولية للسلوك .**
ويذكرنا ماينز أن مبدأ الأمن الجماعي اكتسب تأييداً واسع النطاق في الغرب بسبب « الحملة الصليبية » التي قامت لهزيمة هتلر . « فقد بدا أن التجمع معاً في تحالف عالمي هو الطريق الوحيد لهزيمة دولة كبرى معتدية ، وأن مفهوم التهديد للسلام الدولي كمقابل للسلام الإقليمي يفترض حقاً أن دولة كبرى تحاول السيطرة على العالم . وبعد ١٩٤٥ قررت الدول المنتصرة أن ا لمانيا واليابان ينبغي الا تصبحا قادرتين على السعي وراء هذه السيطرة . وتم تنظيم الأمم المتحدة بطريقة لاتعطي أياً منهما الفرصة لذلك ثانية .. ولكن الميثاق لم يقدم حلاً للمشكلة التي ستثور لو أصبحت إحدى الدول المنتصرة نفسها مصدر تهديد للسلام . ففي هذه الحالة ستصاب الأمم المتحدة بالشلل لأن الدولة المعتدية تستطيع استخدام حق النقض ومنع جهود المنظمة لمواجهة عدوانها .

.. ولم يكن واقعياً منذ البداية الاعتقاد بأن الدول الخمس ستنظر لكل أزمة دولية تقع مستقبلاً بطريقة مماثلة ، وأنها ستستطيع فرض السلام في كل ركن من العالم » .

ينبغي على عالمنا إذن أن يبدأ التفكير في الأمن الجماعي من الزاوية الإقليمية أكثر من الزاوية العالمية . فالنظام العالمي الجديد الذي يجري الحديث

عن إقامته لايمكن أن يدوم ــ كما يقول أمين هويدي في أسبوعية الأهرام الانجليزية يوم ١٠/١٠/١٩٩١ ــ « **الا اذا استند الى أنظمة إقليمية قائمة على العدل والتعاون والأمن المتبادل . والاستقرار الإقليمى لايمكن أن يتحقق الا اذا كان المشاركون فيه قادرين على الإجابة عن اسئلة مهمة . ما مفهوم الأمن ؟ وهل العدل يتأسس على الحق أو القوة ؟** وهل هناك توازن مصالح الى جانب توازن القوى ؟ وهل الشرعية مؤسسة في سياق حق تاريخي أو تغييرات بالقوة ؟ وهل يمكن لتقرير المصير أن يطبق حين لاتستطيع الشعوب العيش في أوطانها ؟ لقد بلورت أزمة الكويت العلاقة بين الفوضى الإقليمية والأمن العالمي في وقت كان النظام القديم فيه يتراجع . **ومن هنا فإن مشكلات الأمن يجب مقاربتها بشمولية من خلال الربط بين إنهاء الصراع وحلّه ، وإمدادات السلاح والتحكم فيها ، والترتيبات الإقليمية والضمانات الخارجية** . وإننا حين نواجه هذه الاسئلة والمشكلات بنزاهة **ونصب أعيننا العدل** سنكون متأكدين من أن خطواتنا ستصل بنا الى نظام دولي جديد مستتب » .

لابد أن يكون واضحاً لنا ــ كما يقول ماينز ــ « أن الأمم المتحدة بغض النظر عن نتيجة أزمة الخليج لن تصبح في النهاية رجل شرطة . ومن ثم فإن ماينبغي التماسه في المدى البعيد هو الحل على المستوى الإقليمي » . وينبغي أن يدرك الذين تغويهم غطرسة القوة أن التدخل المباشر له أعباءه الباهظة . ويتوقع ماينز أن تكون الولايات المتحدة كدولة عظمى والدول الكبرى الأخرى في المستقبل « واعية بالأعباء الباهظة للتدخل من دمٍ يسيل ونقود تُبَدَّد في المحل الأول . ويجب من ثم أن يقوم النظام العالمي على شيء أكبر من اكتاف القدرة العسكرية الأمريكية . ولايمكن لأولئك الذين يراهنون على غير ذلك أن يتوقعوا أن تجهد الولايات المتحدة نفسها بالدرجة عينها في أزمة

قادمة » . فالواقع كما يقول جون تشيْمان « أن كثيراً من المنازعات الإقليمية هي ببساطة منازعات لاتهُمّ الولايات المتحدة . ومن المشكوك فيه ان تثبت أزمة الخليج أياً كانت نتيجتها أنها نموذج لرد الفعل الدولي إزاء المنازعات الاقليمية في التسعينيات . ذلك أن الاهمية السياسية الخاصة لتوازن القوى في الشرق الأوسط ، ومسألة النفط ، وطبيعة أعمال القيادة العراقية ، كانت في الحقيقة توليفة خاصة من السمات أتاحت القيام بعمل سريع لا لبس فيه من قِبل الولايات المتحدة ودول أخرى » . ويرى تشيمان في دراسته « سياسات العالم الثالث والأمن في التسعينيات » بمجلة » واشنطن الفصلية شتاء ١٩٩١ **أن تحديد إتجاه سياسات العالم الثالث وأمنه « سيتم على المستوى المحلي بصورة أكثر من أي وقت مضى » في ظل البيئة الدولية التي تسود اليوم** . والاحتمال جَدٌّ كبير في أن تتضاعف القوات المحلية وأن تنوّع القوى المحلية طموحاتها الاقليمية بحيث يصبح من الصعب على الدول الكبرى أن تنغمس بسهولة مرة ثانية في مناطق انسحبت منها ، وتكون تأثيرات التدخل السياسي والاقتصادي والعسكري غير قابلة للحساب . ومن هنا انطلقت أصوات غربية تطالب بالإسراع في تطبيق أحكام الميثاق التى لم تطبق أبداً ، **والخاصة بإنشاء قوة للأمم المتحدة جاهزة للاستخدام دائماً** .

إن النظر الى الأمن الجماعي من الزاوية الإقليمية لايغفل عن وجود صراعات لا يمكن حلها على المستوى الإقليمي وحده ، لأنها تتضمن قضايا تتجاوز الإقليم ولها بعدها الدولي المؤثر . ومن أمثلتها تلك الصراعات التي نشبت بفعل الاستعمار الاستيطاني وتهجير مواطنين دول الى أوطان شعوب استهدفها هذا الاستعمار ؛ وقد تحدثماينز بخاصة عن « القضية العربية الاسرائيلية » و« النزاع العنصري في جنوب افريقيا » ، « حيث العرب والأفارقة يعتقدون أن العالم الخارجي فرض من خلال الهجرة مشكلة جديدة

على منطقيتهم . الأمر الذى يدعوهم الى عدام السماح لاسرائيل وجنوب إفريقيا بالانضمام للمنظمات الاقليمية ذات الصلة » . ويلاحظ أمين هويدي أن مما يدعو الى التشاؤم التطبيق الإنتقائي للشرعية الدولية في مثل هذه الأحوال ، وهو ما اشتهر إبان أزمة الخليج « باعتماد المعيارين » ، فالطريقة التي فرضت فيها الشرعية الدولية في أزمة الخليج تختلف تماماً عن الطريقة التي تتبع في الصراع العربي الاسرائيلي في مواجهة الرفض الاسرائيلي لتطبيق أحكام هذه الشرعية . **ومن هنا تبرز الحاجة الى اعتماد نهج جديد في معالجة مثل هذه الصراعات يتخلص من التناقضات التي يحفل بها النهج الذي سارت عليه الدول الكبرى الغربية فترة طويلة** . ومن الأمثلة على هذه التناقضات تلك **الحقيقة القاسية** ـــ على حدّ وصف ماينز ـــ **التي كشفت عنها الأزمة وهي أنه يستحيل أن يضم الشرق الأوسط دولة نووية واحدة فقط . ونظراً لأن اسرائيل لديها أسلحة نووية** ، فإن المسألة هي مسألة وقت فحسب قبل أن تستحدث دولة عربية أو أخرى أسلحة مماثلة . ومن هنا فإن خطوات الحد من التسلح في المنطقة ينبغي ربطها بإحياء عملية السلام التي ترمي الى وضع حل نهائي للنزاع بين الفلسطينيين والاسرائيليين . فهذا النزاع ـــ ولايزال الحديث لماينز ـــ هو الذي يحدّ في نهاية المطاف من قدرة الولايات المتحدة على « مساعدة دول الخليج للدفاع عن نفسها » ، لأن واشنطن تخشى دوماً من أن تضرّ تقوية دول الخليج حتى وإن كانت مستصوبة من زاوية توازن القوى الاقليمي بأمن اسرائيل » . وقد ارتفعت أصوات كثيرة في الولايات المتحدة قائلة « **ان مشكلة الانتشار النووي لايمكن حلها بسياسة الهجوم المنتظم على الدول التي تكون على وشك تطوير قدراتها النووية** » . ويجب التماس الحل بإنهاء الصراعات والاتفاق على نزع السلاح الشامل . وتجدد الاشارة هنا الى أن سياسة الهجوم الامريكية هذه مثلت خرقاً مستمراً للقانون الدولي وانتهاكاً لسيادات دول أخرى وسمحت لنفسها بالتدخل بغير حق .

السؤال الذي يُلح بشأن هذه الصراعات في أوساط القوى الغربية التي أوجدت الاستعمار الاستيطاني بعد أن زادت تكاليفه عليها هو أليست هناك وسائل أخرى تُهدىء من « تخوفات »!! المستعمرين المستوطنين من « جيرانهم » ، وتقنعهم بأن يتخلوا عن سياسة إخضاع هؤلاء الجيران بالقوة التي جرتهم الى الوقوع في أسر سباق تسلّح لاينتهي ؟ ويجيب البعض بالايجاب ويقترحون ابرام حلف رسمي للأمن ، كما حدث في أوروبا إبان الحرب الباردة حين طمأن إبرام حلف رسمي للأمن بين الولايات المتحدة وشركائها الأوربيين هؤلاء الشركاء . ويقول ماينز « كانت العقبة التي حالت دون ترتيب مماثل بين الولايات المتحدة واسرائيل هي ،عدم استعداد اسرائيل للرد على الاسئلة الصعبة الكثيرة التي كان عليها أن تجيب عنها لو قبلت هذه الضمانة الامريكية . ومن هذه الاسئلة أي حدود لاسرائيل ستكون الولايات المتحدة ملزمة بالدفاع عنها ؟ هل ستكون اسرائيل مستعدة للإلتزام بأحكام قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ على الأراضي التي احتلتها بصيغة الأرض مقابل السلام ؟ هل ستقبل اسرائيل عدم القيام بأعمال تنتهك القانون الدولي وتلحق الضرر بمصالح الدولة التي تقدم الحماية مثل إقامة المستوطنات ؟ » **ويرى ماينز أن هناك عدة أسباب ستجعل الاسرائيليين يراجعون أنفسهم ويميلون لهذا الأمر ، منها مشكلات امريكا المالية وانتشار التقنية العسكرية الراقية في المنطقة** . وهو يلاحظ أن الولايات المتحدة تحولت بفعل أزمة **الخليج من ممول لاسرائيل الى حام لها** ، « ومن ثم فإن العلاقة الامريكية الاسرائيلية لن تعود أبداً لما كانت عليه » . كما أنه يدعو في حال رفض اسرائيل الالتزام بانهاء الصراع أن توقف الولايات المتحدة تمويل تكاليف الإستيطان وتعلن استعدادها لتأييد عقد مؤتمر دولي لبحث مشروعية أعمال اسرائيل وممارساتها في الضفة والقطاع حسب إتفاقية جنيف الرابعة .

إن هذا الحديث الذي يتردد في الغرب عن « تخوفات » الكيانات الاستعمارية الاستيطانية من « جيرانهم » وإنعطافها من ثم لإخضاع هؤلاء الجيران بالقوة ، بما تعمد اليه هذه الكيانات من إعطاء نفسها « حق التدخل » في أراضي الغير ومياههم الإقليمية وأجوائهم براً وبحراً وجواً وتعمل أحزمة أمنية فيها وتقدم على القيام بما تسميه خدمات وقائية ، في انتهاكات للقانون الدولي لا أول لها ولا آخر. وواضح أن مجرد الانسياق الى القبول بهذا المنطق يفتح الباب على مصراعيه للتدخل والاستعمار والبغي بغير حق والطغيان .

كما أن هذا الحديث الذي يتردد اليوم في أوساط أمريكية حول بؤر التوتر الناجمة عن الاستعمار الاستيطاني وضرورة اتباع نهج جديد للوصول الى إنهاء الصراعات المحتدة فيها ، يدعونا الى استحضار تجارب الاستعمار الاستيطاني لتعمق فهم دلالاته . **وأهم دلالاته هو حلول تلك اللحظة التاريخية التي يحدث فيها اختلال في التطابق بين مصالح الكيان الاستعماري الاستيطاني ومصالح القوى الكبرى التي أقامته ومكنّت له . وإن حلولها يهيىء مناخاً صالحاً لمحاصرة المستعمر المستوطن وإرغامه على مواجهة حقائق دأب على التهرب من مواجهتها ، وردعه عن اللعب بالنار حفاظاً على السلم والأمن العالميين** ، توطئة الى الوصول به للتسليم بحقوق الشعب صاحب الوطن والخضوع لمنطق التحرير . ولابديل أمامنا عن أن يشهد عالمنا في عصرنا إنتهاء الاستعمار الاستيطاني في آخر قلعتين له في فلسطين وجنوب أفريقيا كما سقطت قلاعة الأخرى من قبل ؛ كي تنتهي المشكلات التي تحدث بفعْلهما وتنطوي هذه الصفحة .

وبعد .. فإن لنا في ضوء هذه القراءة للقرارات الاممية بشأن اجتياح العراق للكويت ولما تضمنته ممارسة « التدخل » باسم الشرعية الدولية على أرض الواقع ، أن نقول في الاجابة عن السؤال الذي طرحه علينا راعي

أكاديميتنا ، إن من المتوقع أن تشهد المرحلة الجديدة التي دخلتها الأمم المتحدة مؤخراً توسعاً في ممارسة « مبدأ التدخل » باسم الشرعية الدولية ومن خلال قرارات مجلس الأمن . **وإن هناك مبررات قوية لقلق مشروع من احتمال حدوث شطط في تطبيق هذا المبدأ يمكن أن يؤدي الى إعطاء « شرعية » جديدة لاستعمار يتخذ صورة طغيان تتجاوز فيه الحدود ويحدث فيه « البغي بغير الحق » في ظل إغواء غطرسة القوة . ومن هنا فالحاجة ملحة الى وضع ضوابط صارمة لاستخدام هذا المبدأ . والحاجة ملحة أيضا الى ترشيد الشرعية الدولية. ولعل من أهم هذه الضوابط التماس حلول للصراعات على المستوى الإقليمي بداية ، وهذا يتطلب تقوية الأنظمة الإقليمية ومحاصرة الكيانات الاستعمارية الاستيطانية كي لاتعطل عملها .**

إن لنا أن نثق بأن جميع الشعوب في عصر الاتصال وبعد زلزال الخليج وقد خبرت معنى بروز شبح الفناء بأسحة. الدمار الشامل راغبة في استتباب سلام عادل وفي تعاون متكافىء على مافيه خيرها ، ومدركة أن الاستعمار بكل صوره شرٌ وظلمٌ لا يثمر إلا المعاناة والخراب فلا يجوز أن يكتسب شرعية ولابد أن يهزم أمام التحرير . وهذا يتطلب الاستمرار في الدعوة الى أن تحكم الاخلاقُ السياسية والأعمال ، حتى تبلغ مسامع من يسلكون سلوك « قارون الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم » . وإن لأهل العلم ألا يملّوا من القول لكل واحد من هؤلاء « وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لايحب المفسدين » .

فهرس الكتاب

المحتويات ــــــــــــ صفحة

■ أسبوعيات حرب الخليج

كتب للمؤلف

١ –	السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر	١٩٦٧	
٢ –	أحاديث عن تاريخ ليبيا خلال القرنين ١٨ و ١٩	١٩٦٨	نفذ
٣ –	من المقاومة إلى الثورة الشعبية في فلسطين	١٩٦٩	نفذ
٤ –	ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي	١٩٧٠	نفذ
٥ –	عبد الحميد في التاريخ ـــ نشر فصولا	١٩٧١	
٦ –	هذه الليلة الطويلة (مسرحية سياسية)	١٩٧١	نفذ
٧ –	عبد الناصر والثورة العربية	١٩٧٢	نفذ
٨ –	ماذا بعد حرب رمضان ؟	١٩٧٤	
٩ –	وثائق تاريخ ليبيا ـــ الوثائق العثمانية	١٩٧٦	نفذ
١٠ –	بدايات اليقظة العربية الحديثة في ليبيا ـــ وثائق	١٩٧٦	نفذ
١١ –	الحوار العربي الأوروبي ـــ وجهة نظر عربية ووثائق	١٩٧٦	
١٢ –	العرب وتحديات المستقبل	١٩٧٦	
١٣ –	الفلسطينيون في الوطن العربي ـــ مشاركة فى الاشراف والتحرير	١٩٧٨	نفذ
١٤ –	نظرات فى تاريخ فلسطين ـــ نشر فصولا	١٩٧٨	نفذ
١٥ –	رحلات ولحظات ممتدة	١٩٧٩	
١٦ –	العرب في مواجهة عالم متغير	١٩٧٩	
١٧ –	منظمة التحرير الفلسطينية والحوار العربي الأوروبي	١٩٨٠	نفذ
١٨ –	الصراع العربي الاسرائيلي ومسيرة الشعب الفلسطيني في الثمانينات	١٩٨٠	نفذ
١٩ –	عروبة واسلام ومعاصرة	١٩٨١	
٢٠ –	رؤى مستقبلية عربية للثمانينات	١٩٨٣	
٢١ –	نحو استراتيجية عربية للمواجهة	١٩٨٤	
٢٢ –	صبرا وشاتيلا ـــ الجريمة الاسرائيلية والمسئولية الأمريكية	١٩٨٤	
٢٣ –	فكر وفعل	١٩٨٥	
٢٤ –	حوار ومطارحات	١٩٨٥	
٢٥ –	وثائق الحوار العربي الأوروبي	١٩٨٦	
٢٦ –	بداية الصحوة العربية في مواجهة الغزوة الصهيونية	١٩٨٦	
٢٧ –	عن شعب فلسطين العربي	١٩٨٦	
٢٨ –	نظرات في قضايا معاصرة	١٩٨٧	
٢٩ –	مستقبل الصراع العربي الصهيوني	١٩٨٨	
٣٠ –	الانتفاضة الفلسطينية والصحوة العربية	١٩٨٨	
٣١ –	الانتفاضة الفلسطينية والتحرير	١٩٨٩	
٣٢ –	مدرسة عربية في علم السياسة	١٩٨٩	
٣٣ –	الانتفاضة الفلسطينية وإدارة الصراع	١٩٩٠	
٣٤ –	وحدة التنوع وحضارة عربية اسلامية في عالم مترابط	١٩٩٠	

International
انترناشيونال برس Press
٥ شارع جمال الشاهد – مدينة الصحفيين ت ٣٤٧٤٢٥٩



« .. هو الكتاب الرابع الذي أصدره عن الانتفاضة الفلسطينية متضمناً أحاديثي الأسبوعية وبحوثي التي كتبتها عام ١٩٩٠ وصيف عام ١٩٩١ ، وعا[illegible]ث الجارية وما طرحته من قضايا [illegible] الكبير .

سيذكر التار[illegible]راً بالأزمة التي نشبت يوم ١٩٩٠/٨/٢ وتفاقمت على مدى خمسة شهور ونصف ثم تفجرت حرباً يوم ١٩٩١/١/١٧ استمرت ستة أسابيع . ولقد استمرت الانتفاضة في هذه الفترة وسط ظروف بالغة الصعوبة والتعقيد وأكملت يوم ١٩٩٠/١٢/٩ عامها الثالث .

كان طبيعياً أن أولي الواقعة التي وقعت في الخليج إثر اجتياح الجيش العراقي للكويت عناية كبرى ، فقد بدا لي الحدث منذ أن سمعت الخبر حدثاً جللاً له ما بعده من تداعيات ومضاعفات . وهكذا تابعته ونصب عيني في الوقت نفسه الانتفاضة وروح الانتفاض في الأمة ، والتفاعل الحادث بين ما كان يجري في الخليج وما كان يجري في فلسطين المحتلة . فهذا الكتاب اذن يتناول بالمعالجة « الانتفاضة وزلزال الخليج » .

أراجع ما كتبت ، فأجد أنني اعتمدت منهجاً محدداً حين باشرت حديثي الأسبوعي عن الأزمة التي نشبت ، حاولت من خلاله الإجابة عن خمسة أسئلة هي : « ماذا حدث ؟ وما هي مضاعفات ماحدث وتداعياه ؟ وما هو الموقف منه ؟ وماذا ينبغي أن نعمل درءاً لمفاسد وجلباً لمنافع ؟ » .

رفعتُ حين بدأت الأزمة شعاراً بشأن الحديث عنها حرصت على الالتزام به هو مضمون الآية الكريمة « لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس » . وقد جعلت نصب عيني وأنا أكتب أحاديثي الدعوة إلى احترام حقوق الانسان ومقاومة انتهاكها ، والدعوة الى تجنب الحرب وانقاذ العالم من ويلاتها ، والدعوة الى الحفاظ على حدّ أدنى من وحدة الأمة واستحضار الانتماء الواحد لها ، والدعوة الى مواجهة الطغيان من أي كان والتحذير من أغواء غطرسة القوة . وحرصت على أن تكون معالجتي لذلك كله منطلقة من النظر الى الأمة بمختلف أطرافها كوحدة واحدة » .

دار المستقبل العربي

٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت ٢٩٠٤٧٢٧ القاهـــــرة